FUTURE GRACE by John Piper

النعمة المستقبلية

القوة المطهرة للحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية

جون بايبر

چون بايبر

النعمة المستقبلية

القوة المطهرة للحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية

Originally published in English under the title:
Future Grace by **John Piper**
Copyright © 1995 by Desiring God Foundation
Published by Multnomah Books
an imprint of The Crown Publishing Group
a division of Random House, Inc.
12265 Oracle Boulevard, Suite 200
Colorado Springs, Colorado 80921 USA
International rights contracted through:
GLINT, P.O. Box 4060, Ontario, California 91761-1003 USA
This translation is published by arrangement with
Multnomah Books, an imprint of The Crown Publishing Group,
a division of Random House, Inc.
Arabic edition © 2013 Eagles Publications
#4 Mohammed Hassan Al-Gamal St., off of Abbas El-Akkad St.
Nasr City, Cairo, Egypt

النعمة المستقبلية

© الناشر: مطبوعات إيجلز
ص . ب ٨٢١٦ مدينة نصر
١١٣٧١ القاهرة - مصر
طبعة أولى ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٨٢١
الترقيم الدولي: 978-977-387-081-2
الترجمة: القس/ يوسف سمير
التحرير والمراجعة، والإعداد الفني: إيجلز جروب
طبع في مصر: مطابع آلوكس- المنطقة الحرة

جميع حقوق الطبع في اللغة العربية محفوظة للناشر وحده، ولا يجوز استخدام أو اقتباس أو طبع أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال بدون إذنًا مسبق من الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

إهداء

إلى روث يولاليا باير

١٩١٨- ١٩٧٤

المحتويات

تقديم ٩

المقدمة رقم (١)

لماذا كُتب هذا الكتاب؟ وكيف؟ ١٣

المقدمة رقم (٢)

إلى اللاهوتيين ٢٥

الجزء الأول: عدو الإيمان في النعمة المستقبلية

الفصل الأول

فلسفة المديون: هل ينبغي أن نحاول تسديد الدين لله؟ ٣٥

الفصل الثاني

عندما لا يعمل الامتنان بالشكل الصحيح ٤٥

تطبيقات القوة المطهرة

الفصل الثالث

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة القلق ٥٥

الجزء الثاني: النعمة المجانية والمستقبلية

الفصل الرابع

الحياة المتبقية هي النعمة المستقبلية ٦٧

الفصل الخامس

أكثر أعمال الله تحررًا ٧٧

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل السادس
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الكبرياء ٨٧

الجزء الثالث: المكانة الجوهرية للنعمة الماضية

الفصل السابع
النظر إلى الماضي من أجل المستقبل ١٠١

الفصل الثامن
منطق السماء المتين ١١١

الفصل التاسع
أربعة أعمدة لوعد ثمين ١١٩

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل العاشر
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مقابل الخجل في غير محله ١٢٩

الجزء الرابع: نافذة على أعمال الإيمان

الفصل الحادي عشر
علاقة حب مع شريعة الله ١٤١

الفصل الثاني عشر
أضع شريعتي في داخلهم ١٥٣

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل الثالث عشر
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة عدم الصبر ١٦٥

الجزء الخامس: طبيعة الإنسان في النعمة المستقبلية

الفصل الرابع عشر
ما يحفظ مجد سيادة نعمة الله ١٧٩

الفصل الخامس عشر
تذوق الجمال الروحي ١٩١

الفصل السادس عشر
الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح ٢٠٣

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل السابع عشر
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الطمع ٢١١

الجزء السادس: النعمة المستقبلية المشروطة غير المستحقة

الفصل الثامن عشر
كيف نثق في وعود مشروطة ٢٢٣

الفصل التاسع عشر
كم شرطًا هناك؟ ٢٣١

الفصل العشرون
ماذا يستطيع الإيمان وحده أن يفعل ٢٤١

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل الحادي والعشرون
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة المرارة ٢٥١

الجزء السابع: قوة التقديس في الإيمان بالنعمة المستقبلية

الفصل الثاني والعشرون
صناعة الحب في مصنع الرغبات ٢٦٣

الفصل الثالث والعشرون
محبة الخدمة أكثر من الحياة ٢٧٥

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل الرابع والعشرون
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الاكتئاب ٢٨٧

الجزء الثامن: الجهاد ضد عدم الإيمان بالنعمة المستقبلية
الفصل الخامس والعشرون
الصراع سهل كسهولة إفلات حبة البندق من اليد ٢٩٩

الفصل السادس والعشرون
الخطية أسوأ من الشيطان ٣٠٩

تطبيقات القوة المطهرة
الفصل السابع والعشرون
الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الشهوة ٣١٧

الجزء التاسع: أبدية النعمة المستقبلية
الفصل الثامن والعشرون
النعمة المستقبلية للألم ٣٢٩

الفصل التاسع والعشرون
النعمة المستقبلية للموت ٣٤١

الفصل الثلاثون
ميلاد جديد للخليقة ٣٥٧

الجزء العاشر: الاشتياق إلى الله والحياة بالإيمان
الفصل الحادي والثلاثون
ما أدين به إلى «چوناثان إدواردز» ٣٧٣

الحواشي ٣٨٧

تقديم

أهدي هذا الكتاب إلى والدتي التي قُتلت في حادث أتوبيس عام ١٩٧٤. كنت آنذاك قد بلغت الثامنة والعشرين من عمري. وخلال السنوات العشرة الأخيرة من حياتها كانت تراسلني بمعدل مرة أسبوعيًا، في البداية في إلينوي خلال دراستي في الجامعة، ثم في كاليفورنيا خلال دراستي في كلية اللاهوت، ثم في ألمانيا خلال دراستي العليا، ثم في مينيسوتا حيث بدأت خدمتي في التدريس. كان حبها لا يتوقف. وكان من النادر أن ترسل خطابًا دون اقتباس من الكتاب المقدس. كانت قد شبعتني بآيات الكتاب كصبي، وقامت بنفس المهمة معي وأنا في طور الرجولة. ومن بين كل النصوص الكتابية التي قامت باقتباسها، تكرر أحدها كثيرًا. وأظن أنه النص المفضل لديها. أو على الأقل كان هذا النص هو الذي رأت أنني في حاجة دائمة له. هذا النص هو أمثال ٣: ٥، ٦:

«توكل على الرب بكل قلبك،
وعلى فهمك لا تعتمد.
في كل طرقك اعرفه، وهو يُقوِّم سبلك»

وعلى مر السنوات رأيت أن هذا النص إنما هو دعوة للحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية. الدعوة إلى الحياة بالإيمان موجودة في عبارة: «توكل على الرب بكل قلبك». أمّا الإشارة إلى النعمة المستقبلية فموجودة في عبارة: «هو يُقوِّم سبلك». كانت أمي تنصحني شهرًا بعد شهر بأن أحيا بالإيمان في النعمة المستقبلية. لقد كانت تدعوني للثقة في الرب، وبيَّنت لي أن أساس ثقتي هو ما وعد الله بأن يفعله لي في المستقبل: "يا بني، سوف يُقوِّم الرب سبلك. ثق به! ثق به!" هذا الكتاب هو محاولة مني للاحتفاء بهذا الإرث من النصائح الذي تركته لي والدتي.

لقد علمتني أن أعيش حياتي ما بين شطرتي ترنيمة: النعمة العجيبة Amazing Grace. تقول الشطرة الأولى: "هذه النعمة حفظتني إلى الآن". وتقول الشطرة الثانية

"هذه النعمة تقودني إلى حيث بيتي الأبدي". وقبل أن أستطيع شرح تلك العبارتين تعلمت أن الإيمان بالشطرة الأولى يقوي الإيمان بالشطرة الثانية؛ وأن الإيمان بمحتوى الشطرة الثانية يمكننا من إطاعة يسوع إلى المنتهى. ذلك ما يدور حوله هذا الكتاب.

الكتاب أيضًا هو برهان على النعمة التي انسكبت عليّ من خلال خدام وشيوخ وشعب كنيسة بيت لحم المعمدانية في مينيابوليس. لمدة خمسة عشر عامًا أجزلت لي هذه الكنيسة المحبة والاهتمام واللطف والإلهام. فهم لم يبخلوا عليّ بأوقات الخلوة من أجل التأمل والصلاة والكتابة. وقد قاموا بتنقيح أفكاري بينما كنت أقدِّم لهم هذه المادة في أمسيات الأربعاء خلال العام الدراسي ١٩٩٤- ١٩٩٥. فأنا أحبهم وأفرح بمتعة الحياة معًا بالإيمان في النعمة المستقبلية.

لقد حمل «چون بلوم»، مساعدي ومدير خدمة «الاشتياق إلى الله Desiring God»، عني عبئًا ثقيلاً، وأراح ذهني من أعباء ثقل تفاصيل لانهائية. ولكن أكثر ما أقدره له هو حماسته للحق الذي نخدمه معًا.. هذا الحق هو أن الله يتمجد أكثر فيما بيننا عندما يكون هو مصدر اكتفاءنا.

كذلك كانت رؤية «دانيال فولر» عن الحياة المسيحية كحياة «طاعة للإيمان» بمثابة الحديقة التي نمت فيها بذار أفكاري وتأملاتي. فقد تركت ثلاثة عقود من الحوار حول موضوع هذا الكتاب أثرها العميق في نفسي. وإذا حاولت إظهار ذلك من خلال الحواشي، فلن تجد صفحة بلا حواشي. وقد مَثَّل كتابه العظيم «وحدة الكتاب المقدس» (The Unity of the Bible -Zondervan, 1992) الخلفية التفسيرية لغالبية ما أكتبه.

كان «توم شراينر»، أستاذ العهد الجديد في كلية لاهوت بيت إيل، شريكًا فوق العادة في هذا المشروع. فهو لم يساعدني فقط في تدريس المادة، لكنه قام بقراءتها كلها وأنقذني من الكثير من الأخطاء من خلال نظرته التفسيرية المدققة.

كما كانت «كارول شتينباك» مرة أخرى ذات عون عظيم لي (أظن أننا اشتركنا معًا في خمسة كتب حتى الآن)، تحملت طواعية بمهمة أن تجعل الكتاب أكثر يسرًا في دراسته من خلال فهرس الموضوعات. وأثناء قيامها بذلك التقطت عيناها أخطائي في الكتابة في الوقت المناسب.

لقد عمل «ستيف هاليداي» المحرر اللغوي والمحامي والمشجع والصديق على إخراج الكتاب في صورة أفضل. وأدين له بالكثير في مقابل عشر سنوات من الشراكة. لقد أعطاه الله موهبة الفهم، فهو عندما يقرأ يلتقط على الفور ما أريد قوله.

وأخيرًا، خلال قرابة السبعة والعشرين عامًا وقفت «نويل» بجانبي في سني

الحياة الزوجية المليئة بالتحديات، وأنا أعتمد عليها أكثر من أي شخص آخر. وربما أستطيع توجيه شكري لها من خلال السطور القادمة التي كتبتها بمناسبة عيد الأم في عام ١٩٩٥:

اعتدت أن أحلم بتقدمي في الأيام
وأسند رأسي طويلاً على قلبك الكبير
لأحتضنه في صدري
كما تحتضن أشجار الغابة الكوخ الصغير
والآن بعد مرور السنين
وصراع الأيام قد أثخنني بالجراح
لازالت أفكاري تعود إلى الحلم القديم
حيث يدي فوق يدك ورأسي في حضنك قد استراح

المقدمة رقم (١)

إن الله يتمجد أكثر فينا
عندما يكون هو مصدر اكتفائنا وشبعنا.

إننا نمجِّد الله أكثر
عندما ننال منه نعمة أكثر.
فإذا امتلكت إيمانًا كبيرًا، بحيث أصارع مع الله متشبثًا بكلمته..
فإنني أكرم ربي وملكي كأعظم ما يكون الإكرام.

«تشارلز سبرجن»

لماذا كُتب هذا الكتاب؟ وكيف؟

إن الهدف المنشود لهذا الكتاب هو أن يتعظم الله فوق كل الأشياء. كما أستطيع القول أن الهدف النهائي يتمثل في مدح مجد نعمة الله. وقصدت من هذين الهدفين أن أقول إن الشعور بعظمة الله هو أساس تسبيحه والمدح. فإنك لا تستطيع أن تمدح ما لا تقدره، أو بمعنى آخر، إن الله يتمجد أكثر فينا عندما يكون هو مصدر اكتفائنا وشبعنا.

من ناحية أخرى يهدف هذا الكتاب إلى أن يعتق القلوب البشرية من العبودية للذات الخطية الزائلة. فالخطية هي ما تفعله عندما يكون قلبك غير مكتفٍ بالله. فليس هناك مَنْ يخطئ من منطلق التزامه بالخطية. فنحن نخطئ لأن الخطية تعدنا بالسعادة. هذا الوعد يظل يستعبدنا إلى أن نؤمن أننا ينبغي أن نشتاق إلى الله

أكثر من الحياة ذاتها (مز ٦٣: ٣). معنى ذلك أن قوة وعد الخطية تكسرها قوة الوعد الإلهي. إن كل ما يعدنا الله به في يسوع يقف في مقابله ما تعدنا الخطية به بدون يسوع. هذه الصورة العظيمة لمجد الله هي ما أطلق عليه «النعمة المستقبلية». والاكتفاء بذلك هو ما أسميه الإيمان. لذا فالحياة التي أكتب عنها في هذا الكتاب تُدعى «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية».

أزمة الحياة الروحية

يتحدث «أليستر ماكجراث»، وهو أستاذ اللاهوت في جامعة أكسفورد ودارس متعمق للمذهب الإنجيلي في أمريكا، عن أزمة في الحياة الروحية لأصحاب المذهب الإنجيلي في أمريكا.[١] يقول في حديثه إن المذهب الإنجيلي، خاصة في أمريكا، يقود إلى ضعف الكنيسة:

> "لقد قام الإنجيليون بعمل رائع في الكرازة للناس واقتيادهم إلى الخلاص بمعرفة يسوع المسيح مخلصًا وربًا، لكنهم يفشلون في أن يقدموا للمؤمنين منهجًا يعيشون به ليستمروا وينموا في العلاقة الروحية معه... هناك الكثيرون يبدأون حياة الإيمان بحماسة كبيرة، لكنهم بعد وقت قصير يكتشفون الصعوبات التي تواجههم؛ فتبدأ آمالهم العريضة ونواياهم الطيبة في الانزواء. فالروح قد يكون نشيطًا، أمّا الجسد فضعيف. فالناس يحتاجون إلى ما يدعم مواصلة سيرهم حتى عندما تنطفئ شعلة الحماس."[٢]

إن هدفي وصلاتي أن يقدِّم هذا الكتاب هذا النوع من الدعم: يقدم «منهجًا للحياة يساعد المؤمنين على المواصلة والنمو». لقد خرج هذا الكتاب من واقع أتون الخدمة الرعوية حيث تجعل نيران الألم الممزوجة بالحماس كل فرح أعمق وكل حمل أخف. وهو ثمرة للتأمل غير المنقطع في كلمة الله حول ما يطلق عليه دافيد بولينسون: "الواقع الوجودي والحياتي للخبرة الإنسانية في منعطفات الحياة."[٣]

التفكير الخاطئ يتبعه منهج خاطئ للحياة

لقد نمت فكرة هذا الكتاب من خلال قناعتي بأن وراء كل حياة خاطئة يكمن

تفكير خاطئ. فعلى سبيل المثال يدعونا يسوع إلى حياة الطهارة الكاملة. لكني أرى أن الكثير من المسيحيين لا يملكون تفكيرًا منهجيًا واضحًا بشأن وصايا يسوع وتحذيراته ووعوده. فعندما يقول إن علينا أن نقلع أعيننا التي تشتهي، فهو يتبع ذلك بتحذير: «لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم» (مت ٥: ٢٩). إن التهديد بالذهاب إلى جهنم بسبب الشهوة ببساطة ليس الأسلوب الذين يتكلم أو يفكر به المؤمنون المعاصرون. ويرجع ذلك ليس لأن مثل هذه التحذيرات غير موجودة في الكتاب المقدس، وإنما لأننا لا نعرف كيف نجعلها تتوافق مع الأفكار الأخرى عن النعمة والإيمان وضمان الحياة الأبدية. فنحن نفرِّغ كلمات يسوع من قوتها، لأن مفاهيمنا مشوهة. إن حياتنا المسيحية عرجاء بسبب أفكارنا شبه المسيحية عن الحياة.

إن قصة عشرين عامًا من الوعظ والتعليم والصراع من الناس الذين يريدون أن يكونوا مسيحيين حقيقيين، جعلتني أكتشف أن الطريقة التي يفكرون بها عن الحياة المسيحية غالبًا ما يستمدونها من المناخ الثقافي الذي نتنفسه وليس من التعاليم الكتابية. وليس ذلك فقط، فبعض الأفكار "المسيحية" المتوارثة تتعارض بقوة مع الكتاب المقدس بحيث أنها تعمل ضد حياة الطاعة التي تهدف هذه الأفكار عينها لأن نتشجع لكي نحياها.

دور الامتنان في التحفيز

على سبيل المثال، أحد أفكار هذا الكتاب الأساسية هو أنه نادرًا، إن لم يكن مطلقًا، ما يشجع الكتاب المقدس على الحياة المسيحية من خلال الامتنان. وذلك على الرغم من أنه على المستوى العام يُقَدَّم الامتنان في الكنيسة على كونه «القوة المحفزة على الحياة المسيحية الحقيقية». وأنا أوافق على أن الامتنان عاطفة مسيحية جميلة ولا يمكن الاستغناء عنها إطلاقًا. فلا يمكن لأحد أن يخلص دون أن يمتلكها. لكنك سوف تبحث دون جدوى في الكتاب المقدس في سبيل العثور على أية علاقة واضحة بين الامتنان والطاعة. فإذا لم يُقصد أن يكون الامتنان، كما سأحاول التوضيح في الفصلين الأول والثاني، المحفز الأساسي على الطاعة المسيحية الحقيقية، فربما يكون هذا واحدًا من الأسباب التي تعرقل الكثير من المجهودات نحو بلوغ حياة القداسة. هل من الممكن أن يكون الامتنان للنعمة الماضية قد تم إقحامه ليكون القوة الدافعة لحياة القداسة، بينما الإيمان فقط بالنعمة المستقبلية هو المنوط بذلك؟ هذه القناعة هي واحدة من القوى المحركة وراء إصدار هذا الكتاب.

النعمة المشروطة غير المستحقة

لقد اكتشفت كذلك أن بعض التصورات المشهورة عن النعمة تصل من الانحراف والتشويه إلى حد أن بعض التعاليم الكتابية من المستحيل تقريبًا تقديمها للناس. على سبيل المثال، المفهوم الكتابي عن النعمة المشروطة غير المستحقة غير مفهوم تقريبًا لدى الكثير من المؤمنين المعاصرين الذين يفترضون أن غياب الشرط هو جوهر كل نعمة.

دون شك، هناك نعمة غير مشروطة. وهي تمثل الأساس المجيد لكل أمر آخر في الحياة المسيحية. لكن هنالك أيضًا نعمة مشروطة. فبالنسبة لغالبية الناس الذين يتنفسون هواء النعمة والرحمة الشائع في زماننا هذا تبدو النعمة المشروطة مصطلحًا يحمل تناقضًا كبيرًا، كأن تقول مثلاً: الريش الثقيل. لذا، على سبيل المثال عندما يسمع الناس الوعد الوارد في يعقوب ٤: ٦ بأن الله: «يعطي المتواضعين نعمة»، فإن الكثيرين يجدون صعوبة في تخيل أن يكون التواضع شرطًا للحصول على نعمة. أو عندما يستمعون للوعد الثمين بأن: «كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده» (رو ٨: ٢٨) فإنهم نادرًا ما يسمحون لأنفسهم بأن يتأملوا هذا الوعد بالنعمة الذي يشترط دعوة الله لنا ومحبة الله لنا.

غير أن وعود النعمة المشروطة تتخلل نسيج تعاليم العهد الجديد عن كيفية ممارسة الحياة المسيحية: «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي» (مت ٦: ١٤)، «اتبعوا... القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب ١٢: ١٤)، «ولكن إن سلكنا في النور كما هو في النور... دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا في كل خطية» (١يو ١: ٧). إنني أرى أن التعليم الكتابي الذي تُبنى عليه هذه النوعية من الوعود المشروطة غير مألوف لأذهان المؤمنين اليوم. بعض المفاهيم الشائعة عن النعمة لا يمكن أن تتضمن أي نوع من الشرطية وإلا اعتبرت نوعًا من الناموسية. لكن إذا كان قصد الله هو أن تساعدنا هذه التعاليم على أن نحيا حياة أصيلة من المحبة المسيحية، أنتعجب من أننا نفشل غالبًا في تحقيق ذلك؟ نحن، كمجتمع وككنيسة لم نمنح الأمر قدرًا كافيًا من التفكير. والنتيجة هي أننا أصبحنا نتشكل في غالب الأمر بالأفكار الشعبية بدلاً من التشبع بالمبادئ الكتابية. وأصبحت الكنيسة تشبه العالم كثيرًا.

لكن هذا الكتاب يؤكد على قناعتي بأن التفكير الصحيح يشكل الحياة الصحيحة. ماذا يكون رأينا عندما يعامل أحدهم وصايا الله على كونها مضادة للحياة التي تملأها نعمة الله؟ ما معنى قول يوحنا: «فإن هذه هي محبة الله: أن نحفظ وصاياه. ووصاياه ليست ثقيلة» (١يو ٥: ٣) فيم نفكر عندما نسمع يسوع، من جهة، يقول: «نيري هين وحملي خفيف»، لكن من جهة أخرى: «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى

الحياة» (مت ١١: ٣٠؛ ٧: ١٤)؟ كيف يمكن للحياة المسيحية أن تكون سهلة وصعبة في آن واحد؟ ماذا يكون رأينا عندما نقرأ أن التبرير يكون بالنعمة فقط (رو ٣: ٢٨)، في حين نقرأ أيضًا أن الملكوت مُقدَّم لـ «الذين يحبونه» (يع ٢: ٥)؟ كيف يجتمع الإيمان والمحبة كضرورتين للخلاص النهائي؟ هذا الكتاب يمثل إجابة على أسئلة كهذه.

إن صميم هذا الكتاب يدور حول قناعتي بأن وعود النعمة المستقبلية إنما هي مفاتيح الحياة المسيحية المتمثلة بالمسيح. واليد التي تدير هذا المفتاح هي الإيمان، والحياة التي تنتج عن ذلك هي ما ندعوها «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية». ولا أعني بكلمة «المستقبلية» نعمة السماء والدهر الآتي فقط، لكني أعني بذلك النعمة التي تبدأ الآن، في هذه اللحظة تمامًا، وتحفظ حياتك حتى نهاية هذه الفقرة. ولا أعنى بالنعمة فقط غفران الله بالتغاضي عن خطاياك، لكني أعني أيضًا قوة الله وجماله اللذين يحفظانك كيلا تخطئ. ولا أعني فقط الإيمان الثقة في أن يسوع قد مات من أجل خطاياك، لكن أيضًا الثقة في أن الله سوف «يهبنا أيضًا معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢). فالإيمان في الأساس هو شيء يتعلق بالمستقبل.. «الثقة بما يرجى» (عب ١١: ١). وجوهره هو الشبع العميق بكل ما وعد الله أن يصير لنا في المسيح.. ابتداءً من الآن.

ما الذي حرر موسى؟

هذا الفهم للإيمان يفسر لماذا يعمل الإيمان من خلال المحبة (غل ٥: ٦). إن قوة الإيمان المغيرة في النعمة المستقبلية يرجع إلى الشبع المحرر الذي تجعله النعمة المستقبلية مستمرًا في القلب. على سبيل المثال، فكِّر في ماهية القوة التي استطاع موسى بها التحر من «التمتع الوقتي بالخطية» في قصور مصر؟ الإجابة الموجودة في عبرانيين ١١: ٢٤- ٢٦ هي أنه قد تحرر من خلال قوة الإيمان في النعمة المستقبلية: «بالإيمان موسى ... فضل بالأحرى أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية، حاسبًا عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر، لأنه كان ينظر إلى المجازاة». لقد انتصر وعد الله على وعد الخطية، ونتج عن ذلك حياة ملؤها المحبة المضحية. هذا الكتاب ما هو إلا محاولة لفهم تلك القوة وتطبيقها- أعني القوة المطهرة حتى يتعظم الله فوق كل خطية.

"توماس شالمرز": "القوة الطاردة للمحبة الجديدة"

كان «توماس شالمرز» واعظًا قديرًا وأستاذًا في جامعة سانت أندروز بأسكتلندا.

وبعد سبع سنوات من الخدمة غير المؤثرة في الريف، حظي بلقاء عميق مع المسيح غيَّر قلبه وجعل وعظه ناريًا. واحدة من أشهر عظاته تبدأ بكلمات تعبِّر بشدة عن هدف هذا الكتاب:

"هناك طريقان قد يحاول من خلالهما أستاذ في علم الأخلاقيات أن يطرد من القلب البشري محبته للعالم: إمّا بإظهار غرور العالم حتى يقتنع القلب ببساطة أن يترك اهتمامه بشيء لا يستحق الاهتمام؛ وإمّا بإبراز شيء آخر، حتى لو كان هذا الشيء هو الله، بحيث يكون أكثر استحقاقًا لأن يتعلق به القلب، وبذلك يقتنع القلب لا بأن يترك محبة قديمة وليس في وسعه أن ينجح في ذلك، بل أن يستبدل المحبة القديمة بأخرى جديدة. وهدفي هو أن أبين أنه بحسب تكوين طبيعتنا، فإن الطريقة الأولى غير مجدية تمامًا ولا تأثير لها، وأن الطريقة الأخرى فقط تكفي لإنقاذ القلب وشفائه من المحبة الخاطئة التي تهيمن عليه."[٤]

إن هدفي هو نفسه هدف «توماس شالمرز»، وبالتحديد أن أستأصل من القلب الإنساني محبته للعالم بأن "أبرز شيئًا آخر، تحديدًا الله، لكونه أكثر استحقاقًا لأن يتعلق به القلب." وبهذه الطريقة آمل وأصلي أن أعظِّم (كما يفعل التليسكوب وليس الميكروسكوب) قيمة الله اللامتناهية.

أختلف عن «شالمرز» في أنني لا أثبت قضيتي بناءً على «تكوين طبيعتنا»، ولكن على التعاليم الكتابية بشكل أساسي. لذا سأحاول من خلال الكتاب المقدس إثبات أن الإيمان المخلِّص في جوهره يعني تعظيم القيمة العليا لما يمثله الله لنا في المسيح. وسوف أحاول إظهار أن هذا الإيمان ليس فقط مفتاح السماء، لكنه أيضًا المفتاح لحياة القداسة. وهذا هو السبب وراء تعليم الكتاب المقدس بأنه لا سماء بدون قداسة عملية (عب ١٢: ١٤)، مع أن الوصول إلى السماء يكون «بالنعمة، بالإيمان» (أف ٢: ٨).

هذا الكتاب بمثابة تأمل مطوَّل حول شهادة الكتاب المقدس بأن القلب الإنساني يتطهر بالإيمان (أع ١٥: ٩)، وأن كل أعمال إطاعة المسيح إنما هي من «عمل الإيمان» (١تس ١: ٣؛ ٢تس ١: ١١)، وأن غاية كل وصية كتابية هي «المحبة من... إيمان بلا رياء» (١تي ١: ٥)، وأن هابيل ونوحًا وإبراهيم وراحاب نالوا قوة للطاعة «بالإيمان» (عب ١١: ٤، ٧، ٨، ٣١)، وأن «التقديس (يكون) بـ ... تصديق الحق» (٢تس ٢: ١٣؛ أع ٢٦: ١٨)، وأن «الإيمان (يعمل).. بالمحبة» (غل ٥: ٦)، وأن القصد من الناموس الإلهي كله هو ألا نسعى إلى حفظه بالأعمال بل «بالإيمان» (رو ٩: ٣٢).

"چي. سي. رايل" وذهوله بسبب وعود الله

هذا الإيمان العجيب التأثير يمتلك قوة في ذاته؛ لأنه يتطلع إلى المستقبل ويقبل وعود الله لكونها مشبعة أكثر من وعود الخطية. معنى هذا أن وعود الله لها أهمية مركزية في هذا الكتاب. في هذا المقام أشارك «چي. سي. رايل» ذهوله واندهاشه وهو يستعرض بانوراما الوعود الإلهية في كلمة الله، كما أندهش معه من الطريقة المليئة بالحكمة والمحبة التي قدمها الله بها لكي يقنعنا بالإصغاء والطاعة:

> يقدِّم الله دائمًا للإنسان محفزات لكي يصغي له ويطيعه ويخدمه... فقد أظهر كمال معرفته بالطبيعة البشرية بأن نشر في كل جنبات الكتاب المقدس ثروة هائلة من الوعود التي تتناسب مع كل أنواع الخبرات والظروف الحياتية. وهذه الوعود بالآلاف، كما أن موضوعاتها متعددة. فمن الصعب أن تجد مرحلة في حياة الإنسان، من الطفولة إلى الشيخوخة، أو موقفًا يجد فيه الإنسان نفسه، ولا تجد تشجيع الكتاب المقدس لهذا الإنسان لكي يفعل ما هو مستقيم أمام الرب. فخزانة الله مليئة بالوعود لكل ظروف الحياة. فهناك وعود عن رحمة الله غير المتناهية وشفقته، وعن استعداده لقبول كل مَنْ يتوب ويؤمن، وعن رغبته في أن يغفر لأعظم الخطاة ويسامحه ويعتقه، وعن قدرته على تغيير القلوب وتجديد طبيعتنا الفاسدة، وعن تشجيعات للصلاة والاستماع لرسالة الإنجيل والاقتراب من عرش النعمة، وعن القوة لأداء الواجب، والراحة في الضيق، والإرشاد في وقت الحيرة، والمعونة في المرض، والتعزية في الموت، والدعم عند الحرمان، والسعادة فيما وراء القبر، والمكافأة في المجد- في كل هذه الأمور يوجد كنز لا يفنى من الوعود في كلمة الله. ولا يمكن لأحد أن يتخيل حجم هذه الوعود ما لم يدرس كلمة الله بعناية وهو يحمل في ذهنه هذا الأمر. فإذا ما ساور أحدهم الشك بشأن هذا الأمر فلا يسعني إلا أن أقول له: «تعال وانظر».[٥]

هذا ما أريد من القارئ العزيز أن يفعله بشأن هذا الكتاب: «تعال وانظر!» ولتسهيل الأمر، أقدم الآن فكرة عامة عن ترتيب الكتاب.

لماذا يشتمل الكتاب على واحد وثلاثين فصلاً؟

ليس من سبيل المصادفة أن يتضمن الكتاب واحدًا وثلاثين فصلاً؛ فالأمر كان

مقصودًا منذ البداية، ومستوحى من كتاب «أندرو موراي» «اثبتوا في المسيح» (Abide in Christ) وكتاب «سي. إس. لويس» «رسائل خُربر» (Screwtape Letters)، اللذين يشتملان على واحد وثلاثين فصلاً- فصل لكل يوم من أيام الشهر. وقد شرح «موراي» تصميم كتابه كالتالي:

"فقط من خلال تثبيت الذهن لفترة من الوقت على واحد من دروس الإيمان يمكن للمؤمن تدريجيًا أن يستوعبها كلية. وعندي رجاء أنه سيكون عونًا للبعض عندما يأتون يومًا فيومًا لمدة شهر لينهلوا من هذه الكلمات الثمينة: «اثبتوا فيّ»."(٦)

إنني أرجو أن يتمكن هؤلاء الأشخاص، الذين لا يملكون وقتًا كافيًا، من قضاء بعض الوقت يوميًا لمدة شهر لقراءة فصل من كتاب عن: «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية». وقد حرصت على أن تكون الفصول قصيرة نسبيًا من أجل تحقيق هذا الهدف. إن ميزة هذه القراءات اليومية ليست فقط، كما يقول «موراي»، "الاستيعاب الكلي"، وإنما التأمل المتأني أيضًا. ما أعظم الفهم الذي يأتي من التفكير المتمهل حول فكرة جديدة- أو صياغة جديدة لفكرة قديمة! إني أريد لهذا الكتاب أن يُقرأ على النحو الذي أراد الرسول بولس من تيموثاوس أن يقرأ به رسائله: «افهم ما أقول. فليعطك الرب فهمًا في كل شيء» (٢تي ٢: ٧). إن كل كتاب يستحق أن يقرأ يشير إلى هذه الكلمات: «افهم ما أقول». إنني لا أعتقد أن ما كتبته عسر على الفهم إذا ما أراد المرء أن يُعمل فيه التفكير. عندما يشتكي أبنائي من أن الكتاب الجيد يكون صعبًا في قراءته أقول لهم: "تنظيف التربة سهل، لكن كل ما تخرج به يكون أوراقًا؛ أمّا الحفْر فصعب، لكنك قد تجد بسببه جواهر."

لقد حاولت أن أكتب كما أعظ: آملاً أن أعلّم الذهن وأحرك القلب. وأنا لا أستخف بالتحديات الخاصة بالقراءة. فعلى سبيل المثال فإني لم أقلّد «چون أوين»، الراعي واللاهوتي البيوريتاني في القرن السابع عشر. فقد استهل واحدًا من كتبه بتحذير لا يخلو من الاستهانة بقرائه: "أيها القارئ... إذا كنت مثل الكثيرين في هذا الزمان.. زمان المسخ، فلست سوى قارئ سطحي، ويمسك الكتاب ويتركه دون أن يتعلّم شيئًا."(٧) في واقع الأمر ليس هناك شخص أعرفه وقرأ «چورچ أوين» إلا واشتكى من أنه يكتب بأسلوب ثقيل وغير سلس، يصعب استيعاب أفكاره. غير أنه كان محقًا في شيء.. فبعد ثلاثمائة عام من وفاته لا تزال كتاباته التي تضم أربعة وعشرين مجلدًا يُعاد طباعتها حتى اليوم. ولايزال الناس يصارعون مع أسلوبه بحثًا عن الجواهر. ما الدرس المستفاد هنا؟ الدرس هو أن دسم الحكمة الكتابية، وليس البساطة، هو الذي

يغذي الكنيسة. ولست أنا الذي أحكم ما إذا كان هناك دسم روحي للكنيسة في هذه الصفحات، وإن كان ذلك هو ما أهدف إليه.

نظرة عامة على الكتاب

إذا كانت العقيدة الصحيحة تغذي الحياة الصحيحة، معنى ذلك أن الحق يجب أن يسبق التطبيق في كتابة أي كتاب. لكن الحياة أكثر تعقيدًا من ذلك؛ فغالبيتنا يحتاجون إلى دليل على أن ما نقرأه ليس فقط صحيحًا بل مفيدًا أيضًا. فهناك أمور صحيحة كثيرة ليس لها معنى. فنحن لا نملك سوى حياة واحدة لنعيشها، وربما لا نملك سوى ساعات قليلة (أو أقل من ذلك) في الأسبوع للقراءة. لذا يجب أن تكون الأمور مفيدة بقدر ما تكون صحيحة.

لهذا السبب، لم أنتظر حتى نهاية الكتاب لتقديم بعض المضامين العملية للحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية.. فالتطبيقات ممتزجة بالأساسيات. وهناك ثمانية فصول متفرقة تحمل عنوان: «تطبيقات القوة المطهرة». في هذه الفصول أتناول ثمانية من مجالات الصراع الإنساني مع الشر. وأحاول توضيح كيف أن الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية هي الطريق للانتصار على وعود الخطية الخادعة. فمن ناحية، هذا الترتيب أقل من أن يكون نموذجيًا؛ لأن بعض التطبيقات تأتي قبل الأساس المتعلق بها. لكن من ناحية أخرى، هكذا تسير الحياة؛ فنحن نتعلم ونعيش بما تعلمناه، ثم ننقح ما تعلمناه ونتعلم أكثر، وهكذا. وأعتقد أن فوائد التعرف المبكر والمتكرر للتطبيق العملي تفوق بكثير مساوئه.

ذكرت في بداية هذه المقدمة أن الهدف من هذا الكتاب هو تحرير قلوب البشر من ملذات الخطية الزائلة. تلك الفصول تحت عنوان: «تطبيقات القوة المطهرة» تمثل النقاط التي يصل فيها هذا الهدف إلى ذروة تركيزه. كيف ينتصر الإيمان في النعمة المستقبلية على القلق، الكبرياء، الخزي، عدم الصبر، الطمع، المرارة، اليأس، والشهوة؟ هذا هو السؤال الذي تحاول هذه الفصول المتفرقة الإجابة عليه.

يبدأ الكتاب بفصلين يفرقان بين الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية والحياة في امتنان نحو النعمة الماضية. والفكرة التي أناقشها هي أن نظرة الامتنان للماضي لم يقصدها الله أن تكون هي المحفز الأساسي للطاعة. فنظرة الإيمان المستقبلية هي المنوطة بذلك (الفصلان الأول والثاني). يتبع ذلك فصلان (الرابع والخامس) يشرحان المقصود من كلمتي «النعمة» و«المستقبلية». وهما يجيبان على السؤال: هل يذكر الكتاب المقدس الكثير عن النعمة المستقبلية؟ هل هو مفهوم كتابي أصيل؟

عند هذه النقطة يمكنني الشعور بالتوتر الذي ينشأ عند أولئك الذين يعتزون مثلي بروعة النعمة الماضية. لذا في الفصول من السابع إلى التاسع أحاول معالجة هذا التوتر. والهدف هنا هو توضيح أن الأعمال الخلاصية العظيمة للنعمة الماضية، على سبيل المثال، موت وقيامة يسوع، تمثل أساسًا لا غنى عنه لإيماننا في النعمة المستقبلية، لكن قوتهما تكمن تحديدًا في أنها تؤكد على النعمة المستقبلية التي نرجوها. فحياة يسوع وموته كانا بمثابة النِعَم الإلهية لكل وعوده (٢كو ١: ٢٠). والمسيح جاء إلى العالم «حتى يثبت مواعيد الآباء» (رو ١٥: ٨). وبسبب موت المسيح سوف «يهبنا الله أيضًا معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢). وأولئك الذين بررهم الله، سوف يمجدهم حتمًا (رو ٨: ٣٠). إن النعمة الماضية هي الأساس للإيمان المغير للحياة في النعمة المستقبلية.

يستعرض الفصلان الحادي عشر والثاني عشر العهدين القديم والجديد ليجيب على السؤال: «لماذا تفتر الطاعة في بعض الأحيان بينما تنتعش في أحيان أخرى؟» والنتيجة التي أصل إليها هي أن الطاعة تقوم وتسقط تبعًا للإيمان في النعمة المستقبلية. فكل من الشريعة الإلهية في العهد القديم وتعاليم يسوع والرسل في العهد الجديد تهدف إلى أن يتبعها البشر، كما يقول الرسول بولس في رومية ٩: ٣٢، ليس «بالأعمال» بل بالإيمان في النعمة المستقبلية. هذا يدفعنا لأن نبرز السؤال: «لماذا ينتج الإيمان طاعة؟ لماذا خطط الله أن يكون الأمر هكذا؟ ما الذي يجعل الإيمان يأتي بالضرورة بثمر البر والمحبة؟» تناقش الفصول من الرابع عشر إلى السادس عشر هذه الأسئلة تحت عنوان: «طبيعة الإيمان في النعمة المستقبلية». ما يبرز هنا أن الإيمان هو الوسيلة التي عينها الله لحياة البر والقداسة؛ لأن الإيمان أكثر من أي شيء آخر يبرز حرية النعمة ويعظِّم مجد الله. وهو يفعل ذلك، لأن الإيمان في النعمة المستقبلية: يعني بالأساس الاكتفاء بكل ما يعدنا به الله في المسيح. هذا النوع من الإيمان يعظِّم الله؛ لأن الله يتمجد فينا عندما نجد نحن اكتفاءنا وشبعنا في شخصه.

بعد سبعة عشر فصلاً من النظر إلى الديناميكيات الكتابية للحياة بالإيمان في وعود الله، نرى لزامًا علينا عند هذه النقطة أن نتعامل مباشرة مع شرطية الكثير من تلك الوعود. ففي واقع الأمر كيف يمكن للمرء أن يثق في وعد مشروط (الفصل الثامن عشر)؟ مَنْ هم المستفيدون من الوعود (الفصل التاسع عشر)؟ ما هي حدود الشروط المصاحبة لوعود النعمة المستقبلية (الفصل العشرون)؟ أستخلص من هذه الفصول الثلاثة أن الإيمان والمحبة هما شرطان ينبغي أن يستوفيهما الإنسان

المؤمن لكي يستمر في التمتع بمكاسب النعمة المستقبلية. غير أن الإيمان والمحبة ليسا شرطين متماثلين. فالإيمان يعاين مجد الله في وعود النعمة المستقبلية ويتمسك بكل ما يعدنا به الله في المسيح. هذا الفهم الروحي والابتهاج بالله هو برهان أكيد على أن الله قد دعانا لنكون مستفيدين من نعمته. هذا البرهان يحررنا حتى نثق أن الوعد لنا. وهذه الثقة تمكننا من محبة الآخرين، الأمر الذي يؤكد لنا حقيقة إيماننا. وهكذا فالإيمان هو الشرط الأساسي الذي يدخلنا في نطاق قوة النعمة المستقبلية، أمّا المحبة فهي شرط فقط لتأكيد حقيقة هذا الإيمان.

مع هذه النظرة لكيفية إدراك الإيمان لقوة النعمة المستقبلية، نحن مستعدون الآن لاكتشاف كيف يعمل الإيمان من خلال المحبة، كما يقول بولس في غلاطية ٥: ٦ (الفصل الثاني والعشرون)، وكيف يقوينا للقيام بكل أنواع الخدمة العملية (الفصل الثالث والعشرون). إن ما يبدو واضحًا بينما نصف العلاقة بين الإيمان والمحبة هو أن الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية ليست حياة هينة أو سهلة. إنها حياة كاملة من الجهاد ضد عدم الإيمان أو كما يدعوها بولس في ١تيموثاوس ٦: ١٢ «جهاد الإيمان الحسن» (الفصل الخامس والعشرون). معنى هذا أن علينا أن نحذر من ألد أعداء الإيمان، وهو الشيطان، كذلك علينا فضح مخططاته التي ترمي إلى إبطال ثقتنا في النعمة المستقبلية (الفصل السادس والعشرون).

ومع اقتراب الكتاب من نهايته أناقش حقيقة أنه مادام هذا الدهر لم ينته، فإن كل واحد منا سوف يعاني ويموت: «بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أع ١٤: ٢٢). هذا الأمر يمثل تهديدًا كبيرًا للإيمان في النعمة المستقبلية. لكن هنا أيضًا تكثر الوعود الإلهية، فالله يوضح بشكل جلي أن المعاناة والموت كليهما مصدران لنعمة أكثر، وسوف يقودان في نهاية المطاف إلى فرح أبدي لا ينقطع (الفصلان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون). سوف نلبس أجسادًا جديدة على أرض جديدة، وسوف يقضي الله الأبدية غامرًا إيانا بكنوز نعمته الفائقة (الفصل الثلاثون).

الفصل الأخير موجه للأشخاص الذين يحبون رؤية جذور الأشياء وعلاقاتها ببعضها البعض. في هذا الفصل أحاول أن أوضح كيف أن فكرتي عن الإيمان في النعمة المستقبلية يتفق مع فكر اللاهوتي والراعي «چوناثان إدواردز» في القرن الثامن عشر. وأحاول إظهار كيف أن أفكار هذا الكتاب تمثل استمرارًا لرؤية الله والحياة التي حاولت إبرازها في كتابيَّ السابقين: «الاشتياق إلى الله» (Desiring God)، و«ملذات الله» (Pleasures of God).

ما تنتهي إليه هو ما يهم

مع هذا الإدراك لكيفية ترابط الفصول معًا، أنت حر بالطبع في أن تبدأ قراءتك من أي جزء يروق لك. إن اهتمامي ليس في المقام الأول من أين تبدأ، لكن إلى أين تنتهي. هل إلى إيمان أعمق في النعمة المستقبلية؟ أصلي أن يكون الأمر كذلك. وأصلي أن تسمع الدعوة وتطيعها لتعثر على الفرح في كل ما يعدنا به الله في المسيح. وأصلي أيضًا لهذه القوة الهائلة لهذه المحبة الجديدة أن تحررك من ملذات الخطية الزائلة ويمكنك من أن تحيا حياة ملؤها المحبة الباذلة. فإذا كنا بهذه الطريقة نثبت أن الله أعظم من الكل، فإن الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية سوف تكون لمدح مجده. فالله يتمجد فينا بالأكثر عندما نجد نحن اكتفاءنا فيه أكثر من أي شيء آخر.

المقدمة رقم (٢)

هل بواسطة الإيمان
نقبل المسيح برًا لنا
بدون أي استحقاق بسبب أعمالنا؟
حسنًا.. لكن نفس هذا الإيمان، إذا كان كافيًا لقبول المسيح،
فهو أيضًا كافٍ أن «يعمل بالمحبة»، و«يطهر قلوبنا».
هذه هي إذًا فاعلية إنجيل الحرية، رعمل تقديسه،
بحيث إن نفس الإيمان الذي يقبل العطية،
يصبح سندًا إلهيًا قويًا للطاعة.

"روبرت إل. دابني"

إلى اللاهوتيين

لا يحتاج كل شخص لقراءة هذا الجزء. لكنه قد يكون ذا فائدة للبعض إذا ما وجهت الكتاب صوب تاريخ علم اللاهوت وتقسيماته. من هذه الزاوية أقول إن الغرض من هذا الكتاب هو البحث في كيف أن الإيمان الذي يبرر، يُقدِّس أيضًا. أو لكي أكون أكثر تحديدًا (حيث أنني هنا أوجه حديثي إلى لاهوتيين) أقول إن الهدف هو دراسة كيف أن الإيمان، الذي هو وحده الوسيلة التي من خلالها تقوم النعمة الغافرة بعملية التبرير، هو أيضًا الإيمان الذي من خلاله[١] تقوم النعمة المساندة بعملية التقديس. يأتي التعبير البروتستانتي الكلاسيكي في شكله المتعارف عليه عن العلاقة بين الإيمان والتقديس كالتالي: "الإيمان وحده هو

الذي يبرر، لكن الإيمان الذي يبرر ليس وحده." بمعنى أن الإيمان المبرِّر تصاحبه دائمًا الأعمال الصالحة. غير أن إقرارات الإيمان المصلحة تذهب إلى أبعد من ذلك.. فهي تقول إن الإيمان المبرِّر لا ترافقه فقط الأعمال الصالحة، لكنه بصورة ما يُعد أداة مسببة لهذه الأعمال.

إقرار إيمان أوجسبرج

كتب إقرار إيمان أوجسبرج اللوثري اللاهوتي الألماني المصلح «فيليب ميلانكتون» (١٤٩٧- ١٥٦٠)، وصدّق عليه «مارتن لوثر»، وقدمه المصلحون الألمان لشارل الخامس في عام ١٥٣٠. وهو يصف العلاقة بين الإيمان المبرِّر وحياة الطاعة المترتبة عليه في البنود التالية:

- المادة الرابعة: [الكنائس بالإجماع] تعلِّم أننا لا نقدر أن نتبرر قدام الله بقوتنا أو عن استحقاق أو بأعمالنا. لكننا نتبرر مجانًا من أجل المسيح، عندما نؤمن...
- المادة السادسة: كما تعلِّم [الكنائس] أيضًا أن هذا النوع من الإيمان يجب أن ينتج ثمارًا جيدة، ووجب على الناس أن يعملوا أعمالاً حسنة كهذه بموجب وصايا الله ولأنها مشيئة الله، وليس على سبيل أي استحقاق من جهتنا.

إلى هذا الحد يقول إقرار أوجسبرج ببساطة إن الإيمان المبرِّر "ينتج ثمارًا جيدة". لكن في المادة رقم ٢٠ يذهب إلى أعمق من ذلك في شرح هذه العلاقة:

> إنه الإيمان الذي يجعل الروح القدس يحرك القلب ليعمل أعمالاً صالحة. ولذلك يقول أمبروز: "الإيمان هو مُوَلِّد الإرادة الصالحة- الأعمال الصالحة." لذلك ينبغي ألا يلام هذا التعليم الإيماني بدعوى أنه ينهى عن الأعمال الصالحة، لكن العكس هو الصحيح، إذ أنه يشيد بها ويشجع عليها ويرينا أي نوع من الأعمال الصالحة يجب أن نفعل. فبدون الإيمان لا يمكن لطبيعة الإنسان أن تحقق وصايا الله سواء في اللوح الأول أو الثاني(*). فبدون الإيمان، لا يمكن للإنسان أن يدعو

(*) المقصود هنا لوحا الشريعة، حيث يتضمن اللوح الأول الوصايا المختصة بعلاقة الإنسان بالله، أما اللوح الثاني فيتضمن الوصايا المختصة بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان. (المترجم)

> الله، أو يرجو منه شيئًا، أو يحمل الصليب، لكنه يجنح ليلتمس العون من البشر ويثق في قوة الناس. وبالتالي فإن كل الشهوات والمشورات البشرية تتسلط على القلب مادام الإيمان والثقة بالله غائبين."[٢]

إن عقيدة التبرير بالإيمان "تبيِّن لنا كيف علينا أن نقوم بالأعمال الصالحة." وأعني بهذا أن إقرار أوجسبرج لم يكتفِ بالقول بأن الأعمال الصالحة لا ترتبط فقط بالإيمان المبرِّر بل أنها تنبع منه». "فالإيمان هو مولِّد... الأعمال الصالحة." وقوة "الشهوات والمشورات البشرية" تنكسر عندما يتواجد الإيمان. وهذا الكتاب محاولة لفهم لماذا وكيف يملك الإيمان قوة للتقديس.

إقرار الإيمان السويسري

صيغ اعتراف الإيمان السويسري الأول على يد اللاهوتيين السويسريين (هينريخ بولينجر وسيمون جرينايوس وأوزوالد ميكونيوس وغيرهم) في مدينة «بازل» بسويسرا عام ١٥٣٦. وقد أتى معبرًا عن إيمان كل المقاطعات السويسرية في تلك الحقبة من زمن الإصلاح. عنوان المادة ١٣ من هذا الاعتراف هو: «كيف تُحسب لنا نعمة المسيح واستحقاقه والثمار التي تنبع منها». ونصها كالتالي: "نحن نأتي إلى الأعمال العظيمة والسامية للنعمة الإلهية والتقديس الحقيقي للروح القدس ليس من خلال استحقاقنا أو قوتنا، ولكن بالإيمان الذي هو نعمة وعطية كاملة من الله." ثم تأتي المائدة ١٤ لتشرح العلاقة بين هذا الإيمان والأعمال:

> نفس هذا الإيمان إنما هو أساس ثابت قوي يقيني وممسك بكل الأمور التي يرجوها المرء من الله. فمنه تنمو المحبة كثمرة، ومن هذه المحبة تأتي كل أنواع الفضائل والأعمال الصالحة. ورغم أن المؤمنين يختبرون ثمرة الإيمان هذه، فإننا لا ننسب برهم أو خلاصهم الذي حصلوا عليه إلى مثل هذه الأعمال، بل إلى نعمة الله. هذا الإيمان يجد شبعه في رحمة الله وليس في أعماله، رغم أنه يثمر عددًا لا حصر له من الأعمال الصالحة. هذا الإيمان هو بمثابة الخدمة الحقيقية التي ترضي الله.[٣]

وهكذا يؤكد اعتراف الإيمان السويسري أن المحبة تنبع من الإيمان وتؤدي إلى كل الفضائل. فالإيمان لا يتواجد فقط بجانب ثمرة الطاعة، لكن هو نفسه يأتي بعدد لا حصر له من الأعمال الصالحة.

البنود التسع والثلاثون لكنيسة إنجلترا

تم نشر المواد التسع والثلاثين لعقيدة كنيسة إنجلترا كتعبير عن الإصلاح الأنجليكاني في عام ١٥٧١. ويتسم تعليمها عن التبرير والأعمال الصالحة بالصراحة والوضوح:

> نحن نُحسب أبرارًا أمام الله، فقط بسبب استحقاق ربنا ومخلصنا يسوع المسيح بالإيمان وليس بسبب أعمالنا أو استحقاقنا. ولذا فإن تبريرنا بالإيمان فقط يعتبر عقيدة صالحة ومليئة بالتعزية.. وأن الأعمال الصالحة، التي هي ثمر الإيمان وتتبع التبرير، لا يمكنها أن تزيل خطايانا أو تتحمل قسوة الدينونة الإلهية، إلا أن الله يُسر بها ويقبلها في المسيح، وتنبع بالضرورة من إيمان حقيقي حي. بحيث أنه من خلالها يصبح الإيمان ظاهرًا كما تُعرف الشجرة بثمرها.[٤]

إن حياة الطاعة "تنبع بالضرورة" من إيمان حقيقي حي؛ فالأعمال الصالحة هي «ثمر الإيمان». والإيمان المبرِّر لا يرافق الأعمال الصالحة فقط، بل هو الواسطة التي تستخدمها نعمة الله للإتيان بالأعمال الصالحة. وهكذا فالأعمال الصالحة هي الدليل على الإيمان الأصيل.

إقرار إيمان ويستمنستر

ربما يكون إقرار إيمان ويستمنستر هو أشهر إقرارات إيمان الكنائس المُصلَحة، وقد تم نشره في إنجلترا في عام ١٦٤٧. ويرد في الفصل الحادي عشر من هذا الإقرار ما يلي:

> (١) أولئك الذين يدعوهم الله يبررهم مجانًا؛ ليس بأن يسكب البر فيهم بل بأن يغفر لهم خطاياهم ويحسبهم ويقبلهم كأبرار لا لأجل عمل فيهم أو تم بواسطتهم لكن لأجل المسيح وحده..
>
> (٢) الإيمان، ومن ثم قبول المسيح والاتكال عليه، يعتبر الأداة الوحيدة للتبرير، لكنه لا يكون الشيء الوحيد لدى الإنسان المبرر، وإنما يصحبه دائمًا جميع النعم الخلاصية الأخرى، وهو ليس إيمانًا ميتًا بل عاملاً بالمحبة.[٥]

وهكذا يعلن هذا الإقرار بجرأة أن الإيمان الذي هو "أداة التبرير" يعمل كذلك بالمحبة. وهكذا فإنه يؤكد أن الإيمان المبرِّر إنما هو إيمان يقدِّس أيضًا، و"يعمل بالمحبة." ويوضح الإقرار بصراحة في حواشيه أن عبارة "يعمل بالمحبة" تشير إلى غلاطية ٥: ٦ «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالحبة». وهذا النص الكتابي سيحتل موقعًا مركزيًا في أفكار هذا الكتاب.

عمل كلاسيكي حول التبرير

يمكن استدعاء الكثير من الشهود الآخرين لبيان أن وجهة النظر التاريخية لإقرارات الإيمان المُصلَحة هي أن الإيمان الذي يبرر إنما هو إيمان يقدِّس أيضًا.[٦] فالإيمان الذي يبرر يقود إلى حياة الطاعة، ليس إلى الكمال بل إلى نمو في حياة القداسة. وهكذا ففي واحد من الأعمال الكلاسيكية لعقيدة التبرير يدعونا «چيمس بوكانان» إلى أن:

> نتأمل كيف أن الأعمال الصالحة تبقى مرتبطة بالإيمان والتبرير على التوالي؛ فهي بمثابة تأثيرات الإيمان، وفي نفس الوقت بمثابة البراهين على حقيقة الإيمان والتبرير. وكونها من تأثيرات الإيمان واضح لأن «كل ما ليس من الإيمان فهو خطية» (رو ١٤: ٢٣)، و«بدون إيمان لا يمكن إرضاء الله» (عب ١١: ٦)، و«غاية الوصية هي المحبة من قلب طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء» (١تي ١: ٥). ويتضح أيضًا بنفس القدر أنها لكونها تأثيرات، تُعد براهين على إيمان حقيقي وحي؛ لأنه «يقول قائل: أنت لك إيمان، وأنا لي أعمال. أرني إيمانك بدون أعمالك، وأنا أريك بأعمالي إيماني» (يع ٢: ١٨)، فضلاً عن كل الأعمال الصالحة المنسوبة للمؤمنين في العهد القديم تعود في أصلها إلى عمل الإيمان (عب ١١: ٤، ٧، ٨، ٢٣، ٣٢).[٧]

تأملات قليلة حول عمل الإيمان في التقديس

واحد من الأمور اللافتة للانتباه حول هذا التيار الفكري المتسق هو أنه لا يولي الكثير من الاهتمام للآليات الروحية الخاصة بكيف يقوم الإيمان بعملية التقديس. ربما أكون مخطئًا في هذا بما أنني لست متخصصًا في تاريخ العقيدة، لكن إحساسي

الشخصي أنه على مدى التاريخ وحتى يومنا الحالي، فإن القول بأن الإيمان المبرِّر "لا يوجد منفردًا في الإنسان المبرَّر، وإنما يصحبه دائمًا جميع النعم الخلاصية الأخرى" قد تُرك دومًا معلقًا دونما دراسة متعمقة حول هذه الحقيقة، وكيف تتحقق في المجال الروحي للمؤمن الحقيقي. مثل هذه الدراسة المتعمقة هي الغرض من هذا الكتاب.

إن هدفي يتمثل في فهم وشرح كيف أن الإيمان المبرِّر يعمل بالمحبة (غل ٥: ٦). وحجتي هي أن السبب في أن الإيمان المبرِّر لا يوجد منفردًا أبدًا هو أن التقديس من طبيعة الإيمان. فهناك شيء ما في جوهر الإيمان المبرِّر يجعل منه أداة للتغيير الأخلاقي، أو لنكون أكثر تحديدًا، هناك شيء ما بشأن الإيمان الذي تقوم من خلاله النعمة الغافرة بالتبرير يجعل منه أداة مناسبة وفعالة لعمل النعمة في التقديس.

التبرير والتقديس أمران متمايزان

لا أعني أبدًا بذلك الخلط بين التبرير والتقديس؛ فهما أمران متمايزان. فالتبرير ليس سلوكًا إنسانيًا للروح أو للجسد، لكن التقديس هو سلوك إنساني (بتأثير إلهي) للروح والجسد. إن الله يقوم بكل التبرير والتقديس، ولكن ليس بنفس الأسلوب. فالتبرير يعتمد على عمل الله الخاص بالدينونة، والتقديس يعتمد على عمل الله في التغيير. ولذا فإن عمل الإيمان مختلف بالنسبة لكليهما. فبالنسبة للتبرير، الإيمان ليس القناة التي تنفذ منها القوة أو التغيير إلى روح المؤمن، لكنه يمثل الحالة الملائمة لغفران الله للإنسان وتبرئته واعتباره من الأبرار. فأعمال الله المبرِّرة في ذاتها لا تلمس روح الإنسان. فهي توصف باللاتينية أنها «*extra nos*» أي خارجة عن ذواتنا. يتحدث بولس عن تبرير «الفاجر» (رو ٤: ٥). لكننا لا نبقي فجارًا، وإنما نبدأ كفجار مبررين. أما بالنسبة للتقديس، فالإيمان دون شك يمثل القناة التي تنفذ منها القوة والتغيير الإلهيان إلى الروح، ومن خلال الإيمان يلمس العمل الإلهي الروح ويغيِّرها.

ثلاثة افتراضات

إن النقطة التي أود إبرازها في هذا الكتاب هي أن الإيمان، الذي هو أداة التبرير، إنما هو نفس الإيمان الذي من خلاله تأتي قوة التقديس للخاطئ المبرَّر. وتبرز هنا ثلاثة افتراضات: الافتراض الأول هو أن الإيمان المبرِّر[٨] يعتبر إيمانًا مثابرًا. وهذا ما أوضحه «چوناثان إدواردز» في لغة دقيقة وغنية: "إن مثابرة الإيمان، في أحد

معانيها، هي شرط التبرير، أي أن شرط القبول مختص فقط بذلك النوع من الإيمان المثابر، والبرهان المناسب على هذه المثابرة الفعلية."[٩] وهكذا فمن المناسب الحديث عن التأثير الأخلاقي للإيمان المبرِّر ليس فقط لأنه يأتي بنا إلى الوضع الصحيح مع الله في لحظة تأثيره الأولى، لكن لأنه يمثل نوعية من الإيمان تتسم بالمثابرة، وبذلك يكمن تأثيره كذلك في قبوله اليومي لكل ما يمثله الله لنا في المسيح.

افتراض ثانٍ هو أن الإيمان المبرِّر لا يمثل الثقة بنعمة الله الماضية فقط، لكنه أيضًا ثقة في نعمة الله المستقبلية التي تضمنها نعمة الله الماضية بموت المسيح وقيامته. فالإيمان المبرِّر يتضمن عمل المسيح الكفاري الكامل، بمعنى أنه يستند على كل ما تعنيه هذه الكفارة لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. هذا يؤكده إقرار الإيمان السويسري الأول: "الإيمان... يمسك بكل الأمور التي يرجوها المرء من الله." وهذا ما يقوله «چون كالفن» في عظته على رسالة أفسس ٣: ١٤- ١٩: "إذا جئنا للمسيح مؤمنين به، أي إذا قبلنا مواعيد الإنجيل، فدعونا نتيقن من أنه سوف يحل في قلوبنا من خلال الإيمان."[١٠] لذا فاستنادًا على نعمة المسيح الممثلة في موته وقيامته، فإن الإيمان المبرِّر يمثل ثقة في وعود الله الخاصة بالمستقبل.

الافتراض الثالث مؤداه أن جوهر الإيمان المبرِّر هو الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. وكما قال اللاهوتيون الآخرون فإن معنى ذلك هو قبول يسوع في كل وظائفه المنسوبة إليه في كلمة الله. فالإيمان المبرِّر ليس انتقائيًا.. بمعنى أنه يقبل المسيح في واحدة من وظائفه ويرفضه في وظيفة أخرى. "إن الإيمان الحقيقي يقبل المسيح في كل أدواره التي يختصه بها الكتاب المقدس من جهة الخطاة المساكين."[١١] الإيمان المبرر يقبل كل ما يعدنا الله به في المسيح. وهذا القبول ليس مجرد تصديق عقلي على تعليم، لكنه اكتفاء قلبي صادق بشخص الله.

هذه الافتراضات الثلاثة عن طبيعة الإيمان المبرِّر (والتي سوف أحاول التعمق فيها وإثباتها كتابيًا) تشير إلى السبب والكيفية وراء عمل الإيمان بالتقديس. وهذا الكتاب إنما هو تفكير متعمق بشأن الأسانيد الكتابية والآليات الروحية العملية لقوة الإيمان المبرِّر في عمل التقديس. وأنا أدعو هذه الآليات: «الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية».

الجزء الأول

عدو الإيمان
في النعمة المستقبلية

«حتى متى لا يصدقونني
بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟»
(عدد ١٤: ١١)

يبتهج الامتنان بالفوائد الإلهية الماضية، ويقول للإيمان:
"اغتنم أكثر من هذه الفوائد للمستقبل حتى يستمر عملي السعيد
في النظر لعمل الله الخلاصي في الماضي."

الفصل الأول

فلسفة المديون: هل ينبغي أن نحاول تسديد الدَّيْن لله؟

ما هو الشعور بالامتنان؟

مثل كل الأمور الثمينة، يتصف الشعور بالامتنان بأنه قابل للتشويه. فمن السهل علينا أن ننسى سبب الشعور بالامتنان أنه في بعض الأحيان تأتينا أشياء مجانًا دون ثمن أو مقابل. وعندما يحدث ذلك، علينا أن نمتلئ بشعور جميل بقيمة ما حصلنا عليه، والرضا الذي شعرنا به بسببه. هذا الشعور الجميل هو ما ندعوه الامتنان. ثم يتبع هذا الشعور الجميل مباشرة التعبير عن الفرح.. فنحن نجد أنفسنا مدفوعين بفرح للإعلان عن الهدية التي حصلنا عليها، والرضا الذي شعرنا به بسببه للتعبير عن تقديرنا للعطية ومشاعر الشخص الذي قدمها.

كلمة «الامتنان» (gratitude) ترتبط بكلمة "نعمة" (*grace*).. وهذا صحيح حتى عندما نمتلئ بالشكر لأمر ما دفعنا أموالاً لنقتنيه. نحن نشعر أن ما اشتريناه قد يكون مخيبًا للآمال رغم امتلاكنا المال الكافي لشرائه. قد يكون هذا الشيء في حالة غير جيدة، أو لا يكون بالضبط ما أردنا شراءه، أو ربما سبقنا أحدهم في شرائه، أو أن تكون عملية الشراء نفسها صعبة، أو يكون التوقيت خاطئًا، أو يكون السعر قد ارتفع قبل شرائنا له مباشرة. بكلمات أخرى، إن الامتنان ليس هو الشعور ببراعتنا في طريقة حصولنا على الأشياء،

لكنه الإحساس الذي ينفجر فينا بفرح كرد فعل لشيء نرى فيه نعمة خاصة حتى لو أننا قمنا بشرائه.

موطن فلسفة المديون

لكن عند هذه النقطة يوجد خطر.. فهناك ميل في القلب البشري الساقط، في قلوبنا جميعًا، لنسيان أن الامتنان إنما هو رد فعل تلقائي من الفرح لحصولنا على أمر يفوق ويسمو في قيمته ما دفعناه لاقتنائه. عندما ننسى هذا، فإن ما يحدث هو أننا نبدأ في الإساءة إلى الامتنان وتشويهه بسبب ميلنا إلى تسديد ثمن ما حصلنا عليه مجانًا. هذه اللحظة الحزينة تمثل موطن فلسفة المديون.

تقول فلسفة المديون: "لأنك فعلت أمرًا طيبًا معي، فأنا أشعر بأنني مدين بأن أفعل أمرًا طيبًا لك." لم يكن مقصودًا للامتنان أن يخلق مثل هذا الميل. فقد قصد الله للامتنان أن يكون تعبيرًا تلقائيًا عن الابتهاج بالعطية التي يقدمها الآخر ونيته الحسنة؛ ولم يقصد له أن يتحول إلى رغبة في رد الجميل. فإذا تحوّل الامتنان إلى إحساس بالدين، فإن ذلك يخلق فلسفة المديون.. والنتيجة النهائية هي إبطال النعمة.

أرجو ألا يُساء فهمي. الامتنان في حد ذاته لا يبطل النعمة، وإنما يبتهج بها. لقد خلق الله الشعور بالامتنان ليردد صدى النعمة. بل حتى الفكرة القائلة بأنه يمكن للامتنان أن يخدم الشر تصدم البعض وتزعجهم. لا تسيئوا فهم ذلك، فأنا أمتدح الامتنان كرد فعل كتابي أساسي من القلب تجاه نعمة الله. ويوصي الكتاب المقدس بالامتنان نحو لله كجزء من واجباتنا الأساسية: «ادخلو أبوابه بحمد، دياره بالتسبيح. احمدوه، باركوا اسمه» (مز ١٠٠: ٤). ويقول الله إن شعورنا بالامتنان نحوه يكرِّمه: «ذابح الحمد يمجدني» (مز ٥٠: ٢٣). ورغم كونه عرضة للتشويه من منظور فسلفة المديون، إلا أن الامتنان ليس مذنبًا في ذلك.

نحن جميعًا نعرف ما هي فلسفة المديون، حتى لو لم نطلق عليها هذا الاسم من قبل. تخيل أنك دعوتني مرة لتناول العشاء، سيكون شعوري عندئذ هو الامتنان الشديد نحوك؛ لكن.. كم من السهل علينا تشويه رد الفعل العفوي بالفرح هذا إلى ميل لرد الجميل. فأنت قدمت لي دعوة، وأنا الآن مدين لك بدعوة أخرى. عندما تكون فضيلتنا نحو الناس أو الله منبعها هذا الإحساس بالرغبة في عمل شيء في مقابل شيء آخر، فإننا نكون بذلك قد وقعنا في فخ فلسفة المديون.

ما الخطأ الذي حدث؟ ليس من الخطأ في شيء أن تشعر بالامتنان عندما يقدِّم

لنا أحدهم هدية. المشكلة تبدأ عندما يظهر الإلحاح الداخلي بأننا مديونون بهدية في المقابل. ما يفعله هذا الشعور هو أنه يحول الهدايا إلى عملة مشروعة. فالهدية لا تكون هدية فيما بعد بل صفقة تجارية، وما وُهب كهبة مجانية تم إبطاله بالشعور المشوه بالامتنان.

هل علينا أن نرد لله جميله؟

نستطيع أن نلاحظ مدى الانتشار الواسع لفلسفة المديون بين المؤمنين. سمعت مؤخرًا عظة قوية لقائد ومبشر ذائع الصيت عن حاجة الأمريكيين لقبول الدعوة للحياة المكرسة للمسيح، واستخدم الواعظ تشبيهًا مثيرًا حول بذل الذات. غير أن شرحه للتفاعل الروحي للبذل ركز على الامتنان لما فعله المسيح لنا. وظللت منتظرًا أن أسمع كلمة قوية عن الدور الأساسي للرجاء كقوة داعمة لبذل الذات، لكنها لم تأت.

هذا الأسلوب لتحفيز التكريس يبدو غير ضار، بل نبيلاً، كما أنه جذاب. فما يُقال يبدو فوق النقد. على سبيل المثال قد يأتي القول: "لقد فعل الله الكثير من أجلك، والآن ماذا ستفعل أنت من أجله؟" أو "لقد وهبك حياته نفسها، فكم سيكون عليك أن تقدمه له؟"، وهناك الترنيمة الشهيرة لفرانسيس هافيرجالس حيث يقول المسيح فيها: "دمي الثمين قد أرقت من أجلك.. وأنت ماذا يا تُرى فعلت من أجلي؟" لا أقصد بذلك أن مثل هذه العبارات تعبِّر قطعًا عن فلسفة المديون، لكنني أقصد فقط أنها تميل لذلك بسهولة.

في ظل فلسفة المديون تبدو الحياة المسيحية كأنها محاولة لرد الدَّيْن الذي ندين به لله. دائمًا ما يأتي التوكيد بأنه ليس في استطاعتنا أبدًا أن نسدد ما ندين به لله، لكن الامتنان يقتضي بأن نحاول ذلك. وتكون الأعمال الصالحة والممارسات الدينية هي الأقساط التي نقدِّمها لسداد الدَّيْن الذي لا ينتهي لله. فلسفة المديون هذه دائمًا ما تختفي، ربما دون قصد، وراء الكلمات التي تقول: "ينبغي علينا أن نطيع المسيح انطلاقًا من امتناننا له."

هذه الدعوة للامتنان كأسلوب محفز للمؤمنين منتشرة إلى الحد الذي فيه قد يصير الأمر صادقًا عندما أتساءل عما إذا كان لهذه الدعوة سند كتابي قوي. لكن دعونا نفكِّر في ذلك للحظة.. في رأيك ما عدد المواضع الكتابية التي يظهر فيها الامتنان أو الشكر كمحفز للسلوك الأخلاقي؟ وأقصد بذلك سلوكيات مثل معاملة

الناس بمحبة، وإنجاز العمل بأمانة، واحتمال المخاطر في العمل الكرازي. هل يخبرنا الكتاب المقدس بأنه يجب القيام بهذه الأمور انطلاقًا من امتناننا أو بقوة الشكر، أو لأننا ندين بالكثير للمسيح؟

هذا الأمر لا يمكن اعتباره تافهًا أو عارضًا، لكنه أمر مذهل. فلو أنك سألت المسيحيين اليوم: "ما هو المحفز الكتابي للطاعة المسيحية؟" فستكون إجابة عدد كبير منهم هي: "الامتنان لله." إلا أن هذا الأسلوب في التفكير غير مألوف تمامًا في الكتاب المقدس. فنادرًا ما يقول الكتاب المقدس بوضوح إن الامتنان هو الدافع للسلوك الأخلاقي، أو إن عدم الامتنان يعتبر تفسيرًا للانحلال الأخلاقي.

إن مثل هذا الأمر صادم عندما يتسرب إلى قناعتك.. فهذا الاعتقاد السائد بشأن تحفيز حياة الطاعة المسيحية نادرًا ما يُذكر في الكتاب المقدس. هذه الحقيقة بمثابة لكمة في الوجه تجعلك تفقد الوعي للحظات. هل الأمر بالفعل كذلك؟ سيكون عليك البحث بنفسك لتتأكد من ذلك تمامًا.

هل كان عدم الامتنان هو المشكلة؟

كان شعب الله في العهد القديم يخطئون دومًا في حقه رغم كل الأمور الصالحة التي صنعها من أجلهم. لكن السبب وراء هذه الخطية لم يكن عدم امتنانهم، لكن، على سبيل المثال، غياب الإيمان: «حتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟» (عدد ١٤: ١١). لم تكن المشكلة الأخلاقية التي تقض مضجع موسى هي عدم الامتنان، لكن ما كان يزعجه هو أن نعمة الله الماضية لم تحفز الشعب على الثقة في نعمة الله المستقبلية. كان الإيمان بالنعمة المستقبلية، وليس الامتنان، هو القوة الأخلاقية الغائبة اللازمة للتغلب على التمرد وللتحفيز على الطاعة.

بينما قد يقول المؤمن اليوم إن المشكلة تكمن في غياب الشعور بالامتنان، يقول كاتبو الأسفار المقدسة مرة تلو الأخرى إن المشكلة إنما هي غياب الإيمان بنعمة الله المستقبلية. فموسى يوبخ الشعب بقوله: «رأيت كيف حملك الرب إلهك كما يحمل الإنسان ابنه.. ولكن في هذا الأمر لستم واثقين بالرب إلهكم.» (تث ١: ٣١، ٣٢).

ويسوق المرنم نفس الأسباب وراء خطية الشعب رغم كل البركات التي غمرهم الله بها: فرغم أنه «شق صخورًا في البرية، وسقاهم كأنه من لجج عظيمة.. ثم عادوا أيضًا ليخطئوا إليه.. لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتكلوا على خلاصه» (مز ٧٨: ١٥، ١٧، ٢٢).

قد يكون الشعب العاصي قد افتقد بالفعل الشعور بالامتنان، لكن ليس ذلك ما يفسِّر به الكتاب المقدس تمردهم وعصيانهم. والتفسير الذي يقدِّمه الكتاب مرارًا وتكرارًا هو نقص الإيمان بنعمة الله المستقبلية. وبالتالي فالقناة المفقودة للقوة المحفزة بين النعمة الماضية والطاعة المستقبلية ليست هي الامتنان المتجه إلى الماضي، بل الإيمان المتجه إلى المستقبل. وسوف تظل تقرأ العهد القديم دون جدوى في العثور على نصوص تجعل من الامتنان الحافز الواضح لحياة الطاعة أو القوة اللازمة لها.

مخافة الرب والإيمان بالنعمة المستقبلية

هناك محفزات أخرى على الطاعة في العهد القديم، مثل محبة الله ومخافة الرب. سوف نتعامل في الفصول المقبلة مع العلاقة بين الإيمان بالنعمة المستقبلية ومحبة الله.[١] لكننا نجد المجال مناسبًا هنا لنقول شيئًا عن مخافة الله وعلاقتها بالطاعة والإيمان بالنعمة المستقبلية.

علَّم موسى الشعب بأن مخافة الله تثمر طاعة: «تتقي الرب إلهك وتحفظ جميع فرائضه ووصاياه» (تث ٦: ٢)، ولخص سليمان تعليمه في سفر الجامعة بالقول: «فلنسمع ختام الأمر كله: اتَّقِ الله واحفظ وصاياه» (جا ١٢: ١٣)، ويقول نحميا لعظماء أورشليم وولاتها: «أما تسيرون بخوف إلهنا؟» (نح ٥: ٩)، ويقول سفر الأمثال: «كُنْ في مخافة الرب اليوم كله» (أم ٢٣: ١٧). فالسلوك المستقيم والحياة المستقيمة ينبعان من مخافة الرب، لكن بحسب حدود معرفتي، لا توجد تعبيرات مثل هذه تربط الامتنان والطاعة بنفس الأسلوب.

بل وهذه التعبيرات الخاصة بمخافة الرب ربما تكون هي وجه العملة الآخر من الثقة في نعمة الرب المستقبلية.[٢] فعبارة «اتَّقِ الله» قد تعني "احذر من الإهانة الكبيرة التي توجهها لله عندما لا تثق في وعوده لك بالقوة والحكمة." ربما لهذا السبب يقول المرنم: «يا متقي الرب، اتكلوا على الرب. هو معينهم ومجنهم» (مز ١١٥: ١١). بمعنى آخر، إذا لم تمتزج المخافة بالثقة في الله فلن تكون مرضية أمامه: «بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه» (عب ١١: ٦). فالطاعة التي تنبع من مخافة الرب دون إيمان بنعمته المستقبلية ليست طاعة الحرية بل العبودية.

هذه الترابطية بين المخافة والإيمان تمثل في غالب الأمر السبب في أن الناس إذ رأوا النعمة المعطاة لداود في وقت الأزمة، شعروا بالمخافة والثقة تتولدان جنبًا

إلى جنب في قلوبهم: «وجعل في فمي ترنيمة جديدة، تسبيحة لإلهنا. كثيرون يرون ويخافون ويتوكلون على الرب» (مز ٤٠: ٣). حدث نفس الشيء عند البحر الأحمر: «ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب» (خر ١٤: ٣١). فالمخافة والإيمان يحدثان معًا كرد فعل لقوة الله العظيمة ووعده بالنعمة المستقبلية.

إن مخافة الرب هي أن يرتجف الإنسان بسبب إدراكه لمدى الإهانة الموجهة للإله القدوس عندما لا نمتلك إيمانًا بنعمته المستقبلية بعد كل الآيات والعجائب التي صنعها ليحصل على ثقتنا الخاضعة له. إن هذا الإيمان بالنعمة المستقبلية هو الذي يربط قوة الله بالطاعة. وسنظل نبحث دون جدوى في العهد القديم عن تعليم واضح يشير إلى أن الامتنان هو القناة الموصلة لهذه القوة.

أوفِ نذورك للعلي

ربما يكون الاستثناء الوحيد لهذه الملاحظة في العهد القديم هو التعليم بوجوب إيفاء نذورنا لله. وقد أخذني التفكير في هذا الاستثناء إلى أعماق أكبر بشأن العلاقة بين الامتنان والإيمان بالنعمة المستقبلية.

واحد من أهم النذور التي قطعتها للرب كانت بسبب رهبة مواجهة الجمهور. كنت أدرس في الكلية وتجمدت خوفًا من فكرة الحديث في مواجهة الجمهور.[٣] فقد طلب مني راعي كلية «ويتون» القس «إيفان ويلش» تقديم صلاة تضرعية قصيرة أثناء فترة تعبدية خلال أحد الفصول الدراسية الصيفية. كان معنى ذلك أن أتحدث على الأقل لمدة ٣٠ ثانية لبعض المئات من الحاضرين. قد يبدو هذا أمرًا بسيطًا لغالبية الناس، لكن بالنسبة لي كانت لحظة فارقة في حياتي. وكانت موافقتي على ذلك ضد كل ميولي الطبيعية. ثم بدأت أصارع مع الله بغية أن يساعدني حتى لا يصيبني الخوف بالشلل فلا أتمكن من الحديث، وهذا ما قد حدث معي مرارًا خلال دراستي الثانوية في كل مرة كان عليَّ تقديم موضوع صغير أمام الآخرين.

عندئذ قطعت نذرًا، وقلت: "يارب إذا ساعدتني في القيام بهذه الصلاة أمام جميع هؤلاء الطلبة والأساتذة، فإنني لن أعتذر عن فرصة للحديث بسبب خوفي." وساعدني الرب، وبحسب ما تسعفني ذاكرتي، فقد حفظت نذري أمام الرب إلى هذا اليوم. لكن هل كنت على صواب حين فعلت ذلك؟ أم أن قطع النذر والوفاء به يمثلان جزءًا من فلسفة المديون؟

إن النذور هي وعود يقطعها المرء لله، وغالبًا ما تكون في أوقات الأزمات. على سبيل المثال قال أبشالوم لداود: «لأن عبدك نذر نذرًا عند سُكناي في جَشور في أرام قائلاً: إن أرجعني الرب إلى أورشليم فإني أعبد الرب» (٢صم ١٥: ٨). فالرب ليس ضد نذر النذور،(٤) بل في واقع الأمر يبدو أن حزقيا قد واجه نقدًا لأنه لم يقطع نذرًا: «في تلك الأيام مرض حزقيا إلى حد الموت وصلى إلى الرب فكلمه وأعطاه علامة. ولكن لم يَرُد حزقيا حسبما أُنعم عليه لأن قلبه ارتفع، فكان غضبٌ عليه وعلى يهوذا وأورشليم» (٢أخ ٣٢: ٢٤، ٢٥). يبدو أن حزقيا كان عليه أن يقطع نذرًا بأن يخدم الرب وأن يوفي هذا النذر. بالإضافة إلى ذلك، فإن الله يقدِّم تعليمات للوفاء بالنذر: «إذا نذرت نذرًا للرب إلهك، فلا تؤخر وفاءه، لأن الرب إلهك يطلبه منك فتكون عليك خطية» (تث ٢٣: ٢١).

في بعض الأحيان ارتبط إيفاء النذر بالامتنان. فعلى سبيل المثال نقرأ في مزمور ٥٠: ١٤: «اذبح لله حمدًا، وأوفِ العليّ نذورك». ربما كانت النذور في هذا السياق خاصة بتقديم ذبائح الشكر. ويبدو أن هذا هو القصد في قول المرنم أيضًا: «أدخل إلى بيتك بمحرقات، أوفيك نذوري التي نطقت بها شفتاي، وتكلم بها فمي في ضيقي» (مز ٦٦: ١٣، ١٤). فعندما اجتاز المرنم الضيق نذر بأن يقدِّم محرقات للرب. لذا فذبيحة الشكر هي وفاء النذر.

ربما كانت هناك أمور أخرى ينذرها الناس من حين إلى آخر بجانب الطقوس التعبدية مثل ذبيحة المحرقة. لذا فمن العدل القول بأن بعض التعهدات الأخلاقية تجد المحفز لها في الرغبة في أن يرد المرء لله بعض الخير بسبب العون الذي قدمه له في وقت الضيق. لا يقول العهد القديم صراحة إن هذا السلوك ينبع من الشعور بالامتنان، أو حتى إنه يعبِّر عن الامتنان؛ لكن العلاقة واضحة جدًا. فكيف لنا أن نفهم هذه الصلة وعلاقتها بالإيمان بالنعمة المستقبلية؟ ولماذا لا يعتبر إيفاء النذر لله نموذجًا لفلسفة المديون؟

هل إيفاء النذر نموذج لفلسفة المديون؟

إن ما يحفظ إيفاء النذور من أخطار فلسفة المديون هو أن هذا الإيفاء في حقيقته ليس إيفاءً طبيعيًا، لكنه قبول آخر لنعمة الله المتفاضلة؛ وهو لا يعظم سعة حيلتنا. ويمكننا أن نرى ذلك في مزمورين: أولاً في مزمور ١١٦: ١٢- ١٤ حيث يقول المرنم: «ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي؟ كأس الخلاص أتناول، وباسم الرب أدعو.

أوفى نذوري للرب». إن إجابة المرنم على سؤاله: "ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي؟" هي أنه سوف يستمر في الأخذ من الرب لكيما يتعظم صلاح الرب اللانهائي. أولاً: أخذ كأس الخلاص يعني قبول خلاص الله المشبع والتلذذ منه وانتظار المزيد. لهذا أقول إن رد الجميل لله في هذه السياقات ليس إيفاءً عاديًا، لكنه قبول عطية الله من جديد.

ثانيًا: هذا هو معنى العبارة التالية أيضًا: «باسم الرب أدعو.» ماذا أرد للرب من أجل إجابته لدعواي؟ الإجابة هي: أن أدعو مرة أخرى. سوف أقدِّم لله السبح والإكرام إذ أنه، رغم عدم احتياجه لي، فإنه يغمرني بالإحسانات عندما أحتاج إليه (وهذا هو حالي دائمًا). ثم يقول المرنم في العبارة الثالثة: «أوفي نذوري للرب.» لكن كيف سيتم إيفاؤها؟ بأن أرفع كأس الخلاص وأدعو باسم الرب.. أي أن إيفاءها سوف يتم بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

الإيمان بالنعمة المستقبلية يحمي الامتنان من فلسفة المديون

الإيمان بالنعمة المستقبلية هو السر الذي يحفظ دوافع الامتنان من التحول إلى فلسفة المديون. إن الامتنان الحقيقي يفرح بكل غنى نعمة الله، وهو ينظر إلى كل الإحسانات التي تمتع بها قبلاً. وإذ يبتهج بالنعمة الماضية، فهو يدفع القلب للثقة في النعمة المستقبلية. يمكننا القول إن الامتنان يشتهي كثيرًا متعة النظر إلى نعمة الله الماضية. حيث أن الله قد جعل تدفقه المستقبل يجري من خلال الإيمان، لذا فالامتنان يرسل دوافع فرحه في الإيمان بالنعمة المستقبلية. هذا الأمر تعبِّر عنه عبارة: «كأس الخلاص أتناول، وباسم الرب أدعو.» فالامتنان يبتهج ببركات الله ويقول للإيمان: «تناول أكثر من هذه الإحسانات من أجل المستقبل، حتى يستمر عملي السعيد بالنظر إلى خلاص الله في الماضي».

نفس الفكرة موجودة في مزمور ٥٠؛ فالله يحذِّر من طريقة خاطئة لرد الجميل عندما يقول في عددي ١٢ و١٣: «إن جُعت فلا أقول لك، لأن لي المسكونة وملأها. هل آكل لحم الثيران، أو أشرب دم التيوس؟» وهذا يعني بكلمات أخرى: "لا تنظر إلى ما تقدمه لي كأمر طبيعي يسدد احتياجي أو يضيف لي أي شيء. فأنا بالفعل أمتلك ما تريد تقديمه لي."

ماذا إذًا؟ يجيب المزمور: «اذبح لله حمدًا، وأوف العلي نذورك. وادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني» (مز ٥٠: ١٤، ١٥).. هنا أيضًا طريق إيفاء النذور إنما

هو دعوة الرب في يوم الضيق لكي يقوم بالإنقاذ ليأخذ المجد. هذا يوضح أن إيفاء النذور في العهد القديم ليس جزءًا من فلسفة المديون؛ إنما هو عمل الإيمان بالنعمة المستقبلية.. أوفِ نذورك، بمعنى أن تدعوني في يوم الضيق فأنقذك بالنعمة المستقبلية، وعندئذ تمجدني.

خلاصة القول، نستطيع القول إن الامتنان الحقيقي لا يؤدي إلى فلسفة المديون؛ لأنه يؤدي إلى الإيمان بالنعمة المستقبلية. ومع الامتنان الحقيقي هناك فرح حقيقي بنعمة الله الثمينة في الماضي مما يدفعنا لأن نختبر الكثير والكثير منها في المستقبل. لكن هذا لا يحدث من خلال رد الديون بالمعنى المتعارف عليه. بل يحدث بالحري من خلال تحويل الامتنان إلى إيمان إذ إنه يتحول من التأمل في غنى الماضي إلى انتظار لوعود المستقبل.

إذا كان هذا هو التوجه الذي يشير إليه العهد القديم، فماذا عن العهد الجديد؟ ما هو التوجه الفكري الذي يقودنا إليه العهد الجديد بشأن فسلفة المديون؟ هذا ما سوف نراه في الفصل الثاني.

إن بذل المجهود لرد الجميل لله بالطريقة العادية التي نفعلها مع الدائنين
من شأنه أن يبطل النعمة ويحولها إلى صفقة تجارية.
وإذا ما كنا ننظر إلى أعمال الطاعة كأقساط نسددها،
فإننا نجعل من النعمة رهنًا...
دعونا لا نقول إن النعمة تخلق ديونًا،
بل لنقل إن النعمة تسدد ديونًا.

إن النعمة الماضية تتمجد من خلال الشعور بالامتنان القوي المبتهج.
والنعمة المستقبلية تتمجد بواسطة الثقة القوية المبتهجة.
هذا الإيمان هو الذي يقوينا
من أجل الطاعة المغامرة
لنصرة قضية المسيح.

الفصل الثاني

عندما لا يعمل الامتنان بالشكل الصحيح

فكرة فلبينية

أثناء كتابة هذا الكتاب قدمت درسًا عن فلسفة المديون في كنيستي. وحدث أن كان من بين الحاضرين خادم مرسل إلى الفلبين جاءني بعد الاجتماع وقال: "هل تعلم أنك كنت تتحدث عن أمر في منتهى الأهمية بالنسبة للثقافة الفلبينية؟" وأضاف موضحًا أنه في العقلية الفلبينية هناك ما يُسمى بـ «أوتانج نالوب»، وقدم لي فيما بعد مقالة تشرح ما قصده بذلك.

كتبت «إيڤلين ميراندا- فليشيانو» كتابًا عرَّفت فيه «الأوتانج نالوب» بأنه: "الدَّيْن الاختياري".. "فهو قانون داخلي يُلزم الشخص الذي يحصل على شيء صالح أو معروف من أحدهم أن يسلك بسخاء نحو المحسن إليه طوال حياته."[1]

وتواصل القول بأنه: "بالنسبة للإنسان الفلبيني، إظهار عدم الامتنان يعتبر أمرًا مهينًا، وأن يسلك بامتنان نابع من طبيعته. فشعوره بالأوتانج نالوب يشير إلى نزاهته كشخص في سياق العلاقات المجتمعية."[2] لكن هناك بعض الجوانب السلبية في هذا النوع من التفكير.

> بصورة عامة تأتي فكرة المديونية التي تطول لمدى الحياة من حقيقة أنه من الصعب قياس امتنان شخص ما لدائنه. فهي مديونية أكبر من أن يوفيها مال، لا يمكن تحديدها أو تقدير كميتها. والمديون التعس لا يمكنه التأكد أبدًا من أن ما قام به يعتبر كافيًا لرد الدَّيْن. وهكذا يظل

ملتزمًا دائمًا أن يكون أسير الإحسان، وطوع أمر دائنه ما لم يطلقه الدائن بوضوح تام، ويحرره من هذا الالتزام الذاتي الثقيل.

من الواضح أن الشكل الفوضوي للأوتانج نالوب يميل إلى خلق نموذج تسلطي لعلاقة الرئيس والمرؤوس. فهي تخلق نوعًا من الاعتمادية والتواكل المدمر لحرية واحترام الذات سواء للفرد أو الأمة.[٣]

الأمر إنساني، وليس له علاقة بالثقافة الفلبينية

هذا الإدراك لحقيقة الأوتانج نالوب في الثقافة الفلبينية، والمشكلات التي تخلقها للإرسالية المسيحية، زاد من اهتمامي بالأمر إلى درجة غير مسبوقة. فأنا لا أظن أن المخاطر الروحية التي يمثلها الأوتانج نالوب تخص الفلبينيين فقط؛ لأنها موجودة في كل قلب إنسان. يبدو أننا رومانسيون في نظرتنا للعلاقة مع الله فيما يختص بالتركيز على ما عمله من أجلنا في الماضي وما يجب علينا الآن عمله في المستقبل من أجله من خلال رد الدَّيْن له.

ما رأيناه في الفصل السابق هو أن الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية هي الترياق الكتابي المضاد لفلسفة المديون.. كذلك الجوانب السلبية للأوتانج نالوب. لقد وعد الله بالنعمة في المستقبل، وأيًا كان ما نقدمه له نظير كل أعمال صلاحه في الماضي من نحونا، فإننا نقدمه بالاتكال على نعمته المستقبلية. إن الدَّيْن الوحيد الذي تخلقه النعمة هو دَيْن الاتكال على المزيد من النعمة لكل ما يدعونا الله أن نكونه ونعمله. هذا ما رأيناه في الفصل السابق من خلال تأملنا في العهد القديم. وهو أيضًا ما سوف نراه الآن من خلال تأملنا في العهد الجديد.

كل الطاعة ينبغي أن تكون بالإيمان

في العهد الجديد تبدو فكرة الإيمان بالنعمة المستقبلية كمحفز على الطاعة المسيحية أكثر وضوحًا وصراحة عنها في العهد القديم. فالرسول بولس انتقد شعب بني إسرائيل لفشله في إطاعة الناموس «بالإيمان»، لكنه لم ينتقده أبدًا لفشله في ذلك عن طريق الامتنان. فهو يقول: «ولكن إسرائيل، وهو يسعى في أثر ناموس البر، لم يدرك ناموس البر! لماذا؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان، بل كأنه بأعمال الناموس» (رو ٩: ٣١، ٣٢).

على نفس المنوال، في عبرانيين ١١ نجد المدح لقديسي العهد القديم يتكرر مرارًا لأن طاعتهم كان يحركها الإيمان. بالإيمان إبراهيم أطاع (١١: ٨)، بالإيمان نوح بنى فلكا (١١: ٧)، بالإيمان موسى ترك مصر (١١: ٢٧)، بالإيمان صنعوا برًا (١١: ٣٣). لكننا لا نجد تعبيرًا في الكتاب مثل: "بالامتنان أطاعوا"، أو "بالشكر صنعوا برًا."

أضف إلى ذلك أننا نجد الطاعة المسيحية تُدعى «عمل الإيمان»، وليس «عمل الامتنان» (١تس ١: ٣؛ ٢تس ١: ١١). ونجد تعبيرات مثل «الحياة بالإيمان» (غل ٢: ٢٠)، و«السلوك بالإيمان» (٢كو ٥: ٧)، ولا نجد مطلقًا تعبيرات مثل «الحياة بالامتنان» أو «السلوك بالامتنان». نجد كذلك تعبير «الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ٦)، وليس «الامتنان العامل بالمحبة». ونقرأ أن «غاية الوصية هي المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء» (١تي ١: ٥)، وليس «امتنان بلا رياء». ونقرأ أن التقديس يكون بـ «تصديق الحق» أي الإيمان بالحق (٢تس ٢: ١٣)، وليس بـ «الامتنان». ونقرأ أن «الإيمان بدون أعمال ميت» (يع ٢: ٢٦)، وليس أن «الامتنان بدون أعمال ميت». وعندما يتعامل يسوع مع تردد التلاميذ حول أولوية طلب ملكوت الله لأنهم كانوا يهتمون بالمأكل والملبس، فإنه لم يقل لهم: "يا قليلي الامتنان"، بل قال: «يا قليلي الإيمان» (مت ٦: ٣٠). فالإيمان بالنعمة المستقبلية، وليس الامتنان، هو منبع الطاعة الأصيلة، المغامرة والطالبة لملكوت الله.

كما ذكرت قبلاً، لا يمكن اعتبار هذا الأمر تافهًا أو عارضًا؛ لكنه أمر مدهش. فالامتنان لا يقدِّمه الكتاب المقدس لكونه محفزًا أوليًا للحياة المسيحية. الامتنان أمر جميل، ولا توجد مسيحية بدونه. فهو في صميم العبادة، وينبغي أن يملأ قلب كل مؤمن. لكن عندما يأتي الأمر إلى شرح الآليات الروحية لكيفية حدوث الطاعة المسيحية، فالكتاب المقدس لا يقول أنها تتولد من امتناننا لما حدث في الماضي بل من نظرتنا الإيمانية للمستقبل.

استثناء ممكن

قد يكون الاستثناء الممكن الوحيد في العهد الجديد هو الوارد في رسالة العبرانيين ١٢: ٢٨ و٢٩: «لذلك ونحن قابلون ملكوتًا لا يتزعزع ليكن عندما شكر به نخدم خدمة مرضية، بخشوع وتقوى. لأن إلهنا نار آكله». لاحظوا القول: «به (أي بالشكر) نخدم الله خدمة مرضية.» يبدو هنا أن الامتنان هو الدافع وراء خدمتنا.. قد يكون بالفعل هذا هو المعنى. فإذا كان كذلك، فالطريقة التي بها يقوي الامتنان الخدمة تتمثل في غالب الأمر في إمداد الإيمان بالتوقع المبتهج لنعمة الله المستقبلية.. هذا التوقع مبني

على أساس الخبرة الماضية. أقول هذا لأن رسالة العبرانيين أكثر من أي سفر آخر في العهد الجديد تؤكد بوضوح على أن الطاعة تأتي بالإيمان (عب ١١).

لكن في واقع الأمر، قد يعني ما ورد في عبرانيين ١١: ٢٨ أمرًا مختلفًا. فترجمة الملك جيمس توردها كالتالي: «لذلك ونحن قابلون ملكوتًا لا يتزعزع ليكن عندنا نعمة بها نخدم الله خدمة مرضية». عبارة «ليكن عندنا نعمة» هي ترجمة شائعة تعني: «ليكن عندنا شكر»، لكن إذا كانت الترجمة الحرفية دقيقة، يكون ما تقوله الآية تحديدًا هو: «دعونا نحفظ ثقتنا في النعمة المستقبلية والتي ستهبنا القوة لنخدم الله». في هذه الحالة لا تعبِّر الكلمة عن الامتنان، بل عن الإيمان بالنعمة المستقبلية. في كلتا الحالتين لا تبطل هذه الآية النقطة التي تريد إبرازها: فكل من العهدين القديم والجديد لا يتعامل مع الامتنان على كونه المحفز الأساسي للطاعة، لأن الإيمان بالنعمة المستقبلية أكثر تأثيرًا في هذا المجال. وما سوف نراه عند نهاية هذا الفصل هو أن التفاعل بين الامتنان والإيمان يجعل من الامتنان خادمًا للإيمان في النعمة المستقبلية.

هل يمكن أن يُبطل الامتنان النعمة؟

يبدو أن الامتنان مُعرَّض جدًا لإساءة الاستخدام كشكل من أشكال فلسفة المديون؛ حتى أن الله لم يقصد له أن يعمل كمحفز أساسي للحياة المسيحية.. وهذا أمر يجدر بنا الالتفات إليه. ويمكننا أن نرى بأكثر وضوح لماذا يقودنا الله في هذا الاتجاه عندما نتأمل في المخاطر المحيطة به. إذا تحولت دوافع الامتنان إلى فسلفة المديون تتوقف النعمة عن أن تكون نعمة. إن المجهود لرد الجميل لله بالطريقة العادية التي نفعلها مع الدائنين من شأنه أن يُبطل النعمة ويحولها إلى صفقة تجارية؛ وإذا ما كنا ننظر إلى أعمال الطاعة كأقساط نسددها فإننا نجعل من النعمة رهنًا.

تخيل الخلاص بيتًا تعيش فيه.. يوفر لك هذا المنزل حماية، فهو مليء بالطعام والشراب الذي لا ينتهي أبدًا، وهو لا يفسد ولا ينهدم، نوافذه مفتوحة أمام أفق المجد، بناه الله بثمن غالٍ على نفسه وعلى ابنه، ووهبه لك؛ وأطلق على اتفاقية الشراءٍ لقب «العهد الجديد». وتنص بنود الاتفاقية على التالي: "هذا البيت يكون ويبقى ملكًا لك إذا قبلته كهدية وابتهجت بالآب والابن اللذين يسكنان معك فيه. عليك ألا تنجس بيت الله بآلهة أخرى أو يسير قلبك وراء كنوز أخرى." أليس من الحماقة أن توافق على هذه الاتفاقية ثم تكلِّف محاميًا ليعد لك جدولاً لتسديد ثمن هذا البيت من خلال أقساط شهرية على أمل تسوية هذا الدَّيْن. أنت بذلك لا تنظر إلى البيت كهدية، بل كصفقة. ولا يكون الله فيما بعد محسنًا. وستجد نفسك مستعبدًا لقائمة جديدة من المتطلبات

لم يتصور الله للحظة أن يضعها على كاهلك. إذا كان معنى النعمة هو أن تكون حرًا، وهو المعنى الأصيل للنعمة، فلا يجب أن ننظر لها كَدَيْنْ يجب تسديده.

إلى أي مدى نحن مديونون للنعمة؟

ما معنى هذا بالنسبة لترانيم رصينة ومحبوبة مثل ترنيمة «تعال أيها الينبوع» لروبرت روبنسون؟ تقول كلمات العدد الأخير:

كم عظيم ديني للنعمة!
التي تغمرني وتحصرني كل يوم
فلتجعل صلاحك يربط
قلبي التائه بشخصك
فأنا عرضة للشرود
عرضة لترك الإله الذي أحبه
ها قلبي أمامك.. فلتأخذه وتختم عليه
لتختم عليه إلى يوم اللقاء في السماء

إنني لا أنكر أننا مديونون لله. لقد علَّمنا يسوع أن نصلي قائلين: «اغفر لنا ذنوبنا (ديوننا)» (مت ٦: ١٢)، ودعا الناس «مذنبين» (مديونين) بسبب خطاياهم (لو ١٣: ٤). بكلمات أخرى، عندما يركِّز الكتاب المقدس على كوننا مديونين لله فهو يشير إلى خطايانا التي تحتاج أن تُغفر، وليس إلى حياة الطاعة التي تحتاج أن نقدمها لله.

قد يكون من الملائم أكثر أن نقول إننا مديونون لعدل الله وليس لنعمته. بمعنى أننا إذا تعاملنا معه بطريقة دفع الديون، فهو سيتعامل معنا وفقًا لقواعد العدالة.. ثمن في مقابل ثمن (راجع رو ٤: ٤). ولن يمكننا الاستمرار في هذه الصفقة؛ لهذا نحن نطلب غفران ذنوبنا بدلاً من اقتراح جدول لتسديد ديوننا. ولكي نكون أكثر تمسكًا بالمبادئ الكتابية، ليتنا لا نقل إن النعمة تخلق ديونًا بل لنقل إن النعمة تسدد ديونًا. وهذا ما تقوله ترنيمة أكثر معاصرة:

افرحوا.. افرحوا
فكل دَيْن عليك
سددته نعمة الرب
افرحوا.. افرحوا.. افرحوا.[٤]

أظن أن «روبنسون» يستخدم عبارة "مديون للنعمة" دون تحديد ليعني أن كل ما لديه يدين به للنعمة.. فالكل يأتي من النعمة. وهكذا فإنه يعتمد كلية على النعمة في كل أمر الآن وإلى الأبد. إن مديونيته لا تتضمن شكلاً من أشكال السداد، وإنما أبدية ملؤها الاتكال بروح الطفولة على هذه النعمة.

ربما كان «روبنسون» يريد أن يقول، وكنت أتمنى أن يقولها بوضوح، إن الدَّين الوحيد الذي يمكنك رده دون إبطال للنعمة هو الاتكال على النعمة المستقبلية. إن ما يعظِّم النعمة المستقبلية الدائمة الأبدية هو الثقة فيها لحظة بعد الأخرى. أتمنى أن يكون هذا ما كان «روبنسون» يصلي من أجله عندما قال: "فلتجعل صلاحك يربط قلبي التائه بشخصك.. لتختم عليه إلى يوم اللقاء في السماء." بمعنى اجعلني قريبًا منك متكلاً عليك بدلاً من أن أتجول باحثًا عن أمر أكثر دوامًا وإشباعًا.

ليس كل مجد الله ينتمي للماضي

هناك مشكلة أخرى تتعلق بفلسفة المديون.. إنها تمثل خطر التقليل من شأن مجد النعمة من خلال توجهها المحدود نحو الماضي. الامتنان ينظر إلى الوراء، وهذا ليس بالأمر السيء. فالكتاب المقدس يوصينا بأن نذكر نعمة الله في الماضي: «اذكروا عجائبه التي صنع، آياته وأحكام فيه» (مز ١٠٥: ٥). إن الاتساعات العريضة لنعمة الله ومجده يقل بهاؤها إذا نسينا الماضي. وعمل الامتنان هو استدعاء لهذا المجد في العبادة.

عندما يتعطل عمل الامتنان

لكننا لا نحيا في الماضي.. لا شيء من طاعتنا الكامنة يمكن أن يحدث في الماضي؛ فكل حياتنا سوف تُعاش في المستقبل. لذا عندما نحاول أن نجعل الامتنان يحفز هذه الطاعة المستقبلية، لا تسير الأمور كما ينبغي. فالامتنان في أساسه إنما هو تجاوب مع نعمة الله الماضية؛ وهو يعمل بشكل خاطئ عندما نجبره على أن يكون محفزًا للمستقبل- ما لم يتحول إلى إيمان بالنعمة المستقبلية.

هنالك قوة إلهية من أجل الطاعة المستقبلية. لكن الامتنان ليس مصممًا ليحمل هذا التيار القوي من النعمة المستقبلية. أما الإيمان فمصمم لذلك. عندما يُدفع الامتنان دفعًا للقيام بهذا الدور فما يحدث هو ظهور فلسفة المديون التي تسعى لخلق الطاعة المستقبلية بقوة النعمة الماضية. وأمر مثل ذلك لا ينجح، إذ أنه يتعامل مع الماضي.

وهكذا يحاول الامتنان بأقصى ما يستطيع رغم أن هذا ليس دوره؛ فهو يدعو الإرادة لأن ترد لله ديون النعمة الماضية التي اختبرتها جيدًا. فتبدأ الإرادة، تحت تأثير النعمة الماضية (ولكن ليس بقوة النعمة المستقبلية) في محاولة الإتيان بأمور صالحة لله بواسطة قوة الامتنان- أي من خلال قوة النعمة الماضية الباقية في الذاكرة. فإذا لم يتدخل الإيمان بالنعمة المستقبلية لنجدة الامتنان عند هذه النقطة، تنتصر فلسفة المديون وتنمو أشكال غامضة من البر الذاتي، وهذا ما ندعوه الفريسية.

المشكلة الأساسية هنا تكمن في أن توجه الماضي لفلسفة المديون تسعى لأن تخفي عنا تيار النعمة المستقبلية الأبدي الذي لا ينتهي ولا يتوقف. هذه النعمة موجودة في المستقبل لنثق فيها ونحيا متكلين عليها. وهي موجودة لتقدم التشجيع والقوة لطاعتنا. هذا التدفق اللانهائي لنعمة الله يتعرض للهوان عندما نفشل في امتلاكه بالإيمان في النعمة المستقبلية.. الإيمان وليس الامتنان هو المقصود لذلك. النعمة الماضية تتمجد من خلال الامتنان القوي المبتهج؛ والنعمة المستقبلية تتمجد بالإيمان القوي المبتهج. هذا الإيمان هو الذي يقوينا من أجل الطاعة المغامرة لنصرة قضية المسيح.

فلسفة المديون ليست أمرًا جديدًا

بينما كنت أكتب هذا الفصل حدث أني سحبت من على رف المكتبة كتابًا صغيرًا لـ «أندور موراي» بعنوان «عِشْ في المسيح». كان «موراي» راعيًا وكاتبًا هولنديًا مصلحًا خدم في جنوب أفريقيا حتى وفاته عام ١٩١٧. والمتأمل في هذا الكتاب يكتشف أن الكاتب في عصره أبدى اهتمامًا بالكيفية التي بها يُحد الامتنان من إدراكنا لنعمة الله:

> الفكرة التي لدى الكثير من المؤمنين عن النعمة تتلخص في أن تجديدهم وغفرانهم هما من عمل الله، لكن الآن في امتنانهم لله أصبح عملهم هو أن يعيشوا كمؤمنين ويتبعوا يسوع... إن الأمر ليس كذلك أيها الغافل! فكما أن المسيح هو الذي دعانا عندما قال «اقبلوا» فإنه هو أيضًا الذي يحفظنا عندما يقول «عيشوا». فالنعمة الماضية التي أتت بنا، والنعمة المستقبلية التي نعيش فيها إنما هما منه هو على السواء.[٥]

إن عمل النفس المصمَّم لقبول قوة هذه النعمة وتحويلها إلى أسلوب جديد في الحياة ليس هو الامتنان، بل الإيمان بالنعمة المستقبلية. لذا يقول «موراي»: "بالإيمان أصبحت شريكًا في النعمة الأولى، وبنفس هذا الإيمان يمكنك أن تستمتع بنعمة

الحياة الدائمة فيه."[٦] بهذه الطريقة نعظِّم من مجد النعمة. فنحن نمجد النعمة الماضية بالامتنان، ونطرح ثقتنا بالإيمان في المستقبل بالنعمة المستقبلية الدائمة.

كلمة في حق الامتنان

إن الامتنان يمثل أمرًا عظيمًا ورائعًا في الكتاب المقدس، حتى أنني أشعر بالتزام أن أختم هذا الفصل بإشادة لدور الامتنان. هناك بعض الطرق التي يوِّلد فيها الامتنان طاعتنا للمسيح. إحدى هذه الطرق هو أن روح الامتنان ببساطة لا يتوافق مع بعض التوجهات القلبية الخاطئة. أعتقد أنه لهذا السبب كتب بولس قائلاً: «ولا كلام السفاهة والهزل التي لا تليق بل بالحري الشكر» (أف ٥: ٤). فالامتنان هو رد فعل متضع ومبتهج بالإرادة الصالحة لشخص حاول أن يصنع أو صنع بالفعل معروفًا لك. هذا الاتضاع والابتهاج لا يمكنه أن يتواجد في قلب الإنسان جنبًا إلى جنب مع توجهات شريرة وقبيحة وخبيثة؛ لذلك فتدريب القلب على الشكر لا يسمح بتواجد مثل هذه الخطايا.

هنالك جانب نرى فيه الامتنان والإيمان في تداخل بهيج يمتزجان معًا بحيث يقوِّي أحدهما الآخر. فكما أن الامتنان يبتهج فرحًا بإحسانات النعمة الماضية، فإن الإيمان يعتمد فرحًا على إحسانات النعمة المستقبلية. لذا فعندما يكون الامتنان لنعمة الله الماضية قويًا، فإن الرسالة تكون أن الله يستحق ثقتنا المطلقة في المستقبل نظرًا لما قد فعله في الماضي. بهذه الطريقة يتقوى الإيمان بالامتنان الحي لأمانة الله في الماضي.

على الجانب الآخر، عندما يكون الإيمان بنعمة الله المستقبلية قويًا، تكون الرسالة أن مثل هذا الإله لا يرتكب أخطاءً حتى أن كل ما قد صنعه في الماضي لا يمثل إلا جزءًا من خطة صالحة، كما ينبغي أن نذكر هذا الماضي بامتنان. بهذه الطريقة يتقوى الامتنان بالإيمان الحي في نعمة الله المستقبلية. من المؤكد أن القلب المؤمن بالنعمة المستقبلية هو فقط الذي يمكنه أن يتبع الرسول بولس ليكون: «شاكرًا في كل حين على كل شيء في اسم ربنا يسوع المسيح» (أف ٥: ٢٠). وإذا لم نثق بأن الله يحوِّل الأزمات الماضية إلى تعزية في المستقبل، فإننا لن نستطيع أن ننظر إلى الماضي ممتنين وشاكرين على كل شيء.

يبدو لي أن هذا الارتباط بين الإيمان ذي التوجه المستقبلي والامتنان بتوجهه إلى الماضي هو ما يحفظ الامتنان من أن يتحول إلى فلسفة المديون. فالامتنان للنعمة الماضية يقول دائمًا للإيمان: "كن قويًا، ولا تشك في أن الله سوف يكون منعمًا في

المستقبل تمامًا كما كان معك في الماضي." ويقول الإيمان بالنعمة المستقبلية دائمًا للامتنان: "هناك المزيد من النعمة قادم، وكل طاعتنا ينبغي أن نقدمها متكلين على هذه النعمة المستقبلية. اطمئن وابتهج، فأنا مسؤول عن الطاعة في المستقبل."

وكما يقول يسوع: «يا قليلي الإيمان... لا تهتموا» (متى ٦: ٣٠ و٣١)، تأمل معي في الفصل القادم كيف أن الإيمان بالنعمة المستقبلية يخلِّصنا تمامًا من القلق.

«في يوم خوفي، أنا عليك أتكل.»
(مز ٥٦: ٣)

«ملقين كل همكم عليه، لأنه هو يعتني بكم.»
(١بط ٥: ٧)

«فلا تهتموا قائلين:
ماذا نأكل؟
أو ماذا نشرب؟
أو ماذا نلبس؟
فإن هذه كلها تطلبها الأمم.
لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها.»
(متى ٦: ٣١ و٣٢)

الفصل الثالث

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة القلق[1]

انتصار شخصي من خلال النعمة المستقبلية

في أثناء دراستي الثانوية لم أكن قادرًا على التحدث أمام مجموعة، وكنت أصاب بتوتر شديد يجعلني أختنق وعاجزًا عن التكلم. لم يكن ذلك نوعًا شائعًا من الاضطرابات الانفعالية التي يتعامل الناس معها، وكان بالنسبة لي شيئًا مزعجًا ومخزيًا؛ وتسبب ذلك في قلق كبير في حياتي. لم أكن قادرًا على تقديم أي واجبات مدرسية شفوية، كما لم أكن قادرًا على دخول أي انتخابات طلابية في المدرسة؛ إذ كان ذلك يتطلب تقديم خطب انتخابية. ما كنت قادرًا عليه هو تقديم إجابات مختصرة على الأسئلة التي يطرحها المدرسون في الفصل. وفي حصة الجبر كنت أتوارى خجلاً وأشعر بالخزي بينما كانت ترتجف يدي وأنا أحل مسألة رياضية على السبورة. ولم أكن قادرًا على قيادة أيام الآحاد عندما تكلف الكنيسة الشباب بقيادة فترة العبادة.

وقد ذرفت دموعًا كثيرة بسبب ذلك. شاركتني والدتي كل هذا الصراع، مساندة إياي، ومشجعة لي. وقد أيدتنا نعمة الله رغم أن الشوكة في جسدي لم تختفِ. وتمكنت من الوصول إلى الجامعة دون حديث علني يُذكر، لكن المعركة مع القلق كانت لاتزال مستعرة.. فقد أدركت أن حياتي ستكون محدودة للغاية إذا لم أنتصر على

هذا الضعف. وكنت أشك كثيرًا في إمكانية إنهاء سنوات الدراسة في الجامعة دون تحدث أمام الجمهور. في الواقع كانت جامعة «ويتون» تتطلب في ذلك الوقت اجتياز مادة الخطابة، وكان هذا الأمر يرتسم أمامي كطريق مسدود.

خلال تلك السنوات قادتني نعمة الله بطريقة أكثر عمقًا إليه في شعور من اليأس بدلاً من أن تبعدني عنه في شعور من الغضب. ومن كل قلبي أشكر الله على ذلك. ومن هذه العلاقة الناضجة جاءني شعور بحتمية حدوث تغيير جذري.

جاءت اللحظة الحاسمة في مادة اللغة الأسبانية.. كان علينا جميعًا كطلبة أن نقدِّم حديثًا قصيرًا بالأسبانية أمام بقية الطلاب، ولم يكن هناك مفر من اجتياز هذا الموقف. وشعرت أنني أمام مفترق طرق.. حتى عندما أكتب عنه الآن لا أبتسم. فقد حفظت الكلمة عن ظهر قلب؛ لأنني ظننت أنني بذلك لن أحتاج إلى النظر في ورقة ملاحظاتي، وبالتالي تهرب مني الكلمات، وتعرض لتلك اللحظات الرهيبة من السكوت. كذلك أعددت العدة للحديث من وراء منبر خشبي ضخم يمكنني الإمساك به حتى أستطيع التحكم بطريقة أفضل في ارتعاش أطرافي. لكن أهم شيء فعلته هو أنني صرخت إلى الله، وتمسكت بوعوده عن النعمة المستقبلية. حتى يومنا هذا تمتلئ عيناي بالدموع عندما أتذكر سيري مجيئًا وذهابًا أمام حرم جامعة «ويتون» وأنا ألتمس من الله طفرة في حياتي.

لا أتذكر جيدًا تلك اللحظات التي تحدثت فيها بالأسبانية، أتذكر فقط أنني قد اجتزت الأمر. ولاحظ الجميع توتري، وكان هنالك ذلك الصمت المريع عندما يشعر الناس بالأسف عليك ولا يعرفون ماذا يفعلون، إلا أنهم لم يُظهروا تململهم كما كان يفعل غيرهم في السنوات الماضية، كما كان المدرس مترفقًا في تعليقاته. لكن من الرائع أنني اجتزت هذه التجربة. بعد ذلك سكبت شكري لله في يوم مشمس من أيام الخريف. وحتى الآن أشعر بالامتنان للنعمة التي وهبها الله لي في ذاك اليوم.

ربما كان أكبر حدث حاسم في قضية تغييري ما حدث بعد ذلك بعام.. كنت أقضي الفصل الدراسي الصيفي في الجامعة، ودعاني القس «إيفان ويلش» للصلاة في فترة العبادة. كان من المفترض حضور بعض المئات فضلاً عن الأساتذة. كان رد فعلي الفوري هو رفض الفكرة، لكن قبل أن أفعل ذلك، وجدت شيئًا يمنعني من ذلك، ووجدت نفسي أسأل: "كم من الوقت من المفترض أن تستغرقه هذه الصلاة؟" فقال لي: "لا يهم.. لكن يجب فقط أن تكون نابعة من قلبي."

حتى ذلك الوقت لم أكن قد حاولت مطلقًا أن أتحدث مع الله أمام المئات من الناس. وأدهشت نفسي بقبول الأمر. وفي اعتقادي أن تلك الصلاة مثلت نقطة تحول حاسم

في حياتي. وللمرة الأولى نذرت نذرًا أمام الرب قائلاً: "يا رب إذا ساعدتني على اجتياز هذا الأمر دون أن يحتبس صوتي، فلن أعتذر فيما بعد عن أية فرصة للحديث عنك بسبب قلقي." حدث ذلك في عام ١٩٦٦. واستجاب الرب بنعمة غنية مرة أخرى. وبحسب ما تسعفني ذاكرتي، فقد حفظت نذري حتى الآن.

وبقية القصة أن النعمة المستقبلية ازدادت وفاضت. ولا أدعي الفهم الكامل لمقاصد الله في توقيتاته، ولا أتمنى تكرار تجربة سني دراستي الثانوية؛ فقد امتلأت تلك السنوات بالقلق والخزي والعار مما ألقى عليها الكثير من القتامة. ارتفعت آنذاك الكثير من الصلوات، لكن ما جاء استجابة لها لم يكن ما أردته في ذلك الوقت- النعمة لأصمد. وتفسيري الآن، بعد ثلاثين سنة، هو أن الله كان يحفظني من الاستغراق في الكبرياء والغرور. لقد كان يجعلني أتأمل على انفراد في الأمور الثمينة، بينما كان الكثيرون من حولي ينجرفون نحو نماذج حياتية في غاية السطحية.

الكتاب المقدس الذي أهداني إياه والداي موجود بجانبي الآن على المنضدة، به علامات استرشادية جيدة. وقد قمت بتلوين الوعد الوارد في متى ٦: ٣٢ باللون الأحمر: «لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها.» خلال سني المراهقة تلك، كنت بالفعل أصارع لأحيا بالإيمان في النعمة المستقبلية. ويبدو أن الانتصارات كانت متواضعة، لكن كم كان الله أمينًا ومترفقًا معي!!

شركاء القلق

خلال العقود التالية تعلمت الكثير عن الصراع في مواجهة القلق. على سبيل المثال تعلمت أن القلق هو حالة القلب التي تؤدي إلى ظهور الكثير من التوجهات العقلية الخاطئة الأخرى. فكِّر للحظة في السلوكيات والتوجهات الخاطئة المختلفة التي تنبع من القلق.. فالقلق بشأن الماديات قد يؤدي إلى الشهوة والطمع وتكدس الثروة والسرقة؛ والقلق بشأن النجاح في عمل ما قد يجعلك سريع الغضب أو حادًا أو عابس الوجه؛ والقلق بشأن العلاقات قد يجعلك منزويًا وغير مبالٍ وغير مهتم بالآخرين؛ والقلق بشأن رد فعل أحدهم من نحوك قد يجعلك تخفي الحق وتكذب في بعض الأمور. لذا فإذا كان بالإمكان هزيمة القلق، فإن هذا يمثل ضربة قاضية للكثير من الخطايا الأخرى.

جذور القلق

تعلمت أيضًا أمرًا آخر عن جذور القلق واليأس التي يمكن أن تقتلعها. من أكثر

النصوص الكتابية أهمية بالنسبة لي هو ذلك الذي قمت بتلوينه في كتابي المقدس عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، وهو متى ٦: ٢٥- ٣٤. يقول يسوع أربع مرات في هذا المقطع أنه ينبغي على تلاميذه ألا يقلقوا. الآية ٢٥: «لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم»، الآية ٢٧: «ومَنْ منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة؟»، الآية ٣١: «فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل؟»، الآية ٣٤: «فلا تهتموا للغد».

من الواضح أن القلق هو موضوع هذا النص، ويوضح جذور القلق في الآية ٣٠: «فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدًا في التنور، يلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جدًا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟» بكلمات أخرى يقول يسوع إن جذور القلق هي الإيمان الضعيف في نعمة أبينا المستقبلية. وعندما يتملك عدم الإيمان قلوبنا، فإن أحد تأثيرات ذلك هو القلق. إن السبب الأساسي للقلق هو الفشل في الثقة بكل ما يعدنا الله به في المسيح.

أستطيع تخيل نوعين من ردود الأفعال المشوشة تجاه هذه الحقيقة. دعوني أخبركم بهما، ثم أقدم الإجابة الكتابية على كل منهما قبل أن نفكر مليًا في المعركة ضد القلق النابع من عدم الإيمان.

هل هذه أخبار سارة؟

قد يكون رد الفعل الأول هكذا: "هذه ليست أخبارًا سارة! في الواقع من المحبط جدًا أن أدرك أن ما ظننته مجرد صراع مع ميل طبيعي للقلق إنما هو صراع أعمق حول مدى ثقتي في الله". إن إجابتي على ذلك هو الموافقة ثم الرفض. فهب أنك تعاني ألمًا في معدتك وجربت كل الأدوية والأنظمة الغذائية دون فائدة تذكر، ثم افترض أن طبيبك يقول لك، بعد زيارة للمتابعة، أنك مصاب بسرطان في أمعائك الدقيقة؛ هل تكون هذه أخبار سارة؟ الإجابة بالقطع لا، وأنا أتفق معك في ذلك.

لكن دعني أطرح السؤال بطريقة أخرى: هل أنت سعيد لأن الطبيب اكتشف السرطان وهو لايزال في مرحلة مبكرة، ويمكن بالفعل علاجها بنجاح أكيد؟ لابد أنك ستجيب قائلاً: نعم، فأنا سعيد لأن الطبيب اكتشف المشكلة الحقيقية. وأتفق معك مرة أخرى. إذًا خبر إصابتك بالسرطان ليس سارًا، لكن من جانب آخر هو خبر سار؛ لأن معرفة سبب المرض هو أمر جيد، خاصة عندما تكون المشكلة قابلة للعلاج الناجح.

هذا يشبه بالضبط معرفتك بأن المشكلة الحقيقية وراء القلق هي عدم الإيمان بوعود نعمة الله المستقبلية. من ناحية هذه ليست أخبارًا سارة لأن عدم الإيمان إنما

هو سرطان خطير جدًا. لكن من الناحية الأخرى هي أخبار سارة؛ لأن معرفة سبب المرض هو أمر جيد خاصة لأن طبيبنا الأعظم يستطيع علاج مرض عدم الإيمان بنجاح. فهو قادر على أن يشفي بطرق عجيبة عندما تصرخ إليه قائلاً: «أؤمن! فأعن عدم إيماني» (مر ٩: ٢٤).

لذا فأنا أود التأكيد على أن اكتشاف العلاقة بين قلقنا وعدم إيماننا إنما هو في واقع الأمر خبر سار؛ لأنه الطريق الوحيد لتركيز صراعنا على سبب خطيتنا الحقيقي والحصول على النصرة التي يمكن لله أن يعطيها لنا من خلال عمل كلمته وروحه القدوس. عندما قال بولس: «جاهد جهاد الإيمان الحسن» (١تي ٦: ١٢)، فهو يدعوه حسنًا لأن الجهاد يتركز تمامًا على السرطان الحقيقي: عدم الإيمان.

كيف يمكنني الحصول على الاطمئنان؟

هنالك رد فعل آخر لحقيقة أن قلقنا ينبع من فشلنا في أن نحيا بالإيمان بالنعمة المستقبلية وهو كالتالي: "عليَّ أن أتعامل مع مشاعر القلق كل يوم تقريبًا؛ لذا أشعر أن إيماني بنعمة الله ضعيف تمامًا. وهكذا أتساءل إن كنت قد حصلت على الخلاص."

وإجابتي على هذا الأمر مختلفة قليلاً.. تخيل أنك في سباق سيارات، ويقوم خصمك الذي لا يريد لك إنهاء السباق بإلقاء الطين على زجاج سيارتك الأمامي. وعندما تفقد الرؤية مؤقتًا لهدفك وتبدأ في الانحراف، فإن ذلك لا يعني أنك سوف تترك السباق، ولا يعني بالطبع أنك على المسار الخاطئ.. وإلا فإن خصمك لم يكن يكلف نفسه عناء مضايقتك. لكن الهدف هنا هو أنه ينبغي أن تشغل "المسَّاحات" لكي تنظف زجاج سيارتك الأمامي.

عندما يهجم القلق تصاب بالتشويش رؤيتنا لمجد الله وعظمة المستقبل الذي أعده لنا.. فليس معنى ذلك أننا لسنا مؤمنين أو أننا لن ندخل السماء، بل يعني أن إيماننا يواجه هجومًا. بدايةً قد يترنح إيماننا وينحرف، لكن ثباتنا على الطريق والوصول إلى خط النهاية يعتمدان على هل سنقاوم ونرد الهجوم ضد القلق النابع من عدم الإيمان معتمدين على نعمة الله أم لا. هل سنشغل "المسَّاحات" لكي ننظف الزجاج الأمامي؟

يقول مزمور ٥٦: ٣: «في يوم خوفي، أنا عليك أتكل». لاحظ أنه لا يقول: "أنا لا أعاني الخوف أبدًا"؛ فالخوف يهجم وتبدأ المعركة. لذا فالكتاب المقدس لا يفترض أن المؤمنين الحقيقيين لن يصابوا بالهموم. لكن في المقابل يخبرنا الكتاب المقدس كيف ينبغي علينا مواجهة هجومها. على سبيل المثال نقرأ في رسالة بطرس: «ملقين كل

همكم عليه، لأنه هو يعتني بكم» (١بط ٥: ٧).. لا تقول الآية أنكم لن تشعروا بأية هموم، لكنها تقول: عندما تكتنفكم الهموم.. ألقوها على الله. عندما تأتي الأوحال على زجاجك الأمامي فتفقدك رؤية الطريق لتبدأ في الانحراف في قلق، قم بتشغيل المسَّاحات الأمامية.

لذا فإجابتي على الشخص الذي عليه أن يتعامل مع مشاعر القلق يوميًا هي: هذا الأمر طبيعي، على الأقل بالنسبة لي منذ سنوات مراهقتي. المعضلة هي: كيف نواجه هذه المشاعر؟

أعظم بنَّاءين للإيمان

الإجابة على هذا السؤال هي: نحن نواجه الهموم من خلال مقاومة عدم الإيمان والجهاد من أجل الحصول على الإيمان بالنعمة المستقبلية. والأسلوب الذي تخوض به هذا «الجهاد الحسن» يكون بالتأمل في ضمانات الله عن النعمة المستقبلية، وطلب معونة الروح. فالمسَّاحات التي تنظف زجاج السيارة الأمامي هي وعود الله التي تمحو أوحال عدم الإيمان، والماء الذي ينطلق منها هو معونة الروح القدس. والمعركة نحو التحرر من الخطية، كما قد رأينا، تكون «بالروح وتصديق الحق» (٢تس ٢: ١٣). إنه عمل الروح وكلمة الحق.. وهذان هما أعظم بنَّاءين للإيمان.

بدون عمل الروح القدس القادر على الاختراق، لن تتمكن "مسَّاحات" الكلمة من إزالة بقع عدم الإيمان المتجمعة والمانعة للرؤية. فكلاهما هام.. الروح والكلمة. نحن نقرأ وعود الله، نطلب معونة روحه القدوس. وعندما يصير الزجاج الأمامي نظيفًا لنرى الأمور الصالحة التي يعدها الله لنا (إر ٢٩: ١١) يصير إيماننا أكثر قوة ويختفي الانحراف الذي نشأ بسبب القلق.

سبعة وعود للنعمة المستقبلية في مواجهة القلق

كيف يتم هذا عمليًا؟ هنا في متى ٦ لدينا مثال عن القلق بشأن المأكل والملبس. حتى في أمريكا، مع كل نظامها الذي يتميز بالرخاء الشديد، يمكن للقلق بشأن المادة والمسكن أن يكون عاصفًا. لكن يسوع يقول في الآية ٣٠ أن هذا ينشأ من الافتقاد للإيمان في وعد أبينا بالنعمة المستقبلية: «يا قليلي الإيمان». وهكذا يحمل هذا النص الكتابي على الأقل سبعة وعود يقدِّمها يسوع ليساعدنا في جهادنا الحسن ضد عدم الإيمان لنتحرر من القلق.

الوعد رقم ١:

لذلك أقول لكم: «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليس الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟» (مت ٦: ٢٥)

بما أن جسدك وحياتك أكثر تعقيدًا وأكثر أهمية من المأكل والملبس، وأن الله، رغم ذلك، خلقك ومنحك إياهما، فبالتأكيد سوف يكون قادرًا على إمدادك بالمأكل والملبس باستمرار. بالإضافة لذلك، فبغض النظر عن كل الظروف سوف يقيم الله جسدك يومًا ما، ويحفظ حياتك لشركته الأبدية.

الوعد رقم ٢:

«انظروا إلى طيور السماء: إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟» (مت ٦: ٢٦)

إذا كان الله مستعدًا وقادرًا على إطعام مثل هذه المخلوقات الضعيفة كالطيور التي لا يمكنها فعل شيء لضمان غذائها -كما هو الحال بالنسبة لكم من خلال الزراعة والصناعة وخلافه- فهو بالتأكيد سوف يوفر لكم ما تحتاجونه، لأن قيمتكم أعلى بكثير من الطيور.

الوعد رقم ٣:

«ومَنْ منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة؟ ولماذا تهتمون باللباس؟» (مت ٦: ٢٧، ٢٨)

هذا وعد يأتي على شكل تقرير لحقيقة أن القلق لن يكون مفيدًا لك بأي حال. ليس هذا وعدًا مباشرًا، لكن في بعض الأحيان علينا أن نقسو على أنفسنا ونقول: "يا نفسي، هذا الاضطراب ليس له فائدة على الإطلاق فأنت لا تضيعين يومك فقط، وإنما تؤثرين كذلك على آخرين. دعي الأمر لله، وركزي على عملك." فالقلق لا يثمر أي شيء مفيد.

الوعد رقم ٤:

« ... تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو! لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم: إنه ولا سليمان في كلِّ مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عشب

الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدًا في التنور، يلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جدًا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟» (مت ٦: ٢٨- ٣٠)

مقارنة بزنابق الحقل أنت لك أولوية أعظم عند الله؛ لأنك سوف تحيا إلى الأبد، وبالتالي سوف تقدِّم له تسبيحًا أبديًا. مع ذلك، فالله يمتلك فيضًا من الطاقة الخلاقة والعناية وهو يسكب إياها على الزهور التي لا تبقى سوى أيام معدودة. وبالتالي فهو بالتأكيد سوف يأخذ نفس هذه الطاقة الإبداعية ويستخدمها لخدمة أولاده الذين سوف يعيشون إلى الأبد.

الوعد رقم ٥:

«فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإن هذه كلها تطلبها الأمم. لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها.» (مت ٦: ٣١ و٣٢)

لا تعتقدوا أن الله يجهل احتياجاتكم، فهو يعلمها جميعًا، وهو «أبوكم السماوي». وهو لا ينظر من أعلى "في لامبالاة".. فهو يهتم، وسوف يعمل على توفير احتياجكم في أفضل وقت.

الوعد رقم ٦:

«لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم.» (مت ٦: ٣٣)

إذا ما كرست نفسك لأجل قضيته في هذا العالم، بدلاً من أن تضطرب بشأن احتياجاتك المادية الشخصية، فسوف يحرص الله على تسديد كل احتياجك لتصنع مشيئته وتمجده. هذا مماثل للوعد الوارد في رومية ٨: ٣٢: «كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء؟» (لتفسير معنى «كل شيء» انظر الفصل الثامن.)

الوعد رقم ٧:

«فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليوم شره.» (مت ٦: ٣٤)

يهتم الله بألا تتعرض لتجربة لا يمكنك احتمالها (١كو ١٠: ١٣). فسوف يعمل لصالحك حتى تكون «كأيامك راحتك»، أو كما في ترجمة كتاب الحياة: «ولتعادل قوتك امتداد أيامك» (تث ٣٣: ٢٥). فكل يوم لن يتضمن من الضيق ما لا طاقة لك على تحمله، كما أن كل يوم سوف يحمل مراحم كافية لكي تستريح من أتعابه (مرا ٣: ٢٢ و٢٣).

ليملأ إلهي كل احتياجكم

تعلَّم بولس هذه الدروس من يسوع، وطبقها على الصراع الذي خاضته كنيسة فيلبي في مواجهة الضيقة. نراه يقول في رسالته: «لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر، لتعلم طلباتكم لدى الله.» (في ٤: ٦) ثم في الآية ١٩ يقدِّم وعد النعمة المستقبلية المحرر، تمامًا كما فعل يسوع: «فيملأ إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع.» إذا عشنا بالإيمان بوعد النعمة المستقبلية هذا، سيكون من الصعب جدًا على القلق أن يستمر في مواجهتنا؛ فغنى المجد الإلهي لا ينتهي، وما قصده لنا فعلاً هو ألا نقلق بشأن المستقبل.

عندما يصيبني بالقلق

علينا أن نتبع مثال يسوع وبولس.. علينا أن نحارب القلق النابع من عدم الإيمان بوعود النعمة المستقبلية. عندما يصيبني القلق بشأن مشروع جديد أو مقابلة هامة، أواجه عدم الإيمان بواحد من أكثر الوعود التي ألجأ إليها، وهي الكلمات الواردة في إشعياء ٤١: ١٠. في اليوم الذي سافرت فيه إلى ألمانيا لقضاء ثلاث سنوات هناك أجرى أبي مكالمة دولية معي، وأعطاني هذا الوعد عبر التليفون. وعلى مر ثلاث سنوات استخدمت هذا الوعد ربما خمسمائة مرة لأستطيع عبور الأوقات المتأزمة: «لا تخف لأني معك. لا تتلفت لأني إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين بري.» عندما يكون محرك عقلي عاجزًا عن الحركة تكون هذه الكلمات هي النقلة التي تدفعه إلى الأمام.

عندما يصيبني القلق من أن تكون خدمتي غير نافعة وفارغة أقاوم عدم الإيمان بالوعد في إشعياء ٥٥: ١١: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع إليّ فارغة، بل تعمل ما سررت به وتنجح في ما أرسلتها له.»

عندما يصيبني القلق من أن أصبح غير قادر على أداء عملي، أقاوم عدم الإيمان بالوعد الإلهي: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل.» (٢كو ١٢: ٩)

عندما يصيبني القلق بشأن قرارات عليّ أن أتخذها للمستقبل، أقاوم عدم الإيمان بالوعد: «أعلمك وأرشدك الطريق التي تسلكها. أنصحك. عيني عليك.» (مز ٣٢: ٨)

عندما يصيبني القلق بسبب مواجهة المقاومين، أقاوم عدم الإيمان بالوعد: «إن كان الله معنا، فمن علينا.» (رو ٨: ٣١)

عندما أشعر بالقلق بشأن سلامة من أحبهم، أقاوم عدم الإيمان بالوعد بأني إذا كنت

وأنا شرير أعرف أن أعطي أولادي عطايا جيدة «فكم بالحري أبوكم الذي في السموات يهب خيرات للذين يسألونه» (مت ٧: ١١). وأقاوم لكي أحتفظ بتوازني الروحي متذكرًا بأن «كل مَنْ ترك بيتًا أو إخوة أو أخوات أو أبًا أو أمًا أو أولادًا أو حقلاً لأجل المسيح يأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان، بيوتًا وإخوة وأخوات وأمهات وأولادًا وحقولاً، مع اضطهادات، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية.» (مر ١٠: ٢٩، ٣٠)

عندما يصيبني القلق من المرض، أقاوم عدم الإيمان بالوعد: «كثيرة هي بلايا الصديق ومن جميعها ينجيه الرب» (مز ٣٤: ١٩)، وأقبل الوعد التالي بمخافة: «الضيق ينشئ صبرًا، والصبر تزكية، والتزكية رجاءً، والرجاء لا يُخزي، لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا.» (رو ٥: ٣- ٥)

عندما يصيبني القلق من الشيخوخة، أقاوم عدم الإيمان بالوعد التالي: «وإلى الشيخوخة أنا هو، وإلى الشيبة أنا أحمل. قد فعلت، وأنا أرفع، وأنا أحمل وأنجي.» (إش ٤٦: ٤)

عندما يصيبني القلق من الموت، أقاوم عدم الإيمان بالوعد بأنه: «ليس أحد منا يعيش لذاته، ولا أحد يموت لذاته. لأننا إن عشنا فاللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن. لأنه لهذا مات المسيح وقام وعاش، لكي يسود على الأحياء والأموات.» (رو ١٤: ٧- ٩)

عندما يصيبني القلق من أن تنكسر سفينة إيماني وأبتعد عن الله، أقاوم عدم الإيمان بالوعود القائلة: «الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحًا يكمل إلى يوم يسوع المسيح.» (في ١: ٦)، و«من ثم يقدر أن يخلص أيضًا إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم.» (عب ٧: ٢٥)

هذه هي نوعية الحياة التي لازلتُ أتعلمها وأنا أقترب من عامي الخمسين. إنني أكتب هذا الكتاب راجيًا ومصليًا أن تنضم إليَّ.. دعونا نشن حربًا، لا على الآخرين، بل على عدم إيماننا. إنه منبع القلق الذي بدوره هو أصل الكثير من الخطايا الأخرى. لذا دعونا نشغل "مسَّاحات" الزجاج لتنطلق المياه، ونُبقي عيوننا مثبتة على وعود الله الثمينة والعظيمة. أمسك بالكتاب المقدس واطلب معونة الروح القدس، وادَّخِر الوعود في قلبك، وجاهد الجهاد الحسن، لتحيا بالإيمان في النعمة المستقبلية.

الجزء الثاني

النعمة المجانية والمستقبلية

«فما أحياه الآن في الجسد،
فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله.»
(غل ٢: ٢٠)

إن رجائي في الخير والمجد المستقبلي
إنما هو النعمة المستقبلية.

«النعمة معكم.»
جميع رسائل الرسول بولس.

الفصل الرابع

الحياة المتبقية هي النعمة المستقبلية

الحياة الوحيدة المتبقية لي لأعيشها هي الحياة المستقبلية. الماضي ليس في قدرة يدي أن أقدِّمه أو أغيِّره، بل إن الله أيضًا لن يغيِّر الماضي؛ وكل توقعاتنا من الله إنما هي توقعات مستقبلية. كما أن كل إمكانيات الإيمان والمحبة هي إمكانيات مستقبلية. وكل القوة التي تلمسني لتساعدني على الحياة في محبة إنما هي قوة مستقبلية. ومع كل غنى البركات الإلهية الماضية، إلا أنه إذا تركني الله مع ذكراها فقط وليس مع الوعد بالمزيد، فإن هذا لا يكفي أبدًا. إن رجائي في الخير والمجد المستقبلي إنما هو النعمة المستقبلية.

لكن هل يولي العهد الجديد تركيزًا حقيقيًا على النعمة المستقبلية؟ هل حقيقي أن الحياة المتبقية أمامنا لنعيشها -من الآن وإلى الأبدية- سوف نحياها بالنعمة المستقبلية، أم أنها ستفقد؟

رسائل محاطة بالنعمة المستقبلية

دعونا نبدأ بملاحظة بسيطة وهامة.. يبدأ الرسول بولس وينهي جميع رسائله الثلاثة عشرة بدون استثناء بمباركة قرائه المؤمنين بالنعمة المستقبلية.[1] ما يقوله دائمًا في افتتاحيات رسائله هو: «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح»، وفي ختامها يقول دائمًا شيئًا مثل: «نعمة ربنا يسوع تكون معكم».

لا يوجد أمر آخر في رسائل بولس يقارب هذا التركيز المستمر على النعمة

المستقبلية في بداية ونهاية كل رسالة. تشترك بركة السلام في هذا التركيز إذ أنها ترد بجانب النعمة في بداية كل رسالة.[٢] النعمة المستقبلية فقط تأتي في بداية ونهاية كل رسالة.

ما الذي كان بولس يفعله عندما بدأ وأنهى رسائله بمثل تلك الكلمات؟ لقد كان يبارك قُراءه، بما فيهم نحن! فالبركة الكتابية تحدث عندما نقول شيئًا مثل: "ليباركك الله بالنعمة." هذا ما كان بولس يقوله في بداية ونهاية رسائله، حتى لو أنه لم يستخدم كلمة بركة.

تتميز البركات بالخصوصية، فهي تركز على الأشخاص الموجهة لهم.. «النعمة لكم». لكنها أيضًا تلتمس من الله أن يفعل شيئًا.. «نعمة لكم من الله أبينا». ويتخذ الشخص الذي يبارك وضعًا بين الله والآخرين، ويجعل من كلماته قناة للبركة ما بين الطرفين. والبركات ليست كالصلوات، لأنها لا توجَّه لله بل للآخرين. فأنت تنظر إليهم في عيونهم وتقول لهم: «النعمة لكم». غير أن هناك تشابهًا في واحدة من صفاتها مع الصلاة، لأنها تحتوي على التماس مستتر مفاده: "يارب اجعل كلماتي هذه أداة للبركة من لدنك."

كما أن هناك ملاحظة أخرى هامة بشأن بركات النعمة المستقبلية.. فبدون استثناء البركات التي ترد في بداية رسائل بولس تقول: «نعمة لكم»، بينما تلك التي تأتي في نهاية الرسائل تقول: «النعمة معكم».[٣] وهذا الأمر ثابت على مدى الرسائل الثلاثة عشرة مما يوحي بأن هناك معنىً من ورائه.

المعنى الذي أقترحه هو: في بداية رسائله كان بولس يرى أن الرسالة نفسها تمثل قناة لتوصيل نعمة الله إلى القراء. فالنعمة كانت تسري من الله من خلال ما يكتبه بولس للمؤمنين. لذا نراه يقول: «نعمة لكم». بمعنى أن النعمة فعالة الآن، ومن شأنها أن تسري من الله من خلال كتاباتي الموحى بها لكم، لذا وأنتم تقرءون «نعمة لكم».

لكن مع اقتراب الرسالة من نهايتها، يدرك بولس أن القراءة على وشك الانتهاء ويبرز السؤال: "ماذا يتبقى من النعمة التي كانت تسري للقراء من خلال قراءتهم للرسالة الموحى بها؟" فيجيب الرسول ببركة مع نهاية كل رسالة: «النعمة معكم». النعمة معكم وأنتم تضعون الرسالة جانبًا وتغادرون الكنيسة.. معكم وأنتم تعودون إلى المنزل لتتعاملوا مع طفل مريض، زوج أو زوجة غير مترفق.. معكم وأنتم تذهبون إلى العمل لتواجهوا إغواءات الغضب وعدم الأمانة والشهوة.. معكم وأنتم تستجمون شجاعتكم لتتحدثوا عن المسيح أثناء تناولكم الغذاء مع زملائكم.

ما الذي نتعلّمه إذًا من طريقة بولس المتكررة في بدء وإنهاء رسائله بهذا الأسلوب («نعمة لكم»، «النعمة معكم»)؟ نتعلم أن للنعمة أولوية واضحة في الحياة المسيحية. نتعلم أيضًا أنها تأتي من الله الآب والرب يسوع المسيح، ويمكن أن تنتقل من خلال الناس. نتعلم أن النعمة تسري فينا في كل مرة نمسك بالكتاب المقدس لنقرأ فيه. ونتعلم أن النعمة سوف تبقى معنا عندما نضع الكتاب المقدس جانبًا ونخرج لنمارس حياتنا اليومية.

بكلمات أخرى، نتعلم أن النعمة ليست مجرد حقيقة ماضية بل مستقبلية أيضًا؛ ففي كل مرة أمسك بالكتاب المقدس تسري حقيقة نعمة الله فيّ، وفي كل مرة أترك الكتاب المقدس لأواجه حياتي اليومية ترافقني نعمة الله.. هذا ما أقصده بالنعمة المستقبلية.

كل خطوة بالنعمة المستقبلية

سبب الأهمية الكبيرة للنعمة المستقبلية هو أن كل شيء في الحياة المسيحية يعتمد عليها.. لا يمكنك أن تكون مؤمنًا بدون الإيمان بالنعمة المستقبلية. قال يسوع: «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه» (مت ٧: ١٤). كل منعطف في ذلك الطريق الضيق تخطط له النعمة المستقبلة، وكذلك تهب القوة للسير فيه. وعند كل نقطة في هذا الطريق يتغنى القديسون الحقيقيون قائلين: "لقد أتت بي النعمة إلى هنا.. ولسوف تقودني إلى بيتي السماوي." إن كل نظرة للوراء تلمع بالامتنان للنعمة الماضية؛ وكل نظرة إلى الأمام تلقي بالنفس إلى الإيمان بالنعمة المستقبلية.

عندما ينهي بولس كل رسالة بعبارة «النعمة معكم»، فهو يبارك القراء بما سوف يحتاجون إليه ليكونوا مؤمنين بدءًا من هذه اللحظة.. هذا الشيء هو النعمة المستقبلية. فلا يمكن لأحد أن يصير مؤمنًا بدون النعمة المستقبلية. ولا يمكن لأحد أن يستمر في إيمانه لحظة تلو الأخرى بدون النعمة المستقبلية. إن ثباتنا كمؤمنين يكون مضمونًا من خلال نعمة الله المستقبلية. ولننظر بعضًا من الأمور التي تعتمد على هذه النعمة.

النعمة المستقبلية للقديسين المتعبين

لا يتوقف القلب المسيحي عن التعرض للتعب والإنهاك؛ فأين يمكننا العثور على

القوة لتسند القلب؟ لا أعني هنا القوة الجسدية؛ فالله لا يطلب القوة الجسمانية أو الصحة أو حتى الحياة في هذا الأمر. لكنه بالقطع يدعونا لأن: «نتأيد بالقوة... في الإنسان الباطن» (أف ٣: ١٦). كيف يحدث هذا؟ واحدة من الإجابات تأتي في منتهى الوضوح: «حَسَنٌ أن يثبت القلب بالنعمة، لا بأطعمة» (عب ١٣: ٩). فالقلب يتقوى بالنعمة.. «فتقوَّ بالنعمة التي في المسيح يسوع» (٢تي ٢: ١). إن النعمة اليومية تمثل للقلب ما يمثله الخبز اليومي للجسد. فهي تعطي قوة، وبدونها لا يمكننا أن نعيش ونعمل.

قد يسأل البعض: "ألا تقول أفسس ٣: ١٦ نفسها إن قوة الإنسان الباطن تأتي من خلال قوة روحه القدوس؟" نعم، الأمر كذلك. وسوف نرى بعد قليل أن تلك الكلمات تقدِّم تعريفًا كاملاً للنعمة المستقبلية. فالروح القدس يُدعى «روح النعمة» (عب ١٠: ٢٩)، والقوة التي يأتي بها، كما سنرى، هي قوة النعمة.

النعمة المستقبلية للقديسين المتألمين

إن الحاجة لهذه القوة الباطنية تنبع ليس فقط من تراكمات الضغوط اليومية، لكن أيضًا من المعاناة والمحن التي تأتي من حين لآخر. وهذه الضغوط حتمية الحدوث. «بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أع ١٤: ٢٢؛ راجع أيضًا ١تس ٣: ٤؛ ٢تي ٣: ١٢). فلا مهرب من أن يرافق الألم القلب المنهك في طريقه إلى السماء. وعندما يأتي يضطرب القلب ويصبح الطريق الضيق الذي يؤدي إلى الحياة في غاية الصعوبة. إن الطريق الضيق والتلال الصعبة كفيلة باختبار سيارة قديمة ومنهكة. لكن ما بالنا نفعل إذا تعطلت السيارة تمامًا؟

صرخ بولس ثلاث مرات بهذا السؤال بسبب معاناة ما في حياته، لكن النعمة المستقبلية لم تأتِ بالشكل الذي طلبه وإنما في شكل آخر. فقد كانت استجابة المسيح: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل.» نرى هنا أن النعمة تأتي في شكل قوة المسيح المساندة له في معاناة لم تنتهِ– فهي نعمة أُعطيت في دائرة نعمة أخرى مُنعت. وتجاوب بولس بالإيمان بكفاية النعمة المستقبلية وقال: «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي، لكي تحل عليّ قوة المسيح.» (٢كو ١٢: ٩)

فالله دائمًا ما يباركنا بنعمة "تُمنح في دائرة نعمة تُمنع." على سبيل المثال، في يوم شديد الحرارة من أيام شهر يوليو تعطلت طلمبة الماء في سيارتنا، وتوقفت بنا على الطريق الرابط بين الولايات في «تينيسي» على بُعد عشرين ميلاً من مدينتنا. كنت قد

صليت في ذلك الصباح أن تعمل السيارة بكفاءة حتى نصل إلى وجهتنا بسلام. ولم يتوقف لنا أي شخص ونحن نقف بجوار السيارة. فقال لي ابني أبراهام (كان عمره أحد عشر عامًا في ذلك الوقت): "يا أبي ينبغي أن نصلي." فانحنينا وراء السيارة وطلبنا من الله نعمة مستقبلية.. معونة في وقت الحاجة. وعندما رفعنا رؤوسنا رأينا عربة نقل صغيرة تتوقف، وكان سائقها ميكانيكيًا يعمل على بعد عشرين ميلاً. وعَرَض السائق استعداده للذهاب وشراء قطعة الغيار، والعودة لإصلاح السيارة. وذهبت معه إلى المدينة، وتمكنت من مشاركته برسالة الخلاص. واستأنفنا رحلتنا بعد حوالي خمس ساعات.

الأمر المهم في استجابة صلاتنا أنها جاءت في دائرة صلاة لم تُستجب. فقد طلبنا رحلة خالية من المشكلات، لكن الله سمح بالمشكلة وفي وسط النعمة التي لم تأتِ جاءت نعمة أخرى من يديه. وأنا أتعلم أن أثق في حكمة الله التي تعطي النعمة الأفضل لي وللميكانيكي غير المؤمن ولإيمان الطفل ذي الأحد عشر عامًا. ولا يجب علينا أن نندهش من أن الله يهبنا نعمًا رائعة في وسط المعاناة التي طلبنا منه أن يعفينا منها. فهو يعرف أكثر كيف يوجِّه نعمته لخيرنا ولمجده.

قوة الروح وعمل النعمة

ذكرت قبلاً أن القوة التي تسند القلب والتي تأتي من الروح القدس (أف ٣: ١٦) هي في واقع الأمر ما أقصده بالنعمة المستقبلية. وما رأيناه للتو في ٢كورنثوس ١٢ هو الدليل على ذلك. فالمسيح يقول: «تكفيك نعمتي»، ثم يمضي شارحًا بالقول: «لأن قوتي في الضعف تكمل.» إذًا قوة المسيح التي تعمل على تدعيم وتقوية المؤمنين هي أيضًا نعمته. وبما أن «الرب هو الروح» (٢كو ٣: ١٧)، فليس من الخطأ في شيء القول بأن قوة الروح هي عمل نعمة الرب.

لا يمكننا مواصلة حياتنا كمؤمنين إذا لم نجد القوة اللازمة لاحتمال المعاناة. واستجابة الله لهذه الحاجة في الطريق الضيق هي النعمة المستقبلية. والنعمة المستقبلية هي قوة المسيح التي تكتمل في ضعفنا. تأكد من فهم هذه النقطة؛ فنعمة الاحتمال –بل فرح الافتخار في الضعف– ليس في الأساس النظر إلى الوراء للنعمة الماضية، بل إنها النظرة إلى الأمام انتظارًا لمجيء قوة المسيح في اللحظة القادمة أو الشهر القادم لتفعل لنا ما نيأس نحن من أن نفعله لأنفسنا. هذه هي النعمة المستقبلية.

النعمة المستقبلية والدعوة إلى الاحتمال

في بعض الأحيان في خضم هذه الآلام وضغوط الحياة اليومية العادية قد نصرخ قائلين: "إلى متى يارب؟ فأنا لا أستطيع أن أرى شيئًا وراء معاناة اليوم. ما الذي يحمله لي الغد؟ هل ستكون موجودًا في وسط هذه المعاناة أيضًا؟" هذا السؤال شديد الإلحاح لأن يسوع يقول: «ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مر ١٣: ١٣). فنحن نقشعر أمام فكرة أن نكون من بين أولئك الذين «من الارتداد للهلاك» (عب ١٠: ٣٩).. هذه ليست دعابة؛ فالألم يمثل تهديدًا مرعبًا للإيمان بالنعمة المستقبلية.

لذا من الرائع أن نستمع لبطرس وهو يعد المؤمنين المتألمين والضعفاء قائلاً: «وإله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع، بعدما تألمتم يسيرًا، هو يكمِّلكم، ويثبِّتكم، ويقوِّيكم، ويمكِّنكم» (١بط ٥: ١٠). إنه اليقين بأن لن يتأخر أكثر مما نحتمل، وأنه سوف يزيل العلل التي نحزن بسببها، وأنه سوف يثبِّت إلى الأبد ما كان يتداعى ويترنح لوقت طويل- هذا اليقين يأتي من «كل نعمة». فالله ليس إله بعض النعمة -مثل النعمة الماضية؛ إنما هو إله «كل نعمة»- بما تحتويه من كنوز أبدية لا تنضب للنعمة المستقبلية. الإيمان بتلك النعمة هو سر الاحتمال في الطريق الضيق والكرب الذي يؤدي إلى الحياة.

النعمة المستقبلية وحياة المحبة

لكن كلمة الاحتمال ليست أفضل كلمة لوصف الحياة المسيحية. الاحتمال يمثل جانبًا منها. إلا أن الطريق الذي يؤدي إلى الحياة هو طريق المحبة، وليس فقط الاحتمال- المحبة للبشر للآخرين. وهذا أمر في غاية الأهمية أيضًا؛ إذ يقول يسوع: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي: إن كان لكم حبٌ بعضًا لبعض» (يو ١٣: ٣٥). ويقول يوحنا: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة» (١يو ٣: ١٤). قد لا نبلغ الكمال في هذه الحياة، لكن علينا أن نغيِّر الاتجاه. الطريق الذي يؤدي إلى الحياة هو طريق المحبة.

كيف يمكننا أن نحيا حياة المحبة.. المحبة لأناس لا نعرفهم، بل حتى لأعدائنا؟ هناك مثال حياتي حقيقي يجيب على هذا السؤال. كان بولس يمر بمكدونية ليؤسس الكنائس في فيلبي وتسالونيكي وبيريه. وكجزء من هذه العملية كان يعلِّم أيضًا الكنائس الجديدة أن تهتم بالفقراء- أي أن تحبهم. وكان جزءًا من خطته أن يجعل الكنائس تساهم بتقدمات لفقراء المؤمنين في الكنيسة الأم في أورشليم. ما حدث

وهو يفعل ذلك كان مثيرًا للدهشة حتى أنه استخدمه كمثال عندما كتب للكنيسة في كورنثوس يحثها على العطاء كما فعلت كنائس مكدونية. إليك ما كتبه لهم.. ولتلاحظ قوة النعمة المستقبلية:

> «ثم نعرِّفكم أيها الإخوة نعمة الله المعطاة في كنائس مكدونية، أنه في اختبار ضيقة شديدة فاض وفور فرحهم وفقرهم العميق لغنى سخائهم. لأنهم أعطوا حسب الطاقة، أنا أشهد، وفوق الطاقة، من تلقاء أنفسهم، ملتمسين منا، بطلبة كثيرة، أن نقبل النعمة وشركة الخدمة التي للقديسين.» (٢كو ٨: ١– ٤)

هذا التجاوب من أهل مكدونية أدهش بولس كثيرًا. وما جعل الأمر رائعًا هو أن فقرهم لم يختفِ عندما أصبحوا مؤمنين: «فقرهم العميق لغنى سخائهم» (ع ٢)، بل في واقع الأمر يبدو أن قبولهم للمسيح جعل حياتهم أكثر صعوبة وليس أكثر يُسرًا: فسخاؤهم فاض في وسط «اختبار ضيقة عظيمة» (ع ٢). ورغم ذلك كان هناك غنى من الفرح والحرية (ع ٢). فقد أعطوا «فوق الطاقة»، وأعطوا «من تلقاء أنفسهم» (ع ٣). بل والتمسوا «نعمة وشركة الخدمة التي للقديسين» (ع ٤). لاحظوا كلمة نعمة، واحتفظوا بها للحظات في أذهانكم.

كيف أمكن لهذا السلوك المخالف للثقافة السائدة والطبيعة أن يحدث؟ كيف تحرر المؤمنون من المحبة الطبيعية للمال والراحة؟ جزء من الإجابة في عدد ٢ هو أن وفور فرحهم قد فاض، الفرح بشيء آخر قلع جذور الفرح بالمال. لقد تحرروا من خلال فرح العطاء للفقراء. لكن من أين أتى هذا الشعور بالفرح الروحي العميق؟

الإجابة هي أنه جاء بسبب نعمة الله. فتفسير بولس لهذه المحبة العجيبة هو: «نعمة الله المعطاة في كنائس مكدونية» (ع ١). ما كان على الكورنثيين أن يتعلموه في هذه القصة هو أن نفس النعمة التي أُعطيت في مكدونية متاحة الآن في كورنثوس. ففي واقع الأمر يقول بولس إن المفتاح لهذا النوع من السخاء المبتهج والمضحي هو الإيمان بالنعمة المستقبلية. فعندما تثق في النعمة المستقبلية على غرار ما فعل أهل مكدونية، تصبح حياتك نعمة. فبولس يدعو عطاءهم «نعمة الشركة في احتياجات القديسين» (ع ٤).

نعلم أن الإيمان بالنعمة المستقبلية هو السر، لأنه فيما بعد يقدِّم بولس هذا الوعد الرائع في نفس الجزء من كورنثوس ١٢: «والله قادر أن يزيدكم كل نعمة، لكي تكونوا ولكم كل اكتفاء كل حين في كل شيء تزدادون في كل عمل صالح» (٢كو ٩: ٨).

بكلمات أخرى، إذا ما أردت أن تتحرر من الحاجة لتكريس أموالك- إذا أردت أن تفيض بوفور (من النعمة!) في كل عمل صالح (مثل الفقراء في أورشليم)؛ إذًا ضع إيمانك في النعمة المستقبلية. صدِّق الوعد بأن «الله قادر أن يجعل كل نعمة تفيض لديك» في كل لحظة قادمة لأجل هذا الهدف عينه.

مرة أخرى انتبه لهذه النقطة. إن سر المحبة والسخاء لا ينبع أساسًا من النظر إلى الوراء للنعمة الماضية، وكم صنع الله من أجلك -مع تقديرنا لهذا الأمر الثمين الأبدي. السر هو التحول من مجد وضمان النعمة الماضية إلى إيمان ثابت في النعمة المستقبلية- أي إيمان في أن الله قادر (في المستقبل) أن يفيض عليك كل النعم (المستقبلية) حتى ما يسدد احتياجك وحتى ما تصبح قادرًا، مثل أهل مكدونية الرائعين، أن تفيض بغنى في الكرم السخاء. فالتحرر من الطمع يأتي من الإيمان بالنعمة المستقبلية.

كل خير مستقبلي من النعمة المستقبلية

ما رأيناه هو أن العهد الجديد بالفعل يركز كثيرًا على النعمة المستقبلية. فالحياة المتبقية لنا لنعيشها من الآن إلى الأبدية سوف نحياها بالنعمة المستقبلية، وإلا فقدناها. نحن لسنا متروكين لأنفسنا، أو حتى لذكريات النعمة الماضية الثمينة. نحن لسنا متروكين على الإطلاق. فاليوم وغدًا ولبقية الأبدية «هو يعطي نعمة أعظم» (يع ٤: ٦). هذا ليس ديكورًا للحياة المسيحية، لكن ذلك هو ما يعطي للحياة المسيحية ديمومتها. نحن نعيش لحظة تلو الأخرى بقوة النعمة المستقبلية، ولو أنها غابت عن المشهد لهلكنا. لكنها موجودة. وكل خير مستقبلي نتمتع به في هذه الحياة والحياة الآتية سوف يأتي لنا من النعمة المستقبلية.

«أجيز كل جودتي قدامك..
وأتراءف على مَنْ أتراءف.»
(خر ٣٣: ١٩)

«فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال،
وإلا فليست النعمة بعد نعمة.»
(رو ١١: ٦)

"النعمة لا تكون نعمة
إذا كانت رد فعل لمنابع بداخلنا.
فالنعمة تُعد نعمة لأنها تشير إلى
منابع الله التي تفيض بالرحمة.
النعمة أبدية لأن الله سوف يستغرق الأبدية كلها
لينفق علينا كل كنوز صلاحه التي لا تنضب.
والنعمة مجانية لأن الله لن يكون إلهًا سرمديًا
كُلِّيّ الاكتفاء إذا كان محصورًا بأي شيء خارجه"

الفصل الخامس

أكثر أعمال الله تحررًا(*)

إذا لم يكن الله ينبوعًا متجددًا، كُلي الاكتفاء أبديًا من النعمة المستقبلية، لن يكون هناك رجاء للخطاة. وإذا كان الله منعمًا فقط في الماضي لكنه لن يكون كذلك في المستقبل، يكون المؤمنون أكثر الناس إثارة للشفقة. إن حياتنا تتعلق بالنعمة المستقبلية، وما أرجوه من هذا الكتاب هو أن ندرك هذا الأمر ونعيش في ظل حريته وقوته.

لذا علينا أن نسأل مرة أخرى: ما هي النعمة المستقبلية؟ لقد رأينا أنها النعمة التي تحملني منذ هذه اللحظة فصاعدًا. فهي قريبة منا بأقل من مليون جزء من الثانية، وبعيدة عنا ابتعاد مليارات السنين. فكل خيرات الله وقوته الممنوحة لي قبل أن أنهي كتابة هذه العبارة، وكل الخيرات والقوة التي سوف تسندني فيما وراء القبر إلى الأبد هي ما ندعوه النعمة المستقبلية. لكن الآن نسأل، بطريقة أكثر تحديدًا، ما الذي يجعل النعمة نعمة؟ فإذا سلمنا بأنها لنا في المستقبل، وأنها هي القوة التي نحيا بها (١كو ١٥: ١٠)، فما هي تحديدًا؟

(*) يستخدم الكاتب كلمة "متحررة" (مجانية) لوصف النعمة ليشير ليس فقط أنها تُعطى بدون مقابل ودون استحقاق، لكن أيضًا بمعنى أنها لا تتقيد بأي شروط يجب توافرها لِمَنْ تُعطى له. ويقارن الكاتب هذا المفهوم بالرحمة التي هي مشروطة (أي مقيدة) بوقوع إنسان في محنة شديدة. (الناشر)

تعريف النعمة والرحمة

التعريفات الشائعة عن نعمة الله ورحمته تصاغ كالتالي: النعمة هي صلاح الله المعلن لأناس لا يستحقونه. والرحمة هي صلاح الله المعلن لأناس واقعين في محنة شديدة.[1] هذه التعريفات تساعدنا لنرى أنه بالرغم من اختلاف النعمة عن الرحمة، إلا أنهما متداخلان في المعنى.

النعمة قبل السقوط

قبل أن تدخل الخطية إلى العالم، اختبر آدم وحواء صلاح الله، ليس كرد فعل لنقص فيهما (بما أنهما لم يكونا ناقصين في شيء)، ولكن دون أن يكونا مستحقين لصلاح الله. فلا يمكن أن تكون مستحقًا لأن تُخلق. ولا يمكن أن تكون مستحقًا –وأنت لازلت في حكم العَدم– أن توضع في جنة غنَّاء، وتُسدد كل احتياجاتك بواسطة أب محب. لذا فحتى قبل أن يخطئ آدم وحواء كانا يعيشان على النعمة. وكانت إرادة الله لهما أن يعيشا بالإيمان في النعمة المستقبلية، أي في ظل عناية وعطاء الله اليومي الأبوي. هذا أمر هام لأن الشائع عند بعض اللاهوتيين هو إعطاء الانطباع الخاطئ بأن الله أراد من آدم وحواء أن يرتبطا به من خلال استحقاق أعمالهما بدلاً من الإيمان الطفولي.

يقول سفر التكوين: «أوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت» (تك ٢: ١٦ و١٧). وأظن أن «چون سيلهامر» كان محقًا عندما قال إن الفكرة المحورية في هاتين الآيتين هي:

> إن الله وحده يعلم ما هو الخير للبشر، والله وحده يعلم ما هو الشر لهم. ولكي نستمتع بالخير علينا أن نثق في الله ونطيعه. فإذا لم نُطِع، سيكون علينا أن نقرر لأنفسنا ما هو الخير وما هو الشر. وبينما يبدو للإنسان المعاصر بريق هذه الفكرة، فبالنسبة لكاتب سفر التكوين تمثل هذه الفكرة أسوأ مصير يمكن للبشرية السقوط في براثنه.[2]

بكلمات أخرى، لقد قصد الله بعدم الأكل من شجرة معرفة الخير والشر أن يكون ذلك سلوكًا يدل على الثقة في حكمته المنعمة واستعداده لقيادة آدم وحواء إلى ما هو صالح وتسديد كل احتياجاتهما. "لقد تحدثت الحية مرتين فقط، لكنهما كانتا كافيتين

لإفساد اتزان الثقة والطاعة بين الرجل والمرأة وخالقهما."[٣] لقد كان عصيانهما كسرًا لثقتهما في محبة أبيهما، وتخليًا عن الإيمان بنعمته المستقبلية.

كل عمل للنعمة هو عمل للرحمة

منذ دخلت الخطية إلى العالم اختلف اختبار النعمة بالنسبة لجميعنا. فآدم وحواء لم يكونا مستحقين للنعمة، لكن عدم استحقاقهما لم يصاحبه البؤس. لكن بعد أن دخلت إلى العالم فإن كل إنسان لا يستحق صلاح الله هو أيضًا في بؤس شديد، «لأن أجرة الخطية هي موت» (رو ٦: ٢٣).

وبما أن الخطية دائمًا ما تجلب البؤس، والبؤس هو اختبار كل الخطاة، لذا فإن كل أعمال نعمة الله هي أيضًا أعمال رحمة، وكل أعمال رحمته هي أعمال نعمة. فكل عمل نعمة يبديه الله لإنسان لأنه خاطئ هو أيضًا عمل رحمة لأن خطيته تجلب عليه البؤس. وكل عمل رحمة يُقدَّم لإنسان بسبب بؤسه إنما هو أيضًا عمل نعمة لأنه غير مستحق له. ليس من المعقول أن نقول إن الله في بعض الأحيان يُظهر لنا رحمةً وفي أحيان أخرى يُظهر لنا نعمة؛ فعندما يُظهر إحداهما فهو بالضرورة يُظهر الأخرى. الاختلاف يكمن في ما إذا كنا نرى هذا الصلاح من جهة علاقته بخطيتنا أم من جهة علاقته ببؤسنا.

في ساحة المحكمة قد تنظر إلى حكم البراءة من زاويتين. فمن خلف القاضي قد تنظر إلى روبه الأسود ومنصته العالية وجميع الأوراق المليئة بالأدلة المقنعة أمامه.. هنا يبدو الحكم بالبراءة كعمل عجيب من أعمال النعمة. فالخطية والعدل يدعوان إلى الإدانة وليس إلى البراءة. لكن إذا انتقلت إلى أمام المنصة ورأيت الدموع في عيني القاضي، ولاحظت الوضع البائس للمجرم، فإن هذا قد يجعل البراءة تبدو كعمل من أعمال الرحمة. العمل الصالح هنا واحد وليس اثنين، وما تغيَّر هو زاوية الرؤية.

إن حقيقة كون كل أعمال رحمة الله هي أيضًا أعمال نعمة ربما أدت إلى اندماج جزئي لمعانيهما في الكتاب المقدس. إن الفرق الواضح الذي ذكرته لا يبدو كذلك واضحًا دائمًا على صفحات الكتاب المقدس. على سبيل المثال، على النقيض من تعريفاتنا، نجد أن الناس يصرخون في بعض الأحيان لله التماسًا للنعمة لأنهم يتألمون (مثلاً مزمور ٦: ٢)، وفي أحيان أخرى يحصل البشر على الرحمة لأنهم خطاة مذنبون (على سبيل المثال ١تي ١: ١٣؛ رو ١١: ٣٢). لكن بوجه عام، الفرق واضح في الكتاب المقدس ويساعدنا على إدراك اتساع قلب الله.[٤]

النعمة تبدو متحررة أكثر من الرحمة

هذا الفرق بين النعمة (نحو الشخص الذي يخطئ) والرحمة (نحو الشخص الذي يتألم) يتضمن فرقًا آخر يوضح الأمر. فالرحمة، في طبيعتها، لا تبدو متحررة كالنعمة. فعندما نُظهر الرحمة، يبدو أننا نتجاوب مع الألم، ونكون متأثرين بوضع مؤلم خارج عنا، وهو تأثير إيجابي، لكنها لا تبدو متحررة كالنعمة. أما النعمة فهي تنظر قبح الخطية، ثم على غير المتوقع تعطي بسخاء. هذا يبدو أكثر تحررًا. لذا يبدو أن الرحمة تتقيد بالألم، أما النعمة فلا تبدو أنها تتقيد بالذنب. وبالتالي النعمة تبدو متحررة أكثر.

نعمة مجانية وغير مستحقة

غير أن كلمة "متحررة" لا تعني دائمًا أنها غير مشروطة. فالكثير من أعمال نعمة الله مشروطة. على سبيل المثال عندما يقول بولس: «النعمة مع جميع الذين يحبون ربنا يسوع المسيح في عدم فساد» (أف ٦: ٢٤)، فإنه يقصد أنه توجد نعمة تأتي لأولئك الذين يحبون يسوع لكنها ليست لأولئك الذين لا يحبونه. هذه النعمة مشروطة. وعندما يقول يعقوب الرسول: «لكنه [الله] يعطي نعمة أعظم... يقاوم الله المستكبرين، أما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (يع ٤: ٦)، فإنه يعني أن هناك نعمة تأتي لأولئك الذين يتضعون، لكنها لا تأتي للمتكبرين.

غير أن النعمة المشروطة ليست نعمة تُكتسب؛ فهي غير مستحقة. «النعمة المستحقة» عبارة متناقضة من حيث اللفظ؛ فالنعمة لا يمكن أن تُستحق. إن المعنى الحقيقي للنعمة هي أن الشخص الذي يحصل عليها لا يستحقها، فهي ليست حقًا له. فإذا قام فاعل خير بدفع ٨٠ ألف دولار كمصاريف لدراستك الجامعية بشرط أن تُنهي المرحلة الثانوية، فأنت لم تستحق الهدية لكنك حققت الشرط. بمقدورك أن تحقق شرط الحصول على النعمة، ومع ذلك لا تكون مستحقًا لها. فالنعمة المشروطة لا تعني النعمة المستحقة. كيف يتحقق ذلك؟[٥]

الجزء من الإجابة الذي نحتاج أن نطرحه هنا هو أنه عندما تكون نعمة الله مستندة إلى شرط، فإن هذا الشرط أيضًا هو عمل من أعمال نعمة الله. وهذا يضمن المجانية المطلقة للنعمة. ففاعل الخير الذي ذكرناه آنفًا قد يعمل معلمًا خصوصيًا لطالب متعثر في الدراسة الثانوية حتى يضمن حصوله على الشهادة، ومن ثم ينطبق عليه شرط منحة الثمانين ألف دولار. على سبيل المثال في الكتاب المقدس التوبة هي

الشرط الذي يجب تحقيقه للحصول على نعمة الغفران: «فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم» (أع ٣: ١٩). لكن التوبة نفسها هي عطية من نعمة الله: «أعطى الله الأمم أيضًا التوبة للحياة» (أع ١١: ١٨؛ راجع أيضًا ٥: ٣١). «عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق» (٢تي ٢: ٢٥). في هذه النقطة يقتبس «چون كالڤن» من أوغسطينوس قوله: "إرادة الإنسان الصالحة تسبق الكثير من نعم الله، ولكن ليس جميعها. فالإرادة نفسها التي تسبق نعم الله تمثل واحدة من هذه النعم."(٦) إن حرية الله في إعطاء نعمته لا تقل عندما يجعل بعضًا من نعمته يعتمد على شروط قام هو بتوفيرها مجانًا. فالنعمة التي تتجاوب مع النعمة تظل نعمة.

تحتل فكرة تحرر النعمة (حرية الله في إعطاء نعمته) في جوهر المعنى الكتابي للنعمة. هذه الحرية تتأكد من خلال أربعة أوجه.

أن تكون إلهًا يعني أن تكون حرًا

أولاً، عندما يعلن الله عن ذاته لموسى فهو يعرِّف نفسه كواهب مطلق الحرية للنعمة. في سفر الخروج يقول موسى لله: «أرني مجدك» (خر ٣٣: ١٨). وكانت إجابة الله الأولى لهذه الصلاة هي أنه أعطى موسى إعلانًا شفاهيًا وليس مرئيًا. فهو يقول في واقع الأمر: ها هو مجدي «أتراءف على مَنْ أتراءف، وأرحم مَنْ أرحم» (خر ٣٣: ١٩).(٧)

عندما يقول الله: «أتراءف على من أتراءف» فهو يقصد: أنا حر في إظهار نعمتي. فإذا سألت: "مَنْ هؤلاء الذين تُظهر لهم نعمتك؟" فإن الإجابة هي: "أتراءف على مَنْ أتراءف." بمعنى آخر لا ينظر الله خارج إرادته الذاتية منتظرًا ما يدفعه إلى إظهار نعمته؛ فالنعمة اللانهائية لاتُحد بأي شيء خارج الله نفسه.

بعد وقت قصير من إنهاء دراستي الجامعية في عام ١٩٧١ قررت تكريس سبع سنوات لدراسة حرية الله في إعطاء نعمته؛ استعدادًا لكتابة كتاب عن رومية ٩ حيث الاقتباس من العهد القديم في عدد ١٥: «لأنه (الله) يقول لموسى: إني أرحم مَنْ أرحم وأتراءف على مَنْ أتراءف.» وحاولت أن أكون موضوعيًا من نحو وجهات النظر المختلفة، وأن أقدم الدلائل والبراهين التي تستند عليها آرائي. واحد من أهم هذه الآراء هو ما يلي: "تمثل خروج ٣٣: ١٩ إعلانًا مجيدًا عن طبيعة الله.. (وفي نفس الوقت) إعلانًا لاسمه ومجده. فمجد الله وطبيعته يقتضيان أن يسبغ رحمته على مَنْ يريد بعيدًا عن أي اضطرار خارج إرادته الذاتية. هذا هو جوهر مَنْ يمكن أن ندعوه الله. هذا هو اسمه."(٨)

لذا ففي جوهر إعلان الله عن ذاته يأتي الإعلان بأنه حر في الأسلوب الذي به يسبغ نعمته. كما ترتبط هذه الحرية بجوهر الله ذاته.. فالله يتراءف على مَنْ يتراءف، وهو لا يتقيد بضعف أي إنسان. ولا يدفعه سخطه وغضبه إلى فعل شيء لا يريده، وإنما تفيض نعمته في أي مكان يستحسنه. وهذا يمثل تشجيعًا عظيمًا لأشر الخطاة ليرجعوا عن آمالهم الباطلة ويضعوا ثقتهم في النعمة المستقبلية.

النعمة الواهبة للحياة نعمة متحررة

ثانيًا: يتأكد تحرر نعمة الله في إعطاء نعمته من خلال الأسلوب الذي يصف به بولس دورها في الخلاص. ففي رسالة أفسس يقول:

> «الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح. بالنعمة أنتم مخلصون. وأقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع.» (أف ٢: ٤- ٦)

إن عمل الله الحاسم في التجديد هو أنه «أحيانا مع المسيح»، حتى «ونحن أموات بالخطايا». بكلمات أخرى، لقد كنا أمواتًا بالنسبة لله، ولم نكن متجاوبين معه، ولم يكن لدينا أية اهتمامات روحية. كذلك لم نكن نملك أي تذوق لجمال المسيح.. لقد كنا ببساطة أمواتًا لكل ما يمثل أهمية. ثم تدخَّل الله -دون شروط- قبل أن نكون قادرين على عمل أي شيء لنكون آنية تستحق الخلاص. لقد أحيانا.. أي بقدرته أقامنا لنرى مجد المسيح (٢كو ٤: ٤)؛ وعادت الحواس الروحية التي كانت ميتة مرة أخرى إلى الحياة.

يقول عدد ٤ أن ذلك كان عملاً من أعمال الرحمة.. بمعنى أن الله نظر إلينا في موتنا وأشفق علينا. رأى الله أجرة الخطية الرهيبة التي تقود إلى الموت والبؤس، وفاض غنى رحمته علينا في احتياجنا. لكن ما نلاحظه في هذا النص هو أن بولس يقطع الاسترسال في حديثه ليضع عبارة: «بالنعمة أنتم مخلصون».. «أحيانا مع المسيح. بالنعمة أنتم مخلصون. وأقامنا معه.»

سوف يكرر بولس هذا القول في عدد ٨. إذًا لماذا قطع الاسترسال في حديثه لإضافة هذه العبارة؟ والأهم من ذلك، تركيز الرسول بولس الذي ينصب على رحمة الله كتجاوب منه مع حالة موتنا البائسة. وبالتالي لماذا خرج بولس من مسار حديثه ليقول أننا مخلصون بالنعمة أيضًا؟

أعتقد أن الإجابة هي أن بولس يستغل هنا فرصة رائعة ليؤكد مجانية النعمة. وإذ يصف حالتنا المائتة قبل التجديد، فهو يؤكد أن البشر الأموات لا يمكنهم أن يستوفوا الشروط. فإذا كان لهم أن يحيوا ينبغي أن يكون هناك عمل غير مشروط ومجاني من قِبل الله ليخلصهم.. هذه المجانية هي جوهر النعمة ذاتها. أراد بولس أن يؤكد ذلك فقطع مسار حديثه ليصرخ قائلاً: "انظروا.. إنها النعمة.. إنها النعمة فقط.. لقد كنتم أمواتًا ولم تكونوا قادرين على فعل أي شيء. لقد كانت الرحمة متواجدة لأن حالتكم كانت يُرثى لها، لكن مجانيتها هي ما أقصده بالنعمة. أي عمل آخر يمكن أن يكون أكثر تحررًا من طرف واحد بلا مقابل عن شخص يقيم آخر من الموت!" هذا هو معنى النعمة.

النعمة التي تختار هي نعمة متحررة

ثالثًا، تتأكد فكرة تحرر نعمة الله من خلال علاقتها باختيار الله وأعمال الإنسان. في رسالة رومية ١١: ٥ يقول بولس إنه «في الزمان الحاضر أيضًا قد حصلت بقية حسب (طبقًا لاختيار) النعمة.» بكلمات أخرى، وجود بقية من المؤمنين وأولئك المعينين ليكونوا مؤمنين يعود الفضل فيه إلى اختيار الله –اختياره لهم. وهذا الاختيار إنما هو "حسب النعمة." لم يكن اختيار الله مقيدًا بشيء؛ فهو يتراءف على مَنْ يتراءف. والمختارون مختارون بسبب النعمة المتحررة غير المشروطة، وليس لأجل أي أمر في ذواتهم. هذا هو معنى عبارة "حسب (طبقًا لاختيار) النعمة."

تؤكد الآية التالية على نفس الأمر مرة أخرى. يضيف بولس: «فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال، وإلا فليست النعمة بعد نعمة» (رو ١١: ٢٦).. بمعنى آخر، إذا كان فضل وجود البقية المخلصة يعود إلى الأعمال، فإنه بالتالي لا يعود إلى اختيار النعمة. ذلك لأن النعمة متحررة، بينما الأعمال تتطلب الاستحقاقية، كما قال بولس في رومية ٤: ٤: «أما الذي يعمل فلا تُحسب له الأجرة على سبيل النعمة، بل على سبيل دَيْن.»[٩] إذًا فبولس يبرز تحرر النعمة من خلال مقارنتها بالأعمال.. إذا كانت الأعمال البشرية تستحق الخلاص وتُوجِد بقية من المؤمنين، فإن نعمة الاختيار لن تكون نعمة فيما بعد. فما بدأ كنعمة في الاختيار الحر غير المشروط سيتوقف عن أن يكون نعمة.

الله الغني والنعمة المتحررة

أخيرًا، تتأكد فكرة تحرر النعمة بغنى مصدرها الذي لا ينضب، وكذلك أبدية انسكابها. فالنعمة متحررة (من أي قيد أو شرط) لأن الله يحرص على أن يُرى كنبع لا ينضب من الحياة والقوة والفرح: «وأرحم كل بيت إسرائيل، وأغار على اسمي القدوس.» (حز ٣٩: ٢٥). فهو يغار للعالم لكي يراه بلا نقائص يمكن لنا نحن البشر أن نكملها بأعمالنا وميزاتنا. فهو دائمًا المحسن، ونحن دائمًا من نتلقى إحساناته. وهو ليس مقيدًا بما عمله في الماضي. إنه يبقى على الدوام متحررًا غير مقيد من شيء.. هذا هو معنى الألوهية. هذا ما يغار ويحرص الله على حفظه وإظهاره من أجل سعادة لانهائية لكل من يثقون فيه.

يتحدث بولس عن «غنى نعمته»، وفكرته هي أن الفيض المجاني لملء الله الكلي الاكتفاء الذي لا ينضب إنما هو عظيم بغير قياس. فلا نهاية للنعمة؛ لأنه لا قرار للينبوع التي تنبع منه. هذا ما يناقشه بولس في رسالة أفسس «وأقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع، ليظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق، باللطف علينا في المسيح يسوع.» (أف ٢: ٦ و٧).

نحن أمام أمرين مدهشين هنا.. الأول هو أن هدف خلاصنا هو أن يغدق الله غنى نعمته علينا. والثاني هو أن هذا الأمر سوف يستغرق من الله الأبدية بطولها. هذه فكرة قوية! فقد أحيانا الله وضمننا في المسيح حتى ما يجعلنا الآنية التي تستقبل لطفه الأبدي من غنى نعمته. هذا ليس لأننا نستحق.. على العكس تمامًا، إنما ليُظهر مقدار عظم جلاله الأبدي. فالنعمة لا تكون نعمة إذا كانت استجابة لقوة فينا. فالنعمة نعمة لأنها تبرز ينبوع لطف الله الفائض. والنعمة أبدية لأنها سوف تستغرق من الله مثل هذه المدة الطويلة لكي يسبغ علينا من هذه الينابيع السرمدية من الخير. والنعمة مجانية؛ لأن الله لن يكون الإله السرمدي الذاتي الاكتفاء إذا كان مقيدًا بأي شيء خارج نفسه.

مدح المجد وتقدير النعمة

يجب أن يكون واضحًا من كل هذا الدور الجوهري للنعمة المستقبلية في خطة الله العظيمة لتمجيد ذاته وبركة شعبه. إن غالبية اختبارنا لنعمة الله الفاعلة يتركز في المستقبل؛ فالنعمة التي اختبرتها بالفعل من الله –من وجهة النظر الكمية– في غاية الضآلة بالمقارنة بالنعمة المستقبلية التي سوف أختبرها من الآن وإلى الأبد. معنى

هذا أن كنز المجد العظيم الذي يريد الله أن يقدمه لبركة شعبه يستحق المدح اللائق به بينما تستحق النعمة المستقبلية، بمجانيتها، التقدير اللائق بها.

بتعظيمنا لحرية الله في إعطاء نعمته، فإن الإيمان بالنعمة المستقبلية يبطل قوة الكبرياء بطريقة عملية جدًا. سوف نتوقف في الفصل القادم لنتأمل في كيفية حدوث هذا الأمر. كيف ينقينا تقديرنا لتحرر النعمة الإلهية من فساد الكبرياء؟

«هكذا قال الرب:
لا يفتخرن الحكيم بحكمته،
ولا يفتخر الجبار بجبروته،
ولا يفتخر الغني بغناه.
بل بهذا ليفتخرن المفتخر:
بأنه يفهم ويعرفني
أني أنا الرب
الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض،
لأني بهذه أُسَرُّ، يقول الرب.»
(إر ٩: ٢٣– ٢٤)

إن لذة الكبرياء تتشبه لذة حك الجلد.
إذا كان هناك تهيج في الجلد، يشعر المرء برغبة في حكه،
لكن الأفضل هو ألا يكون هناك تهيج أو رغبة في حك الجلد.
فما دمنا نشعر بحكة تقدير الذات
سوف نشتاق إلى لذة الرضا عن الذات
لكن أسعد اللحظات هي تلك التي ننسى فيها ذواتنا
الثمينة ولا يكون لدينا أي منهما، وبدلاً من ذلك يكون لدينا كل شيء آخر.
(الله، إخوتنا من البشر، الحيوانات، الأرض والسماء).
«سي. إس. لويس»

«فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه.»
(١بط ٥: ٦)

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الكبرياء

ظل الله

التواضع ليس ملمحًا إنسانيًا شائعًا في العصر الحديث.. فهو لا يُناقش في البرامج الحوارية، ولا يُحتفى به في خطب التكريم، ولا يوصى به في الحلقات الدراسية، ولا يُدرج في قوائم القيم الأساسية للشركات والمؤسسات. وإذا ما وقفت أمام قسم تطوير الذات في أي مكتبة لبيع الكتب لن تجد الكثير من العناوين التي تحث على التواضع.

ليس من الصعب معرفة السبب الرئيسي وراء ذلك؛ فالتواضع لا يمكنه العيش إلا في حضرة الله.. فعندما يوجد الله يتواجد التواضع. في الواقع يمكنك القول إن التواضع يتبع الله كظله. وبمقدورنا أن نتوقع أن نجد الاحتفاء بالتواضع في مجتمعنا حينما يكون الاحتفاء بالله موجودًا.

أرسل واحد من المحررين إلى جريدتي المحلية يشرح المناخ السائد في عصرنا والذي يخنق التواضع:

> هناك البعض ممَنْ يتعلقون في سذاجة بذكرى الحنين إلى الله. فمعظم رواد الكنائس يقتطعون بعض الساعات من أسبوعهم لتذوق المقدسات... أما باقي الوقت فيغرقون في خضم مجتمع لم يعد يرى

> في الله إلهًا كلي الحضور وكلي القدرة يستحق المحبة والعبادة... لقد أصبحت حياتنا شديدة التعقيد بحيث لم يعد لله فيها مكان. فنحن نعتمد على أنفسنا، وأصبحنا مستعدين وقادرين على اختيار ووضع ملامح وجودنا.[1]

لا يمكن للتواضع أن يعيش في مثل هذا المناخ.. فهو يختفي حين يختفي الله. عندما يتم تجاهل الله، يأخذ الإنسان مكانه. وهذا بالضبط نقيض التواضع، أي روح الاستعلاء التي تسمى الكبرياء. إذًا فالمناخ الذي نتنفسه معادٍ للتواضع.

اشتهاء القلب لله

إن فكرة هذا الفصل تدور حول الروح المتكبرة التي تمثل شكلاً من أشكال عدم الإيمان، وأن الطريق لمحاربة الكبرياء يكون بالإيمان بالنعمة المستقبلية. فالثقة بالله والغرور نقيضان: «المنتفخ النفس يهيج الخصام، والمتكل على الرب يسمن.» (أم ٢٨: ٢٥). ولهذا يقول «ستيفن شارنوك»: "إن الإيمان المفتخر عبارة متناقضة تمامًا مثل عبارة الشيطان المتضع."[2] ولكي نرى لماذا يتناقض الإيمان مع الكبرياء نحتاج أن نذكِّر أنفسنا بمعنى الإيمان.

سوف نرى في الفصل السادس عشر أن جوهر الإيمان الكتابي بيسوع هو التقدم إليه لإرضاء قلب الله. يقول يسوع في يوحنا ٦: ٣٥: «أنا هو خبز الحياة. مَنْ يقبل إليّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبدًا.» من هنا ندرك أن الإيمان بيسوع يعني التقدم إليه للتمتع بكل ما يمثله الله لنا. وعدم الإيمان هو الابتعاد عن يسوع للبحث عن الشبع في أمور أخرى.

فالإيمان ليس مجرد قبول أمور على مستوى العقل، لكنه جوع قلبي لله يمسك بيسوع لإشباعه.. «مَنْ يقبل إليّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبدًا.» لذا فالحياة الأبدية لا تُمنح لأناس يعتقدون فقط أن يسوع هو ابن الله، لكنها تُعطى لأناس يرتوون من يسوع كابن لله. «الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» (يو ٤: ١٤). كما أنه أيضًا خبز الحياة والذين يتغذون عليه ويكتفون به يحيون بواسطته.. «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.» (يو ٦: ٥١). الفكرة في هذه الصور عن الارتواء والأكل هو توضيح جوهر الإيمان. فهو أكثر من مجرد الإيمان بوجود الماء والطعام، وهو أكثر من مجرد الإيمان بأن يسوع هو الماء والخبز المانحان للحياة. الإيمان هو التقدم إلى يسوع، والارتواء من الماء، والشبع من أكل الخبز، لكي تجد قلوبنا شبعها فيه.

التحول من الاكتفاء بالله إلى الاكتفاء بالذات

بهذه الخلفية يمكننا أن نرى بأكثر وضوح أن الكبرياء يعد نوعًا من عدم الإيمان. فعدم الإيمان هو التحول عن الله وابنه للبحث عن الاكتفاء بأشياء أخرى. والكبرياء هو تحول عن الله بصورة خاصة من أجل الاكتفاء بالذات. لذا فالكبرياء يمثل شكلاً واضحًا من أشكال عدم الإيمان، وترياقه هو إنعاش وتقوية الإيمان بالنعمة المستقبلية.

في الفصل السابع عشر سوف نرى أن الطمع يمثل دومًا تحولاً عن الله للبحث عن الشبع في أمور أخرى. وفي الفصل السابع والعشرين سوف نرى أن الشهوة الجنسية هي أيضًا تحول عن الله للشبع بالجنس في حد ذاته. وسوف نرى أن المرارة هي تحول عن الله من أجل الشبع من خلال الانتقام (الفصل الحادي والعشرون). وعدم الصبر هو تحول عن الله للاكتفاء بخطتك الذاتية التي لا يتدخل فيها أحد (الفصل الثالث عشر). كما أن القلق والخجل في غير محله والكآبة تمثل حالات مختلفة للقلب تعبِّر عن عدم الإيمان (الفصل الثالث، والعاشر، والرابع والعشرون).

لكن الكبرياء أسوأ من كل أشكال عدم الإيمان، لأن الاستقلال بالذات والاعتداد بها يقفان وراء كل تلك النزعات الخاطئة الأخرى. فكل تحول عن الله إلى أمر آخر يفترض نوعًا من الذاتية أو الاستقلالية التي هي جوهر الكبرياء. فالتحول عن الله يفترض أن الشخص يعرف أكثر من الله. وهكذا فالكبرياء تُعد أصلاً لكل تحول عن الله؛ فهي أصل كل سلوك يعبِّر عن عدم الثقة في الله. أو على وجه التحديد، الكبرياء أصلاً بقدر ما هي جوهر أو لُب عدم الإيمان، وعلاجها يكمن في الإيمان بالنعمة المستقبلية. وهكذا فالمعركة ضد الكبرياء هي المعركة ضد عدم الإيمان، والصراع من أجل الاتضاع هو الصراع ذاته من أجل الإيمان بالنعمة المستقبلية.

ويمكن تبويب الشواهد الكتابية عن الكبرياء كأساليب مختلفة من عدم الثقة في الله. وكل نص عن الكبرياء يعلن ما نرفض الثقة بالله بسببه. بشكل أدق، كل نص يبين ما نفضل أن نجده في أنفسنا دون الحاجة لله.

أعظم منافسي الله

في إرميا ٩: ٢٣ يقول الله: «لا يفتخرن الحكيم بحكمته، ولا يفتخر الجبار بجبروته، ولا يفتخر الغني بغناه.» في هذه العبارات الثلاث يحدد الله أعظم منافسيه على افتخار القلب البشري. وكل واحد منها.. الحكمة، والقوة، والغنى يغوينا لكي نجد الشبع في ذواتنا: حكمتنا، وقوتنا، ومواردنا المادية. وكل واحد منها يجذب عيوننا

عن الثقة بالله الذي هو مصدر الشبع الأعظم فوقها جميعًا. وإنه لاتضاع حقيقي أن نعترف بأن مصدر كل فرحنا يكمن خارج ذواتنا.

عندما تنتفخ المعرفة

لنأخذ الحكمة والذكاء على سبيل المثال. يحذِّر الرسول بولس من أن «العلم ينفخ، ولكن المحبة تبني.» (١كو ٨: ١). وليس معنى ذلك أنه يفضل الجهل والغباء: «لا تكونوا أولادًا في ذهنكم، بل كونوا أولادًا في الشر، وأما في الأذهان فكونوا كاملين.» (١كو ١٤: ٢٠). الكاتب الصحفي الإنجليزي الكاثوليكي «چي. كيه. شيسترتون»، والذي توفي عام ١٩٣٦، يحذِّر من أنه في القرن العشرين تختلط علينا العلاقة بين القناعة العقلية والكبرياء:

> إن ما نعاني منه هو التواضع في غير محله.. فقد تحول التواضع من أداة للطموح، وحل محله السعي نحو الاقتناع، وهذا لم يكن المقصد تمامًا. فقد قصد للإنسان أن يساوره الشك بشأن نفسه لا بشأن الحق، وحدث العكس تمامًا. والآن أصبح الإنسان يركز على ما لا يجب أن يركز عليه، وهو ذاته. وأصبح يشك فيما لا يجب أن يشك فيه، وهو الحكمة الإلهية.[٣]

ولا يناقش بولس أهمية الاقتناع القوي والمعرفة الحقيقية، غير أنه على تمام اليقين بأن ما نعرفه -أو نعتقد أننا نعرفه- يمكنه أن يغوينا ويبعدنا عن الاتكال على حكمة الله، ويقودنا إلى الافتخار بحكمتنا الشخصية.

إن عطية المعرفة أعطيت لنا حتى ما نعرف الله وعلاقة العالم به. وأول ما نتعلَّمه، عندما نعرفه كما يجب، هو كلام يسوع: «إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السماوات.» (مت ١٦: ١٧).. فكل معرفة حقيقية تعتمد على الله: «مَنْ صار مشيره (الله)... لأن منه وبه وله كل الأشياء.» (رو ١١: ٣٤، ٣٦). لقد أعطانا الله عقولاً، لا لكي نعرف فقط، بل لكي ندرك كيف يجب أن نعرف. نحن نعرف الطريق الذي يجب أن نعرفه عندما نفتخر بالله ينبوع كل معرفة، لا بحكمتنا الضئيلة الهشة بمداها الذي قصده الله أن يكون محدودًا. فالله لم يختر الكثير من الحكماء، كما يقول الرسول. والتعليل الذي يسوقه هو: «لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه»، بل «مَنْ افتخر فليفتخر بالرب» (١كو ١: ٢٦، ٢٩، ٣١).

عندما نفتخر بحكمتنا نُظهر أننا تحولنا عن الله لنثق في أنفسنا، ونكشف بذلك

أن شبعنا ليس أولاً في حكمة الله اللانهائية لكن في قدراتنا غير الأصيلة والمستمرة. إن ذلك يمثل فشلاً في الإيمان بالنعمة المستقبلية.. وعد الله بأن يستخدم حكمته اللانهائية ليستمر في إدارة الكون لخير جميع أولئك الذين يترجونه.

نفخ فقاعة قوتنا

على نفس المنوال نحن معرضون لأن نتفاخر بقوتنا. عندما يباركنا الله بسخاء، نقفز على عطية لنا وننسبها لأنفسنا، كما لو أننا نجد الشبع في نفخ فقاعة قدراتنا بدلاً من الانتفاع بمصادر الله. ونحن نواجه تحذيرًا شديدًا في تثنية ٨: ١١- ١٧:

> «احترز... لئلا إذا أكلت وشبعت وبنيت بيوتًا جيدة وسكنت، وكثرت بقرك وغنمك، وكثُرت لك الفضة والذهب، وكثُر كل مالك، يرتفع قلبك وتنسى الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية... الذي أطعمك في البرية المن الذي لم يعرفه آباءوك، لكي يُذلك ويجرِّبك، لكي يُحسِن إليك في آخرتك. ولئلا تقول في قلبك: قوتي وقدرة يدي اصطنعت لي هذه الثروة.»

إذا كان الناس قد بنوا بيوتهم ورعوا قطعانهم وجمعوا ذهبهم بالإيمان في النعمة المستقبلية، لما راود أذهانهم أن يقولوا: «قوتي وقدرة يدي اصطنعت لي هذه الثروة».. فعندما تحيا بإيمان في النعمة المستقبلية، فأنت تدرك أن كل إنجازات حياتك إنما هي إنجازات النعمة.

لن يشارك الله مجده مع المتكبر

يجسد ملك أشور الكبرياء التي تنبت في القلب عندما تعمل الحكمة والقوة معًا على زيغان القلب وتحوله من الله إلى الذات. لقد جعل الله ملك أشور قضيب غضبه العادل ضد شعب إسرائيل (إش ١٠: ٥)، غير أن الملك لم يبتهج بقوة الله الفاعلة وإرشاده، لكنه تباهى بذاته قائلاً: «بقدرة يدي صنعتُ، وبحكمتي. لأني فهيم. ونقلتُ تخوم شعوب، ونهبتُ ذخائرهم، وحطمتُ الملوك كبطلٍ» (إش ١٠: ١٣). ليس هذا من الذكاء في شيء. فالله لن يشارك مجده مع المتكبر، في واقع الأمر هو يعد قائلاً: «أني أعاقب ثمر عظمة قلب ملك أشور وفخر رفعة عينيه» (إش ١٠: ١٢). كان علاج الملك من كبريائه يكمن في تصديق هذا التحذير، والعثور على سعادته في قوة الله وحكمته، وليس في ذاته.

عندما يأكل المتكبر العشب مثل ثور

في وقت متأخر من تاريخ إسرائيل، ذُلَّ نبوخذ نصر ملك بابل بسبب تكبره: «أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري، ولجلال مجدي؟» (دا ٤: ٣٠) وبسبب هذا الكبرياء أذله الله، وجعله يأكل العشب كثور في الحقل (دا ٤: ٣٣)، حتى تعلَّم كيف يعطي المجد لقوة الله المرتفعة أكثر بكثير فوق قوته الشخصية:

> «وحُسِبت جميع سكان الأرض كلا شيء، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض، ولا يوجد مَنْ يمنع يده أو يقول له: ماذا تفعل؟ فالآن أنا نبوخذ نصر أسبِّح وأعظم وأحمد ملك السماء، الذي كل أعماله حق وطرقه عدل، ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يُذلِّه.» (دا ٤: ٣٥، ٣٧)

لم يكن علاج كبرياء نبوخذ نصر مجرد معرفة جديدة في الذهن، وإنما فرحًا جديدًا في القلب. إن «تسبيحه» و«حمده» يعبران عن صحوة الإيمان والابتهاج بأن الله يحكم المستقبل بنعمته القادرة على تنفيذ مشيئته وإذلال المتكبر. لقد وجد نبوخذ نصر كفايته في سلطان الله على أن يفعل ما يسر به في ظل حريته العُليا في تنفيذ عدله وإسباغ نعمته.

لماذا الافتخار كأنها ليست نعمة؟

بجانب الحكمة والقوة، ربما يكون أعظم باعث على الكبرياء هو المال. فالمال يمكنه شراء مصادر المعرفة والقوة التي قد لا نملكها في ذواتنا. لذا فالثروة هي أعظم رمز للاكتفاء الذاتي. فإذا كنا نملك ذكاءً في تعاملات البورصة، أو حظًا في اليانصيب، فإن ذلك يغطي على أي نقص آخر في القدرات أو القوة؛ لأننا عندئذ نتحكم في مصادر إشباع رغباتنا- أو هذا ما نعتقده. والنتيجة يصفها الله في هوشع ١٣: ٦: «لما رَعَوا شبعوا، شبعوا وارتفعت قلوبهم، لذلك نسوني.» إن الكبرياء يتعلق بأين يكون شبعك.. «لما رَعَوا شبعوا.» وهو أسلوب آخر للقول بأن الكبرياء هو أمر يتعلق بالشيء الذي تثق فيه من أجل مستقبلك. لذلك يستخدم الله لغة الثقة ليدين كبرياء إسرائيل في إرميا ٤٩: ٤: «ما بالكِ تفتخرين بالأوطية؟ قد فاض وطاؤك دمًا أيتها البنت المرتدة والمتوكلة على خزائنها، قائلة: مَنْ يأتي إليَّ؟»

لقد كانت إسرائيل تثق في ثرواتها لتضمن مستقبلها في مواجهة الأعداء المتربصين

لها. لم يكن إيمانها في نعمة الله المستقبلية، وتلك كانت المشكلة. لقد زاغ بصرها وراء أوهام من المتع الكاذبة.. وثروات هي نفسها عطايا النعمة الإلهية. لذلك فإن أيديهم سوف تثقب إذا اتكأوا عليها بدلاً من الله. وكان الرسول بولس ليسأل هؤلاء الناس، كما فعل مع الكورنثيين: «أي شيء لك لم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟» (١كو ٤: ٧) إن كل شيء لدينا قد أخذناه من الله؛ لأن في قدرة يده أن يمنح وأن يمنع، أن يكون معنا أو ضدنا.

لهذا السبب لا يمل الكتاب المقدس من أن يخبرنا قائلاً: «لن يَخلُص الملك بكثرة الجيش. الجبار لا يُنقذ بعظم القوة. باطل هو الفرس لأجل الخلاص، وبشدة قوته لا يُنجي.» (مز ٣٣: ١٦، ١٧) يمكنك شراء الجيوش والمحاربين والخيول بثروتك، لكن ما لم يقرر الله أن يهبك الخلاص والنصرة، فإن كل هذه لا تنفع شيئًا في يوم المعركة. النعمة المستقبلية، وليس القوة العسكرية، هي الرجاء الأعظم للملوك والمحاربين- وكل إنسان آخر. ولهذا تشير الآيات التالية من مزمور ٣٣ إلى ثروة بديلة نضع فيها ثقتنا: «هوذا عين الرب على خائفيه الراجين رحمته... معونتنا وتُرسنا هو. لأنه به تفرح قلوبنا، لأننا على اسمه القدوس اتكلنا.» (مز ٣٣: ١٨، ٢٠، ٢١) هذه الثقة التي تنظر بعيدًا عن إمكانياتنا الذاتية، وتتكل على الله هي ما أقصده بالنعمة المستقبلية، وهذا هو علاج الكبرياء.

الكبرياء الأعظم: الإلحاد

عندما تتناول الفئات الثلاث التي تحث على الاتكال على الذات -الحكمة والقوة والغنى- تراهم يشكلون دافعًا قويًا نحو أكبر أشكال الكبرياء.. الذي هو الإلحاد. فالأسلوب الأفضل للبقاء متفوقين في تقديرنا الشخصي هو إنكار أي شيء يتفوق علينا؛ ولذلك ينشغل المتكبرون بالنظرة المتعالية للآخرين. "الرجل المتكبر ينظر بتعالٍ دائمًا للأشياء وللناس، وبالطبع ما دمت تنظر دائمًا إلى أسفل، لا يمكنك أن ترى أي شيء فوقك."[٤] لكن في سبيل الحفاظ على الكبرياء قد يكون الأسهل هو الادعاء بأنه لا يوجد أمر فوقنا لننظر إليه: «الشرير حسب تشامخ أنفه يقول: لا يطالب. كل أفكاره أنه لا إله.» (مز ١٠: ٤) وفي النهاية على المتكبرين أن يقنعوا أنفسهم بأنه لا يوجد إله.

واحد من بين أسباب هذا هو أن حقيقة وجود الله متوغلة بعمق في كل تفاصيل الحياة. ولا يمكن للكبرياء أن يتحمل تداخل الله عن قريب في إدارة حتى أمور الحياة

اليومية. على سبيل المثال، يشخِّص يعقوب أخو الرب الكبرياء المختفي وراء التخطيط للذهاب من مدينة إلى أخرى:

> «هلم الآن أيها القائلون: نذهب اليوم أو غدًا إلى تلك المدينة أو تلك، وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح. أنتم الذين لا تعرفون أمر الغد! لأنه ما هي حياتكم؟ إنها بخار، يظهر قليلاً ثم يضمحل. عوض أن تقولوا: إن شاء الرب وعشنا نفعل هذا أو ذاك. وأما الآن فإنكم تفتخرون في تعظمكم. كل افتخار مثل هذا رديء.» (يع ٤: ١٣- ١٦)

إن الكبرياء لا يروق لها سيادة الله؛ لذا فالكبرياء لا يروق لها وجود الله؛ لأن الله سيد. قد تعبِّر الكبرياء عن ذلك بقولها: «لا إله»، أو قد تعبِّر بقولها: "سوف أسافر في الكريسماس إلى أتلانتا." يريد يعقوب أن يقول: "لا تكن بهذا اليقين"، وبدلاً من ذلك لنقل: "إن شاء الرب وعشنا سوف نذهب إلى أتلانتا في الكريسماس." وفكرة يعقوب هنا هي أن الله هو المسيطر على ما إذا كنت ستذهب إلى أتلانتا أو ستعيش حتى قراءة هذه الصفحة. «إن شاء الرب وعشنا...» هذا الأمر مزعج جدًا لروح الكبرياء المكتفي بذاته.

يقول يعقوب إن عدم الإيمان بحقوق الله في السيادة لإدارة تفاصيل مستقبلك إنما هو كبرياء. والطريق للانتصار على هذا الكبرياء هو الخضوع لسيادة الله في كل تفصيلات الحياة، والاتكال على وعوده الثابتة لإعلان قدرته من نحونا (٢أخ ١٦: ٩)، وليتبعنا بالخير والرحمة في كل يوم (مز ٢٣: ٦)، وليعمل مع أولئك الذين ينتظرونه (إش ٦٤: ٤)، وليوفر لنا كل ما نحتاجه لنعيش لمجده (عب ١٣: ٢١). بمعنى آخر يكمن علاج الكبرياء في الإيمان غير المتقلقل بالنعمة المستقبلية.

تهيج تقدير الذات وحكة الرضا عن الذات

أحد أوجه الكبرياء التي تُبرز كراهيتها للإيمان بالنعمة المستقبلية هو الرغبة الشديدة للحصول على تقدير الناس. يشرح «سي. إس. لويس» كيف تعمل هذه الرغبة:

> إن لذة الكبرياء تشبه لذة حك الجلد. إذا كان هناك تهيج في الجلد، يشعر المرء برغبة في حكه، لكن الأفضل هو ألا يكون هناك تهيج أو رغبة في حك الجلد. فمادمنا نشعر بحكة تقدير الذات سوف نشتاق إلى لذة الرضا عن الذات، لكن أسعد اللحظات هي تلك

التي ننسى فيها ذواتنا الثمينة ولا يكون لدينا أي منهما، وبدلاً من ذلك يكون لدينا كل شيء آخر (الله، إخوتنا من البشر، الحيوانات، الأرض والسماء).[٥]

إن محبة الذات تُزيد من الرغبة في الحصول على التقدير.. بمعنى أننا إذا كنا نستمد سعادتنا من الشعور بالاكتفاء الذاتي فإننا لن نشبع إلا إذا رأى الآخرون هذه الذات وقاموا بتقديرها. ولذلك وصف يسوع الكتبة والفريسيين قائلاً: «وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس... ويحبون المتكأ الأول في الولائم، والمجالس الأولى في المجامع والتحيات في الأسواق، وأن يدعوهم الناس: سيدي سيدي.» (مت ٢٣: ٥- ٧)

بُطل الاكتفاء بالذات

هذا الأمر يدعو إلى السخرية؛ فالاكتفاء بالذات ينبغي أن يحرر الإنسان المتكبر من الاحتياج لتقدير الآخرين من حوله.. هذا ما تعنيه كلمة «اكتفاء». لكن الواضح أن ما يسمى بالاكتفاء بالذات هو أمر باطل. فالذات ليست من تكوينها أن تُشبع نفسها أو تتكل على نفسها؛ فهي لا يمكن أن تكون كافية. نحن لسنا إلا صورة الله، وليس الأصل؛ فنحن ظلال وأصداء. لذلك سيكون هناك دائمًا فراغ في الذات (النفس) يصارع لكي يمتلئ بمصدر هذه النفس.

هذه الشهوة الباطلة لنوال التقدير من الآخرين تشير إلى فشل الكبرياء وغياب الإيمان بالنعمة المستقبلية. رأى يسوع التأثر المفجع لهذه الرغبة في المجد الإنساني، وذكر ذلك في بشارة يوحنا «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدًا بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟» (يو ٥: ٤٤) الإجابة هي: لا تقدرون؛ فالرغبة في الحصول على تقدير الآخرين يجعل الإيمان مستحيلاً. لماذا؟ لأن الإيمان يشبع بكل ما يمثله لنا الله في المسيح؛ فإذا كنت تميل إلى الحصول على تقدير الآخرين، فإنك بذلك تتحول عن يسوع. أما إذا كنت تتحول عن ذاتك كمصدر للإشباع (وهذا معنى التوبة)، وتأتي إلى يسوع للاستمتاع بكل ما يمثله الله لنا فيه (أي الإيمان)، فإن الرغبة الباطلة يحل محلها ينبوع مياه ينبع إلى حياة أبدية (يو ٤: ١٤).

سخرية ضعف الكبرياء

ما يدعو للسخرية هو أن هذه الرغبة الجائعة دائمًا للاكتفاء بالذات تبدو أكثر وضوحًا عندما يحصل الكبرياء على ما يبتغيه ثم يبدأ في التعثر ضعفاً. وعلينا ملاحظة ذلك، فالكبرياء الضعيفة لا يمكن التعرف عليها بسهولة. قد تبدو العبارة متناقضة مثل القول: «المربع المستدير»، لكنها ليست كذلك. فلنتأمل في العلاقة بين التفاخر ورثاء الذات:

> كلاهما يعبر عن الكبرياء.. فالتفاخر هو تجاوب الكبرياء مع النجاح، ورثاء الذات هو تجاوب الكبرياء مع المعاناة. يقول التفاخر: أنا أستحق الإعجاب لأنني أنجزت الكثير. ويقول رثاء الذات: أنا أستحق الإعجاب لأنني ضحيت بالكثير. فالتفاخر هو صوت الكبرياء في قلب الإنسان القوي، بينما رثاء الذات هو صوت الكبرياء في قلب الإنسان الضعيف. يبدو التفاخر اكتفاءً بالذات، ويبدو رثاء الذات تضحية بالذات.
>
> والسبب في أن رثاء الذات لا يبدو مثل الكبرياء هو أنه يبدو محتاجًا. لكن هذا الاحتياج ينبع من ذات مجروحة، والرغبة وراء رثاء الذات ليس أن يراهم الناس في حاجة للمساعدة، بل أن يراهم الناس أبطالاً. فالاحتياج الذي يشعر به رثاء الذات لا ينبع من شعور بعدم الاستحقاق، بل من الشعور باستحقاق غير معترف به. إنه التجاوب الذي يصدر من الكبرياء التي لم يمتدحها أحد.(٦)

عندما لا تكون الكبرياء قوية، تبدأ في القلق بشأن المستقبل. ففي قلب المتكبر يمثل القلق بالنسبة للمستقبل ما يمثله رثاء الذات بالنسبة للماضي. فالأمور التي لم تسِر على ما يرام في الماضي تعطينا شعورًا بأننا كنا نستحق ما هو أفضل. لكن إذا كنا لم نستطع جعل الأمور تسير على هوانا في الماضي، قد لا نكون قادرين على فعل ذلك في المستقبل أيضًا. وبدلاً من أن تجعل هذه الإمكانية المتكبرين يتضعون فإنها تصيبهم بالقلق.

القلق: الكبرياء المتخفية

ها هو جانب آخر يدعو للسخرية. القلق لا يبدو مثل الكبرياء؛ فهو يبدو ضعيفًا. يبدو وكأنه اعتراف منك بأنك غير قادر على السيطرة على المستقبل. نعم، من ناحية يقر المتكبرون بذلك. لكن الإقرار بذلك لا يقتل الكبرياء ما لم يكن القلب المتكبر مستعدًا للنظر إلى ذاك الذي يسيطر على المستقبل ويستريح في شخصه. وإلى أن يحدث ذلك فإن المتكبر يتمسك بحقه في الاكتفاء بالذات حتى وهو يتعثر في أفق المستقبل.

البرهان الكتابي الواضح على ذلك نجده في موضعين. الأول في إشعياء ٥١: ١٢ و١٣ حيث يدين الله شعب إسرائيل المضطرب عن طريق كشف الكبرياء المختفي تحت ستار خوفهم: «أنا أنا هو معزيكم. مَنْ أنتِ حتى تخافي من إنسان يموت، ومن ابن الإنسان الذي يُجعل كالعشب؟ وتنسَى الرب صانعك، باسط السماوات ومؤسس الأرض، وتفزع دائمًا كل يوم...» بكلمات أخرى: "مَنْ تظن نفسك لتخاف من أناس عاديين؟ لابد وأنك تعتقد نفسك شخصًا مهمًا لتخاف مثل هذا الخوف!" إن ذلك يبدو توبيخًا غريبًا. لكن المعنى واضح: إن خوفك من الناس هو شكل من أشكال الكبرياء.

لماذا يعتبر القلق بشأن المستقبل شكلاً من أشكال الكبرياء؟ يقدِّم الله الإجابة: "أنا الرب.. صانعكم، أنا أنا هو معزيكم الذي وعد بالاعتناء بكم، وأولئك الذين يهددونكم إنما هم بشر عاديون يموتون. لذا من الواضح أن خوفكم يشير إلى عدم ثقتكم بي؛ فأنتم تعتقدون أن حمايتكم تعتمد عليكم. ورغم أنكم غير واثقين من أن قدراتكم الشخصية سوف تحميكم، إلا أنكم تختارون الاتكال الهش على الذات بدلاً من الإيمان بالنعمة المستقبلية. لذا فإن كل ارتعادكم -حتى وإن بدا ضعيفًا- فإنه يعلن عن الكبرياء." والعلاج؟ تحولوا عن الاتكال على الذات إلى الاتكال على الله، وضعوا إيمانكم في قوة النعمة المستقبلية الكافية.

الموضع الثاني الذي نرى فيه القلق شكلاً من أشكال الكبرياء في رسالة بطرس الأولى: «فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه. ملقين كل همكم عليه، لأنه هو يعتني بكم.» (١بط ٥: ٦ و٧) لاحظوا هذه الرابطة النحوية بين الآيتين ٦ و٧: «تواضعوا تحت يد الله القوية» و«ملقين كل همكم عليه». إن الآية ٧ ليست جملة جديدة، لكنها عبارة مكملة: «تواضعوا... بإلقاء همكم عليه». معنى هذا أن إلقاء همكم على الله يمثل وسيلة للتعبير عن اتضاعكم تحت يد الله القوية. إنها مثل القول: "تناول طعامك بلياقة بأن تُبقي فمك مغلقًا أثناء المضغ".. "قُد سيارتك باحتراس مبقيًا عينيك مفتوحتين على الطريق".. "كن كريمًا.. من خلال استضافتك للناس في العيد."

على نفس المنوال: «تواضعوا.. من خلال إلقاء همومكم على الله». إذًا من وسائل

التعبير عن الاتضاع هو إلقاء الهموم على الله. مما يعني أن واحدًا من معوقات إلقاء الهموم على الله هو الكبرياء. بمعنى أن القلق الزائد عن الحد إنما هو شكل من أشكال الكبرياء. وهنا نسأل لماذا يُعد إلقاء همومنا على الله هو نقيض الكبرياء؟ لأن الكبرياء لا تحب الاعتراف بأنها تعاني من القلق. وإذا أُرغمت الكبرياء على الإقرار بذلك، فإنها تظل لا تحب أن تقر بأن علاج هذا يتطلب الثقة في شخص آخر أكثر حكمة وقوة. بمعنى آخر.. الكبرياء شكل من أشكال عدم الإيمان، ولا تحب الثقة بالنعمة المستقبلية. فالإيمان يقر بالحاجة إلى المعونة، أما الكبرياء فلا. والإيمان يعتمد على الله ليهبه المعونة، أما الكبرياء فلا. والإيمان يلقي بهمومه على الله، أما الكبرياء فلا. لذلك فالسبيل إلى الانتصار على الكبرياء هو الاعتراف الصريح بأنك تملك همومًا، وأن تبتهج بوعد النعمة المستقبلية القائل: «لأنه يعتني بكم.»

نختم هذا الفصل بنظرة أخيرة على مشورة الله في سفر إرميا. ففي بداية الفصل سمعناه يقول: «لا يفتخرن الحكيم بحكمته، ولا يفتخر الجبار بجبروته، ولا يفتخر الغني بغناه.» ونختم هذا الفصل بأن نسمعه وهو يُنهي العبارة بقوله: «بل بهذا ليفتخرن المفتخر: بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض، لأني بهذا أُسَرُّ، يقول الرب.» (إر ٩: ٢٣، ٢٤) في نهاية الأمر، هذه هي الإجابة الكتابية الأكيدة على السؤال بشأن كيفية مواجهة الكبرياء. كونوا فرحين ومكتفين بأننا نعرف الله.. وأنه يعرفنا.

كتبت هذه الافتتاحية في دفتر يومياتي يوم ٦ ديسمبر ١٩٨٨. إنه اعترافي الشخصي بحاجتي وتجاوبي مع كلام إرميا:

> أليس أكثر الطرق نجاحًا لكبح لذة الاحتفاء بذاتي هو التركيز على الاحتفاء بشخص الله؟ إن إنكار الذات وصلب الجسد أمران جوهريان، لكن ما أسهل أن يقودنا حتى إنكار الذات إلى الكبرياء. كيف لهذا الدافع الداخلي للتلذذ بالاحتفاء بالذات أن ينكسر إلا بأن أسخر كل ملكاتي لتبتهج في لذة الاحتفاء بالله.
>
> إن المنهج المسيحي لحياة التلذذ بالله[٧] هو الحل النهائي.. إنه أعمق من الموت عن الذات. عليك أن تصل إلى أعماق قبر الذات حتى تعثر على المياه المعجزية التي تغمرك بمذاق المجد الإلهي.. عندئذ فقط تصل ذاتك إلى غايتها.

هذا "الإعجاب المشبع إلى التمام" بكل ما لنا في الله بيسوع المسيح هو ما أقصده بالإيمان في النعمة المستقبلية.

الجزء الثالث

المكانة الجوهرية للنعمة الماضية

«اذكروا الأوليات منذ القديم،
لأني أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلي.»
(إش ٤٦: ٩)

«لأن مهما كانت مواعيد الله،
فهو فيه النَّعَم وفيه الآمين، لمجد الله، بواسطتنا.»
(٢كو ١: ٢٠)

آمين تعني: نعم يارب أنت تستطيع فعل ذلك.
وتعني: نَعَم يارب أنت قادر.
نَعَم يارب أنت حكيم.
نَعَم يارب أنت رحيم.
نَعَم يارب كل النعمة المستقبلية تأتي من لدنك.
وقد تأكدت لنا في المسيح.
كلمة «آمين» هي تعبير عن الرجاء بعد صلاة لطلب المعونة.

الفصل السابع

النظر إلى الماضي من أجل المستقبل

خلال الخمسة عشر عامًا التي قضيتها كراعٍ أول في الكنيسة قمنا بمقابلة عشرات من الأشخاص لتعيينهم في أدوار مهنية وعلمانية في الخدمة: شمامسة، شيوخ، معلِّمين، سكرتارية، موظفي استقبال، مساعدي خدمة، رعاة شركاء... إلخ. وفي كل مرة كانت النقطة الأهم هي المستقبل.. ما الذي سيفعلونه؟ هل سيكونون أتقياء وأمناء ومخلصين في عملهم؟ هل سوف يقومون بتكوين فريق لمساعدتهم؟ هل سيملكون شغفًا في قلوبهم لأن يكون الله أولاً؟ كل هذه الأمور كانت تتعلق بالمستقبل. فخدمتهم من شأنها أن تتم في ذلك البعد من الزمن.

لكن في كل مقابلة كنا نتحدث عن الماضي.. تحدثنا عن وظائفهم السابقة، تحدثنا عن شكل أدائهم في العمل والبيت، تحدثنا عن اختبارهم الروحي والبيوت التي نشأوا فيها. فلماذا كانت كل هذه الأحاديث عن الماضي إذا كان ما يهم الآن هو المستقبل؟ الإجابة واضحة: الثقة في إمكانية الاعتماد على شخص في المستقبل تتأسس على تاريخ أمانته في الماضي. هذا أيضًا ما يحدث مع الله.

النعمة الماضية هي أساس الإيمان بالنعمة المستقبلية. فنحن نطيع تعاليم يسوع من خلال الإيمان بالنعمة المستقبلية، كما أننا نتمسك بالنعمة المستقبلية من خلال

وعود كلمة الله. لكننا نشهد على جدة هذه الوعود من خلال برهان النعمة الماضية؛ فهذه النعمة الماضية هي العربون الإلهي لملء النعمة المستقبلية.

التدفق الماضي للنعمة المستقبلية اللانهائية

في واقع الأمر تلك الصورة عن العربون المدفوع لمرة واحدة لا تعبِّر بكفاءة عن الفكرة. فالنعمة الماضية تتراكم باستمرار كل يوم، ومخزون النعمة المستقبلية الذي لا ينضب يتدفق إلى الوراء من خلال الحاضر ليتجمع في وعاء النعمة الماضية المتزايد الاتساع. ذلك المخزون لا يمكن رؤيته إلا من خلال الوعود. أما مخزون النعمة الماضية المتزايد الاتساع فإنه مرئي، ويريد الله من جمال وغنى هذا المخزون أن يقوي إيماننا بالنعمة المستقبلية.

النعمة الماضية هي عربون النعمة المستقبلية

لكن نقول مجددًا إن تشبيه عربون النعمة الماضية ليس تشبيهًا لتوصيل الفكرة فقط بل تشبيهًا كتابيًا أيضًا. على سبيل المثال يُدعى الروح القدس عربونًا أو ضمانًا للنعمة المستقبلية لميراثنا الكامل (أف ١: ١٤؛ ٢كو ١: ٢٢؛ ٥: ٥). لقد أُعطي الروح، ولا يمكن قياس قدر هذه النعمة. لكن هناك الكثير الذي تحمله النعمة المستقبلية، والروح هو الضامن لها. مثال آخر هو المسيح نفسه، الذي أُطلق عليه «باكورة الراقدين» (١كو ١٥: ٢٠). إن «الباكورة» تمثل جزءًا من كل الحصاد يضمن جمع باقي الحصاد. وهكذا فإن قيامة يسوع تعد عملاً عظيمًا للنعمة الماضية يريدنا الله تذكره. إنه أساس لإيماننا بنعمة قيامتنا المستقبلية.

نموذج من العهد القديم للنظر إلى الماضي من أجل المستقبل

هذا النموذج للنظر إلى الماضي في سبيل الإيمان بالنعمة المستقبلية قديم قدم النعمة نفسها. فالعهد القديم يخبرنا عن أوقات نظر فيها شعب الله إلى الماضي ليقووا إيمانهم بالنعمة المستقبلية، وعن أوقات أخرى لم يفعلوا فيها ذلك.

على سبيل المثال، نعرف أنه بعد موت جدعون بوقت قصير «أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم» (قض ٨: ٣٣). لماذا فعلوا ذلك؟ لماذا قد يعمدون إلى

اختيار إله غريب بدلاً من الثقة في النعمة المستقبلية الحقيقي لمعونتهم وخلاصهم؟ تقدِّم الآية التالية الإجابة: «ولم يذكر بنو إسرائيل الرب إلههم الذي أنقذهم من يد جميع أعدائهم من حولهم.» (قض ٨: ٣٤) لقد تخلوا عن إيمانهم بنعمة الله المستقبلية لأنهم توقفوا عن تذكر نعمته الماضية.

يشير نحميا إلى مثال آخر: في الوقت الذي رفض الشعب فيه الرب في البرية وأرادوا العودة إلى مصر: «ولكنهم بَغَوا هم وآباؤنا، وصلَّبوا رقابهم ولم يسمعوا لوصاياك. وأبوا الاستماع، ولم يذكروا عجائبك التي صنعت معهم، وصَلَّبوا رقابهم. وعند تمردهم أقاموا رئيسًا ليرجعوا إلى عبوديتهم» (نح ٩: ١٦ و١٧). فنسيان نعمة الله الماضية في "العجائب التي صنعها" أدى إلى أن تبدو "عبودية مصر" أفضل من نعمة الله المستقبلية.

هذا الفشل في التمتع بالنعمة الماضية في سبيل الرجاء السعيد لا ينطبق على كل شعب الله في العهد القديم. على سبيل المثال كتب داود قائلاً: «إذا ذكرتك على فراشي، في السهد ألهج بك. لأنك كنت عونًا لي، وبظل جناحيك أبتهج» (مز ٦٣: ٦ و٧). لقد كان الله عونًا له مرة بعد الأخرى. وتذكر داود هذه النعمة الماضية، وكان تأثير ذلك أنه ترنم بفرح إذ تمتع بحماية النعمة المستقبلية له تحت جناحي الله.

وقد أوصى الله نفسه بهذا النموذج لتذكر النعمة الماضية من أجل الإيمان بالنعمة المستقبلية. ففي إشعياء ٤٦: ٩ يقول: «اذكروا الأوليات منذ القديم، لأني أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلي.» والسبب في أن الله يريد منهم أن ينظروا إلى «الأوليات منذ القديم» هو أن يُزيد من ثقتهم في الأمور الآتية التي يخططها لأجلهم. يقول الله عن ذاته: «رأيي يقوم وأفعل كل مسرتي.» (إش ٤٦: ١٠) فتذكُّر الأمور الماضية التي عملها الله يوفر أساسًا جيدًا للإيمان بكلمته عندما يقول: «وأفعل كل مسرتي.»

الآن ظهرت نعمة الله في المسيح

إذا كان النظر إلى الماضي هو طريق قديسي العهد القديم لاجتياز صراع الإيمان بالنعمة المستقبلية، فإنه يكون بالحري في غاية الأهمية لنا لكي نجتاز هذا الصراع اليوم؛ لأنه بالنسبة لنا تعتبر أعظم نعمة في تاريخ البشرية ماضيًا بالنسبة لزماننا. لقد جاء يسوع المسيح ابن الله إلى العالم، وبالتالي يمكننا القول من ناحية بأن نعمة الله قد جاءت في شخص وأتمت عملاً جوهريًا تعتمد عليه كل خبرات النعمة الأخرى. يقول الرسول بولس ببساطة: «ظهرت نعمة الله» (تي ٢: ١١).

في واقع الأمر، يوضح العهد الجديد بجلاء أن كل النعمة المستقبلية تعتمد على مجيء المسيح في الماضي. على سبيل المثال يقول بولس إن المسيح جاء «من أجل صدق الله، حتى يثبت مواعيد الآباء» (رو ١٥: ٨). بكلمات أخرى، أتى المسيح لنضمن التحقيق الفعلي لكل وعود العهد القديم.. لقد جاء من أجل النعمة المستقبلية. فمن وقت المسيح فصاعدًا، يجب على كل نظرة للوراء أن تشتمل على نظرة ليسوع؛ فبدونه لَما وُجدت نعمة مستقبلية.

كل وعود النعمة المستقبلية هي "النَّعَم في المسيح"

واحدة من أعجب وأروع العبارات المقررة لهذه الحقيقة تمضي كالتالي: «لأن مهما كانت مواعيد الله، فهو فيه النَّعَم» (٢ كو ١: ٢٠). دعونا نتذوق معًا هذا الحق العجيب للحظات.

السؤال الذي يطرحه علينا الله في هذا النص هو: "هل تعيشون في ملء الفرح بـ «النَّعَم» التي من نحو جميع وعودي؟" أو بمعنى آخر: "هل أجبتم بـ «نَعَم» على كل النعمة المستقبلية الممثلة في النَّعَم الإلهية التي لكم في المسيح؟" هل هناك نَعَم إلهية تجيبون عليها بـ "لا" أو "ربما" أو "ليس الآن"؟ هذا النص يستدعي الإجابة الفورية والحاسمة. فهو يدعونا لأن نصرخ لله: أكرس نفسي لأن أتخلى عن "لا" و"ربما" و"ليس الآن" التي تنبع من عدم إيماني. وها أنا أقول "نَعَم" لكل نعمة مستقبلية لكل وعد في "نعمتك لي".

دعونا نعود خطوة إلى الوراء للحظة لنتأكد من أننا نرى القوة الكاملة لهذه الآية. بحسب ٢كورنثوس ١: ١٥ و١٦ كان بولس قد خطط لزيارة كورنثوس مرتين. كان سيعبر بحر إيجة ليزور الكنيسة في طريقه إلى مكدونية، ثم كان يخطط لأن يزور كورنثوس مجددًا في رحلة عودته. كانت هذه خطته، وقد علمت الكنيسة بها.

لكن حدث شيء جعله يغيِّر فكره؛ وبالتأكيد انتشرت الشائعات بأن قلب بولس حائر بين أمرين.. نعم هو يحبهم ويريد أن يراهم ويباركهم. لكن لا.. ربما ليس بالقدر الذي به يحب راحته الشخصية أو بعض الكنائس الأخرى. هل انطوى قلب بولس على «نَعَم» و«لا» تجاه الكورنثيين؟

أجاب بولس بحماسة في العددين ١٧ و١٨: «فإذ أنا عازم على هذا، ألعلي استعملت الخفة؟ أم أعزم على ما أعزم بحسب الجسد، كي يكون عندي نعم نعم ولا لا؟ لكن أمين هو الله إن كلامنا لكم لم يكن نَعَم ولا.»

بكلمات أخرى، خطتي وكرازتي غير متقلبتين.. لا يعتريهما تردد. إنهما موحدان، فهما نَعَم لكم: فأنا أعيش من أجل خيركم. أنا معكم ولست ضدكم. حياتي وخدمتي «نَعَم» قوية ومدوية من أجل فرحكم! نَعَم لقداستكم! نَعَم لإيمانكم ورجائكم ومحبتكم وسلامكم وقوتكم!

ثم يوضح بولس في عددي ١٩ و٢٠ لماذا تُعتبر حياته نَعَمًا للكورنثيين.. تحديدًا لأن الله قد أعلن نَعَمه الحاسمة والنهائية لهم في المسيح: «لأن ابن الله يسوع المسيح، الذي كُرز به بينكم بواسطتنا، أنا وسلوانس وتيموثاوس، لم يكن نَعَم ولا، بل قد كان فيه نَعَم.. (حرفيًا: "النَعَم النهائية قد تمت فيه"- فقلب الله ليس منقسمًا في المسيح. فالمسيح يعني نَعَمًا لكل مَنْ يقبلونه). لأن مهما كانت مواعيد الله فهو فيه النَعَم.»

إذًا يقول بولس: إن قلبي ليس منقسمًا بشأنكم، لأن قلب الله ليس منقسمًا بشأنكم. فإذا كنتم تنتمون للمسيح بالإيمان، فإن كل شيء بمقدور الله أن يمنحكم إياه لخيركم قد ذخره لحسابكم في المسيح. وتسمعون نفس الإجابة عند كل نقطة: هل هذا الوعد لحسابي؟ نَعَم. هل هذه الهبة لحسابي؟ نَعَم. هل هذه البركة لحسابي؟ نَعَم. فكل وعود الله هي نَعَم في المسيح. فالمسيح هو النَعَم الإلهية لكل النعمة المستقبلية.

كل النعمة المستقبلية لنا في المسيح

يكتب بولس في رسالته إلى أهل غلاطية قائلاً: «فإن كنتم للمسيح، فأنتم إذًا نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة.» (غل ٣: ٢٩؛ راجع أيضًا أف ٣: ٦؛ غل ٣: ١٤، ٢٢؛ عب ٩: ١٥). إن كل وعود الله لخير شعبه هي في المسيح؛ فهو يؤكدها ويضمنها ويشتريها لكل مَنْ هم للمسيح.. لكل مَنْ يؤمنون به وينتمون إليه (غل ٣: ٢٢). إن كل خاطئ يأتي إلى الله في المسيح بكل احتياجاته يجد الله آتيًا إليه في المسيح بكل وعوده. عندما يقابل شخص خاطئ الله القدوس في المسيح، فإن ما يسمعه هو: نَعَم. يا الله هل تحبني؟ نَعَم. هل ستغفر لي؟ نَعَم. هل تقبلني؟ نَعَم. هل ستعينني على التغيير؟ نَعَم. هل ستمنحني القوة لخدمتك؟ نَعَم. هل ستحفظني؟ نَعَم. هل ستريني مجدك؟ نَعَم.

إن كل وعود الله.. كل بركة روحية في السماويات (أف ١: ٣) هي النَعَم في يسوع المسيح؛ فيسوع هو نَعَم الله النهائية لكل الذين يؤمنون. إنه أساس كل نعمة مستقبلية. عندما ننظر للماضي لكي نقوِّي إيماننا بالنعمة المستقبلية، فإننا ننظر بالأساس إلى يسوع.

المعنى الرائع لكلمة "آمين"

إن الصلاة هي المكان الذي يلتقي فيه دومًا الماضي والحاضر في حياتنا. أذكر هذا هنا لأن بولس بطريقة مدهشة، يربط الصلاة بالنِعَم الإلهية في هذه الآية.

في رسالة بولس الرسول الثانية إلى كورنثوس ١: ٢٠ يقول في لغة يونانية متقطعة: «وفيه الآمين، لمجد الله، بواسطتنا». دعونا نستوضح هذا. يريد بولس أن يقول: "لذلك، بسبب المسيح، نقول آمين لله في صلواتنا لنوضح أن الله ينال مجد النعمة المستقبلية التي نعتمد عليها."

إذا كنت قد تساءلت لماذا يقول المسيحيون آمين في نهاية صلواتهم، ومن أين أتى هذا التقليد، فها هي الإجابة: «آمين» كلمة أخذتها اليونانية مباشرة من العبرية دونما ترجمة، تمامًا كما وصلت إلى الإنجليزية وغالبية اللغات الأخرى دون ترجمة لها. في العبرية كانت تعبيرًا عن التوكيد القوي (راجع كذلك عد ٥: ٢٢؛ نح ٥: ١٣؛ ٨: ١٦). فهي أسلوب رسمي ومهوب وجاد يستخدمه المرء ليقول: "أنا أوافق، وأؤكد على ما قُلته للتو." أو "هذا بالفعل حقيقي." إن كلمة آمين تعني ببساطة نَعَمًا جادة في سياق مخاطبة الله.

الآن لاحظ العلاقة بين نصفي عدد ٢٠: يقول النصف الأول «لأن مهما كانت مواعيد الله فهو فيه النَعَم»، ويقول النصف الثاني «وفيه الآمين، لمجد الله، بواسطتنا.» هنا تدرك أن "آمين" و"نَعَم" يعنيان نفس الشيء، فها هو ما تقوله الآية: في يسوع المسيح يقول الله نَعَمه لنا من خلال وعوده، وفي المسيح نقول نَعَمنا لله من خلال الصلاة.

يشتمل هذا على أربعة أمور حاسمة لإيماننا بالنعمة المستقبلية الذي نعبِّر عنه في الصلاة.

الصلاة تبحث عن النَعَم الإلهية من خلال يسوع

أولاً، صلواتنا تُرفع لله من خلال يسوع. يقول بولس «فيه الآمين». فالنَعَم الإلهية تأتي إلينا في المسيح. لذا فالصلاة تذهب إلى الله من خلال المسيح، لأن الصلاة تذهب إلى حيث توجد النَعَم. فكل إنسان ينبغي أن يسمع نَعَمًا عندما يُصلي، وهذا ما نسمعه في المسيح، وليس في أي مكان آخر. هذا ما نعنيه عند قولنا "في اسم يسوع".. أو «بالمسيح يسوع ربنا» في ختام صلواتنا. فهو النَعَم الإلهية لكل النعمة المستقبلية التي نبتغيها في الصلاة.

واهب كل النعمة هو مَنْ ينال المجد

ثانيًا، نرى أن الصلاة تهدف إلى مجد الله. يقول بولس إننا عندما نصلي من خلال المسيح تكون «الآمين لمجد الله»، فالآمين هي التأكيد القوى بأن الله هو الواهب الأكرم، وأنني لست إلا محتاجًا يتلقى إحساناته. تؤكد الآمين على نعمة الله الأبدية المستقبلية التي بها يتجاوب مع احتياجنا بأفضل طريقة من أجل مجده ومن أجل خيرنا. تمتلك الصلاة القدرة الرائعة على التأكيد على خوائنا وملء الله في نفس الوقت. وهي مناسبة جدًا للتعبير عن نقصنا وعن كمال الله. عندما تتحول صلواتنا عن نقائصنا وضعفاتنا إلى الله من أجل نعمته المستقبلية، فإنه ينال المجد الذي يستحقه ونأخذ نحن الخير الذي نحتاجه.

تذهب الصلاة إلى البنك المُسمى "النعمة المستقبلية"

ثالثًا، نرى أن الصلاة هي بمثابة تجاوب مع مواعيد النعمة المستقبلية. تسحب الصلاة من الحساب الذي أودع فيه الله كل وعوده بالنعمة المستقبلية. فالصلاة ليست رجاءً غير يقيني في إمكانية وجود إله له دوافع صالحة في مكان ما. لكن الصلاة تذهب إلى البنك يوميًا وتسحب من وعود النعمة المستقبلية التي يحتاج إليها المرء في يومه.

لا تغفل العلاقة بين نصفي هذه الآية العظيمة (٢كو ١: ٢٠). فكل المواعيد الإلهية هي نَعَم في المسيح.. لذلك نصلي كلمة آمين من خلاله، لمجد الله. وللتأكيد على فهمنا لذلك دعونا نبدِّل النصفين: عندما نصلي، نقول آمين لله بواسطة المسيح؛ لأن الله قال آمين لكل وعوده في المسيح. فالصلاة هي الدعاء الواثق لله من أجل أن يحقق وعود نعمته المستقبلية لأجل المسيح. تربط الصلاة إيماننا بالنعمة المستقبلية بأساسها الأصيل.. يسوع المسيح.

آمين هي نَعَم للنعمة المستقبلية

هذا يؤدي بنا إلى النقطة الأخيرة: الآمين كلمة غنية وثمينة في أوقات الصلاة. فهي أساسًا لا تعني: "نَعَم، الآن قد أتممت صلاتي"، لكنها تعني في الأساس: "نَعَم لقد أتم الله وعده." آمين تعني: نَعَم يارب أنت تستطيع فعل ذلك. وتعني: نَعَم يارب أنت قادر. نَعَم يارب أنت حكيم، نَعَم يارب أنت رحيم. نَعَم يارب، كل النعمة المستقبلية

تأتي من لدنك وقد تأكدت في المسيح. فكلمة آمين هي تعبير عن الرجاء بعد صلاة لطلب المعونة.

في اسم يسوع.. آمين

عندما نأتي إلى نهاية صلواتنا وننطق الكلمات البسيطة: "في اسم يسوع، آمين"، فإننا في حقيقة الأمر نقول "آمين مرتين". فعندما نقول: "في اسم يسوع" فإن هذه آمين الله لنا. فكل وعوده مؤمنة في المسيح؛ فيسوع المسيح هو النَعَم والآمين الإلهيتان في نهاية صلواتنا. ثم عندما نقول "آمين" فإن هذه هي نَعَمنا وآميننا لله تجاوبًا معه. بمعنى أن آميننا والصلاة التي تؤمن عليها هي نَعَمنا لله في مقابل نعمه لنا. إنه عزم قلوبنا على أننا منذ الآن سوف نعيش بالإيمان بنَعَم النعمة المستقبلية التي يضمنها الله.

التخلي عن "لا" و"ربما" و"ليس الآن" من أجل الـ "النَعَم"

يعود بنا هذا إلى سؤالنا السابق: "هل تعيشون في ملء الفرح بالنَعَم الإلهية لكم في المسيح يسوع؟ بمعنى آخر: هل أجبتم بنَعَم على كل النَعَم الإلهية لكم؟ هل تجيبون على النَعَم الإلهية بـ "لا" أو "ربما" أو "ليس الآن"؟

إن أساس النعمة المستقبلية هو يسوع المسيح. فهو التوكيد والنَعَم لكل الوعود الإلهية، وهو يستحق كل إيماننا وثقتنا. وصلاة التكريس التي ملأت قلبي، كما أرجو أن تملأ قلوبكم أيضًا هي: "يارب أعد بأنه بنعمتك سيكون مستقبلي نعمًا دائمة لك. أكرس نفسي لأتخلى عن «لا» و«ربما» و«ليس الآن» التي تنبع من عدم إيماني، وأن أقول نَعَم لكل شيء في نَعَمك لي. أتعهد إلى عدم اكتفاء مقدس حتى يمكن لأفكاري وكلماتي وأعمالي أن تعبِّر عن القداسة الأصلية التي تنبع من الحرية الرائعة السعيدة التي في حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية المضمونة. آمين.. أنا أعني الكلمة بحق.. آمين."

«الذي لم يشفق على ابنه،
بل بذله لأجلنا أجمعين
كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء.»
(رو ٨: ٣٢)

من المؤكد أن الله الذي لم يجنِّب ابنه
ضربةً واحدة، أو دمعةً واحدة، أو أنَّةً واحدة، أو سببًا واحدًا للبؤس،
فمن المستحيل أن نتخيل بعد كل هذا أنه قد يمنع عن شعبه،
الذي لأجله سمح بكل هذه المعاناة،
أية رحمة أو تعزية أو امتياز روحي
أو زمني يمثل خيرًا بالنسبة لهم.
«جون فلاڤيل»

الفصل الثامن

منطق السماء المتين

الأصحاح الثامن من رسالة رومية هو أغلى أصحاحات الكتاب المقدس على قلبي. فمنذ سنوات قليلة حفظته عن ظهر قلب في أثناء فترة الاستعداد لعيد الميلاد، ورددته غيبًا أمام شعب كنيستي في ليلة عيد الميلاد كهدية نابعة من قلبي بهذه المناسبة. يذخر هذا الأصحاح بمواعيد النعمة المستقبلية. وبنفس القدر من الأهمية، فإنه يوضح لي منطق السماء المتين الذي يجعل وعد النعمة المستقبلية البعيد مؤكدًا تمامًا كمحبة الله لابنه يسوع.

أكثر وعود النعمة المستقبلية اتساعًا

أكثر وعود النعمة المستقبلية اتساعًا نجده في رومية ٨: ٣٢: «الذي لم يُشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء؟» هذه أجمل آية في الكتاب المقدس بالنسبة لي. سبب من أسباب ذلك هو أن الوعد الذي تحتويه يصل في شموله إلى الاستعداد لمعونتي عند كل منعطف في حياتي وخدمتي. فلم يكن ولن يكون هناك ظرف في حياتي خارج دائرة هذا الوعد.

في حد ذاته قد لا يجعل هذا الوعد من هذه الآية الأهم في الكتاب المقدس: فهناك وعود أخرى رائعة مثلها كما في مزمور ٨٤: ١١: «لا يمنع (الله) خيرًا عن السالكين بالكمال»، ويقول الرسول بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس: «فإن كل شيء لكم: أبولس أم أبلوس أم صفا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الأشياء الحاضرة أم

المستقبلية، كل شيء لكم. وأمّا أنتم فللمسيح والمسيح لله.» (١كو ٣: ٢١- ٢٣). لا يمكننا أبدًا أن نبالغ في حركة اتساع هذه الوعود.

لكن ما يجعل من رومية ٨: ٣٢ وعدًا فريدًا هو المنطق الذي يقف وراء الوعد، ويجعله متينًا وثابتًا بقدر محبة الله لابنه الأبدي المحبوب. تحمل رومية ٨: ٣٢ أساسًا وضمانًا قويين ومتينين ومؤكدين إلى الدرجة التي تنتفي فيها أية إمكانية لكسر الوعد. وهذا ما يجعله يمثل قوة دائمة في وقت الأزمات الطاحنة. فأيًا كان الانهيار أو خيبة الأمل أو الفشل، فإن هذا الوعد بالنعمة المستقبلية لا يسقط أبدًا.

تحتوي الآية على جزءين: الأساس والوعد. الجزء الأول، وهو الأساس، يمضي هكذا: «الذي لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين...».. يقول منطق السماء: إذا كان ذلك حقيقيًا فإن الله بالقطع سوف يهب كل شيء لأولئك الذين أعطاهم ابنه. معنى هذا أن النعمة المستقبلية جميعها مبنية ومؤسسة على النصف الأول من رومية ٨: ٣٢. تأمل معي للحظات في هذا الأساس.

واحد من أصدقائي، وكان راعيًا في ولاية إلينوي، كان يعظ لمجموعة من السجناء في أحد سجون الولاية خلال أسبوع الآلام منذ عدة سنوات مضت. وفي إحدى عظاته توقف، وطرح سؤالاً على الرجال حول ما إذا كانوا يعرفون مَنْ الذي قتل يسوع. البعض أجابوا: "الجنود" والبعض قالوا: "اليهود"، وآخرون قالوا: "بيلاطس". وبعد فترة من الصمت قال صديقي ببساطة: "الآب هو الذي قتله".

هذا ما تقوله رومية ٨: ٣٢؛ فالله لم يشفق على ابنه بل أسلمه إلى الموت. «هذا أخذتموه مسلمًا بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق» (أع ٢: ٢٣). يوضح إشعياء ٥٣ الأمر جليًا: «ونحن حسبناه مصابًا مضروبًا من الله... أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن» (إش ٥٣: ٤، ١٠)، أو كما تقول رومية ٣: ٢٥: «الذي قدَّمه الله كفارة بالإيمان بدمه.» وكما أن إبراهيم رفع السكين على ابنه إسحق لكنه أعتقه عندما رأى الكبش، هكذا رفع الله الآب السكين فوق صدر ابنه يسوع لكنه لم يعتقه؛ لأنه كان هو الكبش البديل.

وأخبرني صديقي الراعي أنه بعد هذه العبارة جلس أولئك المساجين القساة صامتين لبرهة ثم قالوا: "لماذا كان عليه أن يفعل ذلك؟ لماذا كان على الله أن يقتل ابنه؟ لماذا لم يشفق عليه؟"

لماذا لم يشفق الله على ابنه؟

تأتي الإجابة على الفور في نفس الآية: «لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين»، وفي موضع آخر يقول بولس: «(الله) جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو ٥: ٢١)، أو كما رأى إشعياء الأمر قبل حدوثه بمئات السنين:

«وهو مجروح لأجل معاصينا،
مسحوق لأجل آثامنا.
تأديب سلامنا عليه، وبحُبره شُفينا.
كلنا كغنم ضللنا.
ملنا كل واحد إلى طريقه،
والرب وضع عليه إثم جميعنا.»
(إش ٥٣: ٥ و٦)

لم يشفق الله على ابنه؛ لأن ذلك كان الطريق الوحيد ليشفق علينا نحن. إن ذنب تعدياتنا وعقاب آثامنا ولعنة خطيتنا كان من شأنها أن تلقي بنا لا محالة إلى هلاك الجحيم. لكن الله لم يشفق على ابنه وأسلمه ليُجرح من أجل معاصينا، ويُسحق من أجل آثامنا، ويُصلب من أجل خطيتنا.

هذه الآية هي أروع آيات الكتاب المقدس بالنسبة لي؛ لأن أساس كل وعد النعمة المستقبلية الشامل يكمن في أن ابن الله احتمل في جسده كل عقابي، وذنبي، ودينونتي، واللوم الموجه لي، وخطيتي، وفسادي.. حتى أستطيع الوقوف أمام إله عظيم وقدوس لأنال الغفران، والمصالحة، والتبرير، والقبول، وإحسانات المواعيد المبهجة إلى أبد الآبدين التي تقدمها لي يمينه.

منطق السماء المجيد

لكن ليس هذا كل ما في الأمر؛ لأن المنطق وراء الآية يقول أكثر من ذلك. يقدم الرسول بولس منطقه كالتالي: بما أن الله لم يشفق على ابنه، فبلا شك سوف يهبنا معه كل شيء مجانًا. لماذا؟ كيف يعمل هذا المنطق الشديد الأهمية؟ هناك تعبير اصطلاحي لاتيني لهذا النوع من التفكير يُسمى «majori ad minus»، معنى هذا المصطلح هو الحجة "من الأكبر إلى الأصغر". هب أن هناك رغبة تدفع إلى القيام بأمرين، الأول منهما صعب لأن تكلفته عالية جدًا، والآخر أقل صعوبة لأن تكلفته أقل.

فإذا كنت أملك الرغبة للقيام بالأمرين، واستطعت بطريقة ما الإتيان بالأعلى تكلفة فيهما، حينئذ ستتأكد قدرتي على القيام بالأمر الآخر الذي هو أقل تكلفة. إن تخطي العقبات الأصعب تؤكد لك إمكانية تخطي العقبات الأقل صعوبة.

وهذا هو المنطق الذي استخدمه يسوع في قوله: «فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدًا في التنور يُلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جدًا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟» (مت ٦: ٣٠) كُنْ حذرًا هنا، ولا تقفز إلى الاستنتاج بأن يسوع يثبت حجته "من الأصغر إلى الأكبر". نعم فالعشب أقل من البشر، لكن إلباس العشب إنما هو أصعب من إلباس التلاميذ. في الواقع يستعمل يسوع حجته من الأكبر إلى الأصغر. الله يرغب في أن يكسو الأزهار والتلاميذ. وكان التلاميذ يَشُكُّون في إمكانية أن يكسوهم.. فكيف قوَّى يسوع إيمانهم بوعد نعمته المستقبلية بأن يكسوهم؟

في واقع الأمر، يقول يسوع إنه من غير المحتمل أبدًا أن الله القدير يضيِّع وقته في إلباس زهر الحقل الذي لا يعيش أكثر من يوم. عدم الاحتمالية العالية هذه هي "الطرف الأكبر" في حجته من الأكبر إلى الأصغر. على الجانب الآخر، هناك قدر ضئيل في عدم احتمالية أن يهمل الله تلاميذ ابنه ولا يكسوهم. هذا القدر الصغير من عدم الاحتمالية يعتبر "الطرف الأصغر" في الحجة. لذا فعندما يتخطى الله عدم الاحتمالية الأكبر ويكسو الزهور، فإنه يثبت أنه يستطيع بل وسوف يتخطى عدم الاحتمالية الأصغر ويوفر للتلاميذ كساءهم.

وهكذا فإن بولس في رسالته إلى أهل رومية ٨: ٣٢ يثبت حجته من الأصعب إلى الأسهل، أو من الأكبر إلى الأصغر. فإذا كان الله لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا- هذا هو الأمر الأصعب والأكبر. والسبب في أنه الأمر الأكبر هو أن الله أحب ابنه محبة غير محدودة، فضلاً عن أن ابنه لم يكن مستحقًا للموت. كان ابنه مستحقًا لأن تعبده كل الخليقة، لا أن تبصق عليه وتجلده وتحتقره وتعذبه. وكان بذل الله لابنه الحبيب (كو ١: ١٣) هو أعظم الأمور على الإطلاق. والسبب وراء ذلك هو عظم محبة الله لابنه، هذا ما جعل أمر بذله له يُعد من الأمور المستحيلة تقريبًا. إلا أن الله فعل ذلك؛ وإذ فعل ذلك فقد أوضح أنه بالتأكيد سوف يصنع أمورًا أخرى -كلها [illegible]د أسهل بالمقارنة- بمعنى أن يهب كل شيء للبشر الذين بذل ابنه من أجلهم.

لهذا قلت إن الوعد في رومية ٨: ٣٢ يصل في يقينيته إلى مستوى محبة الله لابنه. لقد ابتغى الله أمرين: ألا يرى ابنه مثار استهزاء الخطاة، وألا يرى شعبه وقد حُرموا من النعمة المستقبلية الأبدية. لكنه لم يشفق على ابنه.. وهكذا غدا الأمر مستحيلاً أن يمنع عنا الوعد الذي من أجله مات ابنه.. فسوف يهبنا معه كل شيء مجانًا.

يالها من حقيقة! فالأمر السهل هو أن يهبنا الله كل شيء. فكِّر في هذا في كل مرة تخشى فيها أن تكون قد حُرمت من أمر تظن أنه نافع لك، وقد تظن أن في هذا قساوة من الله. وقد ترى الكثير من العوائق، وقد يبدو الأمر مستحيلاً. عند هذه اللحظة المحبطة فكِّر في هذا المنطق السماوي.. فإعطاؤك ما تحتاج هو الأمر السهل، أما الأمر الصعب فقد تم بالفعل. إن خلق العالم وتسييره من أجل خير شعبه لهو أسهل بالنسبة لله إذا ما قورن بتسليم ابنه للهزء والعذاب. لكنه فعل ذلك.. والآن لم تعد النعمة المستقبلية أكيدة فقط، بل سهلة ومتاحة.

هل يهبنا الله فعلاً كل شيء؟

لكن ما الذي يعنيه الوعد بأن الله سوف يهبنا مع المسيح كل شيء؟ تبدو النعمة المستقبلية بهذا الشكل غير متوافقة مع خبراتنا. فهناك الكثير من الأمور التي قد لا نحصل عليها، ونفكر أنه كان جديرًا بنعمة الله وحكمته أن تهبها لنا، مثل: الصحة والأمان، والمزيد من النجاح، وشريك الحياة، والأطفال المؤمنين، والعمر الطويل. فماذا كان بولس يعني بأن الله سوف يهبنا كل شيء؟

أحد مفاتيح الإجابة موجود في الآية السابقة مباشرة (رو ٨: ٣١)؛ إذ يقول بولس: «إن كان الله معنا فمن علينا؟» لذا فإن إجابتنا الأولى على هذا السؤال هي: الكثير من الناس ضدنا! بل الأكثر من ذلك أن يسوع قال: «وسوف تُسَلَّمون من الوالدين والإخوة والأقرباء والأصدقاء ويقتلون منكم. وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي» (لو ٢١: ١٦ و١٧). هذه مقاومة كبيرة، وقد عرف بولس ذلك. فبعد عدة آيات قليلة يقول بولس في نفس الأصحاح: «إننا من أجلك نمات كل النهار.» (رو ٨: ٣٦).

فما الذي قصده بولس إذًا عندما قال: «إن كان الله معنا فمن علينا؟» أظن أن قصده كان: "مَنْ يستطيع أن ينجح في حربه علينا؟" ما المقاومة التي يمكن أن تقف ضدنا ولا يمكن لله الكليٍ القدرة أن يحولها إلى خيرنا؟ والإجابة هي: لا شيء. وهذا ما قصده بولس لاحقًا عندما قال إنه في الشدة والضيق والاضطهاد والجوع والعري والموت «يعظم انتصارنا بالذي أحبنا» (رو ٨: ٣٧). إن انتصارنا يعظم ليس بالهروب من هذه الأمور المريعة، لكن بمعاينة الله الذي يحوِّل أعداء فرحنا إلى عبيد لخيرنا.

إن الوعد العظيم بالنعمة المستقبلية هو أن الله سوف يهبنا كل شيء مع المسيح- بما في ذلك الموت. وهذا ما يقوله الرسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس:

«إن كل شيء لكم... أم الحياة أم الموت... كل شيء لكم.» (١كو ٣: ٢١، ٢٢) الموت لنا.. سوف يُوهب لنا.. ليس كهبة يمكننا رفضها، لكن كبوابة انتصار للمجد.

إن الوعد العظيم بالنعمة المستقبلية، والمضمون بحسب منطق رومية ٨: ٣٢، يكمن في أنه لا يمكن لأي أمر أن يدخل في نطاق اختبارك كابن لله، بحسب نعمة الله الشاملة، ألا يتحول ليكون لفائدتك. هذا هو معنى أن يكون الله إلهًا، ومعنى أن يكون الله إلهًا لك، ومعنى أن يهبك الله مع المسيح كل شيء.

الله ينزع من كل ألم قدرته التدميرية

عليك أن تؤمن بهذا، وإلا فلن تنجح، أو حتى تعيش كمؤمن تحت ضغوط وتجارب الحياة المعاصرة. فهناك الكثير من الألم والمعوقات والمفشلات والخلافات والضغوط. لا أعلم كيف كان سيكون الحال معي في الخدمة لو أنني لم أؤمن بأن الله كلي القدرة يأخذ كل معوق ومفشل وخلاف وضغط وألم لينزع منها قدرتها المدمرة ويجعلها تعمل على مضاعفة مدى فرحي بالله.

إن العالم هو عالمنا، والحياة لنا، والموت كذلك لنا. والله يملك بسيادة عليا بالنيابة عن مختاريه؛ حتى أن كل أمر يواجهنا في مدة حياتنا التي نقضيها في الطاعة والخدمة سوف يتم إخضاعه بيدي الله ليصبح خادمًا لقداستنا وفرحنا الأبدي بالله. فإذا كان الله لنا، وإذا كان الله هو الله، فمن المستحيل أن ينجح أمر ضدنا. فالذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين، سوف يهبنا دون شك كل شيء معه مجانًا- كل شيء: العالم، والحياة، والموت، بل والله نفسه.

إن رومية ٨: ٣٢ بمثابة صديق غالٍ. ووعد النعمة المستقبلية رائع ومذهل. لكن أهم شيء هو أساس هذا الوعد.. إنه المكان الذي يمكننا فيه مواجهة كل المعوقات.. فالله لم يشفق على ابنه! وبالتالي فهو لن يألو أي جهد ليهبني كل ما اشتراه المسيح بموته- كل شيء. هذا الأمر يصل في يقينيته إلى مستوى محبته لابنه.

شهادة "چون فلاڤيل" لمنطق السماء العظيم

لست وحدي الذي يبتهج بالمنطق العظيم الذي تتضمنه رومية ٨: ٣٢؛ فقد قرأت مؤخرًا هذه الشهادة الرائعة من «چون فلاڤيل»، الراعي البيوريتاني منذ حوالي ٣٠٠ عام مضت. وهي شهادة تعبِّر عما يجيش في قلبي تمامًا:

«الذي لم يُشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢).. كيف يمكن تخيل أن الله، بعد كل هذا، يمكنه أن يمنع أمورًا روحية أو زمنية عن شعبه؟ كيف يمكن له أن يدعوهم فعلاً، ويحررهم مجانًا، ويقدسهم كلية، ويمجدهم أبديًا؟ كيف يمكنه ألا يكسوهم ويطعمهم ويحميهم ويخلصهم؟ من المؤكد أن الله الذي لم يجنب ابنه ضربة واحدة، أو دمعة واحدة، أو أنَّة واحدة، أو سببًا واحدًا للبؤس، فمن المستحيل أن نتخيل بعد كل هذا أنه قد يمنع عن شعبه، الذي لأجله سمح بكل هذه المعاناة، أية رحمة أو تعزية أو امتياز روحي أو زمني يمثل خيرًا بالنسبة لهم.[١]

حركني هذا الاقتباس كثيرًا حتى أنني ضممته في دفتر يومياتي ثم أضفتُ إليه هذه الصلاة:

"يارب، أؤمن، فأعن ضعف إيماني. يالها من حياة! خالية من الضجر والشكوى، ومليئة بالمغامرة والفرح والمحبة! ما أحوجنا لهذا الإيمان! يارب أريد أن أحيا في هذا الحق فساعدني. لا تمنع عني شيئًا من شأنه أن يضعني في هذه الثقة المجيدة."

إذا كانت هناك طريقة للعيش بالإيمان في هذه النعمة المستقبلية التي لا تُهزم، فإني أبتغي معرفة تلك الحياة. أريد أن أعرف كيف أن الثقة بهذا الوعد المؤسس على منطق السماء المتين يمكنها أن تحررني وتقويني لأحب، وأخاطر، وأتألم، وأموت، وأقوم لمجد الله، وخير شعبي وخير الأمم، وخير نفسي. هذا واحد من الأسباب الرئيسية التي لأجلها أسطر كلمات هذا الكتاب أن أستطيع بأية طريقة الوصول إلى اختبار أعمق للعيش بالإيمان في النعمة المستقبلية، وأصطحب في ذلك أكبر عدد من الناس معي.

«ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله،
الذين هم مدعوون حسب قصده.
لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه،
ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين.
والذين سبق فعينهم، فهؤلاء دعاهم أيضًا.
والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضًا.
والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضًا.»
(رومية ٨: ٢٨- ٣٠)

النعمة ترمي بجذورها في الأزل
وكل خطوة في الطريق الموصل إلى هذه اللحظة عينها
كانت خطوة من خطوات النعمة
فالاختيار بالنعمة، والتعيين السابق بالنعمة،
والدعوة الفعالة بالنعمة، والتبرير بالنعمة.
ونتيجة لكل هذه النعمة الماضية المجيدة،
فإننا نستطيع الآن الوقوف بثقة لا متناهية
تحت مظلة وعد رومية ٨: ٢٨،
ونعيش في الحرية والمحبة والبر الذي يأتي من خلال الإيمان
بالنعمة المستقبلية.. وبأن الله سوف يجعل كل الأشياء
تعمل معًا لخيرنا.

الفصل التاسع

أربعة أعمدة لوعد ثمين

رغم أنني أوليت رومية ٨: ٣٢ المكان الأسمى من بين وعود الله في قلبي، فإن آلافًا من المؤمنين قد يفعلون نفس الشيء مع رومية ٨: ٢٨: «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده.» لن أتجادل مع أي شخص يفرح بوعد النعمة المستقبلية هذا أكثر من غيره من الوعود. فمجال كلا الوعدين متسع وشامل، كلٍ بطريقته. والعبارة المشتركة بينهما هي: «كل الأشياء». رومية ٨: ٣٢ تقول إن الله سوف يهبنا مجانًا «كل شيء»، ورومية ٨: ٢٨ تقول إن الله سوف يجعل «كل الأشياء» تعمل معًا لخيرنا.

ولا يتميز كل من الوعدين فقط بالشمولية، لكن كليهما مؤسس بقوة على عمل النعمة الماضية الأكيد. رأينا ذلك في رومية ٨: ٣٢. وسوف نراه الآن في الأعداد التالية له، والتي تدعم ما جاء في رومية ٨: ٢٨.

جذور ممتدة وحوائط سميكة

توجد خارج مكتبي في چورچيا شجرة بلوط، يبلغ محيط طرفيها السفليين اللذين يبرزان مثل ذراعين ضخمين بمرفقين معوجين حوالي خمسة أو ستة أقدام. ويبلغ محيط قاعدة الجذع حوالي ١٢ قدمًا. ويصل ارتفاع ومحيط الفروع مساحات ضخمة حتى أنها تلقي بظلها تقريبًا على كل المنطقة. الشيء الذي لا يُرى هو الجذور. وهذا

هو حال الجذور دائمًا؛ فهي تحمل كل شيء لكن لا يلاحظها أحد. وكلما زادت ضخامة الشجرة، كلما تضخمت منظومة الجذور فيها. إنها موجودة، ولو أننا استطعنا رؤيتها لأصابنا العجب الشديد.. فسوف ندرك لماذا ظلت هذه الشجرة صامدة لعقود ضد الرياح والبروق والبرد والحرارة؛ وعندئذٍ تقوى ثقتنا برسوخ الشجرة وظلها.

نفس الأمر ينطبق على المباني. ففي الخمسة عشر عامًا الماضية تابعت من نافذة مكتبي كيف امتلأ محيط «مينيابوليس» بالمبنى تلو الآخر. وتعد رؤية بناء هذه المباني متعة كبيرة، خاصة ما يحدث قبل أن ترتفع هذه البنايات على الأرض. أتذكر رؤية حفّار عملاق وهو يحفر حفرة تصل في عمقها إلى مستوى يفوق ارتفاع بعض المباني حولها. وكانت قاعدة الأساس تصل في عمقها إلى حوالي ستة أو سبعة طوابق تحت الأرض. والمبدأ هنا بسيط: كلما زاد ارتفاع المبنى لكي يخدم الناس، كلما كان ضروريًا أن يزيد عمق وقوة الأساس لكي يخدم المبنى.

وعندما يتعلق الأمر بهندسة النعمة المستقبلية والمباني التي ندعوها وعود الله، تبرز رومية ٨: ٢٨ كواحد من أعظم اثنين أو ثلاثة من هذه الوعود. هذا البناء مدهش في حجمه. فالإله اللامتناهي في حكمته، وغير المحدود في قوته يعد بأنه في هذا البناء سوف تجعل النعمة المستقبلية كل شيء نافعًا لشعبه! وليس فقط الأمور الطيبة، ولكن الأمور المروعة أيضًا.. مثل الضيق والألم والخطر والجوع والقتل (رومية ٨: ٣٥– ٣٧). أي حجر تريد أن تضعه على قمة هذا الوعد الذي يناطح السحاب لتجعله أكثر طولاً؟ «الله يجعل كل الأشياء تعمل معًا للخير".. بمعنى كل الأشياء.

ما هو شكل الحياة في ظل رومية ٨ : ٢٨؟

إذا كنت تعيش داخل هذا الوعد العظيم، فإن حياتك تصير أكثر قوة وثباتًا من جبل إيفرست. لا يمكن لأمر أن يهزك عندما تكون محتميًا بجدران رومية ٨: ٢٨. أمّا خارج رومية ٨: ٢٨ فهناك التشويش والقلق والخوف والشك. خارج الوعد بالنعمة المستقبلية الشاملة هناك المخدرات والكحوليات، والهروب أمام شاشة التليفزيون، والعشرات من الأنواع من اللهو والتي تمثل جميعها بيوتًا من قش. هناك حوائط خشبية وأسقف من صفيح تمثل الاستراتيجيات الاستثمارية الهشة، والمظلات التأمينية الزائلة، وخطط التقاعد التافهة. هناك التحصينات الكرتونية من أقفال، ونظم إنذار، ومضادات صواريخ باليستية. في الخارج هناك آلاف البدائل لرومية ٨: ٢٨.

ولكن بمجرد أن تعبر بوابة المحبة إلى المبنى الضخم والثابت لرومية ٨: ٢٨ يتغير

كل شيء.. يدخل الثبات والعمق والحرية إلى حياتك. ببساطة لن يكون من السهل أن تهتز فيما بعد. فالثقة في أن هناك إلهًا قادرًا يمسك في يديه كل ألم أو كل متعة سوف تختبرها إنما هي ملجأ وأمان ورجاء وقوة لا يمكن مقارنتها بأي شيء آخر في حياتك. عندما يعيش شعب الله حقًا بالإيمان بالنعمة المستقبلية الموجودة في رومية ٨: ٢٨ -بداية من الحصبة حتى القبر- فإنهم بذلك يكونون أكثر الشعوب حرية وقوة وسخاء في العالم، ويضيء نورهم فيمجد الناس أباهم الذي في السماوات (متى ٥: ١٦).

الأعمدة الأربعة التي تُبنى عليها رومية ٨ : ٢٨

أساس مبنى النعمة المستقبلية الكبير هذا ضخم أيضًا، وهو موجود في رسالة بولس الرسول إلى رومية ٨: ٢٩ و٣٠. في واقع الأمر، هذا الأساس ضخم للغاية حتى أن كل ما أستطيع أن أفعله في هذا الفصل هو الإشارة إلى بعض الدعائم التي تحمله، وأصلي أن تقضي بقية حياتك متعمقًا أكثر فأكثر في قوة وعمق رومية ٨: ٢٨. ولن يكون هذا جهدًا ضائعًا؛ لأن رومية ٨: ٢٨ تحمل في ذاتها في حقيقة الأمر كل وعد آخر قدمه الله لنا. لهذا فأساس رومية ٨: ٢٨ يعتبر أساسًا لكل الوعود. فمن الجيد أن نعيش فوق الأرض في ناطحة سحاب رومية ٨: ٢٨، لكن الحاجة ملحة كذلك لأن نعرف طريقنا في الحجرات والحوائط التي تحت الأرض حيث توجد الأعمدة الضخمة الداعمة، وتصل إلى أعماق لا يمكن تخيلها. هذا الأمر سيجعل منا شعبًا آمنًا وثابتًا.

أعتبر رومية ٨: ٢٩ و٣٠ الأساس لعدد ٢٨؛ لأنها تبدأ بكلمة «لأن»، والتي تشير إلى أن بولس يقدِّم السبب أو الأساس الذي بمقتضاه يمكننا الوثوق في هذا الوعد. يقول الوعد: «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده»، ثم يأتي أساس الوعد في أربعة أجزاء:

> (ع ٢٩): «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين.»
>
> (ع ٣٠ أ): «والذين سبق فعينهم، فهؤلاء دعاهم أيضًا.»
>
> (٣٠ ب): «والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضًا.»
>
> (٣٠ ج): «والذين بررهم فهؤلاء مجّدهم أيضًا.»

هذه العبارات الأربع تمثل الأعمدة الأربعة القوية في أساس النعمة المستقبلية الموعود بها في رومية ٨: ٢٨. ما هي الفكرة في مثل هذه السلسلة من العبارات؟

الفكرة تتلخص في اليقين، والثقة، والضمان، والأمان. الفكرة هي أن الله هو الذي يخلِّص شعبه، بالحقيقة يخلصهم. فهو لا يعرض عليهم الخلاص فحسب، لكنه يخلصهم. فمن البداية إلى النهاية هو الذي يعمل بحسم وثبات بهدف ألا يُفقد واحد من خاصته. الفكرة هي أن السلسلة لا يمكن كسرها: فكل المعروفين مُعينون، وكل المعينين مدعوون، وكل المدعوين مُبررون، وكل المبررين مُمجدون. الفكرة تتمثل في ضمان أن يصل كل شخص في السلسلة إلى الهدف: المجد.

ما معنى "مجّدهم"؟

نرى في نهاية السلسلة أن المبررين سوف "يُمجَّدون". هذا الأمر يشير إلى «النعمة (المستقبلية)... عند استعلان يسوع المسيح» (١بط ١: ١٣)، عندما يأتي ليعطينا «إكليل المجد الذي لا يبلى» (١بط ٥: ٤).. «حينئذٍ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (متى ١٣: ٤٣)؛ لأننا سنكون «مشابهين صورة ابنه» (رو ٨: ٢٩). وسوف يمسح الله كل دمعة من عيوننا، ولن يكون هناك موت أو صراخ أو وجع فيما بعد (رؤ ٢١: ٤). والله نفسه سيكون معنا، حيث أمامه شِبع السرور والنِعم إلى الأبد التي ستكون من نصيبنا ونحن عن يمينه (مز ١٦: ١١)، وسوف «ندخل إلى فرح سيدنا» (متى ٢٥: ٢١).

هذا هو التحقيق الكامل لرومية ٨: ٢٨. فالتمجيد معناه الوصول إلى الخبرة النهائية الأبدية لرؤية الله وهو يجعل كل الأشياء تعمل لخيرنا. فالحالة المجدة في عدد ٣٠ هي الخير الأسمى الذي لأجله يجعل الله كل الأشياء تعمل معًا في الآية ٢٨. إنه تشبهنا النهائي بالمسيح هو الذي يعطي له المجد «بكرًا بين إخوة كثيرين»، ويمنحنا فرحًا لا يُعبَّر عنه.

كل المبررين سوف يُمجدون

لكن من يمكنه ضمان التحقيق الكامل لكلمات رومية ٨: ٢٨؟ يجيب بولس بالقول: «والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضًا».. جميع الذين تبرروا سوف يتمجدون، لن يسقط منهم أحد. إن هذا العمود متين وثابت يضرب بعمق في أساس الوعد الإلهي. فالتبرير بالإيمان يضمن التمجيد النهائي. والله هو الذي حدد ذلك، وهو الذي يحققه. فنعمة التمجيد المستقبلية مضمونة من خلال نعمة التبرير الماضية: «متبررين مجانًا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح.» وإذا كنا قد تبررنا بالنعمة، فسوف نتمجد

أيضًا. لقد أحكم الله الرابطة، ولا يمكن لها أن تنكسر.

كل المدعوين سوف يُمجدون

لكن مَنْ الذي يتبرر؟ يجيب بولس: «والذين دعاهم، فهؤلاء بررهم أيضًا». كل المدعوين مبررون. هذا هو العمود الثابت الثاني في أساس وعد رومية ٨: ٢٨. وهو تأكيد قوي.

كيف لبولس أن يقول إن كل المدعوين مبررون؟ يُعلِّم بولس في موضع آخر، وبكلمات لا يمكن اللبس فيها بأن التبرير يكون بالإيمان: «فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله.» (رو ٥: ١) «إذًا نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس.» (رو ٣: ٢٨) وليس سوى الذين يملكون الإيمان هم الذين يتبررون، وكل المدعوين يتبررون. معنى هذا أن الدعوة التي يقصدها بولس ليست دعوة الإنجيل العامة التي تصل إلى كل مَنْ يسمعون رسالة الإنجيل في كل مرة يُبَشَّرُ بها. وذلك لأننا نعلم أنه ليس كل مَنْ تأتيهم الدعوة بهذا المعنى يمارسون الإيمان، ولا أنهم يتبررون. فالكثيرون يغلقون قلوبهم أمام رسالة الإنجيل. ولم يكن ممكنًا أبدًا لبولس أن يقول عنهم: «والذين دعاهم، فهؤلاء بررهم أيضًا». لقد وصلت الدعوة إلى آذانهم، لكن لم يكن لها ذلك التأثير المغيِّر على قلوبهم.

الدعوة تخلق الإيمان الذي يبرر

واضح أن الدعوة التي قصدها بولس هي دعوة الله الداخلية الفعالة إلى القلب، والتي تخلق بالفعل ما تأمر به، ألا وهو الإيمان. بكلمات أخرى، كلمات رومية ٨: ٣٠ ليست كمَنْ ينادي على حيوان أليف "تعال هنا.."، فيسمع الحيوان الأليف الأمر ويطيعه أو لا يطيعه. لكن الدعوة الإلهية هي مثل تلك الصرخة «لعازر هلم خارجًا» من القبر (يو ١١: ٤٣)، أو مثل الأمر «ليكن نور» (راجع ٢كو ٤: ٦).. فالدعوة تخلق ما تأمر به.

وبما أن الدعوة أكيدة الفاعلية بسبب سلطان الله القادر على كل شيء، كان بولس قادرًا على القول بأن «الذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضًا».. فكل المدعوين مبررون؛ لأن كل المدعوين يملكون الإيمان، إذ أن الدعوة تخلق الإيمان.[1]

لمن يُوَجّه الوعد الموجود في رومية ٨ : ٢٨؟

هنا نأتي إلى بؤرة ارتكاز وعد رومية ٨: ٢٨. لاحظ أن كلمات الوعد هنا لا تنطبق على الجميع. فالآية تقول إن الله يجعل كل الأمور تعمل معًا للخير لأولئك المدعوين؛ وبالتالي فإن المستفيدين من هذا الوعد هم الأشخاص الذين لم يعتمدوا على قدراتهم الشخصية ليكونوا مستحقين لهذا الوعد، لكنهم في النهاية أشخاص دعاهم الله. قد سبق ورأينا أن هذه الدعوة ليست مجرد اقتراح يمكن أن يسقط، لكن عمل فعّال وأكيد يخلق الإيمان.

هذا هو بؤرة ارتكاز الوعد الوارد في رومية ٨: ٢٨. فالذين يدعوهم الله يمكنهم أن يثقوا في أن الله سوف يجعل كل الأمور تعمل معًا لخيرهم لأن دعوتهم تضمن تبريرهم، وتبريرهم بالتالي يضمن تمجيدهم، والتمجيد هو التحقيق الكامل لكلمات رومية ٨: ٢٨. يتمثل هذا التحقيق في دهور لا تنتهي من رؤية الله، وهو يجعل كل شيء في الكون طوعًا لفرحنا المقدس به.

مَنْ الذي يقبل هذه الدعوة الخالقة للإيمان؟

لم يكتفِ بولس بالتوقف عند هذين العمودين لأساس وعد رومية ٨: ٢٨. فهو يستدرك قائلاً: "ما الأساس الذي بنيت عليه هذه الدعوة الإلهية؟" أو "مَنْ هم أولئك الذين يختبرون هذه الدعوة الإلهية العليا؟" فيجيب بقوله: «الذين سبق فعينهم، فهؤلاء دعاهم أيضًا.» هذا هو العمود الثالث من أعمدة الأساس؛ فعمل دعوة الله مبني على عمل اختياره السابق.

وهذا يمثل طريقة أخرى لقول ما تريد رومية ٨: ٢٨ إخبارنا به في كلماتها: «مدعوون حسب قصده»، وأن الله يجعل «كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين... مدعوون حسب قصده». و«حسب قصده» تعني "حسب هدف الاختيار الإلهي السابق". بمعنى أن الله لم يدعُنا دونما هدف خاص أو قصد في ذهنه. لقد كان يحمل في ذهنه «تعيينًا» لنا، ودعانا بحسب هذا القصد. والذين عينهم سابقًا، فهؤلاء دعاهم.

ويتضح القصد أو التعيين بوضوح في رومية ٨: ٢٩: «فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين.» إذًا فأساس دعوتنا هو قصد الله أن يكون شعبه متماثلاً أخلاقيًا وروحيًا مع يسوع، ويمجده كإله. إن دعوتنا في يقينها تماثل هدف الله النهائي بتمجيد ابنه.

عندما نضيف العمود الثالث إلى الأساس الذي يحمل الوعد الوارد في رومية ٨: ٢٨ فإن الصورة تكون كالتالي: بما أن تمجيدنا النهائي يمثل التحقيق الكامل لرومية ٨: ٢٨، يمكننا أن نتيقن تمامًا في حدوثه، لأن تمجيدنا مضمون من خلال تبريرنا، وتبريرنا مضمون من خلال دعوتنا، ودعوتنا ثابتة وأكيدة كثبات ويقينية اختيار الله السابق، الذي هو قصد الله الأزلي ليجعلنا نشبه ابنه ونمجده كإله، لمدح مجده: «إذ سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح... لمدح مجد نعمته» (أف ١: ٥ و٦). إن أعمدة النعمة الماضية، الواحد تلو الآخر، تمنحنا الأساس الراسخ لنعمة الله المستقبلية في رومية ٨: ٢٨.

العودة إلى مكنونات قلب الله الأزلية

هناك عمود آخر.. لم يتوقف بولس حتى بعد أن عاد بنا إلى الاختيار السابق. كما لو أنه كان يقول: "من أجل الوصول إلى أسمى مواعيد النعمة المستقبلية، سوف أصل إلى أعمق أساسات النعمة الماضية. سوف أعود إلى مكنونات قلب الله الأزلية." ما الذي يُبنى عليه التعيين السابق ليجعله ثابتًا ومؤكدًا؟ يجيب بولس: «لأن الذين سبق فعرفهم، سبق فعينهم.» إنه أكبر عمق يصل إليه بولس: علم الله السابق. ومن علم الله السابق ينبع التعيين والدعوة والتبرير والتمجيد. وبالتالي فإن التحقيق الأكيد للنعمة المستقبلية في رومية ٨: ٢٨.

في بعض الأحيان يعتبر الناس أن علم الله السابق يعني أن الله رأى مسبقًا الإيمان الذي ينبع من إرادتنا الشخصية. ثم على أساس ما نفعله يعيننا هو للبنوة. وهذا الأمر يجعل كل سلسلة أعمال الخلاص المجيدة تعتمد على عملنا نحن وليس على عمل الله.

لكن هذا التفسير لا يستقيم. فهو يفترض أن الإيمان أمر نأتي به نحن بقوة إراداتنا الشخصية.. عوضًا عن كونه عمل دعوة الله العليا في حياتنا. هذا لا يتناسب مع ما رأيناه في رومية ٨: ٣٠: «والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضًا.» ما رأيناه هو أنه إذا كان كل المدعوين مبررين، كما يقول بولس، إذًا فدعوة الله ليست مجرد اقتراح مُقدَّم للناس الذين يتمتعون بقوة الإرادة الشخصية. وإنما على النقيض، هو عمل من أعمال الخلق في داخل الناس الأموات روحيًا.[٢] ما تخلقه الدعوة هو الإيمان. لذلك عندما نظر الله إلى التاريخ من وجهة نظره في الأبدية فإنه لم يرَ شعبًا حرًا يستخدم قوة إرادته الشخصية ليؤمن، بل رأى بالحري شعبًا مستعبدًا للخطية وميتًا روحيًا، كان رجاؤه الوحيد هو أن تخلق فيه الدعوة الإلهية الإيمان الذي تأمر به.

إن معنى «علم الله السابق» في رومية ٨: ٢٩، ليس مجرد معرفة سابقة بما يمكن أن نعمله بأنفسنا، لكنه نوع من المعرفة الذي دائمًا ما تعني في الكتاب المقدس «معرفة خاصة وتخصيص لعلاقة.» إنها تعني بالضبط تفضيلاً لشيء أو اختيارًا له. على سبيل المثال يقول الله لإسرائيل في عاموس ٣: ٢: «إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض.» بمعنى أن الله قد خصَّ شعب بني إسرائيل بمحبته واهتمامه المتميزين حتى أنه أفرزه من بين جميع الأمم. وهناك العديد من الأمثلة التي تشير إلى هذا المعنى لكلمة "يعرف" في الكتاب المقدس.[٣]

ما يعنيه هذا إذًا هو أن العمود الأخير في أساس وعد رومية ٨: ٢٨ هو اختيار الله المجاني الكريم. إنه اختيار الله الذي يعطي اليقين والضمان الأبدي لكل سلسلة أعمال الخلاص. فتمجيدنا مضمون في تبريرنا الإلهي الكريم، وتبريرنا مضمون من خلال الدعوة الإلهية الكريمة لنا، ودعوتنا مضمونة بسبب الاختيار الإلهي السابق الكريم لنا، واختيارنا السابق مضمون من خلال المعرفة المجانية الكريمة لنا من قبل الله، كمستفيدين من النعمة المستقبلية الرائعة، حيث تعمل كل الأشياء لخيرنا.

المكانة الهائلة للنعمة الماضية

كما احتفينا بالنعمة المستقبلية، دعونا لا ننكر مكانة النعمة الماضية. فالنعمة ترمي بجذورها في الأزل، وكل خطوة في الطريق الموصل إلى هذه اللحظة عينها كانت خطوة من خطوات النعمة. فالاختيار بالنعمة (رو ١١: ٥)، والتعيين السابق بالنعمة (أف ١: ٥ و٦)، والدعوة الفعالة بالنعمة (٢تي ١: ٩)، والتبرير بالنعمة (رو ٣: ٢٤)، ونتيجة لكل هذه النعمة الماضية المجيدة فإننا نستطيع الآن الوقوف بثقة لا متناهية تحت مظلة وعد رومية ٨: ٢٨، ونعيش في الحرية والمحبة والبر الذي يأتي من خلال الإيمان بالنعمة المستقبلية.. بأن الله سوف يجعل كل الأشياء تعمل معًا لخيرنا. إن حياة المحبة الأكثر حرية هي تلك التي تتشبع بالثقة بأنه لن يحدث لي شيء إلا لخيري. ومن اللائق أن تستقر هذه الحرية العظمى على أساس عظيم.

واحد من أثمن اختبارات هذه الحرية هو التحرر من الخجل في غير محله. تأمل معي في الفصل القادم قوة نعمة الله المحررة وهي تنتصر على تأثيرات الخجل المعطلة.

«أحتمل هذه الأمور أيضًا.
لكنني لست أخجل، لأنني عالم بمن آمنت،
وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم.»
(٢تي ١: ١٢)

«كل مَنْ يؤمن به لا يُخزَى.»
(رو ١٠: ١١)

الفصل العاشر

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مقابل الخجل في غير محله

رغم أن هناك نظرة شائعة بأن الخجل يُعد تشخيصًا للاضطراب النفسي، فإن جذوره عميقة في النفس الإنسانية، والألم الذي يتسبب فيه حقيقي. لأننا إذا أردنا أن نعيش نوعية الحياة الحرة والأصلية في محبتها وقداستها التي دعانا إليها المسيح، علينا أن ندرك وضع الخجل وكيفية مواجهة تأثيراته المعوقة. نبدأ هنا بتعريف الخجل: إنه شعور مؤلم ينتج عن الإحساس بالذنب أو التقصير أو عدم الملاءمة.[1] ويتولد الألم ليس فقط بسبب أخطائنا الشخصية، لكن أيضًا بسبب وعينا برؤية الناس لهذه الأخطاء. دعوني أوضح هذه الأسباب كلاً على حدة!

أسباب ثلاثة للخجل

أولاً، لنأخذ الشعور بالذنب كأحد هذه الأسباب. افترض أنك تتصرف ضد ضميرك، وتمتنع عن تقديم الإقرار الضريبي الخاص بك. ولمدة عامين لم تشعر بأي شيء لأنك نسيت الأمر، كما أن المسألة لم تُكتشف. لكن بعد وقت تم اكتشاف الأمر وعلم الناس بأنك كاذب وسارق. وانتشر الذي اقترفته أمام كنيستك وزملاء العمل والأصدقاء، وأمام استهجان المجتمع بدأت تشعر بألم الخجل.

أو لنأخذ الشعور بالتقصير كأحد هذه الأسباب. هَب أنك لاعب في الأوليمبياد، وتنتمي لبلد موَفقة في سباق الثلاثة آلاف متر بالمقارنة مع البلدان الأخرى. ثم دخلت في سباق أمام "آلاف المتفرجين في الأوليمبياد"، وكان السباق صعبًا حتى أنك عند الجولة الأخيرة اكتشفت أنك في المركز الأخير، وأنه عليك أن تستمر في العدو وحدك بينما الجميع يشاهدونك. ليس هناك ذنب هنا؛ فأنت لم ترتكب أي خطأ. ولكن عندما تفكر في الأمر، يكون الشعور بالخزي والخجل شديدًا.

أو لنأخذ عدم الملاءمة كأحد أسباب الخجل. هَب أنك مدعو لحفل ما، وتكتشف عند وصولك أن ملابسك غير ملائمة للمناسبة. هنا أيضًا لا يوجد شر أو ذنب، ولكن خطأ اجتماعي، أو عدم ملاءمة هي التي جعلتك تشعر بالحماقة والغضب. هذا أيضًا نوع من الخجل.

من الأشياء التي تقفز إلى ذهنك مباشرة من هذا التعريف للخجل هو أنه هناك أنواع مبررة من الخجل، وهناك أنواع غير مبررة. وهناك مواقف يكون الخجل فيها هو ما ينبغي أن نشعر به، وهناك مواقف أخرى لا ينبغي علينا أن نشعر فيها بالخجل. جميع الناس يتفقون على أن الكاذب ينبغي أن يشعر بالخجل؛ بينما غالبية الناس قد يتفقون على أن العَدَّاء في مسابقة العدو الذي بذل كل ما يستطيع من جهد لا ينبغي عليه أن يخجل. في هذه الحالة قد تكون مشاعر الإحباط أو خيبة الأمل، وليس الخجل، هي المناسبة لهذا الموقف.

نوعان من الخجل

دعوني أوضح من الكتاب المقدس هذين النوعين من الخجل. فالكتاب المقدس يوضح بجلاء أن هناك خجلاً ينبغي أن نشعر به، وهناك نوعًا آخر من الخجل لا يجب أن يصيبنا. سوف أدعو نوعًا "الخجل في غير محله"، وأدعو الآخر "الخجل في محله". وعلى غرار كل الأمور الأخرى، الفكرة الأساسية هي كيف يتدخل الله في خبرة الخجل.

الخجل في غير محله

الخجل في غير محله (وهو النوع الذي لا ينبغي أن نشعر به) هو ذلك النوع الذي تشعر به رغم عدم وجود سبب وجيه يدعوك لذلك. كتابيًا يعني ذلك أن الشيء الذي تشعر

بالخجل حياله لا يوجد فيه ما يهين الله، أو به ما يهين الله لكن ليس لك دخل فيه. بمعنى آخر، الخجل في غير محله هو خجل في أمر جيد، أي أمر لا يهين الله. أو أنه خجل في أمر رديء، لكن لا يكون لك يد فيه. هذا هو نوع الخجل الذي ينبغي ألا نشعر به.

الخجل في محله

الخجل في محله (وهو النوع الذي ينبغي أن نشعر به) هو ذلك النوع من الخجل الذي تشعر به عندما يكون هناك ما يستوجب ذلك. كتابيًا يعني ذلك أننا نشعر بالخجل في أمر ما لأن اشتراكنا فيه يُعد مهينًا لله. وبالتالي وجب علينا الشعور بالخجل عندما تكون لنا يد في جلب المهانة لله من خلال توجهاتنا أو سلوكياتنا.

أريد التيقن من أنك تدرك مدى الأهمية التي يمثلها الله في هذا التمييز بين الخجل في غير محله والخجل في محله. فسواء كان لنا دور في جلب الإكرام أو المهانة لله فهذا هو ما يصنع الفرق كله. فلو أننا أردنا مقاومة الخجل من جذوره، علينا أن نعي كيفية ارتباطه بالله. ونحن بالفعل نحتاج إلى مقاومة الخجل -كل أنواع الخجل- من جذوره. فكل من النوعين من الخجل يمكنه أن يعيقنا لو أننا لم نعرف كيفية التعامل معه من الجذور.

سوف يساعدنا في هذه المواجهة أن ننظر إلى بعض النصوص الكتابية التي توضح الخجل في غير محله والبعض الآخر الذي يوضح الخجل في محله، نحتاج أن نرى أن هذه النصوص في واقع الأمر تمثل تصنيفًا كتابيًا. في يومنا هذا، عندما يكون لعلم النفس تأثير هائل على كيفية استخدامنا للكلمات، علينا أن نتيقن من أننا يمكننا تدعيم اللغة التي نعبِّر بها عن مشاعرنا بأساليب كتابية للتفكير والتحدث. فإذا كنت قد تعلمت استخدامك لكلمة "الخجل" من علم النفس المعاصر، انتبه إلى أنني لا أستخدمها بنفس الطريقة (انظر الحاشية رقم ١). قد تكتشف أن الكتاب المقدس يستخدم مفهوم الخجل بطريقة مختلفة عن الشائع. وعندما تستوعب المصطلحات الكتابية بوضوح، سوف تكون في وضع يتيح لك أن تقيِّم الطريقة التي يتحدث بها الناس الآن عن الخجل.

نماذج كتابية للخجل في غير محله

يقول بولس لتيموثاوس إنه إذا شعر بالخجل في الشهادة بالإنجيل، فليس هذا إلا خجلاً في غير محله: «فلا تخجل بشهادة ربنا، ولا بي أنا أسيره، بل اشترك في

احتمال المشقات لأجل الإنجيل بحسب قوة الله» (٢تي ١: ٨). ينبغي ألا تخجل من الإنجيل؛ فالمسيح يُكرَّم عندما نتحدث حسنًا عنه، وهو يُهان بسبب صمتنا الجبان. لذا فالكرازة لا تدعو للخجل، بل عدم الكرازة هو الذي يدعو إلى ذلك.

تقول نفس هذه الآية إننا إذا شعرنا بالخجل في أن صديقًا لنا قد ألقي في السجن لأجل المسيح فإن خجلنا هذا لا يكون في محله. قد يرى العالم أن التعرض للسجن من أجل المسيح علامة على الضعف والهزيمة، لكن المؤمنين لديهم رأي آخر. فاسم الله يتمجد بسبب شجاعة خدامه في أن يذهبوا إلى السجن لأجله إذا كانوا في ذلك قد سلكوا بنزاهة ومحبة. علينا ألا نخجل لأننا اشتركنا في شيء يكرم الله بهذه الطريقة أيًا كان الازدراء الذي يرمينا به العالم.

في قول مشهور ليسوع، نتعلم أن خجلنا يكون في غير محله عندما يتعلق الأمر بشخص يسوع أو بما قاله: «لأن من استحى بي وبكلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطئ، فإن ابن الإنسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين» (مر ٨: ٣٨). على سبيل المثال إذا كان يسوع يقول: «أحبوا أعداءكم» فيضحك الآخرون ويعتبرونه كلامًا غير واقعي، فعلينا ألا نخجل. وإذا كان يسوع يقول: «لا تزنِ» فيعتبر الشهوانيون هذه الوصية بالية، علينا ألا نخجل من الوقوف في صف يسوع. سيكون هذا خجلاً في غير محله؛ لأن كلمات يسوع حق وتكرم الله، بغض النظر عن العالم الذي يحاول إظهارها وكأنها حماقة.

إن الاضطهاد والاتهام والسخرية التي تتعرض لها كمؤمن ليست مدعاة للخجل، لأن كل ذلك يمثل فرصة لإكرام الله: «فلا يتألم أحدكم كقاتل، أو سارق، أو فاعل شر، أو متداخل في أمور غيره. ولكن إن كان كمؤمن، فلا يخجل، بل يمجد الله من هذا القبيل» (١بط ٤: ١٥ و١٦) بكلمات أخرى، المعيار الكتابي لنوعي الخجل، في محله وفي غير محله، ليس مدى الحماقة التي تبدو بها أمام الناس، ولكن بقدر ما تجلب الكرامة لله.

كرامة مَنْ على المحك في خجلنا؟

من الهام للغاية أن نفهم ذلك، لأن كثيرًا مما يدعونا للشعور بالخجل ليس المهانة التي جلبناها على الله بأفعالنا، وإنما فشلنا في الظهور بالمظهر الذي يحبه الآخرون. كثير من خجلنا لا يكون مركزه الله بل ذواتنا. وإن لم نتيقن من هذا الأمر، لن نكون قادرين على حل مشكلة الخجل من جذورها.

الكثير من الخجل المسيحي ينبع مما يعتقده الإنسان وليس مما يعتقده الله. لكن إذا ما أدركنا بعمق أن تقدير الله أكثر أهمية بما لا يقاس من تقدير أي شخص آخر، لما خجلنا من أشياء تصل في روعتها إلى حد أن توصف بأنها قوة الله نفسه: «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح، لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن» (رو ١: ١٦).. تخبرنا هذه الآية بسبب آخر لكون اعتبار الخجل بالإنجيل خجلاً في غير محله. الإنجيل هو قوة الله نفسه للخلاص. والإنجيل يعظِّم الله ويضع الإنسان. أما بالنسبة للعالم لا يمثل الإنجيل أية قوة، بل يبدو نموذجًا للضعف؛ إذ يطلب من الناس أن يصيروا مثل الأطفال ويتكلوا على يسوع بدلاً من اتكالهم على ذواتهم. لكنه بالنسبة للمؤمنين فإنه قوة الله التي تمنح الخطاة المجد الأبدي.

من الأسباب التي تدفعنا للشعور بالخجل حتى من قوة يسوع هو أنه يُظهر قوته بأساليب لا يعترف العالم بقوتها. قال يسوع لبولس في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢: ٩ «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمل.» (٢كو ١٢: ٩) وتجاوب بولس مع هذا التعبير الغريب عن القوة بقوله: «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي، لكي تحل عليَّ قوة المسيح. لذلك أُسَر بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح. لأني حينما أنا ضعيف فحينئذٍ أنا قوي.» (٢كو ١٢: ٩ و١٠). من الطبيعي أن تكون الضعفات والشتائم سببًا للخجل، لكن بالنسبة لبولس فهي تعتبر سببًا للبهجة. فبولس يرى أن الخجل من ضعفه واضطهاداته سيكون في غير محله. لماذا؟ لأن قوة المسيح تكتمل في ضعف بولس.

أستنتج من هذا –ومن كل هذه الشواهد الكتابية– أن المعيار الكتابي للخجل الذي في غير محله إنما هو علاقة الخجل بمركزية الله. فالمعيار الكتابي يقول: لا يعتريك خجل في أمر يُكرم الله، أيًا كان الضعف أو الحماقة التي قد تبدو عليها أمام عيون غير المؤمنين.

نماذج كتابية للخجل الذي في محله

نرى نفس الوضع المركزي لله عندما نتأمل في المقاطع التي توضح الخجل الذي في محله. يقول بولس للكورنثيين الذين يشكُّون في القيامة: «اصحوا للبر ولا تخطئوا، لأن قومًا ليست لهم معرفة بالله. أقول ذلك لتخجيلكم.» (١كو ١٥: ٣٤).. هنا يقول بولس أنه يجب على هؤلاء الناس أن يخجلوا: «أقول ذلك لتخجيلكم.» إن خجلهم سيكون في محله لو أنهم رأوا جهلهم بالله الباعث على الأسى، وكيف أنه يقودهم

إلى عقيدة خاطئة (إنكار القيامة) وارتكاب الخطية في الكنيسة. بمعنى آخر الخجل الذي في محله يكون من الأمور التي تهين الله –مثل الجهل به، والخطية الموجهة له، والمعتقدات الخاطئة عنه.

في نفس الكنيسة، كان هناك بعضٌ من المؤمنين يذهبون إلى المحاكم المدنية للفصل في القضايا التي بينهم. وقد وبخهم بولس على ذلك قائلاً: «لتخجيلكم أقول. أهكذا ليس بينكم حكيم، ولا واحد يقدر أن يقضي بين إخوته؟» (١كو ٦: ٥) إنه يقول مرة ثانية: «لتخجيلكم أقول»؛ فخجلهم سيكون في محله لأن سلوكهم يجلب سمعة سيئة لإلههم. لأنهم يختصمون الواحد الآخر أمام القضاة غير المؤمنين للفصل في منازعاتهم. إن الخجل في محله هو ذلك الذي تشعر به لأنك تشترك في جلب المهانة لله.

لقد كان هؤلاء الناس يبذلون أقصى ما في وسعهم ليبدوا أقوياء وعلى حق. كانوا يريدون أن ينصفهم الناس وأن ينتصروا في ساحات المحاكم. لم يرغبوا أن يتعدى أحد على حقوقهم؛ فإن هذا سيُظهرهم في مظهر العاجزين الخجلى. وهكذا ففي نفس رغبتهم في تجنب الخجل، كما يعتقده العالم، وقعوا في فخ نفس السلوك الذي يعتبره الله مدعاة للخجل. الفكرة هنا هي أنه عندما تهين الله، عليك أن تشعر بالخجل بغض النظر عن مدى القوة والحكمة التي تبدو عليها في نظر العالم.

عندما تنفتح عينا المؤمن على شر إهانة الله الذي نتج عن سلوكه السابق، فإنه بالحق يشعر بالخجل. يقول بولس لكنيسة رومية: «لأنكم لما كنتم عبيد الخطية، كنتم أحرارًا من البر. فأي ثمر كان لكم حينئذٍ من الأمور التي تستحون بها الآن؟ لأن نهاية تلك الأمور هي الموت.» (رو ٦: ٢٠ و٢١) هناك وقت مناسب ننظر فيه إلى الوراء ونشعر بوخزات الألم لأننا قد عشنا بأسلوب جلب العار على الله. وسوف نرى بعد برهة أنه لا يجب أن نصاب بشلل بسبب الاستغراق في هذه الحالة. غير أن القلب المسيحي المرهف لا يمكنه أن ينظر إلى حماقات مرحلة الشباب دون أن يشعر بأصداء الخجل، حتى لو أن حياته قد انصلحت مع الرب.

إن الخجل الذي في محله يمكن أن يكون صحيًا ويؤدي إلى التوبة. يقول بولس لأهل تسالونيكي: «وإن كان أحد لا يطيع كلامنا بالرسالة، فسِموا هذا ولا تخالطوه لكي يخجل.» (٢تس ٣: ١٤).. معنى هذا أن الخجل خطوة صحية، وسليمة نحو تغيير المؤمن وتوبته عن فترة عصيانه. إن الخجل ليس شيئًا يمكن تفاديه بأية وسيلة، وإنما له دور في تعاملات الله الصالحة مع شعبه.

يمكننا أن نخلص من كل ما رأيناه إلى أن المعيار الكتابي للخجل الذي ليس في محله والخجل الذي في محله يكمن أساسًا في علاقته بمركزية الله. فالمعيار

الكتابي للخجل الذي ليس في محله يقول: لا تشعر بالخجل في أمر يُكرم الله أيا كان الضعف والحماقة التي تبدو عليها أمام عيون الآخرين. ولا تحمل على كاهلك خجلاً في موقف يدعو فعلاً إلى الخجل ما لم تكن ضالعًا بصورة ما في هذا الشر. أما المعيار الكتابي للخجل الذي في محله فيقول: لابد أن تشعر بالخجل لاشتراكك في أي أمر يجلب الهوان على الله، بغض النظر عن مدى القوة والحكمة التي تبدو عليها في نظر الناس.

محاربة الخجل الذي ليس في محله

نأتي الآن إلى المسألة الحيوية التي تتعلق بالحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية. كيف يمكنك محاربة هذا الشعور المؤلم المسمى بالخجل؟ الإجابة هي: نحن نحاربه من جذوره.. من خلال محاربة عدم الإيمان الذي يمده بالغذاء. فنحن نصارع من أجل الإيمان بوعود الله التي تنتصر على الخجل وتحررنا من ألمه. سوف أحاول توضيح هذه المعركة من خلال ثلاثة أمثلة.

النعمة المستقبلية لزانية نالت الغفران

أولاً، في حالة الخجل الذي في محله، ينبغي أن يتواجد الألم، لكن لا ينبغي أن يستمر. فإذا حدث ذلك، فإنه يرجع إلى ضعف الإيمان بمواعيد الله. على سبيل المثال، جاءت امرأة إلى يسوع في بيت رجل فريسي تبكي وتغسل رجليه. ولا شك في أنها قد شعرت بالخجل إذ أن عيني سمعان قد أنبأت كل الحاضرين بأن هذه المرأة خاطئة، وأنه لم يكن على يسوع أن يتركها لتلمسه. لا شك أنها كانت خاطئة، وكان هناك مكان للخجل الحقيقي، لكن ليس لوقت طويل. فقد قال يسوع لها: «مغفورة لكِ خطاياكِ.» (لو ٧: ٤٨). وعندما تذمر الحاضرون بهذا الشأن، عضد إيمانها مجددًا بقوله: «إيمانكِ قد خلصكِ، اذهبي بسلام.» (لو ٧: ٥٠).

كيف أعانها يسوع في حربها ضد تأثيرات الخجل المعيقة؟ لقد قدَّم لها وعدًا: "مغفورة لكِ خطاياكِ! إيمانك قد خلصكِ. مستقبلك سيكون مليئًا بالسلام." لقد أعلن أن غفران الماضي من شأنه الآن أن يقود إلى سلام المستقبل. لذا فالمسألة بالنسبة لها كانت الإيمان بهذه النعمة المستقبلية المتأصلة في سلطان عمل غفران يسوع وكلمته المحررة. هل كان لها أن تؤمن بآراء المدعوين العابسين؟ أم كان عليها أن تؤمن بكلمات يسوع المؤكدة لها بأن خجلها قد ولَّى- وأنها قد أضحت الآن تحت مظلة

الغفران المستقبلي، ويمكنها أن تذهب في سلام وكمال وحرية؟ مَنْ يجب عليها أن تصدقه؟ بأي الوعود سوف تشبع روحها؟

هذا هو الأسلوب الذي ينبغي على كل واحد فينا أن يحارب به تأثيرات الخجل الذي في محله والذي يهددنا بأن يطول فيصيبنا بالشلل. علينا أن نصارع عدم الإيمان بأن نمسك بوعود النعمة المستقبلية والسلام الذي يأتي من خلال غفران سلوكياتنا المخزية: «لأن عندك المغفرة. لكي يُخاف منك.» (مز ١٣٠: ٤) «اطلبو الرب مادام يوجد. ادعوه وهو قريب. ليترك الشرير طريقه، ورجل الإثم أفكاره، وليتُب إلى الرب فيرحمه، وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران.» (إش ٥٥: ٦ و٧) «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١يو ١: ٩) «كل مَنْ يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا.» (أع ١٠: ٤٣).

لا يهم إذا كان غفران الله قد تم بالكامل في الماضي، أو أن هناك غفرانًا جديدًا في المستقبل[٢] -ففي كلتا الحالتين الفكرة الأساسية هي القوة المحررة لغفران الله لمستقبلنا.. التحرر من الخجل. إن الغفران مليء بالنعمة المستقبلية، وعندما نحيا بالإيمان في النعمة المستقبلية، فإننا نتحرر من التأثيرات الممتدة والمعرقلة التي يتسبب فيها الخجل الذي في محله.

لستُ أخجل، لأنني عالم بمن آمنت

النموذج الثاني لمقاومة الخجل هو عندما نشعر بالخجل من أمر ليس شريرًا- مثل يسوع أو الإنجيل. يوضح بولس في رسالته الثانية لتيموثاوس كيف جاهد ضد هذا الخجل الذي في غير محله. يقول في ذلك: «لهذا السبب أحتمل هذه الأمور أيضًا. لكنني لستُ أخجل، لأنني عالم بمَنْ آمنت، وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم.» (٢تي ١: ١٢).

يوضح بولس هنا تمامًا أن الجهاد ضد الخجل الذي في غير محله إنما هو جهاد ضد عدم الإيمان: «لستُ أخجل، لأنني عالم بمَنْ آمنت»، وضرورة الثقة في قدرته الحافظة. نحن نصارع ضد مشاعر الخجل من المسيح والإنجيل وأسلوب الحياة المسيحي من خلال الجهاد لأجل الإيمان بنعمة الله المستقبلية. فهل نحن نؤمن حقًا أن الإنجيل هو قوة الله للخلاص؟ هل نؤمن بأن قوة المسيح تُكمَّل في ضعفنا؟ هل نؤمن حقًا أن المجد الأبدي ينتظرنا ليعوضنا عن أي ازدراء نتعرض له؟ هل نؤمن أنه سيحفظنا لهذا اليوم العظيم؟ إن الصراع ضد الخجل الذي ليس في محله هو الصراع لنحيا بالإيمان في ظل عظمة ومجد النعمة المستقبلية.

الحرية من الخجل الذي لا ينبغي أن نتحمله

أخيرًا، نحن نصارع الخجل عندما يحاول الآخرون تحميلنا به بسبب الظروف الشريرة، بينما لا تكون لنا في واقع الأمر يد في جلب المهانة لله. وهذا أمر شائع للغاية. فإنني أظن أن أكثر التشخيصات النفسية شيوعًا للاضطرابات النفسية لدى البشر هو أنهم قد تربوا في عائلات نشأت على الخجل. هناك الكثير من الدلالات التفصيلية والمعقدة في معنى هذه العبارة لا أريد التوقف أمامها. لكن الخجل الذي ليس في محله الذي أحاول شرحه هنا، وذاك الذي تتضمنه عبارة «عائلات نشأت على الخجل" يتقاطعان في كثير من الأمور. هناك نوع من الخجل يوضع على كاهل الناس لكنه لا ينتمي لهم. وتحرير البشر الذين تألموا كثيرًا بسبب حمل هذا الخجل إنما هو من الأمور التي من المفترض أن تقوم بها الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية.

لقد كان من الأمور المشجعة لي جدًا إدراك أن يسوع قد تعرض مرارًا لهذه النوعية من التخجيل. فقد دعوا يسوع على سبيل المثال أكولاً وشريب خمر (لو ٧: ٣٤)، ودعوه ناقض الهيكل (مر ١٤: ٥٨)، ودعوه مرائيًا، وأنه خلص آخرين لكنه لم يستطع تخليص نفسه (لو ٢٣: ٣٥). في كل هذا كان القصد هو تحميل يسوع بخجل لم يكن عليه أن يحمله. لقد كانوا يريدون أن يُحبطوه ويعيقوه بأن يلقوا عليه الاتهامات المخزية.

وكان الأمر مماثلاً في قصة بولس؛ فقد اتهموه بالجنون عندما دافع عن نفسه في المحاكمة (أع ٢٦: ٢٤). ودعوه عدوًا للتقاليد اليهودية وكاسرًا لناموس موسى (أع ٢١: ٢١). اتهموه بأنه يُعلِّم بفكرة أنك يجب أن تُخطئ أكثر حتى تكثر النعمة (رو ٣: ٨). قال أعداؤه كل ذلك ليحمِّلوه بخجل لم يكن عليه أن يحمله.

ومن المؤكد أن هذا حدث لك، ربما من والدين غير ناضجين، وربما من آخرين كثيرين. وسوف نتعرض لذلك في المستقبل. كيف إذًا نجاهد ضد هذا الخجل الذي في غير محله؟ نجاهد ضده من خلال الإيمان بوعود الله بأنه في نهاية المطاف سوف تفشل كل محاولات تخجيلنا. قد نصارع الآن لنفرق بين الخجل الذي علينا احتماله والخجل الذي ليس علينا احتماله. لكن الله يدّخر لنا وعدًا في الحالتين. فإشعياء يعد شعبه الذي يثق في الله بقوله: «لا تخزون ولا تخجلون إلى دهور الأبد.» (إش ٤٥: ١٧). ويطبق بولس وعد العهد القديم على المؤمنين فيقول: «كل مَنْ يؤمن به لا يخزى.» (رو ١٠: ١١).

بكلمات أخرى، مع كل الشر والسخرية والنقد التي قد يستخدمها الآخرون

لتخجلينا، ومع كل الإحباط والألم النفسي الذي يحمله لنا ذلك، إلا أن وعد الله يبقى راسخًا: في نهاية الأمر لن ينجحوا في ذلك. سوف يتبرر كل أولاد الله، وسوف يُعلن الحق. ولن يخزى كل مَنْ يضع رجاءه في وعود الله. فالحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية إنما هي حياة تحرر من الخجل الذي يعرقل مسيرتك.

الجزء الرابع

نافذة على أعمال الإيمان

«عصيتم قول الرب إلهكم
ولم تصدِّقوه ولم تسمعوا لقوله.»
(تث ٩: ٢٣)

«ولكن إسرائيل، وهو يسعى في أثر ناموس البر،
لم يدرك ناموس البر!
لماذا؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان،
بل كأنه بأعمال الناموس.»
(رو ٩: ٣١ و٣٢)

«بالإيمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين...
بالإيمان نوح... بنى فلكًا لخلاص بيته...
بالإيمان قدَّم إبراهيم إسحاق وهو مُجرَّب...
بالإيمان موسى... أبَى أن يُدعى ابن ابنة فرعون»
(عب ١١: ٤، ٧، ١٧، ٢٤)

الفصل الحادي عشر

علاقة حب مع شريعة الله

أحب جميع أبنائي العهد القديم خلال سنوات نموهم. قد يبدو هذا الأمر غريبًا عندما نقارنه بكثرة أعداد المؤمنين البالغين، حتى الإنجيليين منهم، الذين لا يحبون العهد القديم. ولا أعتقد أن سبب ذلك يرجع إلى أن الكبار يتوقفون عن الاستمتاع بالقصص، لكني أعتقد أن السبب وراء ذلك، جزئيًا على الأقل، هو أنهم يبدأون في اعتبار أن العهد القديم يمثل الأخبار السيئة والعهد الجديد يمثل الأخبار السارة. لقد اشتموا من التيار اللاهوتي الغالب أن إله العهد القديم إله كثير المطالب، بينما إله العهد الجديد إله واهب. لكن الصغار لا يشتمون هذه الرائحة. فأبنائي وجدوا في العهد الجديد مطالب تماثل في كثرتها تلك الموجودة في العهد القديم، بل ربما رأوا أنها أكثر صعوبة. إن الأخبار السارة إذا اعتمدت على إله لا يطلب شيئًا، فلا يكون هناك إنجيل. لكن الأطفال يعرفون أكثر.. يمكننا أن نتعلم منهم كيف نستمتع بالعهد القديم لو أننا رأينا أن الطاعة التي يتطلبها هي طاعة الإيمان بالنعمة المستقبلية.

إن الله، بالنسبة لشعبه، أبعد ما يكون عن مجرد كونه شخصًا يأمر. لكنه أيضًا ليس أقل من ذلك. فالله ملتزم في مجده بكمال حكمته وصلاحه وقوته؛ لذا فهو مُنزَّه عن كل بواعث الشر والنفعية والضعف، وهو ملتزم بالكامل وبحرية مطلقة بكل ما هو أفضل. في بعض الأحيان قد لا تبدو سيادة سلطانه على الكون على هذه الصورة، خاصة عندما يسمح بالشر ويديره.[1] لكن فوق كل سوء إدارة الشر والألم الظاهرة كُتبت كلمات يوسف الذي قال: «الله أراد به (بالشر) خيرًا» (تك ٥٠: ٢٠). وبما أن الله يعرف دائمًا ما هو الأفضل، فإن إرادته تكون ملزمة دائمًا لجميع البشر. ومحبته

الأبوية لأولاده لا تقلل من حرصه على أنهم يعملون إرادته. وإذ تسود وصاياه على أولاده فإنها تكون فيضًا من الحب وليست رغبة في السيطرة عليهم.

علاقة حب مع شريعة الله

عندما قام موسى بتسجيل ما يطلبه الرب من شعبه، قال: «وتحفظ وصايا الرب... لخيرك» (تث ١٠: ١٣). إنه لمن صالحنا أن الله يأمرنا بأن نفعل إرادته. وقد أدرك قديسو العهد القديم هذا الأمر. فهؤلاء الرجال والنساء القدماء الذين أحبوا الله، استقبلوا وصاياه على كونها بركات وليس عبئًا عليهم. وقد بدا في واقع الأمر أنهم وقعوا في حب الشريعة الإلهية فقالوا أمورًا على شاكلة: «وأتلذذ بوصاياك التي أحببت. وأرفع يدي إلى وصاياك التي وددت، وأناجي بفرائضك... لأجل ذلك أحببت وصاياك أكثر من الذهب والإبريز.» (مز ١١٩: ٤٧ و٤٨، ١٢٧).

وتعلَّم الملك داود، متألمًا أكثر من أي شخص آخر، كيف أن شريعة الله يمكنها أن تسحق بالذنب، مثل ذنب الزنا والقتل (٢صم ١٢: ١٣). لكن لم يحب أحد الشريعة قدر داود. لقد تمتع بقيمتها العملية الروحية. لقد قال بأنها «كاملة ترد النفس»، وأنها «صادقة تصيِّر الجاهل حكيمًا»، وأنها «مستقيمة تفرِّح القلب»، وأنها «طاهرة تنير العينين»، وأنها «أشهى من الذهب والإبريز الكثير»، وأنها «أحلى من العسل وقطر الشهاد» (مز ١٩: ٧- ١٠). بكلمات أخرى، لقد اختبر بعمق كلمات موسى القائلة بأن وصايا الرب إنما هي «لخيرك».

كما أنه أدرك أيضًا أن شريعة الله ليست مجرد مجموعة من الوصايا. فوصايا الشريعة منسوجة معًا بخيوط النعمة.. النعمة الماضية، والنعمة لمستقبلية، والنعمة الغافرة، والنعمة المقوية. وهذه الخيوط تمثل جزءًا من شريعة العهد القديم. على سبيل المثال، عندما كان الله على وشك أن يعطي لموسى الوصايا العشر، ذكَّره بالنعمة الماضية: «فناداه الرب من الجبل قائلاً: ... أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين. وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إليّ. فالآن إن سمعتم لصوتي، وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض.» (خر ١٩: ٣- ٥) لقد حملهم الله بالنعمة قبل أن يعطيهم الوصايا لخيرهم.

نعمة تدبيرية للشريعة عندما تُكسر الشريعة: الغفران

كما أنه وعد كذلك بالنعمة المستقبلية في مركز إعلان الوحي بإعطاء الشريعة

على جبل سيناء. فعندما نزل ليتكلم مع موسى، عرَّف نفسه كالآتي: «الرب إله رحيم ورؤوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء. حافظ الإحسان إلى ألوفٍ. غافر الإثم والمعصية والخطية. ولكنه لن يبرئ إبراءً.» (خر ٣٤: ٦ و٧).. بكلمات أخرى: على رأس الشريعة تقف عطية النعمة لمن يفشلون في حفظ الشريعة. فالشريعة تقول إن الله «يغفر الإثم والمعصية والخطية» وهذا هو وعد النعمة المستقبلية الإلهي: سوف أكون إلهًا رحيمًا بكم.. «رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان».

هذه النعمة المستقبلية في الشريعة الإلهية إنما هي نعمة غافرة. ففي واقع الأمر يقول: "إنني أقدِّم هبة عظيمة للغفران وللشفاء إذا تعثرتَ. فإني لا أُسَر بالعقاب بل بالمصالحة. وغضبي ليس فوريًا، فإني بطيء الغضب. ودينونتي تقع على أولئك الذين يخطئون ويتجبرون ولا يتوبون عن خطيتهم ليحصلوا على إحساني ونعمتي الكثيرة." وقد أدرك داود أن هذا هو جوهر شريعة الله (الناموس)، فتغنى بها بكل قلبه:

«الرب رحيم ورؤوف، طويل الروح وكثير الرحمة.
لا يُحاكم إلى الأبد، ولا يحقد إلى الدهر.
لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا.
لأنه مثل ارتفاع السماوات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه.
كبُعد المشرق من المغرب أبعد عنا معاصينا.
كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه.
لأنه يعرف جبلتنا. يذكر أننا تراب نحن.»
(مز ١٠٣: ٨- ١٤)

تعلَّم داود هذا من شريعة الله. ويتضح هذا من الكلمات الأولى في النص: «الرب رحيم ورؤوف، طويل الروح وكثير الرحمة»، والتي هي اقتباس من كلمات الله على جبل سيناء (خر ٣٤: ٦). وهكذا، فقد كان واضحًا لقديسي العهد القديم أن الشريعة كانت تمنح نعمة مستقبلية غافرة.

أتساءل كيف استطاع أطفالنا أن يتتبعوا هذه الرائحة التي ملأت العهد القديم أفضل منا نحن؟ عندما رأى أولادي الذين لم يعودوا أطفالاً، سكيب رحمة الله في مزمور ١٠٣ وسمعوا نفس الكلمات في جبل سيناء (طويل الروح وكثير الرحمة)، فإنهم ببساطة لم يفهموا كيف لأحد أن يدّعي بأن شريعة العهد القديم ليست شريعة رحمة ونعمة. لقد تذوق داود نعمة سيناء، وداود هو أعظم بطل لدى الأولاد الذين يحبون ضربات المقلاع وقتل الجبابرة. ولهؤلاء القراء الصغار للعهد القديم، كان داود كمفسر للشريعة أفضل من بعض اللاهوتيين المعاصرين. وأظن أن أبنائي كانوا على حق.

الشريعة والأنبياء يعدان بمساندة مستقبلية

وعدت شريعة الله أيضًا بنعمة مستقبلية بعيدة تمنح القوة من أجل الطاعة. وقد أُعطيت لمحة من هذه النعمة للبقية التقية خلال تاريخ إسرائيل. على سبيل المثال، فقد نظروا بعيدًا عن أنفسهم إلى نعمة الله طلبًا للقوة الروحية التي يحتاجونها لإطاعة وصايا الله. لقد صلوا قائلين: «اكشف عن عيني فأرى عجائب من شريعتك»، وكذلك «أمِلْ قلبي إلى شهاداتك، لا إلى المكسب» (مز ١١٩: ١٨، ٣٦). لقد أدركوا أنهم بدون نعمة الله المستقبلية المقوية التي تأتي استجابة للصلاة، لن يتمكنوا من معاينة عجائب الله في كلمته. كما أنهم أدركوا أنهم بدون سلطان وسيادة نعمة الله التي تميل القلب، سوف يحيدون عنه إلى محبة المال.

لقد صلوا من أجل النعمة المستقبلية للفرح ونقاوة القلب والاستقامة المستقبلية، وأن يجعلهم الله يبتغون فعل وصاياه: «أسمعني سرورًا وفرحًا، فتبتهج عظام سحقتها... قلبًا نقيًا اخلق فيّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدد في داخلي... رد لي بهجة خلاصك، وبروح منتدبةٍ اعضدني.» (مز ٥١: ٨، ١٠، ١٢) كانت النعمة المستقبلية كلمة السر للسلوك في طريقٍ يرضاه الرب في العهد القديم (وكذلك في العهد الجديد).

غير أن نعمة التعضيد المستقبلية للطاعة لم تنسكب كلية في عصور العهد القديم. فقد كان هناك انسكاب أعظم أُعطيَ الوعد به لـ "العهد الجديد" الذي دشنه المسيح وختمه بسفك دماه (لو ٢٢: ٢٠؛ ١كو ١١: ٢٥). على سبيل المثال، وعد الله من خلال إرميا قائلاً: «ها أيام تأتي، يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب: أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم.» (إر ٣١: ٣١، ٣٣) وكان هذا الوقت آتيًا.. ذلك الوقت الذي فيه سيعطي الرب نعمة من أجل الطاعة أكثر من أي وقت مضى.

في حزقيال كان وعد الرب بذلك كالتالي: «وأعطيهم قلبًا واحدًا، وأجعل في داخلكم روحًا جديدًا، وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم، لكي يسلكوا في فرائضي ويحفظوا أحكامي ويعملوا بها.» (حز ١١: ١٩ و٢٠؛ راجع كذلك ٣٦: ٢٦-٢٨). هذه هي نعمة التعضيد المستقبلية للطاعة: قلب جديد وروح جديد لكي يطيعوا.

وإذ نعود إلى الماضي البعيد، إلى الشريعة نفسها، فقد رأى موسى أن تلك كانت خطة الله. لقد أعطى موسى الشريعة، لكنه أدرك أن لدى الله بعض الدروس الأخرى ليعلمها لإسرائيل بأن ترك الشعب لفترة من الوقت للأفكار التافهة الصادرة من قلوبهم الخاطئة. ففي تثنية ٥ أعاد موسى سرد الوصايا العشر بعد أربعين عامًا من إعطائها لأول مرة. ويحكي كيف أن الشعب استقبلها في بهجة، وكيف عبَّروا عن إصرارهم

على طاعتها. لكن موسى اقتبس بعد ذلك الكلمات الإلهية الأسيفة إذ يقول: «يا ليت قلبهم كان هكذا فيهم حتى يتَّقوني ويحفظوا جميع وصاياي كل الأيام، لكي يكون لهم ولأولادهم خير إلى الأبد.» (تث ٥: ٢٩) بكلمات أخرى أدرك الله أنه، إلى أن تنسكب نعمة التعضيد المستقبلية في ملئها، فإن غالبية الشعب لن يستطيع حفظ الوصايا.

كان انسكاب النعمة المستقبلية مذخرًا لعصر العهد الجديد. لذا، فبعد أربعين سنة من إعطاء الشريعة، يقول موسى بفطنة للشعب: «ولكن لم يعطكم الرب قلبًا لتفهموا، وأعينًا لتبصروا، وآذانًا لتسمعوا إلى هذا اليوم.» (تث ٢٩: ٤). بكلمات أخرى، لقد تُركوا لقدرة قلوبهم وعيونهم وآذانهم الشريرة. وللغالبية منهم لم تكن القوة المؤثرة للنعمة المغيرة قد أُعطيت. لكن بعد أصحاح واحد أعلن موسى الوعد بأن هذه النعمة المستقبلية العظيمة سوف توهب بالتأكيد: «ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك، لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا.» (تث ٣٠: ٦). في حقيقة الأمر هذا الوعد يماثل الوعد بالعهد الجديد الوارد في إرميا وحزقيال. إنه وعد بأنه في يوم ما، وعلى مدى أعظم من ذي قبل، سوف تمنح النعمة المستقبلية قلوبًا جديدة لشعب الله وتمكِّنهم من طاعة وصاياه.

وينبغي أن نتملئ بالفرح لأننا نعيش في هذا اليوم الجديد في ظل العهد الجديد، لكن لا ينبغي أن يكون فرحنا على حساب الحق الوارد في العهد القديم. ففي بعض الأحيان، ونحن في سبيل إبرازنا للميزة العظيمة التي نتمتع بها كمستفيدين من العهد الجديد، فإننا نغالي في نقدنا للعهد القديم. لكن ما نراه في هذا الفصل هو أن العهد القديم ليس ناقصًا لأنه كان عهد وصايا، أو لأنه أوصى بأمور خاطئة، بل لأنه لم تصحبه من بعيد أو قريب قوة إلهية داخلية مغيِّرة ومعضدة (راجع رو ٨: ٣). لكن ما يعنيه هذا عمليًا هو أننا يمكننا أن نعود لنستفيد من وصايا العهد القديم بما أننا نملك الآن قوة العهد الجديد المغيرة والعاملة فينا. بهذا المعنى، فإن العهد الجديد يجعل من العهد القديم كتاب الكنيسة المسيحية بطريقة عملية لا يمكننا تصورها. وقد نرغب عندئذٍ في الاشتراك مع أولادنا في العودة إليه وقراءته بأسلوب أكثر جدية.

لماذا فشلت الطاعة؟

إذا تساءلنا ماذا كان ينقص قلوب الكثيرين ممن استمعوا للشريعة وفشلوا في السير وفقًا لها، نجد إجابة كتابية واحدة واضحة وهي أن الإيمان لم يكن موجودًا.[٢] تشرح لنا عبرانيين ٤: ٢ لماذا لم تكن كلمة الله عند جبل سيناء وبعدها بأربعين سنة

عند نهر الأردن نافعة لأولئك الذين سمعوا، رغم أن النص يقول أنها كانت "أخبارًا سارة".. الإجابة هي: "لم تنفع كلمة الخبر أولئك إذ لم تكن ممتزجة بالإيمان في الذين سمعوا."[٣] فكلمة الله لم تثمر في حياتهم لأنهم لم يثقوا به.

مجددًا نقول إن ذلك كان المكون الناقص في العهد القديم الذي أوقف تيار الطاعة لوصايا الله. فأصل العصيان هو عدم الإيمان بالله في النعمة المستقبلية. يصف مزمور ٧٨: ٧ الأسلوب الذي من المفترض أن يعمل الإيمان والطاعة وفقًا له. فهو يدعو كل جيل إلى تعليم كلمة الله للجيل الآخر: «فيجعلون على الله اعتمادهم، ولا ينسون أعمال الله بل يحفظون وصاياه.» بكلمات أخرى فإن ذكرى النعمة الماضية في "أعمال الله" تشجع "الاعتماد على الله" للنعمة المستقبلية مما يمكِّنهم من أن "يحفظوا وصاياه". وتلخص لنا تثنية ٢٠: ١ الطريقة التي قصدها الله للنعمة الماضية لتقوية الإيمان في النعمة المستقبلية. فموسى يشجع الشعب على كيفية مواجهة الأعداء الذين يفوقونهم عددًا: «فلا تخف منهم، لأن معك الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر.» إن ذكرى قوة الله ونعمته في مصر مقصود بها تقوية الإيمان في النعمة المستقبلية، وتمكين شعب الله ليمارسوا الطاعة بلا خوف. ولكني أكرر أن هذا لم يحدث.

قبيل نهاية حياة موسى، وبينما كان يتطلع إلى خبرته الماضية مع بني إسرائيل، قال: «وحين أرسلكم الرب... قائلاً: اصعدوا امتلكوا الأرض التي أعطيتكم، عصيتم قول الرب إلهكم ولم تصدقوه ولم تسمعوا لقوله.» (تث ٩: ٢٣).. بكلمات أخرى، يُعد الفشل في الإيمان بالله السبب الرئيسي في العصيان ضد وصيته. ونعرف في القصة أن ما فشلوا في الإيمان به كان وعد النعمة المستقبلية وقوتها. لقد أعلن موسى وعد الله قائلاً: «يُدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها... إنما لا تتمردوا على الرب، ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم... قد زال عنهم ظِلُّهم، والرب معنا. لا تخافوهم.» (عدد ١٤: ٨ و٩) لكن لم يثق الشعب في نعمة الله القادرة على أن تعطيهم الأرض. لذا فقد أفسحوا مكانًا للخوف، وأدى بهم الخوف إلى التمرد ضد وصيته، كما قال المرنم: «ورذلوا الأرض الشهية، لم يؤمنوا بكلمته، بل تمرمروا في خيامهم.» (مز ١٠٦: ٢٤ و٢٥). ولقد فشلت طاعة شعب الله في القديم لأنهم لم يحيوا بالإيمان في النعمة المستقبلية.

ماذا كان أصل خطيتهم؟

بعد قرون من هذا النمط السلوكي، حدث سبي مملكة إسرائيل الشمالية إلى أشور. يشرح كاتب سفر الملوك الثاني السبب وراء حدوث ذلك فيقول: «وكان أن

بني إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم الذي أصعدهم من أرض مصر.» (٢مل ١٧: ٧).. كان السبب هو الخطية. لكن ماذا كان أصل هذه الخطية؟ لاحظ أن شر الخطية الموجهة ضد الله يتضح أكثر من خلال ذكر قدرة الله وصلاحه اللذين خلصا بني إسرائيل من العبودية في مصر. قد يجعلك هذا تعتقد أن سبب خطية شعب إسرائيل هو نكران الجميل. لكن ليس هذا ما يمضي الكاتب في قوله، فهو يقول بدلاً من ذلك: «فلم يسمعوا بل صَلَّبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم.» (٢مل ١٧: ١٤). الفكرة هنا هي أن نعمة الخلاص الماضية في مصر كان من شأنها أن تجعل الشعب يثق بالله في النعمة المستقبلية. لكن بدلاً من ذلك لم يؤمنوا بالرب إلههم؛ لهذا تحولوا عنه وأخطأوا في حقه. فهم لم يثقوا أنه قادر على أن يهبهم مستقبلاً أفضل من الذي يمكن أن يصنعوه لأنفسهم من خلال تحالفهم مع الآلهة الأخرى.

يمكن تلخيص تعليم العهد القديم كله في كلمات مزمور ٣٧: ٣: «اتكل على الرب وافعل الخير.» بمعنى أن تدع أعمال النعمة الماضية العظيمة تدعم إيمانك بالنعمة المستقبلية لكيما تثق دومًا بالله بدلاً من عروض العون والإرشاد التي تأتي من آلهة أو مشيرين آخرين. لقد كان السبب الأساسي وراء عصيان إسرائيل هو نقص الإيمان بالنعمة المستقبلية.

ويتضح هذا بشدة عندما نصغي لتفسير العهد الجديد للسبب وراء فشل بني إسرائيل في الحصول على التبرير الذي يطلبه الله في شريعته. لكن قبل النظر للتفسير هناك سوء فهم يجب تصحيحه.

هل كل برنا يُعتبر "ثوب عدة"؟ (*)

لا تقع في خطأ الاعتقاد بأن البر الوحيد الذي تتطلبه شريعة الله هو الكمال. صحيح أن أي تقصير في الشريعة الإلهية يجرح قداسته الكاملة ويجعلنا مستحقين للدينونة، إذ لا يمكن لله أن يتهاون مع أية خطية (حب ١: ١٣؛ يع ٢: ١٠ و١١). لكن شريعة العهد القديم ذاتها تقدِّم غفرانًا للخطية ومصالحة مع الله. إذًا فالشريعة تطالب بالكمال من ناحية ما، لكن ليس بمعنى أن غياب الكمال يعني ضياع الإنسان.

لم يكن ما يؤدي إلى هلاك الإنسان في العهد القديم هو الفشل في الحصول على بر الكمال المطلق؛ بل إن هذا الهلاك كان يتسبب فيه الفشل في أن يكون المرء بارًا

(*) ثوب عدةٍ.. يعني ثوبًا قذرًا توسَّخ من جرجرته وراءنا في الطريق. (المترجم)

أولاً، بالمعنى الذي حُسب فيه إبراهيم بارًا بالإيمان بالنعمة المستقبلية[٤]، وثانيًا بمعنى الطاعة الاعتيادية (حتى لو كانت غير كاملة) لله والتي تتأصل في الإيمان الثابت (رغم عدم كماله) في نعمته المستقبلية. إن عدم الكمال يمكن غفرانه، أما التمرد العنيد والدائم والعصيان الرافض للثقة في الله فلا يمكن غفرانه.

يبدو الأمر محيرًا جدًا عندما يقول الناس إن البر الوحيد الذي له قيمة هو بر المسيح المحسوب لنا. إنني أوافق على أن التبرير لا يتوقف على أي برٍ فينا، لكن فقط على بر المسيح المحسوب لنا.[٥] لكن في بعض الأحيان لا يعبأ الناس بأي بر إنساني ويتحدثون عنه باستخفاف كما لو أنه لا يوجد مثل هذا الأمر الذي يُرضي الله. ودائمًا ما يقتبس هؤلاء كلمات إشعياء ٦٤: ٦ التي تقول إن كل أعمال برنا «كثوب عدة».[٦] إنه لحق مجيد أنه لا يمكن لأي شخص في شعب الله قبل أو بعد الصليب أن يُقبل أمام الله القدوس إذا لم يُحسب له بر المسيح (رو ٥: ١٩؛ ١كو ١: ٣٠؛ ٢كو ٥: ٢١)، لكن هذا لا يعني أن الله لا يثمر في هؤلاء «المبررين» (قبل وبعد الصليب) برًا اختباريًا لا يُعتبر «ثوب عدة». إن الله في حقيقة الأمر يفعل هذا.. وهذا البر يثمنه الله ويرغب فيه، ليس كأساس لتبريرنا (الذي هو بر المسيح فقط)، لكن كبرهان على أننا أصبحنا أولادًا مبررين لله.[٧]

على سبيل المثال، يصف البشير لوقا زكريا وأليصابات زوجته بطريقة تُحيِّر الكثيرين من المؤمنين: «وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم.» (لو ١: ٦).. لم يكن برهم «ثوب عدة»، كما أنه لم يكن فقط بر المسيح المحسوب لهم. لقد كانت حياة في الطاعة المستمرة والإيمان الذي يقبل تطهيرًا من نقائصه من خلال هبات الغفران والتجديدات الموجودة في الشريعة (التي كانت جميعها تشير إلى المسيح الذي سوف يزيل نهائيًا خطايا شعب الله قبل وبعد الصليب، راجع رومية ٣: ٢٥).

هل هناك بالفعل تباين بين البار والشرير؟

لو أننا لم ندرك أن العهد القديم يطالب ببر يمكن تحقيقه فعلاً بالإيمان بالنعمة المستقبلية فإننا ببساطة لن نكون قادرين على فهم معاني الكثير من النصوص. فعلى سبيل المثال، يُقارن البار بالشرير مرة تلو الأخرى. ويكون الاستنتاج هو أن "الأبرار" أناس حقيقيون يحيون بطريقة مختلفة عن الأشرار: «لا تقوم الأشرار في الدين، ولا الخطاة في جماعة الأبرار. لأن الرب يعلم طريق الأبرار، أما طريق الأشرار فتهلك»

(مز ١: ٥ و٦)، «القليل الذي للصدِّيق خير من ثروة أشرار كثيرين. لأن سواعد الأشرار تنكسر، وعاضد الصديقين الرب» (مز ٣٧: ١٦ و١٧)، «وكل قرون الأشرار أعضِبُ. قرون الصدِّيق تنتَصِبُ.» (مز ٧٥: ١٠). فالأبرار ليسوا أناسًا لا يخطئون: «لأنه ليس إنسان لا يخطئ» (٢أخ ٦: ٣٦)؛ لكن، وكما يوِّضح لنا مزمور ٣٢، الأبرار هم أولئك الذين «سُتِرت خطيتهم»، والذين «لا يَحسِب لهم الرب خطية»، لكنهم «يتكلون على الرب» و«يعترفون له بخطيتهم»، و«يصلّون له»، ويخضعون لوصاياه. فهم يسمعون قوله: «افرحوا بالرب وابتهجوا يا أيها الصديقون.» (مز ٣٢: ١ و٢، ٥ و٦، ٨- ١١).

ربما يكون من المفيد أن نتوقف برهة لنفهم هذا الأمر جيدًا. عندما يفعل أبنائي ما أوصيهم به بروح مبتهجة وبثقة في حكمتي واهتمامي، فإنني لا أطلق على طاعتهم «ثوب عدةٍ»، حتى لو كانت طاعة غير كاملة. وبالحري لا يفعل الله ذلك لأنه هو نفسه «عامل فينا ما يرضي أمامه» (عب ١٣: ٢١). إنه لا يصف خاصته وثمرة عمل روحه بأنهم «ثوب عدةٍ». لكن إذا قام أبنائي بتنظيف حجرتهم وهم مغتاظون ويدفعون الأبواب في غضب، فإنني قد أطلق على هذا السلوك «ثوب عدةٍ»، وهكذا يفعل الله. فالسلوك الخارجي غير المتوافق مع تغيير داخلي يمثل تحقيقًا لبعض عبارات الرب يسوع القاسية مثل «القبور المبيضة» (مت ٢٣: ٢٧). وينبغي أن تمثل هذه الحقيقة تشجيعًا كبيرًا على أنه ليس من المستحيل إرضاء أبينا الذي في السماوات. ففي واقع الأمر، مثل كل شخص يحمل بين ضلوعه قلبًا كبيرًا ومقاييس سامية جدًا، فإنه يكون من السهل إرضاؤه ومن الصعب إشباعه. ونحن نريد الأمر هكذا.. فنحن نبتغي ابتسامة رضاه السعيدة ونظرة الصرامة في عينيه حتى ما نستطيع -ويومًا ما سوف نستطيع- أن نسلك بطريقة أفضل.

لماذا فشل إسرائيل في الحصول على البر؟

الآن نحن في وضع أفضل لنستشير العهد الجديد حول السبب وراء أن شعب إسرائيل، بشكل عام، لم يستطع بلوغ البر الذي طالب به الله في شريعته. أي لماذا فشلوا في الوصول ليس فقط للكمال (وهو ما نفشل فيه جميعًا)، بل أيضًا لذلك البر الاختباري الذي تطلبه الناموس من كل أبناء الله؟ يطرح بولس هنا السؤال ويجيب عليه في رسالته إلى أهل رومية: «ولكن إسرائيل، وهو يسعى في أثر ناموس البر، لم يدرك ناموس البر. لماذا؟ لأنه فعل ذلك، ليس بالإيمان، بل كأنه بأعمال الناموس.» (رو ٩: ٣١، ٣٢).. فهم لم يسعوا في أثر الناموس بالإيمان، أي بالطريقة التي قصد

"" أن يتم بها إدراك الناموس. وهذا يؤكد ما رأيناه قبلاً: أن السبب الرئيسي وراء عصيان إسرائيل كان نقص الإيمان بالنعمة المستقبلية.

يقول الرسول أنهم فشلوا في إدراك الناموس بالإيمان. فبالنسبة للغالبية العظمى من بني إسرائيل (فيما عدا القديسين مثل موسى وكالب وداود وزكريا وأليصابات)، عندما سعوا في أثر الناموس فإنهم قاموا بذلك "كأنه بالأعمال". إن كلمة «كأنه» هي ما لجأ إليه بولس ليقول إن الله لم يقصد أن نسعى في أثر الناموس بهذه الطريقة. ولهذا يقول في رومية ٣: ٣١: «أفنبطل الناموس بالإيمان؟ حاشا! بل نُثبِّت الناموس.»

ما قصده بولس بكلمة «أعمال» يتضح من رومية ٤: ٤ و٥: «أما الذي يعمل فلا تُحسب له الأجرة على سبيل نعمةٍ، بل على سبيل دينٍ. وأما الذي لا يعمل، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر، فإيمانه يحسب له برًا.» "الأعمال" هي أي سلوك أو توجه يهدف إلى التوكيد على الاستحقاق الذاتي؛ فيكون التجاوب الطبيعي مع ذلك هو الدين وليس هبة النعمة المجانية. لذلك فالسبب وراء فشل بني إسرائيل في سعيه وراء مطالب الناموس يتمثل في الفهم الخاطئ؛ لأن الشريعة تطلب الأعمال بينما هي في واقع الأمر تطلب الطاعة النابعة من الإيمان. لقد فشلوا في أن يروا أن الشريعة (الناموس) كانت تدعو الناس للحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

كل طاعة العهد القديم كانت بالإيمان بالنعمة المستقبلية

ليس من المستغرب إذًا أن ينسب عبرانيين ١١ بوضوح كل طاعة قديسي العهد القديم إلى الإيمان بالنعمة المستقبلية. فالكاتب يوضح أن الإيمان يمثل توجهًا مستقبليًا ورجاء واثقًا في عناية الله عندما يقول: «أما الإيمان فهو الثقة بما يُرجى» (عب ١١: ١)، وبعد ذلك يقدِّم لنا نموذجًا يؤكد لنا أن هذا الإيمان بالنعمة المستقبلية قد وَلَّدَ الطاعة.

«بالإيمان قدَّم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين» (ع ٤)، «بالإيمان نوح... بنى فلكًا لخلاص بيته» (ع ٧)، «بالإيمان إبراهيم لما دُعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيدًا أن يأخذه ميراثًا» (ع ٨)، «بالإيمان قدَّم إبراهيم إسحق وهو مُجرَّب» (ع ١٧)، «بالإيمان موسى لما كبر أبى أن يدعى ابن ابنة فرعون مفضلاً بالأحرى أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية» (ع ٢٤ و٢٥).

الخلاصة هي أن الله بالفعل قصد في العهد القديم أن يُنفذ الناموس (أو شريعة

الله) بواسطة الإيمان بالنعمة المستقبلية. وكان هذا في مقدور القديسين الحقيقيين حتى قبل انسكاب وعد العهد القديم، لأن الله قدَّم تذوقًا واختبارًا جزئيًا لقدرته القوية قبل مجيء المسيح وقبل الانسكاب الكامل للروح القدس.

كتاب للكنيسة حول الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية

ما يعنيه هذا لنا اليوم هو أننا يمكن أن نقرأ العهد القديم بقدر كبير من التوقع بأنه يخاطب احتياجاتنا بأسلوب أكثر مباشرة عما كنا نظن. إن مسار الحياة الروحية الذي وضعه الله في العهد القديم لا يختلف بالضرورة عن مسار الحياة الروحية في العهد الجديد. فما يطلبه الله من البشر لم يتغير أبدًا. ويمكننا أن نجتذب لأنفسنا قوة من كلا العهدين القديم والجديد في سعينا لأن نحيا بالإيمان في النعمة المستقبلية.

وبشكل عام، يحتوي العهد القديم على هدف واحد عظيم: «لأن كل ما سبق فكُتب كُتب لأجل تعليمنا، حتى بالصبر والتعزية بما في الكتب يكون لنا رجاء» (رو ١٥: ٤). لقد كتب العهد القديم ليقوِّي رجاءنا في الله، وهو أسلوب آخر لقولنا إنه كُتب ليبني إيماننا بالنعمة المستقبلية.

«نصلي... أن يؤهلكم إلهنا ويكّمل كل... عمل الإيمان.»
(٢تس ١: ١١)

«كما أن الجسد بدون روح ميت، هكذا الإيمان أيضًا بدون أعمال ميت.»
(يع ٢: ٢٦)

لا يمكن التغاضي عن وصايا الله لأننا تحت النعمة.
إنها قابلة للتحقيق لأننا تحت النعمة.
إن الروح الذي هو عطية العهد الجديد
هو القوة لإطاعة إرادة الله المعلنة.
أما الطريق الذي يسلكه الروح ويعمل من خلاله
فهو الإيمان بالنعمة المستقبلية.

الفصل الثاني عشر

"أضع شريعتي في داخلهم"

هل تتوافق الوصايا مع المحبة؟

لقد حطم الرب يسوع الكثير من الأفكار الشائعة. على سبيل المثال، واحدة من هذه الأفكار تدور حول أن الشريعة والمحبة لا يتفقان. فإنك لا تأمر شخصًا تحبه، وكذلك فأنت لا تميل إلى محبة شخص يُصدر أوامر. فإصدار الأوامر يرتبط بالنظام العسكري، وليس علاقات المحبة. ونميل إلى الاعتقاد أن إصدار الأوامر يحد من فكرة الجاذبية والمبادرة على حدٍ سواء. وهذا صحيح في كثير من الأحيان. كتب الرسول بولس إلى صديقه فليمون قائلاً: «وإن كان لي بالمسيح ثقة كثيرة أن آمرك بما يليق. من أجل المحبة أطلب بالحري.» (فل ٨ و٩؛ راجع كذلك ٢كو ٨: ٨). كان بولس يقصد في غالب الأمر محبته ومحبة فليمون. إذًا فالواقع أنه لأجل المحبة قد يختار الشخص الذي في يده السلطة ألا يُصدر أوامره.

غير أن يسوع يرفض أي فصل بين الوصايا والمحبة. فهو يقول: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي... الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني. والذي يحبني يحبه أبي» (يو ١٤: ١٥، ٢١)، وأيضًا: «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته» (يو ١٥: ١٠). وبالنظر إلى مسألة الوصايا والطاعة فإن يسوع لم يمنعه ذلك من التمتع بمحبة أبيه. وهو يتوقع أن تفكيرنا فيه كشخص يأمرنا بأشياء لا يدمر علاقة محبتنا معه.

من الضروري أن ندرك ذلك؛ لأن علاقة العهد التي لنا مع الله في المسيح ليست عهدًا بدون وصايا. فالاختلاف الأساسي بين العهد القديم الذي قدمه الله من خلال الناموس والعهد الجديد الذي قدمه الله من خلال المسيح ليس أن أحدهما يحتوي على

وصايا بينما لا يحتوي الآخر عليها. الاختلاف الأساسي هو أنه في العهد القديم لم تكن قوة النعمة المعينة على الطاعة قد انسكبت بعد في كمالها كما حدث عندما أتى الرب يسوع.. «ولكن لم يعطكم الرب قلبًا لتفهموا، وأعينًا لتبصروا، وآذانًا لتسمعوا إلى هذا اليوم» (تث ٢٩: ٤). الجديد في العهد الجديد ليس أنه لا توجد به وصايا، بل بالحري وعد الله القائل: «أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم» (إر ٣١: ٣٣)، «وأجعل روحي في داخلكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي» (حز ٣٦: ٢٧).

ما يجعل الحب ممكنًا بيننا وبين الله الذي يوصي هو أنه لا يتكلم من علو ويتركنا لقوتنا الشخصية؛ إنه يقترب منا ويقدِّم لنا ذاته كما يقدم لنا وصاياه. إن العهد الجديد المختوم بدم ابنه (١كو ١١: ٢٥) يمثل التزامًا عليه أن يضع روحه في داخلنا. يقول بولس إنه «عهد جديد، لا الحرف بل الروح. لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي» (٢كو ٣: ٦). عندما كان الناموس المكتوب على حجر يجابه قلبًا حجريًا عنيدًا، كان كل ما يفعله هو أن يدينه ويقتله. لكن عندما يصبح ذات الناموس مكتوبًا على قلوب تغيرت بالروح، فإن النتيجة تكون حياة.

لذلك لا نحتاج أن نعزُف عن وصايا الله وكأنها مطالب بعيدة وجامدة صادرة من سيد لا علاقة له بنا، وإنما علينا أن نتبنى تعليم العهد الجديد الكامل بأن وصايا الله إنما هي حتمية للعيش في الحياة المسيحية (١يو ٥: ٣). على سبيل المثال يقول الرسول بولس: «ليس الختان شيئًا وليست الغرلة شيئًا بل حفظ وصايا الله» (١كو ٧: ١٩). نعم، فحفظ وصايا الله بالفعل أمر لا غنى عنه في العهدين القديم والجديد على السواء.

ليس كل الناموس مُلزِمًا

لا شك أن أجزاءً كبيرة من الناموس لم تعد مُلزِمة للمؤمنين. يمكنك أن ترى ذلك في الآية التي اقتبسناها توًا، حيث أصبح الختان اختياريًا، بل أضحى في واقع الأمر في تناقض مع الوصايا الإلهية، رغم أن الختان كان واحدًا من الوصايا التي كان على شعب إسرائيل حفظها في زمن العهد القديم. والسبب في أن بعض أجزاء العهد القديم قد أصبحت غير مُلزِمة لشعب الله هو أنها قد تمت بالكامل في المسيح، كما أن الطريقة التي يحقق بها الله خطته الفدائية تختلف تمامًا الآن عما كان في العهد القديم، حيث كان تركيزه على شعب إسرائيل المختار.

على سبيل المثال أكمل موت المسيح وأتم كل الشرائع المتعلقة بالذبائح الحيوانية

(عب ٩: ١٢). كذلك فالشرائع التي سُنت للحفاظ على تميز إسرائيل طقسيًا عن الأمم الأخرى، مثل شرائع الطعام وحتى الختان، لم تعد تعمل بنفس الأسلوب الملزم، لأن خطة الله في العهد الجديد هي تتجاوز كل العوائق العرقية وتجمع شعبًا جديدًا من كل قبيلة ولسان وأمة (مر ٧: ١٩؛ مت ٢١: ٤٣؛ غل ٦: ١٥).

مع كل هذا، لم يتوقف الله عن أن يكون إلهًا ذا سلطان وحكمة كاملين. فلا تزال إرادته تمثل شريعة الحياة المسيحية. يقول يسوع: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل.» (مت ٥: ١٧ و١٨).. فالبعض أُكمل وتم بطريقة حاسمة مرة وإلى الأبد، لكن تبقى وصايا الله الأخلاقية، كما يقول الرسول بولس: « ... حفظ وصايا الله» (راجع ١كو ٧: ١٩). ورغم أن بولس تنازل عن الحق في توجيه الأمر لفليمون، إلا أنه كان مستعدًا لاستدعاء وصاياه الأخلاقية في رسالته الأولى إلى تسالونيكي ٤: ٢ «لأنكم تعلمون أية وصايا أعطيناكم بالرب يسوع».. ويطلق الرسول بولس على مجموع ما يطلبه الله عبارة «ناموس المسيح» (١كو ٩: ٢١؛ غل ٦: ٢).

رسول المحبة.. والوصايا

ربما كان الرسول يوحنا هو أكثر من اشتهر بكونه رسول المحبة.. فقد كان هو التلميذ الذي كان يسوع يحبه (يو ١٣: ٢٣؛ ٢٠: ٢)، كما أنه كتب عن المحبة بغزارة. غير أن ثلث استخدامات العهد الجديد لكلمة "وصية"[1] ترد في كتاباته. وهي لم تظهر فقط في إنجيله، كما رأينا قبلاً، لكن أيضًا في سفر الرؤيا وفي رسائله: «وبهذا نعرف أننا قد عرفناه: إن حفظنا وصاياه. مَنْ قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب وليس الحق فيه» (١يو ٢: ٣ و٤)، وأيضًا: «ومهما سألنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه، ونعمل الأعمال المرضية أمامه... ومَنْ يحفظ وصاياه يثبت فيه وهو فيه» (١يو ٣: ٢٢، ٢٤).

من المهم إدراك ذلك لأن يوحنا أيضًا يوضح أن الإيمان هو القوة الغالبة التي بها يمكن حفظ وصايا الله. وما سوف نراه هو أن نفس المسار الروحي الفعّال لحفظ الوصايا في كلا العهدين القديم والجديد هي أن نطيع بالإيمان في النعمة المستقبلية. وفيما يلي الأسلوب الذي يتعامل به يوحنا مع العلاقة بين الإيمان والطاعة:

«كل مَنْ يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله. وكل مَنْ يحب

> الوالد يحب المولود منه أيضًا. بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله: إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه. فإن هذه هي محبة الله: أن نحفظ وصاياه. ووصاياه ليست ثقيلة، لأن كل مَنْ وُلد من الله يغلب العالم. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا. مَنْ هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله؟» (١يو ٥: ١– ٥)

يقول يوحنا إن «كل مَنْ وُلد من الله يغلب العالم» (ع ٤)، وتعني كلمة «لأن» في بداية العدد ٤ أن هذا يمثل قاعدة أو أساسًا لما قاله قبل ذلك مباشرة.. «وصاياه ليست ثقيلة». لذا عندما يتحدث يوحنا هنا عن الغلبة على العالم، فما كان يقصده هو الانتصار على الدوافع العالمية لرفض وصايا الله واعتبارها ثقيلة. يقول إننا عندما نولد من جديد، فإن هذه الدوافع تنهزم ولا نجد أن وصايا الله ثقيلة.

كيف يتسنى للولادة الجديدة من الله أن تجعل وصايا الله بهجة بدلاً من كونها عبئًا؟ يقول يوحنا: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا.» بكلمات أخرى، الطريقة التي بها تغلب الولادة الجديدة من الله التصور العالمي عن ثقل وصايا الله هي تولد الإيمان في القلب. وهذا ما تؤكده كلمات العدد الأول التي تقول حرفيًا: «كل مَنْ يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله»؛ لذا فالإيمان هو البرهان على أننا ولدنا من الله. إننا لا نجعل أنفسنا نولد من جديد عندما نقرر أن نؤمن، لكن الله يجعلنا مستعدين للإيمان بأن يجعلنا نولد من جديد. وكما يقول بطرس الرسول في رسالته الأولى إن الله «ولدنا ثانية لرجاء حي» (١بط ١: ٣). إن رجاءنا الحي، أو الإيمان بالنعمة المستقبلية، هو عمل الله من خلال الولادة الجديدة.

لذلك عندما يقول يوحنا إن «كل مَنْ ولد من الله يغلب العالم» يضيف قائلاً: «هذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا».. وأراه يقصد هنا أن الله يمكننا، بالولادة الجديدة، أن نغلب العالم.. بمعنى أن نغلب ميولنا العالمية التي تجعلنا نعزُف عن حفظ وصايا الله. تحقق الولادة الجديدة هذا الأمر من خلال خلق الإيمان والذي يتضمن استعدادًا للابتهاج بوصايا الله وليس هروبًا منها. ولذا فالإيمان هو الذي يغلب عداوتنا الفطرية لله ومشيئته، ويحررنا لنحفظ وصاياه فنقول مع المرنم: «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت» (مز ٤٠: ٨).

لكن قد يقول قائل: "كيف يمكنك أن تنسب إلى الإيمان ما تنسبه الآية ٣ للمحبة لله؟" «هذه هي محبة الله: أن نحفظ وصاياه.» إنني لا أنكر أن محبة الله هي القوة التي تحفظ وصاياه، لكني أؤكد أيضًا أن الإيمان أيضًا هو أداة القوة الإلهية التي تمكننا من حفظ وصاياه. فيكون السؤال إذًا: كيف يتفق الأمران معًا؟

"المحبة هي المكون الأساسي في الإيمان المخلِّص"

صارع الراعي واللاهوتي «جوناثان إدواردز» في القرن الثاني عشر مع هذا النص واستنتج ما يلي: "إن الإيمان المخلِّص يحتوي في طبيعته على المحبة الإلهية... فمحبتنا لله تمكِّننا من عبور الصعاب التي تَحول دون طاعتنا لوصايا الله؛ وهذا يوضح أن المحبة هي المكون الأساسي في الإيمان المخلِّص، هي حياته وقوته التي يحقق بها تأثيراته العظيمة."(٢) وأعتقد أن «إدواردز» كان محقا، وأن العديد من النصوص الكتابية تدعم ما يقول.(٣) يمكن التعبير عن ذلك بطريقة أخرى فنقول إن الإيمان بالمسيح ليس فقط موافقة على ما يمثله الله لنا، بل أيضًا قبولاً لكل ما يمثله لنا في المسيح. "فالإيمان الحقيقي يقبل المسيح بأية طريقة يعلنها الكتاب المقدس للخطاة البؤساء."(٤) هذا القبول يعني محبته.

وبالتالي ليس هناك تعارض بين الآية ٣ من جهة التي تقول إن محبتنا لله تساعدنا على حفظ وصاياه، والآية ٤ التي تقول إن إيماننا يغلب العراقيل التي يضعها العالم والتي تحول دون طاعتنا لوصايا الله. فالمحبة لله مُتضمنة في الإيمان.

تصف الآية ٥ الإيمان الذي يطيع هكذا: «الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله».. هل هذا هو الإيمان بالنعمة المستقبلية؟ أعتقد ذلك. فلا يمكن أن يقصد يوحنا أن الإيمان المخلِّص عبارة عن مجرد موافقة على حقيقة أن يسوع هو ابن الله، لأن الشياطين تؤمن بذلك (مت ٨: ٢٩). إن ما يبغيه هو قبول مغزى هذا الحق، ووضع رجائنا فيه. إن عبارة «ابن الله» تعني أن يسوع هو أعظم شخص في الكون إلى جانب أبيه. لذا فإن كل ما يعلمه حق، وكل ما يعد به مؤكد، وكل عظمته لن يعتريها تغيير البتة. إن الإيمان بكونه ابن الله يعني وضع الرجاء في كل ذلك والاكتفاء به. وهذا يتضمن الإيمان بكل المستقبل الذي يضمنه بشخصه من أجل صالح شعبه.

نجد في رسالة يوحنا الأولى ٤: ١٦ ما يؤكد هذا الأمر؛ حيث يوصف المؤمنون بأنهم أولئك الذين يصدِّقون المحبة التي لله فيهم. هذا أمر هام إذ يقول: «المحبة التي لله فينا»، وليس المحبة التي كانت لله فينا (أي في الماضي). معنى هذا أننا نثق في محبة الله المستمرة، وأنه معنا لحظة بلحظة. أعتقد أن هذا يعني أن الإيمان بيسوع كابن لله يتضمن الإيمان بكل محبة لله التي جسدها وقدَّمها لنا.

أخلص من هذا إلى أن تركيز يوحنا على حفظ الوصايا الإلهية يتوافق مع ما رأيناه في الفصل السابق؛ فهو يعلِّمنا أن نحفظ وصايا الله بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

في الأسابيع التي كنت أضع فيها اللمسات الأخيرة لهذا الكتاب كنت أعظ أيضًا

سلسلة من العظات تحت عنوان «وأعظمهن المحبة». واحد من النصوص التي اخترتها كانت وصية يسوع حيث يقول: «وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم... وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم» (مت ٥: ٤٤). في نفس الوقت وصلتني أخبار على بريدي الإلكتروني تفيد بمقتل اثنين من المرسلين بالقرب من بوجوتا عاصمة كولومبيا على يد عصابات عسكرية ماركسية وذلك في ١٩ يونيو ١٩٩٥م. وأفادت الأخبار الواردة بأن المرسلين «تيموثي ڤان دايك»، و«ستيف ولش» قد تلقيا عدة رصاصات قاتلة. وقد كانا يبلغان كلاهما الثانية والأربعين من عمرهما، وكانا يدرسان في مدرسة تابعة للإرسالية عندما تم اختطافهما في يناير ١٩٩٤م.

وكان السؤال الذي عليّ طرحه وأنا أعظ عن محبة الأعداء هو: كيف يتسنى لك محبة الرجال الذين اختطفوك، ثم بعد عام ونصف لم يتورعوا عن قتلك؟ كيف لزوجتي وأطفال هذين المرسلين أن يحبوا أولئك القتلة؟ يقول يسوع: "أحبوهم، أحبوهم. إذا قتلوكم أحبوهم. إذا أخذوا أولادكم، أحبوهم. إذا دمروا عائلاتكم، أحبوهم. أحبوا أعداءكم. كُنْ هكذا.. تغيَّر من الداخل بحيث يصير هذا ممكنًا."

كيف يمكننا أن نفعل هذا؟ من أين تأتي مثل هذه القدرة على المحبة؟ فقط تخيل كم يكون هذا مدهشًا عندما يتحقق! هل يمكن لأي أمر أن يوضح حقيقة وقوة المسيح أكثر من ذلك؟ وأعتقد أن الرب يسوع يرشدنا إلى سر هذه المحبة الأصيلة المضحية في ذات الأصحاح.

في متى ٥: ١١ و١٢ يتحدث الرب يسوع مجددًا عن الاضطهاد فيقول: «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة، من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.» ما نلاحظه في هذه الآيات هو أن الرب يسوع يقول إنك لا تستطيع فقط احتمال سوء معاملة العدو بل أن تفرح بها. قد يبدو هذا الأمر فوق إدراكنا. إذا كنت أستطيع ذلك -أن أبتهج بالاضطهاد، سيكون من الممكن إذًا أن أحب مضطهديَّ. إذا كان يمكن حدوث معجزة الفرح في وسط الخوف من الظلم والألم والضياع، سيكون من الممكن لمعجزة محبة الجناة أن تحدث أيضًا.

يقدِّم يسوع سر الفرح في هذه الآيات؛ فهو يقول: «افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات.» إن سر للفرح هو النعمة المستقبلية: «أجركم عظيم في السموات.» وأرى أن هذا الفرح هو القوة المحررة لنا لكي نحب أعداءنا عندما يضطهدوننا. وإذا كان هذا حقيقيًا فإن وصية المحبة إذًا تهدف إلى أن نركز أفكارنا على الأمور التي هي فوق، وليس على الأمور التي هي على الأرض (كو ٣: ٢). إن الوصية بأن نحب

أعداءنا إنما هي وصية لأن نلتمس رجاءنا وكفايتنا من الله ومن مكافأته العظيمة- النعمة المستقبلية. إن سر المحبة الحقيقية هو النعمة المستقبلية. علينا أن نقتنع في وسط معاناتنا أن محبة الله «أفضل من الحياة» (مز ٦٣: ٣). إن محبتك لعدوك لا تجعلك مستحقًا للسماء، لكن حصولك على نعمة السماء يمكِّنك من محبة عدوك.

كُنْ حذرًا عندما تسمع أحدهم يقول إن المؤمنين سيكونون أكثر نفعًا للعالم من الناحية العملية إذا لم يُعيروا اهتمامًا زائدًا للمستقبل. قد يكون بعض المؤمنين قد فقدوا الاتجاه في الحياة نتيجة للإعجاب الزائد بالتعليم النبوي، لكن يسوع أوضح الأمر بجلاء.. سر فرحنا ومحبتنا في وسط الأوقات الصعبة هو الثقة العميقة غير المتزعزعة في أن كل خسارة على الأرض لقاء خدمة المحبة لصالح ملكوت الله سوف تُعَوَّض بسخاء: «ملبدًا، مهزوزًا، فائضًا» (لو ٦: ٣٨؛ مر ١٠: ٢٩ و٣٠). الأمر واضح: دعونا نكرِّس أنفسنا ونزيد إيماننا أكثر بالأجر العظيم للنعمة المستقبلية. هذه هي قوة المحبة.

هناك المزيد من الأمثلة على تعليم العهد الجديد بأن الطاعة لله تكون بالإيمان بالنعمة المستقبلية. لنتأمل في أربعة توضيحات إضافية.

إيمان النعمة المستقبلية بالسرور الموضوع أمامنا

أولاً، عندما يصف عبرانيين ١١ طاعة العهد القديم بأنها كانت «بالإيمان» أي «الثقة بما يُرجى» (ع ١)، فإن ذلك لم يكن من منظور تاريخي. فالفكرة هي أن على مؤمني اليوم أن يطيعوا بنفس الأسلوب أيضًا.

نحن نعلم ذلك لأن الرسالة إلى العبرانيين تدعو إلى نفس النوع من الطاعة في نصوص أخرى. فهي على سبيل المثال، تقدِّم يسوع كمثال للحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية: «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب».. بمعنى أن يسوع موجود في هذا القطار العظيم من القديسين الذين «بالإيمان... عُذبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل» (عب ١١: ٣٣، ٣٥). لذا علينا أن نكون «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع» (عب ١٢: ٢). وهكذا يربط يسوع كل مؤمني العهد القديم ذوي النظرة المستقبلية بنا، من خلال اتباع نموذجهم في الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية. لقد تقوى ليحتمل تكلفة المحبة الغالية بأن وضع رجاءه في «السرور الموضوع أمامه» (راجع كذلك عب ١٠: ٣٢- ٣٤؛ ١٣: ٥- ٧).

عمل الإيمان

ثانيًا، يشير الرسول بولس مرتين إلى طاعة المؤمنين العملية على كونها "عمل إيمان". ففي رسالته الأولى إلى تسالونيكي يقول: «متذكرين بلا انقطاع عمل إيمانكم، وتعب محبتكم، وصبر رجائكم، ربنا يسوع المسيح» (١تس ١: ٣). وكتب إليهم في رسالته الثانية يقول: «الأمر الذي لأجله نصلي أيضًا كل حين من جهتكم: أن يؤهلكم إلهنا للدعوة، ويُكمِّل كل مسرة الصلاح وعمل الإيمان بقوة، لكي يتمجد اسم ربنا يسوع المسيح فيكم، وأنتم فيه، بنعمة إلهنا والرب يسوع المسيح.» (٢تس ١: ١١ و١٢).

يشير تعبير "عمل الإيمان" إلى السلوكيات العملية في المحبة والصلاح التي يمارسها المؤمنون. والفكرة هنا تتمثل في أن هذه السلوكيات تتم بالإيمان. عندما يطلب بولس في رسالته الثانية إلى تسالونيكي ١: ١١ من الله أن «يكمل... عمل الإيمان بقوة»، فهو يوضح أن الإيمان هو القناة التي يستخدمها الله ليحوِّل قوته إلى طاعة. وعندما يضيف في نهاية الآية ١٢ أن يتمجد الرب يسوع بعمل الإيمان هذا «بنعمة إلهنا»، فهو يوضح أن الإيمان المقصود هو الإيمان بالنعمة المستقبلية. فعندما نثبت إيماننا على النعمة المستقبلية، تتدفق قوة الله من خلال ذلك الإيمان فنتقوى لنعمل «عمل الإيمان وتعبِ المحبة»، وهذا الأمر يجلب بالضرورة المجد لله، وليس نحن، وهو معنى النعمة إجمالاً. فنحن ننال المعونة، وينال الله المجد.

عمل إيمان "سبرجن" لمجد الله

أحب «تشارلز سبرجن»، الواعظ الإنجليزي العظيم، أن يمجد الله؛ فطلب الكثير من الله. يقتبس «سبرجن» كلمات مزمور ٥٠: ١٥ حيث القول الإلهي: «وادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني.» نحن نطلب معونة النعمة المستقبلية ويستجيب الله بالقوة المخلصة. وتكون النتيجة أن يتمجد الله. "هنا نرى شراكة مبهجة: نحن نحصل على ما نحتاجه بشدة، وما يحصل عليه الله هو المجد الذي يليق باسمه."[٥]

لقد آمن «سبرجن» بأن الطريق للحصول على "النعمة الفائضة" من الله يكون بالإيمان بالنعمة المستقبلية. فهو على سبيل المثال كان ينصح الواعظين الشباب بأن يؤمنوا أن وعظهم بكلمة الله لا يذهب هباءً:

> أيها الأحباء، ليكن لكم الإيمان الأصيل بكلمة الله وقدرتها على الخلاص. لا تصعدوا إلي المنبر لتعظوا وأنتم تقولون في أنفسكم:

"أتمنى أن يكون لهذا الوعظ بعض التأثير الصالح"، لكن آمنوا واثقين أن ذلك لن يذهب هباءً، وبلا شك سيحقق إرادة الله الأزلية. لا تتكلموا وكأن للإنجيل بعض القوة، أو قد يفتقر تمامًا إلى القوة. إن الله يرسلكم لتكونوا صانعي معجزات، لذا قولوا للكسيح روحيًا: "باسم يسوع المسيح الناصري، قم وامشِ." وسوف يقوم الناس ويمشون، لكن إذا قلتم: "أتمنى أيها العزيز أن يكون يسوع المسيح قادرًا على أن يجعلك تقوم وتمشي"، فسوف يحزن ربكم من كلماتكم التي تسلبه مجده، لأنكم بذلك تقللون من شأنه، وتجعلونه على مستوى عدم إيمانكم. فلا يستطيع الله بذلك أن يصنع أعمالاً عظيمة كثيرة بكم. تكلموا بجرأة لأنكم إذا تكلمتم بالروح القدس فلن يذهب كلامكم سدى.[٦]

إتمام شريعة الله بالإيمان بالنعمة المستقبلية اليوم

ثالثًا، رأينا في الفصل السابق من خلال رومية ٩: ٣٢ أن السبب وراء عدم إتمام بني إسرائيل لشريعة الله هو أنهم فعلوا ذلك ليس بالإيمان، بل «كأنه بأعمال الناموس». لم تكن هذه مجرد كلمة عن الماضي، لكنها كانت علامة على الطريق نحو المستقبل. فنحن أيضًا علينا أن نتمم ما تتطلبه شريعة الله، ليس بالأعمال، بل بالإيمان.

يقول الرسول بولس إن السبب في أن الله «أرسل ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد (هو) لكي يتم حكم الناموس فينا، نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رو ٨: ٣ و٤). توضح الإشارة إلى «السلوك بحسب الروح» أن إتمام الناموس (أو الشريعة) إنما هو إتمام اختباري حقيقي في سلوكنا. إنها ليست إشارة إلى طاعة المسيح الكاملة التي يحتسبها لنا. هذه حقيقة عظيمة، لكن ليس هذا ما يتحدث عنه بولس هنا، أو كما يقول «سي. إي. بي. كرانفيلد»:

> كان هدف الله من دينونة الخطية أن تتم متطلبات شريعته فينا، بمعنى أن تثبت شريعته من خلال الطاعة الكاملة والصادقة- تحقيقًا للوعود الواردة في إرميا ٣١: ٣٣، وحزقيال ٣٦: ٢٦... فالمؤمنون الحقيقيون يتممونها.. بمعنى أنهم يملكون إيمانًا حقيقيًا بالله (المطلب الأساسي للشريعة)، وبمعنى أن حياتهم تتجه في ثبات نحو الطاعة، وأنهم في كل قلوبهم يبتغون الطاعة ويشتاقون للتقدم الحقيقي نحو الكمال.[٧]

لا يذكر الرسول بولس هنا أن إتمام الشريعة بالإيمان، لكنه يقول في الواقع إن هذا الإتمام يكون من خلال أولئك «السالكين بحسب الروح»، ونحن نعلم أن بولس في موضع آخر يؤمن بأن الروح يُمنح ليس بالأعمال بل بالإيمان: «فالذي يمنحكم الروح، ويعمل قوات فيكم، أبأعمال الناموس أم بخبر الإيمان؟» (غل ٣: ٥). الإجابة هي: بالاستماع بإيمان. فالروح يقوي الطاعة.. والقناة التي من خلالها يأتي ويتحرك هي الإيمان: «بتقديس الروح وتصديق الحق» (٢تس ٢: ١٣). لذا فإن رومية ٨: ٤ تتوافق تمامًا مع رومية ٩: ٣٢ في التعليم بأن إتمام الشريعة (الناموس) لا يكون بالأعمال بل بالإيمان.

إتمام الناموس من خلال المحبة بالإيمان بالنعمة المستقبلية

تأكيد جميل آخر على هذا يأتي من خلال التأمل فيما يتضمنه إتمام الناموس فعلاً. يقول الرسول بولس: «المحبة لا تصنع شرًا للقريب، فالمحبة هي تكميل الناموس» (رو ١٣: ١٠). ثم يعلِّم بولس أيضًا في موضعين على الأقل بأن المحبة تنبع من الإيمان، مما يؤكد أن إتمام الشريعة يكون بالإيمان: «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ٦)، «وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء» (١تي ١: ٥؛ راجع كذلك كو ١: ٤ و٥). يمكننا أن نستنتج هنا إذًا أن الله قصد لوصاياه أن تتم في كلا العهدين القديم والجديد بنفس الأسلوب الأساسي: الإيمان بالنعمة المستقبلية.

الإيمان الميت لا يُنتج أعمالاً

رابعًا، يقدِّم لنا الرسول يعقوب رسالة في غاية الوضوح.. الإيمان المُخلِّص الحقيقي يعمل بفاعلية من أجل طاعة عملية لله: «ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد أن له إيمانًا ولكن ليس له أعمال. هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟» (يع ٢: ١٤)، «هكذا الإيمان أيضًا، إن لم يكن له أعمال، ميت في ذاته» (يع ٢: ١٧)، «ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل أن الإيمان بدون أعمال ميت؟» (يع ٢: ٢٠)، «لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت، هكذا الإيمان أيضًا بدون أعمال ميت.» (يع ٢: ٢٦).

الفكرة هنا ليست مجرد أن الإيمان المخلِّص ترافقه دائمًا الأعمال الصالحة. الفكرة هي أن الإيمان ينتج الأعمال. ولهذا يوصف بأنه ميت إذا لم تكن هناك أعمال؛ لأن حياة الإيمان تظهر من خلال الأعمال التي تولدها هذه الحياة. إن نوعية الإيمان التي

يقصدها يعقوب ربما يُشار إليها باستخدامه في يعقوب ١ : ٦، ويشير هذا الاستخدام إلى الإيمان بالنعمة المستقبلية. يقول يعقوب إنه إذا أعوزت أحدهم الحكمة، فليطلبها من الله، «ولكن ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة لأن المرتاب... رجل ذو رأيين، هو متقلقل في جميع طرقه» (يع ١: ٥ و٦، ٨). وبالتالي سيكون رجلاً ذا رأيين لأن جزءًا منه يمتلك إيمانًا بنعمة الله المستقبلية لتسديد احتياجاته والجزء الآخر لا يمتلكه. لذا فالإيمان الذي سوف يحصل على الحكمة ويكون قادرًا على الحياة في طاعة هو الإيمان بالنعمة المستقبلية.. إنه الإيمان غير الميت الذي يؤدي إلى الطاعة لله.

"الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع"

أستنتج من هذا أن العهد الجديد يعلِّمنا أن نطيع وصايا الله بالإيمان بالنعمة المستقبلية. لا يمكن التغاضي عن وصايا الله لأننا تحت النعمة، بل إنها قابلة للتحقق لأننا تحت النعمة. إن الروح الذي هو عطية العهد الجديد هو القوة لإطاعة إرادة الله المُعلنة، أما الطريق الذي يسلكه الروح ويعمل من خلاله فهو الإيمان بالنعمة المستقبلية. في القرن الميلادي الأول، وفي خضم الاضطهاد العنيف، أُطلق على المؤمنين أسماء بسيطة وقوية. واحد من هذه الأسماء كان: «الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع» (رؤ ١٤: ١٢). كانت الفكرة الرئيسية في هذا الفصل أن هذين الأمرين ليسا متوازيين فقط.. "فالإيمان بعناية الرب يسوع" لنا بالنعمة المستقبلية وهبت لهم شجاعة "حفظ وصايا الله" حتى في مواجهة الموت.

ذلك النوع من الثقة رغم إحباطاته الشديدة، يقود إلى حياة متميزة في الصبر. ونفعل حسنًا إذا قضينا بعض اللحظات في الفصل القادم لنتأمل في كيف أن غنى حكمة الله وسيادته المطلقة على ظروفنا يطهرنا من خطية عدم الصبر.

لا تحكموا على الرب بأحاسيسكم الضعيفة،
لكن ثقوا به لأجل نعمته،
فخلف السيطرة المتجهمة
يحمل وجهًا مبتسمًا!
«وليم كوبر»

«فتأنوا أيها الإخوة إلى مجيء الرب...
خذوا يا إخوتي مثالاً لاحتمال المشقات والأناة:
الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب.
ها نحن نطوب الصابرين.
قد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب
لأن الرب كثير الرحمة ورؤوف.»
(يع ٥: ٧- ١١)

«طيب هو الرب للذين يترجونه.»
(مرا ٣: ٢٥)

الفصل الثالث عشر

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة عدم الصبر

في مكان الله، بإيقاع الله، بالنعمة المستقبلية

عدم الصبر هو شكل من أشكال عدم الإيمان. وهو شعور نختبره عندما نبدأ في التشكك في حكمة توقيت الله أو صلاح إرشاده. ويتولد في قلوبنا عندما تتعطل خطتنا أو تفشل. وقد ينشأ هذا الشعور نتيجة الانتظار لمدة طويلة في طابور طويل أو صدمة مفاجئة تقضي على نصف أحلامنا. والمقابل لعدم الصبر ليس إنكار الخسارة بدون تفكير، لكنه الاستعداد العميق والناضج والهادئ لانتظار الله في موضع غير متوقع يتطلب طاعة وسيرًا مع الله في طاعة بإيقاع غير متوقع، والسر وراء ذلك الانتظار وهذا السير هو الإيمان بالنعمة المستقبلية.

الالتزام الثابت لماري ديورانت

يسرد «كارل أولسون» في كتابه «شغفٌ» (Passion) قصة صبر مدهش حدثت في الأوساط البروتستانتية الفرنسية المسماة بالهوجونتس:

في أواخر القرن السابع عشر... في جنوب فرنسا قُدمت فتاة تُدعى

«ماري ديورانت» إلى السلطات بتهمة الهرطقة. كانت الفتاة التي تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا ذكية وجذابة وفي سن الزواج. وطُلب منها التنكر لإيمان «هوجونت». ولم يُطلب منها الإتيان بسلوك غير أخلاقي، أو ارتكاب جريمة، أو حتى تغيير نمط سلوكها اليومي. كل ما طُلب منها هو أن تنطق بعبارة "أنكر هذا الإيمان"، لا أكثر ولا أقل. ولم تذعن الفتاة للأمر. فتم وضعها مع ثلاثين امرأة أخرى من الهوجونتس في برج بجوار البحر... ولمدة ثمانية وثلاثين عامًا استمرت على موقفها... وبدلاً من الكلمة المقيتة "أنكر"، قامت هي ورفيقاتها الشهيدات بحفر كلمة واحدة على جدار السجن، وهي كلمة: "قاوموا..!"

ولا تزال الكلمة يشاهدها وتدهش السياح الذين يذهبون لرؤية الجدار الحجري في مدينة «إيجو مورت» الفرنسية. نحن لا ندرك مقدار البساطة العجيبة لالتزام ديني لا يطلب شيئًا من الدنيا ولا يأخذ شيئًا منها. نحن نفهم دينًا يضيف إلى هذه الحياة... لكننا لا نستطيع فهم إيمان لا يتغذى على رجاء مؤقت بأن الغد سيكون أفضل. فأن تمكث في غرفة سجن مع ثلاثين آخرين لترى النهار يتحول إلى ليل والصيف إلى خريف، وأن تلحظ بالتغييرات البطيئة في الجسد الإنساني: جفاف الجلد وتشققه، فقدان مرونة العضلات، خشونة المفاصل والضعف المستمر للحواس- وأن تشعر بكل ذلك وتظل على موقفك فهذا يبدو حُمقًا في عيون جيل ليست له القدرة على الانتظار والاحتمال.(1)

إن الصبر هو القدرة على "الانتظار والاحتمال" دون تذمر وخيبة أمل.. الانتظار في مكان غير متوقع، واحتمال وتيرة عيشٍ غير متوقعة. يستخدم «كارل أولسون» صفة مفتاحية واحدة تشير إلى القدرة الكامنة وراء الصبر.. يقول: "لا نستطيع فهم إيمان لا يتغذى على رجاء مؤقت بأن الغد سيكون أفضل." أتساءل إذا كان بإمكاننا فهم مثل هذا المفوم لمعنى الصبر. بالتأكيد لا يمكننا ذلك إذا كان "الرجاء المؤقت" هو النوع الوحيد من الرجاء الذي نملكه. أما إذا كان لنا رجاء فيما وراء هذه الحياة المؤقتة، وإذا كانت النعمة المستقبلية تمتد إلى الأبدية، إذًا قد يكون هناك فهم عميق لمثل هذا الصبر في هذه الحياة.

في واقع الأمر، إن رجاء النعمة المستقبلية على وجه الخصوص هو الذي يعضد القديسين في صبرهم في وسط آلامهم. وقد أوضح الرسول بولس هذا الأمر بجلاء في حياته الشخصية: «لذلك لا نفشل (بمعنى عدم الاستسلام للتذمر وعدم الصبر)،

بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى، فالداخل يتجدد يومًا فيومًا. لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى. لأن التي تُرى وقتية، وأما التي لا تُرى فأبدية» (٢كو ٤: ١٦- ١٨). إنني لا أشك في أن هذا الإيمان بالنعمة المستقبلية -الذي فيما وراء المؤقت- هو الذي دعَّم صبر «ماري ديورانت» ووهبها القوة لثمانية وثلاثين عامًا لكي تكتب كلمة "قاوموا" على جدار زنزانتها.

القوة الداخلية للصبر

القوة هي الكلمة الصحيحة.. فقد صلى الرسول بولس لمؤمني كنيسة كولوسي ليكونوا «متقوين بكل قوة بحسب قدرة مجده، لكل صبر وطول أناة» (كو ١: ١١). وبالتالي يمثل الصبر برهانًا على وجود قوة داخلية. فالناس غير الصبورين ضعفاء، وبالتالي يعتمدون على دعائم خارجية -مثل جداول العمل المنتظمة، والظروف التي تتناسب مع قلوبهم الهشة. ربما ترى أن نوبات الغضب والتهديد والنقد اللاذع لأولئك الذين يتجرأون على التدخل في خططهم أمرًا لا يعبِّر عن ضعف، لكن هذه الضوضاء هي بمثابة قناع يخفي وراءه الكثير من الضعف. فالصبر يتطلب قوة داخلية هائلة.

بالنسبة للمؤمن تأتي هذه القوة من الله. لهذا صلى بولس من أجل أهل كولوسي.. فهو يطلب من الله أن يمكِّنهم من الاحتمال والصبر اللذين تتطلبهما الحياة المسيحية. لكنه عندما يقول إن قوة الصبر إنما هي «بحسب قدرة مجده» فهو لا يعني فقط أن الأمر يحتاج إلى قوة الله حتى يصير الإنسان صبورًا، لكنه يعني أن الإيمان بهذه القدرة العظيمة يمثل القناة التي تأتي منها القوة للصبر. إن الصبر هو بلا شك من ثمار الروح القدس (طول الأناة) (غل ٥: ٢٢)، لكن الروح القدس، كما سنرى في الفصل السابع عشر، يمكن الإنسان (بكل ثمره) من خلال "خبر الإيمان" (غل ٣: ٥). لهذا يصلي بولس أن يربطنا الله بقدرة مجده التي تمكِّن من الصبر.. وهذه الرابطة هي الإيمان.

الثقة في أن الله يحوّل كل العوائق إلى بركات

بشكل خاص القدرة الإلهية التي نحتاج لرؤيتها والثقة بها إنما هي قدرة الله على أن يُحَوِّل كل المنحنيات والعوائق إلى انتصارات مجيدة. فلو كنا آمنا أن وقوفنا طويلاً في الإشارة الحمراء كان وسيلة الله لأن يحفظنا من حادثة كادت أن تقع،

كُلنا صبورين ومبتهجين. ولو آمنا أن القدم المكسورة كانت وسيلة الله لاكتشاف الإصابة المبكرة بالسرطان من خلال الأشعة بحيث يمكننا الشفاء منه، لتوقفنا وقتها عن التذمر. ولو آمنا أن رنين الهاتف في منتصف الليل كان وسيلة الله لنشتم رائحة الدخان الآتية من البدروم لامتنعنا وقتها عن الشكوى من عدم القدرة على الخلود للنوم مرة أخرى. إن السر وراء الصبر هو الإيمان بنعمة قدرة الله المجيدة المستقبلية في تحويل كل مشكلة إلى مكافأة.

بكلمات أخرى، تعتمد قوة الصبر على قدرتنا على الإيمان بأن الله لديه شيء صالح لنا في كل العراقيل والمنحنيات التي نقابلها في الطريق. هذا الأمر يتطلب إيمانًا عظيمًا بالنعمة المستقبلية لأن الأمر نادرًا ما يكون واضحًا. يروي «ريتشارد ورمبراند» أسطورة توضح ضرورة الإيمان بأهداف الله الصالحة غير المرئية عندما يكون كل ما نراه هو الشر والإحباط:

> تحكي الأسطورة بأنه ذات مرة جلس موسى يتأمل بجوار بئر. وتوقف عابر سبيل ليشرب من البئر، وأثناء ذلك وقع كيس نقوده من الحزام المشدود حول خصره على الرمال، وانصرف الرجل دون أن يلحظ ذلك. بعد ذلك بقليل مر رجل آخر بالقرب من البئر ورأى كيس النقود والتقطه. بعد ذلك مر رجل ثالث، وتوقف ليروي ظمأه، وذهب لينام في ظل البئر. في ذات الوقت كان الرجل الأول قد اكتشف ضياع نقوده وإذ أدرك أنه ربما يكون قد فَقَدها عند البئر عاد ليوقظ الرجل النائم (الذي بالطبع لم يكن يعلم شيئًا عنها)، وطلب منه إعادة النقود. وسرعان ما ابتدأت مشاجرة بينهما؛ وإذ غضب الرجل الأول غضبًا شديدًا فقد قام بقتل الأخير. عندئذٍ قال موسى لله: "هل ترى يارب.. لهذا لا يؤمن بك الناس. فلم يزل هناك الكثير من الشر والظلم على الأرض. لماذا كان على الرجل الأول أن يفقد نقوده ثم كان عليه بعد ذلك أن يصير قاتلاً؟ ولماذا حصل الرجل الثاني على كيس مملوء بالذهب دون أن يتعب من أجله؟ أما الرجل الثالث فكان بريئًا تمامًا.. فلماذا قُتل؟"
>
> أجاب الله قائلاً: "لمرة واحدة فقط سوف أعطيك تفسيرًا، فلا أستطيع أن أعطي لك تفسيرًا لكل أمر يحدث. الرجل الأول كان ابنًا لسارق. وكان كيس النقود يحتوي على ذهب سرقه والده من والد الرجل الثاني، الذي عندما عثر على الكيس فقد عثر على شيء من حقه. أما الرجل الثالث فقد كان قاتلاً متخفيًا، ونال العقاب الذي يستحقه من الرجل

الأول. في المستقبل آمن بأن هناك معنى وعدلاً فيما يحدث حتى لو أنك لا تدرك ذلك."[٢]

كان يمكن لموسى أن يتغلب على عدم صبره مع الله في هذه القصة لو أنه كان يملك المزيد من الإيمان في قوة الله وحكمته لأن يحول كل الأشياء لخير شعبه. لقد وعد الله مرارًا وتكرارًا في الكتاب المقدس بأن يفعل ذلك (٢أخ ١٦: ٩؛ مز ٢٣: ٦؛ ٨٤: ١١؛ إر ٣٢: ٤٠ و٤١؛ إش ٦٤: ٤؛ رو ٨: ٢٨، ٣٢؛ ١كو ٣: ٢٢ و٢٣). في واقع الأمر الأمر الوحيد غير الصحيح في هذه الأسطورة هو القول المنسوب إلى الله: "لمرة واحدة فقط سوف أعطيك تفسيرًا".. فالحقيقة هي أن الله قد قدَّم لنا تفسيرات كهذه مرات كثيرة في الكتاب المقدس بتوضيحات كفيلة بأن تملأ كتابًا.[٣]

سر الصبر: "الله قصد به خيرًا"

على سبيل المثال تُعد قصة يوسف في سفر التكوين ٣٧: ٥٠ درسًا عظيمًا في أهمية أن نمتلك إيمانًا في سيادة نعمة الله المستقبلية. فقد بيع يوسف عبدًا على يد إخوته؛ مما عرّض صبره لاختبار عظيم. لكنه حصل على وظيفة جيدة في بيت فوطيفار. ثم عندما كان يسلك باستقامة في موضع للطاعة غير متوقع، كذبت زوجة فوطيفار بشأن استقامته وألقته في السجن- وهو اختبار آخر لصبره. لكن تحولت الأمور مجددًا نحو الأفضل وأعطاه حافظ السجن المسؤولية، ومنحه الاحترام. لكن ما أن فكر أنه قد قارب على الحصول على الإطلاق من ساقي فرعون الذي فسر له أحلامه حتى نسيه الساقي لمدة عامين آخرين. وأخيرًا، تبين المغزى من وراء كل تلك المنحنيات والتأخيرات. فيوسف يقول لإخوته الذين ابتعدوا عنه طويلاً: «فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض وليستبقي لكم نجاة عظيمة... أنتم قصدتم لي شرًا، أما الله فقصد به خيرًا، لكي يفعل كما اليوم، ليحيي شعبًا كثيرًا» (تك ٤٥: ٧؛ ٥٠: ٢٠).

ماذا كان سر الصبر عند يوسف خلال كل تلك السنين من النفي والإيذاء؟ الإجابة هي: الإيمان بالنعمة المستقبلية.. نعمة الله القادرة على تحويل المكان غير المتوقع وإيقاع الحياة غير المتوقع إلى أسعد نهاية ممكنة.

مأساة في شهر العسل

لا تحدث مثل هذه النهاية السعيدة في كل القصص الإنسانية. كان «بنيامين

وارفيلد» لاهوتيًا عالميًا معروفًا، وظل يدرِّس في كلية لاهوت «برينستون» لمدة ٣٤ عامًا حتى انتقاله في ١٦ فبراير ١٩٢١م. والكثيرون يعرفون كتبه الشهيرة مثل «وحي الكتاب المقدس وسلطانه». ولكن ما لا يعرفه أغلبية الناس عنه هو أنه في عام ١٨٧٦م، وفي سن الخامسة والعشرين، تزوج من «آني بيرس كينكيد» وسافرا في شهر العسل إلى ألمانيا. وفي أثناء عاصفة عنيفة تعرضت زوجته «آني» لصاعقة من البرق وأصيبت بشلل دائم. وبعد عناية طويلة بها لمدة تسعة وثلاثين عامًا أودعها «وارفيلد» إلى راحتها في عام ١٩١٥م. وبسبب احتياجاتها الكثيرة، لم يكن «وارفيلد» يغادر منزله لأكثر من ساعتين في المرة خلال كل سني زواجه[٤].

نحن هنا أمام حلم يتبدد. إني أتذكر قولي لزوجتي في الأسبوع الذي سبق زواجنا: "إذا تعرضنا لحادث سيارة في أثناء قضائنا شهر العسل، فسوف أفي بعهودي لكِ.. في السراء وفي الضراء." لكن بالنسبة لـ «وارفيلد» فقد حدث الأمر بالفعل. لم تُشف زوجته أبدًا. كما لم يصر ملكًا على مصر في نهاية القصة– فقط الصبر والإخلاص المدهش من رجل لزوجته لثمانية وثلاثين سنة لم يكن مخططًا أن تمضي هكذا. لكن عندما شرع «وارفيلد» ليكتب أفكاره عن رومية ٨: ٢٨ قال: "إن الفكرة الأساسية هنا هي سيادة الله الكونية. فكل ما يحدث لك إنما هو تحت يده المسيطرة. أما الفكرة الثانوية فهي انحياز الله لأولئك الذين يحبونه. فإذا كان يتحكم في كل شيء، إذًا فلا شيء سوى الخير يمكن أن يحدث لأولئك الذين يقصد لهم الخير... رغم كوننا ضعفاء جدًا على أن نعين أنفسنا.. وأنظارنا قاصرة على أن نطلب ما نحتاجه بالفعل، وكل ما يمكننا فعله هو النطق بأنات غير مفهومة، فهو الذي ينشئ فينا هذه الأنات... وهكذا سوف يسيطر على كل الأشياء حتى ما نحصد الخير فقط من كل ما يحدث لنا."[٥]

حتى الموت لا يُعد عائقًا نهائيًا

هذه حقيقة حتى في حالة الموت؛ فبعض القديسين يموتون في السجن (رؤ ٢: ١٠). لكن حتى الموت يصبح خادمًا لأبناء الله. هذا ما قصده الرسول بولس عندما قال: «كل شيء لكم... العالم، أم الحياة، أم الموت... كل شيء لكم. وأما أنتم فللمسيح، والمسيح لله» (١كو ٣: ٢١– ٢٣). فالموت يخدمنا مثلما تفعل ممتلكاتنا، فهو موجود لأجل فائدتنا. بمعنى آخر لا يمكن للموت أن يفصلنا عن محبة الله، بل أن فيه، كما في «ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف... يعظم انتصارنا بالذي أحبنا» (رو ٨: ٣٥– ٣٧). ولذا فحتى إذا متنا فإننا ننتصر. وفي نهاية الأمر يحقق الموت ما هو لصالحنا (انظر الفصل التاسع والعشرين).

إذًا الدرس المستوحى من قصة يوسف، وكل الكتاب المقدس، يقول: عندما تتحطم خططنا على صخور العراقيل والمنحنيات والضيقات والمقاومة فيصيبنا اليأس، فإن الإيمان بالنعمة المستقبلية يتكل على قصد الله الأعلى في أن يُحدث أمورًا رائعة. هذا هو سر الصبر.

طريق الصبر الحقيقي ليس خطاً مستقيمًا

درس عظيم آخر في كيف أن سيادة نعمة الله تقود إلى الصبر يتمثل في قصة إعادة بناء الهيكل في أعقاب السبي البابلي. فالطريقة التي حوّل بها الله مجرى الأحداث كانت عجيبة جدًا، ولابد أن الله كان يبتسم لذلك. كان شعب إسرائيل مسبيًا لعقود طويلة. ولكن جاء الوقت، بحسب خطة الله، لعودتهم مجددًا إلى أرض الموعد. كيف لهذا أن يحدث؟ كان ذلك دون شك السؤال الذي دار في أذهان الكثيرين من اليهود وهم يصارعون ليظلوا صبورين ومنتظرين للتوقيت الإلهي. والإجابة هي سيادة الله على إرادة الأباطرة. يخبرنا عزرا أنه «وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم إرميا، نبَّه الرب روح كورش ملك فارس... (ليبني) له بيتًا في أورشليم» (عز ١: ١ و٢). هذا أمر مدهش للغاية. فجأة يحرِّك الرب قلب كورش لينتبه إلى ذلك الشعب الصغير، الذي يدعى اليهود، فيرسلهم إلى أورشليم ليُعيدوا بناء هيكلهم. مَنْ كان يحلم أن يحدث الأمر بهذه الطريقة؟ ربما الذين يملكون إيمانًا بالنعمة المستقبلية، لكن الأفضل لم يأتِ بعد.

عاد ما يقرب من ٤٢ ألف لاجئ يهودي، وبدأوا في بناء الهيكل في أورشليم. تخيلوا مدى فرحهم بذلك. لكن حذارِ!! فطريق الأمانة نادرًا ما يتخذ خطًا مستقيمًا نحو المجد. فقد قاومهم أعداؤهم في اليهودية، وثبطوا من همتهم: «وكان شعب الأرض يُرخون أيدي شعب يهوذا ويُذعرونهم عن البناء. واستأجروا ضدهم مشيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كورش ملك فارس وحتى ملك داريوس ملك فارس» (عز ٤: ٤ و٥). تخيّل كمية الضجر وعدم الصبر التي ألمت بالشعب. كان الأمر البادي هو أن الله فتح الباب لإعادة بناء الهيكل، والآن يوجد معوِّق يمنع العمل.

لكن الله كانت لديه خطة مختلفة. كم هم مميزون أهل الإيمان بالنعمة المستقبلية إذ يرون ما لا يمكن للعيون الجسدية أن تراه! نعم فشعب الأرض قد أوقف البناء. لكن ألا نثق أن نفس السلطان الذي حرّك كورش يسود أيضًا على المقاومين الذين في الداخل؟ كم هو بطيء تعلُّمنا لدرس سيادة النعمة الإلهية! في عزرا ٥: ١ يرسل الله

نبيين هما حجي وزكريا ليشجعا الشعب على الابتداء في البناء مرة أخرى. بالطبع كان لايزال الأعداء قريبين. وحاولوا مجددًا وقف بناء الهيكل، وكتبوا رسالة إلى داريوس الإمبراطور الجديد. لكن الرد كان قويًا، ونرى الآن لماذا سمح الله بتوقف البناء مؤقتًا.

وبدلاً من الموافقة على ما تضمنته رسائل المقاومين وتوقيف بناء الهيكل، بحث داريوس في الملفات وعثر على المرسوم الأصلي الذي أصدره كورش والذي سمح فيه ببناء الهيكل. وكانت النتيجة مذهلة. فقد أرسل يرد عليهم بفحوى لم تكن لترد على ذهنهم أبدًا. وقال للأعداء في اليهودية: «اتركوا عمل بيت الله هذا... وقد صدر مني أمر بما تعملون مع شيوخ اليهود هؤلاء في بناء بيت الله هذا. فمن مال الملك، من جزية عبر النهر، تُعطَ النفقة عاجلاً لهؤلاء الرجال حتى لا يَبطُلوا» (عز ٦: ٧ و٨). بكلمات أخرى نقول إن الله سمح بالتوقف خلال مدة معينة حتى ما يتم، ليس فقط بناء الهيكل، بل توفير المال لبنائه تحت سلطة داريوس!

إذا استطاع الإيمان إدراك هذا النوع من النعمة المستقبلية، ألا يكون من السهولة الانتصار في معركة عدم الصبر؟

ولئلا يساورنا الشك في أن هذه بالفعل كانت خطة إلهية، يقدِّم عزرا ٦: ٢٢ الحقيقة العظمى بوضوح: «لأن الرب فرَّحهم وحوَّل قلب ملك أشور نحوهم لتقوية أيديهم في عمل بيت الله إله إسرائيل.» ولو أن «وليم كوبر» (١٧٣١– ١٨٠٠م) كان قد كتب ترنيمته العظيمة "الله يتحرك بطرق عجيبة" قبل ذلك الوقت فإنني أظن أن شعب إسرائيل كان سيترنم بها:

"لا تحكموا على الرب بأحاسيسكم الضعيفة،
لكن ثقوا به لأجل نعمته،
فخلف السيطرة المتجهمة
يحمل وجهًا مبتسمًا."

الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية تعني أن «قلب الملك في يد الرب كجداول مياه، حيثما شاء يميله» (أم ٢١: ١). لقد فعل الرب ذلك مع كورش (عز ١: ١)، ومع داريوس (عز ٦: ٢٢)، وفيما بعد مع أرتحشستا: «مبارك الرب إله آبائنا الذي جعل مثل هذا في قلب الملك لأجل تزيين بيت الرب» (عز ٧: ٢٧). إن الله يحكم العالم، ويملك التاريخ. وكل ما يحدث إنما هو لخير شعبه ومجد اسمه: «ومنذ الأزل لم يسمعوا ولم يصغوا، لم ترَ عين إلهًا غيرك يصنع لمن ينتظره» (إش ٦٤: ٤). إن القدرة على الصبر تنبع من خلال الإيمان بسيادة النعمة الإلهية المستقبلية.

الرب حنَّان ورحيم

إننا نشدد هنا على سيادة النعمة. ونحتاج أيضًا أن نؤكد أنها نعمة. إنها نعمة رحيمة ومليئة بالإرادة الصالحة من نحونا. هذا ما يؤكده الرسول يعقوب بشأن خبرة أيوب في معاناته وصراعه مع عدم الصبر. يأمرنا يعقوب بالصبر ويقدِّم لنا كيفية ذلك:

> «فتأنوا أيها الإخوة إلى مجيء الرب. هوذا الفلاح ينتظر ثمر الأرض الثمين متأنيًا عليه حتى ينال المطر المبكر والمتأخر. فتأنوا أنتم وثبتوا قلوبكم لأن مجيء الرب قد اقترب. لا يئن بعضكم على بعض أيها الإخوة لئلا تدانوا. هوذا الديان واقف قدام الباب. خذوا يا إخوتي مثالاً لاحتمال المشقات والأناة الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب. ها نحن نطوب الصابرين. قد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب. لأن الرب كثير الرحمة ورؤوف.» (يع ٥: ٧- ١١)

يريدنا يعقوب أن نرى عاقبة معاناة أيوب. وكلمة «عاقبة» في اليونانية هي "telos" ومعناها غاية وليس فقط نتيجة. لقد كان هدف الله في كل تعاملاته مع أيوب أن يكون رحيمًا به، ويعده لبركة أعظم. هذا ما غاب عن أيوب، والسبب الذي لأجله تاب عن تذمره: «لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد» (أي ٤٢: ٦). إن القدرة على الصبر تنبع من الإيمان بهذا الحق: في كل تعاملاته معنا يكون هدفه أن يكون «كثير الرحمة ورؤوف»؛ فالإيمان بالنعمة المستقبلية هو إيمان بنعمة ذات سيادة، وبسيادة منعمة.

بالإيمان والصبر نرث المواعيد

إن الصبر يدعمه الإيمان بالنعمة المستقبلية. ففي كل ضيقة مفاجئة على طريق الطاعة تبقى كلمة الله الصادقة تقول: «لا أرجع عنهم لأُحسن إليهم... وأفرح بهم لأُحسن إليهم... بكل قلبي وبكل نفسي» (إر ٣٢: ٤٠ و٤١)، ويتبعنا بالخير والرحمة كل أيام حياتنا (مز ٢٣: ٦). لذلك فالتذمر في عدم صبر هو من أشكال عدم الإيمان.

لهذا تحتل وصية الصبر أهمية هائلة. فقد قال يسوع: «بصبركم اقتنوا أنفسكم» (لو ٢١: ١٩)، ويقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين: «متمثلين بالذين بالإيمان والأناة (الصبر) يرثون المواعيد» (عب ٦: ١٢). فإننا نصل إلى ميراثنا من خلال طريق الصبر، ليس لأن الصبر عمل من أعمال الجسد يحصل على الخلاص، لكن لأن الصبر ثمرة للإيمان بالنعمة المستقبلية.

كان «تشارلز سيمون» في كنيسة إنجلترا من عام ١٧٨٢ إلى ١٨٣٦م يخدم بكنيسة «ترينتي» في مقاطعة «كمبريدج». وكان اختياره لكنيسته على يد أحد الأساقفة ضد إرادة الشعب. وقد قاومه الشعب، ليس لأنه كان واعظًا سيئًا، لكن لأنه كان إنجيليًا يؤمن بالكتاب المقدس ويدعو إلى التوبة والقداسة والكرازة للعالم.

ولمدة اثني عشر عامًا رفض شعب الكنيسة السماح له بتقديم عظة مساء الأحد. وخلال تلك الفترة قاطعوا خدمة صباح الأحد، وأغلقوا أماكن جلوسهم حتى لا يستخدمها أحد. وظل يعظ لمجموعة صغيرة لمدة اثني عشر عامًا! في حين أن متوسط مدة خدمة الراعي في أمريكا هي أربع سنوات في الظروف العادية. بدأ «سيمون» باثني عشر عامًا من المقاومة الشديدة؛ واستمرت خدمته أربعة وخمسين عامًا. فكيف استطاع الاحتمال بمثل هذا الصبر؟

> في مثل هذه الأحوال لم أجد علاجًا سوى الإيمان والصبر [لاحظ الربط بين الإيمان والصبر]. وكان النص الكتابي الذي أخضع ذهني وسيطر عليه هو: «وعبد الرب لا يجب أن يخاصم» [لاحظ أن السلاح في معركة الإيمان والصبر هو كلمة الله]. لقد كان من المؤلم قطعًا أن أرى الكنيسة، باستثناء البعض القليل من الأماكن، وقد أصبحت مهجورة؛ لكنني فكرت في أنه لو أن الله أعطى بركة مضاعفة للشعب الذي يحضر الكنيسة سيكون ذلك أفضل بما لا يقاس من أن يتضاعف الحضور وتقل البركة إلى النصف. وقد عزاني ذلك لأوقات كثيرة جدًا إذ بدون هذه الفكرة لكنت غرقت تحت ثقل أحمالي.(٦)

من أين أتى بالثقة في أنه لو اتبع طريق الصبر ستكون هناك بركة لعمله ستعوض الضيق الناشئ من رؤية كل تلك المقاعد الفارغة في الكنيسة؟ لقد استقاها من نصوص تعد بالنعمة المستقبلية– نصوص مثل إشعياء ٣٠: ١٨: «طوبى لجميع منتظريه»؛ فالكلمة غلبت عدم الإيمان والإيمان بالنعمة المستقبلية غلب عدم الصبر.

بعد أربعة وخمسين عامًا، وفي أكتوبر ١٨٣٦م، كان «سيمون» في أواخر أيامه. وكانت الأسابيع تمر ببطء، كما هو الحال مع الكثيرين من المؤمنين الذين يقتربون من الموت. لقد تعلمت من خلال وجودي مع مؤمنين في أيامهم الأخيرة أن المعركة ضد عدم الصبر تصل إلى أشد حالاتها على فراش الموت. في ٢١ أكتوبر سمعه الذين بجانب فراشه يقول الكلمات التالية ببطء وبوقفات طويلة بين العبارات:

الحكمة غير المحدودة أعدت كل شيء بمحبة غير محدودة، والقدرة غير المحدودة تمكنني من أن أتكل على تلك المحبة. فأنا بين يدي إله محب.. ولذا فكل شيء مضمون. فعندما أنظر إليه لا أرى سوى الإخلاص والحق وعدم التغيير؛ فأحظى بأروع سلام.. لا يمكن أن أتمتع بسلام أروع.[٧]

إن السبب وراء أن يموت «سيمون» بهذه الطريقة هو أنه قد درب نفسه لمدة أربع وخمسين سنة على أن يذهب إلى الكلمة المقدسة ليمسك بوعود النعمة المستقبلية ويستخدمها لينتصر على عدم الإيمان وعدم الصبر. لقد تعلم أن يستخدم سيف الروح ليجاهد في معركة الإيمان بالنعمة المستقبلية. فبالإيمان بالنعمة المستقبلية تعلم أن ينتظر مع الله في مكان غير متوقع يتطلب طاعة وأن يسير مع الله بإيقاع الطاعة غير المتوقع. وقد قال مع المرنم: «انتظرتك يارب. انتظرت نفسي، وبكلامه رجوت» (مز ١٣٠: ٥). وفي حياته ومماته، أعلن «سيمون» بقوة ووضوح الوعد القائل: «طيب هو الرب للذين يترجونه» (مرا ٣: ٢٥).

الجزء الخامس

طبيعة الإنسان
في النعمة المستقبلية

«ولا بعدم إيمان ارتاب في وعد الله،
بل تقوى بالإيمان معطيًا مجدًا لله»
(رو ٤: ٢٠)

«إن الله اختاركم من البدء للخلاص
بتقديس الروح وتصديق الحق.»
(٢تس ٢: ١٣)

الإيمان هو الوسيلة التي عينها الله للتبرير والتقديس لأنه،
أكثر من أي وسيلة أخرى،
يتناسب مع نعمة الله ويعظم مجد الله.

الفصل الرابع عشر

ما يحفظ مجد سيادة نعمة الله

النعمة المستقبلية: القوة وراء الطاعة

إن كل طاعة مستقبلية لله سوف تنبع من قوة النعمة المستقبلية.[1] فأيًا كان العمل أو الخدمة التي نقوم بها، فإن علينا أن نقول مع الرسول بولس: «بل أنا تعبت... ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي» (١كو ١٥: ١٠). أو كما يقول في رسالته إلى أهل رومية ١٥: ١٨: «لأني لا أجسر أن أتكلم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتي.» إن أعمالنا التي ترضي الله إنما ستكون أعمالاً صنعها الله بنا، كما تقول عبرانيين ١٣: ٢١: «ليكملكم (الله) في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته، عاملاً فيكم ما يرضي أمامه بيسوع المسيح.» وهذا أيضًا ما يقوله بولس الرسول في فيلبي ٢: ١٣: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة.» فإذا ما وجدنا في أنفسنا أي اجتهاد روحي، فعلينا أن نُرجع الفضل لله (لا إلى أنفسنا). هذا ما فعله الرسول بولس؛ فقد وجد اجتهادًا في قلب تيطس وقال: «ولكن شكرًا لله الذي جعل هذا الاجتهاد عينه لأجلكم في قلب تيطس» (٢كو ٨: ١٦). إن كل طاعة مستقبلية تأتي من خلال قوة النعمة المستقبلية.

هل تصيبنا قوة النعمة بالسلبية؟

إذًا ما الذي علينا فعله؟ هل أبقى سلبيًا لأن كل الطاعة تكون من خلال النعمة المستقبلية؟ ما هو السلوك الذي يصدر مني ليتواصل ويتفق مع هذه النعمة المستقبلية؟ ما الذي من شأنه أن يبرز مجد هذه النعمة المستقبلية بدلاً من أن يتنافس معها؟ إذا كان الله قد أبقى لنفسه الحق في أن يغيّرنا من خلال نعمته المستقبلية، فإنه لا شك

يستحق المجد من أجل كل الصلاح الذي ينشأ من نعمته. كما يقول الرسول بولس فإن الله يعمل كل شيء لنا «لمدح مجد نعمته» (أف ١: ٦، ١٢، ١٤). فمن الهام للغاية أن نكتشف ما هو دورنا في إظهار، وليس مقاومة، هدف الله لتمجيد نعمته في تغييرنا.

كل تجاوب أو سلوك من جانبنا يبرز اكتفاءنا الشخصي أو يخفي مجانية نعمة الله المستقبلية وتحررها في أمر تقديسنا، لا يتوافق مع النعمة بل يبطلها. إذًا ما هو السلوك الذي يصدر من نفوسنا ويمكنه تجنب هذا التناقض؟ الإجابة الكتابية هي أن الإيمان يتفق مع النعمة، ويحولها[٢] إلى طاعة حتى نفتخر ليس بقدراتنا الخاصة بل بنعمة الله. لذلك العنوان الفرعي لهذا الكتاب يقول: القوة المطهرة للحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

ما الذي يعظم النعمة ولا يبطلها؟

يربط العهد الجديد بين الإيمان والنعمة حتى يضمن عدم افتخارنا بما يمكن للنعمة فقط أن تنجزه. واحد من أشهر المواضع التي توضح ذلك قول الرسول بولس: «لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان» (أف ٢: ٨). بالنعمة، من خلال الإيمان. هنا نجد الرابطة التي تحفظ مجانية النعمة وتحررها. فالإيمان هو السلوك الذي ينبع من داخلنا ويجعلنا نتحول من ذواتنا إلى الثقة بقدرة الله الكافية. يركز الإيمان على حرية الله في أن يمنح النعمة لمن لا يستحقها. فهو يرتكن إلى غنى الله.

وهكذا فالإيمان، في طبيعته، يبطل التفاخر ويتوافق مع النعمة. وحيثما ينظر الإيمان، فهو يرى النعمة وراء كل سلوك يستحق الثناء. لذا فهو لا يمكنه الافتخار إلا بالرب. لذلك فالرسول بولس، بعد قوله بأن الخلاص بالنعمة من خلال الإيمان، يضيف قائلاً: «... وذلك ليس منكم، هو عطية الله، ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد» (أف ٢: ٨ و٩). لا يمكن للإيمان أن يفتخر بصلاح الإنسان أو كفاءته أو حكمته، لأنه يركز على نعمة الله المجانية الكافية. أيًا كان الصلاح الذي يراه الإيمان، فإنه ينظر إليه على كونه من ثمار النعمة. فإنه عندما ينظر إلى «الحكمة والبر والقداسة والفداء» التي لنا فإنه يقول: «مَنْ افتخر فليفتخر بالرب» (١كو ١: ٣٠ و٣١).

عندما اختفت الأرض من تحت قدميَّ وأنا صبي صغير في شاطئ «دايتونا»، شعرت بأني أُجذب إلى قلب المحيط في لحظة. لقد كان الأمر مرعبًا لي. حاولت أن أتمالك نفسي لأستطيع الخروج من الماء، لكني لم أجد أرضًا تحتي وكان التيار قويًا جدًا لأسبح فيه. ولم أكن سباحًا جيدًا. ومن شدة خوفي كنت أفكر في أمر واحد

فقط: "هل يمكن لأي شخص أن ينجدني؟" لكني لم أكن أستطيع حتى الصراخ وأنا تحت الماء. وعندما شعرت بيد أبي تلتقط ذراعي مثل كماشة قوية، كان ذلك أروع شعور في العالم. استسلمت تمامًا لقوته واستمتعت بأن أخضع لإرادته، ولم أقاوم. ولم تراودني أدنى فكرة بأن أحاول أن أُبدي أن الموقف لم يكن سيئًا إلى حد كبير ولا أن أحاول إضافة أية قوة لذراع أبي. كل ما فكرت فيه هو: "نعم.. أنا أحتاجك.. أشكرك.. أحب قوتك.. أحب مبادرتك.. أحب قبضتك.. أنت عظيم." في مثل هذه الروح من المحبة الخاضعة، لا يسوغ لأحد أن يتفاخر. وأنا أدعو هذه المحبة الخاضعة: "الإيمان"، وكان أبي تجسيدًا للنعمة المستقبلية التي اشتقت إليها تحت الماء. هذا هو الإيمان الذي يعظم النعمة.

ونحن نتأمل في كيف نعيش حياة مسيحية، ينبغي أن تكون الفكرة الأساسية هي: كيف لي أن أُعظم نعمة الله ولا أبطلها؟ يجيب بولس على هذا السؤال في رسالته إلى غلاطية: «مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي. لست أبطل نعمة الله» (غل ٢: ٢٠ و٢١). لماذا لا تبطل حياته نعمة الله؟ لأنه يحيا بالإيمان بابن الله. الإيمان يوجه الأنظار إلى النعمة ويعظمها بدلاً من أن يبطلها.

عمل المسيح المستقبلي من أجلنا

عندما يقول بولس: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا في» فإنه عمل مستمر للمسيح الحي فيه يومًا بعد يوم ولحظة بعد لحظة. هذه هي النعمة المستقبلية التي يعتمد عليها عندما يقول: «إيمان ابن الله»؛ وإذ يتأمل بولس في اللحظة القادمة أو الشهر القادم أو العام القادم في حياته، فإن ما يراه هو المسيح الحي المستعد والقادر أن يعمل فيه ما يرضي الله وأن يجعل كل الأمور تعمل معًا لخيره؛ لذا يثق بولس فيه. وبهذه الطريقة تعمل النعمة المستقبلية عملها الصالح في حياة بولس وخدمته.

نادرًا ما تشجعنا ثقافتنا على أن نعيش بالإيمان كل ساعة من يومنا. بل على العكس من ذلك، فإن الإعلانات والراديو والتليفزيون والصحف والمجلات توجه لنا نداءً لا يتوقف لنحول أنظارنا عن الرب يسوع كمنبع دائم للقوة والإرشاد. ويُقال لنا دائمًا أن ما يهم هو السيارات والطعام والملبس. وكل هذه الوسائل الإعلامية تخدعنا بأنها سوف توفر لنا ليس فقط التنقل والتغذية والكساء، لكن ما هو أهم.. وهو تلبية أشواق القلب للحصول على الاهتمام والقوة والمتعة والقيمة.

إذا كان لي ولكم أن نعيش بالإيمان في شركة يسوع وعمله من أجلنا يوميًا، فإننا حتاج أن نركز أذهاننا بثبات من الآن- لكي نفكِّر فيه، وننظر إليه، ونثق في وعده القائل: «لا أهملك ولا أتركك... وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر... قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين بري... (سأعمل فيكم) ما يرضي أمامه» (عب ١٣: ٥؛ مت ٢٨: ٢٠؛ إش ٤١: ١٠؛ عب ١٣: ٢١). أشجعك على اكتساب عادة النظر إلى يسوع في كل ساعة لنطلب منه تحقيق وعود كهذه.

"الرب وقف معي"

في آخر رسالة كتبها الرسول بولس الرسول قبل أن يحكم عليه نيرون بقطع رأسه بوقت قصير، شهد عن الكيفية التي عمل بها الرب يسوع من أجله لحظة بلحظة. ويقول في رسالته الثانية إلى تيموثاوس:

> «في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني. لا يُحسب عليهم. ولكن الرب وقف معي وقواني، لكي تتم بي الكرازة، ويسمع جميع الأمم، فأُنقذت من فم الأسد. وسينقذني الرب من كل عمل رديء ويخلِّصني لملكوته السماوي. الذي له المجد إلى دهر الدهور. آمين.» (٢تي ٤: ١٦- ١٨)

هذه شهادة حزينة وجميلة. فالآخرون قد تركوه، لكن الرب لم يفعل. لقد كان الرب معه وقواه وخلصه من فم الأسد (الشيطان؟ ١بط ٥: ٨).[٣] ومع التشجيع الذي اكتسبه من خبرة النعمة الماضية هذه، استمر الرسول بولس يسلك بالإيمان بالنعمة المستقبلية: «وسينقذني الرب من كل عمل رديء ويخلصني لملكوته السماوي»، وهذا لا يعني أن النعمة المستقبلية تضمن الخلاص من الألم والموت. في حقيقة الأمر لا يُعد الموت عائقًا، أمام الملكوت السماوي بل ممرًا يصل إليه. و«العمل الرديء» الذي من شأنه أن يمنع الرسول من بلوغ الملكوت هو الارتداد- أي انكسار سفينة الإيمان، وإثبات أنه لم يكن ابنًا حقيقيًا لله (١يو ٢: ١٩). لذا ففي الأغلب أن ما يقصده الرسول بولس هو أن الرب سوف يحفظ إيمانه ويحميه من الغرق في المرارة وعدم الإيمان بينما تركه الأصدقاء، وفي النهاية تعرض للاستشهاد. هذا هو وعد النعمة المستقبلية- المسيح يحيا فيه ومعه وله.

نفس الفكرة ترد في كورنثوس الأولى ١٥: ١٠ حيث يقول: «بل أنا تعبت... ولكن

لا أنا، بل نعمة الله التي معي»، وفي غلاطية ٢: ٢٠ يقول: «لا أنا، بل المسيح»، وفي رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «لا أنا، بل نعمة الله». ولهذا أقول في بعض الأحيان في هذا الكتاب: "الإيمان بالنعمة"، وفي بعض الأحيان "الإيمان بالمسيح".

إيمان إبراهيم: نموذج للإيمان بالنعمة المستقبلية

اهتم الرسول بولس بشدة بألا نبطل النعمة المستقبلية بأن نضع مكانها مجهوداتنا، أو بأن نحاول أن نحصل عليها بالأسلوب الخاطئ. وهو يواجه هذه المشكلة مجددًا في رسالته إلى أهل رومية ٤: ١٤- ١٦. ويزعم الرسول بولس بأن كل نسل إبراهيم وارثون للموعد الرائع بأن المؤمنين سوف يرثون العالم (ع ١٣). استخدم كلمة "مؤمنين" لأن قصده أن كل مَنْ لهم إيمان إبراهيم (سواء من الأمم أو اليهود) هم في واقع الأمر نسل إبراهيم ووارثون للموعد. هذا يشمل كل المسيحيين الحقيقيين. وتعتمد حجته على طبيعة نعمة الله المستقبلية وعلاقتها بالإيمان.

يقول الرسول: «لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة، فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد» (ع ١٤). بمعنى آخر أن الوعد بنعمة الله كان مقصودًا أن يتم قبولها بالإيمان وليس من خلال الناموس، وهي كلمة ربما تعني الاعتماد على ثقافتنا الدينية أو الأخلاقية بدلاً من نعمة الله.

ثم يقول بولس: «لهذا هو من الإيمان، كي يكون على سبيل النعمة، ليكون الوعد وطيدًا لجميع النسل» (ع ١٦). هنا يوضح العلاقة بين الإيمان والنعمة. فالنعمة تضمن الوعد لليهود والأمم على السواء. والإيمان هو الرابطة التي لا غنى عنها مع النفس، والتي تحفظ تحرر النعمة، حتى ينطبق نفس الشيء على أولئك الذين لم يكن لهم ميزات اليهودية. الإيمان بالوعد الإلهي -الإيمان بالنعمة المستقبلية- هو العمل الذي عينه الله لقبول قوة النعمة والتعبير عن غناها.

كان هناك سبب خاص في ذهن الرسول وراء أن الإيمان يعظم نعمة الله المستقبلية. ببساطة السبب هو أن هذا الإيمان الذي يعظم الله إنما هو ثقة تتطلع للمستقبل في كمال الله وقوته وحكمته فتتبعه في كل وعوده. يوضح بولس هذا الإيمان من خلال تجاوب إبراهيم مع وعد الله بأنه سيكون أبًا لأمم كثيرة (رو ٤: ١٨).. «فهو على خلاف الرجاء آمن على الرجاء»، أي أنه امتلك الإيمان بوعد النعمة الإلهي المستقبلي. «وإذ لم يكن ضعيفًا في الإيمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتًا، إذ كان ابن نحو مئة سنة ولا مماتية مستودع سارة. ولا بعدم إيمان ارتاب في

وعد الله، بل تقوى بالإيمان معطيًا مجدًا لله. وتيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضًا.» (رو ٤: ١٩- ٢١).

كان إيمان إبراهيم إيمانًا بوعد الله في أن يجعل منه أبًا لأمم كثيرة. هذا الإيمان كان سببًا في تمجيد الله؛ لأنه جذب الاهتمام إلى كل قوى الله اللازمة لإتمامه. كان إبراهيم قد شاخ جدًا لأن يكون له ذرية وكانت سارة عاقرًا. ليس ذلك فقط: فكيف لك أن تجعل من ابن أو اثنين «أممًا كثيرة» بحيث يكون إبراهيم، حسبما قال الله، أبًا لها؟ لقد بدا الأمر برمته مستحيلاً. لذلك فقد كان إيمان إبراهيم سببًا في تمجيد الله عندما وثق بالكامل في أنه سوف يحقق المستقبل.

يمكننا هنا أن نرى أيضًا كيف أن إيمان إبراهيم يمثل نموذجًا لنوعية الإيمان التي ينبغي علينا نحن المؤمنين أن نمتلكها لنتبرر ونتقدس، فالإيمان الذي يبرر ويقدِّس هو ما امتلكه إبراهيم؛ فقد قال بولس إننا نصير ورثة الموعد الذي لإبراهيم عندما يكون لنا «إيمان إبراهيم» (رو ٤: ١٦). ثم يصف إيمانه تفصيليًا بأنه إيمان يتطلع نحو المستقبل ويثق بالوعد (ع ١٩- ٢١). ثم يقول بأن هذا الإيمان «حُسب له (لإبراهيم) برًا» (ع٢٢).. بمعنى أن هذا الإيمان الواثق في الوعد إنما هو إيمان مبرر.[٤]

هذا يعني أن الإيمان الذي يبرر -إيمان إبراهيم- يتطلع نحو المستقبل، ويثق في وعد الله. يؤكد بولس هذا الأمر في الأعداد التالية: «ولكن لم يكتب من أجله وحده أنه حسب له، بل من أجلنا نحن أيضًا، الذين سيُحسب لنا، الذين نؤمن بمَنْ أقام يسوع ربنا من الأموات» (رو ٤: ٢٣ و٢٤). بكلمات أخرى نحن أيضًا سوف نبرر -أي نُحسب أبرارًا- بنفس نوعية الإيمان التي كانت لإبراهيم. الاختلاف الآن هو أن إيماننا المتجه للمستقبل لديه إعلان إلهي أكثر اكتمالاً يمكنه أن يثق به.

منذ جمعة الصلب والقيامة أصبحنا نعرف الله الذي أقام يسوع من الأموات. لكن هذا ليس اختلافًا أساسيًا عن إيمان إبراهيم، لأنه عندما أراد بولس أن يصف إيمان إبراهيم بوعد الله في عدد ١٧ قال إنه كان إيمانًا بالله «الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة». بمعنى آخر إن إيمان إبراهيم وإيماننا لهما نفس الأهمية في أنهما يحتويان على الثقة في قدرة الله على أن يصنع المستحيل، مثل أن يجعل امرأة عاقرًا تحبل وأن يقيم الموتى.

لذلك فالإيمان الذي يعظم النعمة، بدلاً من إبطالها، إنما هو إيمان يتطلع نحو المستقبل ويثق في حكمة الله وقوته وأمانته في أن يحقق ما وعد به. وهذا الإيمان بالنعمة المستقبلية هو الذي من خلاله نتبرر. فهو يقف على الإنجازات العظيمة للنعمة الماضية في الصليب والقيامة (والتي رأيناها في الفصول من السابع إلى التاسع)،

لكنه لا يبقى في هذه المساحة الماضية فقط؛ فهو ينظر أمامه إلى كل النعمة المستقبلية الأكيدة التي حصلت عليها وضمنتها تلك الإنجازات الماضية.

ألا تطلب مالاً أبدًا؟

واحدة من أقوى الشهادات على النعمة المستقبلية الكافية هي "مبدأ الإيمان" الذي حكم حياة الكثير من المرسلين، خاصة أولئك الذين خدموا في «رابطة مرسلي ما وراء البحار» (Overseas Missionary Fellowship). ودون توجيه أي لوم لأولئك الذين خدموا بطريقة أخرى، فقد دأب أولئك الذين اقتفوا خطوات «هدسون تيلور» على أن يحركوا قلوب الناس لتعطي بأن كانوا يتحدثون مع الله وليس مع البشر. يشرح الدكتور «چيمس إتش. تيلور»، حفيد مؤسس الرابطة، كيف أن هذا الإيمان بالنعمة المستقبلية والمتأصل في كثير من مشاهد النعمة الماضية، يكرم الله:

> نحن... نبدأ من منطلق الإيمان. فنحن نؤمن أن الله موجود. ونحن قد اقتنعنا بذلك بطرق شتى، لكننا جميعًا اختبرنا نعمة الله التي قادتنا لنعرفه شخصيًا من خلال يسوع المسيح والولادة الجديدة بروحه. ونؤمن أننا ثابتون في إيماننا به من خلال حقيقة قيامة يسوع المسيح التاريخية من الأموات. نحن نؤمن أن الذي قال إنه سوف يموت ويقوم ثانية، وبالفعل أتم ذلك، يمكن الوثوق به في كل أمر آخر. لذا فنحن مهيئون للثقة به، ليس فقط لخلاص أرواحنا الأبدي، لكن أيضًا لتدبير حياتنا فيما يتعلق بخبزنا اليومي ودعمنا المادي.[٥]

وتقوم الرابطة بنشر شهادات عن أمانة الله العجيبة لإعلان مجد كفاية نعمته المستقبلية: "نريد أن نوضح أنه يمكن الوثوق بأن الله ينفذ وعوده من خلال مشاركتنا عن كيف أنه قد سدد الاحتياجات المادية مثل تذاكر الطيران والوجبات والمصاريف العلاجية والدعم المنتظم لمجموعة كبيرة من المؤمنين لمدة تزيد على المائة عام."[٦] إن ما تلتزم به الرابطة هو تمجيد الاعتمادية على الله- من خلال رسالتهم وأسلوبهم. وقد عبَّر «هدسون تيلور» عن ذلك بهذه الكلمات: "هناك إله حي تكلم في الكتاب المقدس وهو يعني ما يقول وسيفعل ما وعد به."[٧] إن حياة الإيمان هي المرآة العظيمة التي تعكس مدى اعتمادنا على الله.

هذه الشهادة عن كفاية نعمة الله المستقبلية غيرت حياة الكثيرين. لقد حضرت بالمصادفة سيدة في بداية الثلاثينات من عمرها مؤتمر صلاة تقيمه الرابطة. في ذلك

الوقت كانت قد انضمت لتوها لعضوية منظمة أصولية تعمل على التخلص من حكومة فاسدة وظالمة. وتجددت السيدة وربطتها علاقة محبة بالرب يسوع، لكنها كانت لاتزال توجه نقدًا عنيفًا لأنانية الكنيسة المفرطة حسب رأيها. وعندما سمعت أن الرابطة لا تسعى وراء المال أصابها العجب الشديد. وشرحت لها «لينيت هينتون»، إحدى العاملات في الرابطة، الأمر بقولها: "إن الرابطة يدعمها الله."

واستمرت المحادثة فيما بينهما حتى المساء إذ أجابت «هينتون» على جميع استفسارات السيدة: "كيف يستقيم الأمر؟ ماذا بشأن المرتبات؟ إلخ..." أخيرًا، انهارت مقاومة السيدة وقالت:

> إذًا الأمر حقيقي! إن هذه هي الحقيقة التي عشت طوال حياتي أتطلع إليها. عندما أصبحت مسيحية، تركت عملي إذ كان عملاً لا يليق بالمسيحي المؤمن أن يعمل به. والآن أنا بلا عمل وكل ما أملكه هو السيارة التي أتيت بها إلى هذا المؤتمر. لقد كنت قلقة وخائفة. لقد خيبت الكنيسة أملي واحتقرت رياء الكثير من المؤمنين المصابين بالمادية والتنعم رغم المعاناة الشديدة للآخرين. لكنكِ أوضحتِ لي أن حياة الإيمان ممكنة، وأن الله يمكن الوثوق به، ولهذا، فأنا أيضًا منذ الآن فصاعدًا أريد أن أتكل عليه وحده لتسديد جميع احتياجاتي.[٨]

الإيمان الذي يبرر يقدِّس أيضًا

الإيمان يتفق تمامًا مع النعمة المستقبلية.. فهو يتعلق بتحرر النعمة وكفايتها، وهو يلفت الانتباه إلى أمانة الله المجيدة. واحد من التطبيقات الهائلة لهذا الاستنتاج هو أن الإيمان الذي يبرر والإيمان الذي يقدِّس ليسا نوعين مختلفين من الإيمان. كلمة "يقدِّس" تعني ببساطة أن يجعل المرء مقدسًا أو يغيِّره إلى شبه المسيح. هذا ما كنت أشرحه في الفقرة الأولى في هذا الفصل. كل شيء بالنعمة.[٩] وهكذا، كما رأينا، ينبغي أن يكون كل شيء أيضًا بالإيمان. وذلك لأن الإيمان هو الواسطة الروحية التي تتصل بالنعمة وتستقبلها وتقوم بتحويلها إلى قوة للطاعة وتحفظها من أن تُبطل بسبب الافتخار البشري.

يؤكد بولس على هذه العلاقة بين الإيمان والتقديس بشكل واضح، ليس فقط في رسالته إلى أهل غلاطية ٢: ٢٠ كما رأينا سابقًا.. «أحيا بالإيمان»، بل أيضًا في رسالته الثانية إلى تسالونيكي ٢: ١٣: «إن الله اختاركم من البدء للخلاص، بتقديس

الروح وتصديق الحق.» لذلك التقديس يكون بالروح والإيمان. الروح هو "روح النعمة" (عب ١٠: ٢٩). فتقديس الله لنا يكون بعمل روحه، غير أن الروح يعمل من خلال الإيمان. وسوف نرى مرة بعد الأخرى في هذا الكتاب، أن هذا الإيمان المقدِّس هو نفس إيمان إبراهيم الذي يتطلع للمستقبل والذي يثق بالوعد.

ببساطة، السبب وراء أن الإيمان الذي يبرر هو أيضًا الإيمان الذي يقدِّس يعود إلى أن كلاً من التبرير والتقديس إنما هما من أعمال النعمة. إنهما ليسا نفس العمل،[١٠] لكن كليهما عملان من أعمال النعمة. التقديس والتبرير هما «نعمة فوق نعمة». لقد رأينا في هذا الفصل أن الإيمان هو نتاج طبيعي لعمل النعمة المجانية. إذا كان كل من التبرير والتقديس عملين من أعمال النعمة من الطبيعي أن يكونا من خلال الإيمان.

ليس هذا فقط، لكننا أيضًا نعرف من الكلمة المقدسة أن السبب وراء أن الله يبرر ويقدس بالنعمة هو أن يتجلى كماله المجيد والدائم أمام عيون العالم.[١١] تقول رومية ١٥: ٩ إن المسيح دخل التاريخ في مسيرة نعمته العظيمة لكي يمجد الأمم الله من أجل رحمته. وتقول أفسس ١: ٦ إن كل خطة الفداء العظيمة خططها الله من أجل «مدح مجد نعمته». لقد قرر الله أننا سنقبل كل شيء بالنعمة حتى ما يؤول كل المجد لشخصه. ويعبِّر «تشارلز سبرچن» عن هذا الأمر بقوله: "أمر واحد فوق كل نقاش: أننا سوف نهدي لربنا مجدًا أكثر إذا ما حصلنا منه على نعمة أكثر. إذا كان لي إيمان أكثر حتى أثق في كلمة الله، فإنني بذلك أكرم ربي وملكي جدًا."[١٢]

هذا يؤكد أن نعمة التبرير ونعمة التقديس كليهما بالإيمان– لأن الإيمان هو التجاوب الوحيد مع النعمة الذي ينسب كل المجد لله. فالإيمان لا يلوث النعمة بالاكتفاء الذاتي البشري، وهكذا يمنع الإيمان الافتخار بالذات. يسأل بولس: «فأين الافتخار؟» ويجيب قائلاً: «قد انتفى. بأي ناموس؟ أبناموس الأعمال؟ كلا بل بناموس الإيمان» (رو ٣: ٢٧). الإيمان يستبعد الافتخار ويعظم من شأن مجد النعمة. لذا فالإيمان لا يتناسب فقط مع مجانية النعمة، بل أيضًا مع قصد النعمة الذي ينسب كل المجد لله: «تقوّى (إبراهيم) بالإيمان معطيًا مجدًا لله» (رو ٤: ٢٠). معنى هذا أن ثقة إبراهيم في قوة الله وحكمته وصلاحه أظهرت مجد الله. الإيمان هو الأداة التي اختار الله أن يستخدمها في التبرير والتقديس لأنه أكثر من أي شيء آخر، يتناسب مع نعمة الله ويعظم مجده.

التأثير الذي يجب أن يكون لهذا الحق على قلوبنا يعبِّر عنه المرنم بقوله: «الرب يعطي رحمة ومجدًا ... يارب الجنود، طوبى للإنسان المتكل عليك» (مز ٨٤: ١١ و١٢).

يطوب المرنم هنا الإنسان الذي يتكل على إله كل نعمة. نحتاج أن نمتلئ بحقيقة أن النعمة لا ننالها فقط بالإيمان، لكنها أيضًا تتعظم بالإيمان. هذا الأمر يضاعف من بركتنا كشعب يثق في الله. فمن جانب، نحن نتوق إلى بركات نعمة الله المستقبلية، وهي تأتينا من خلال الإيمان. لكننا على الجانب الآخر نتوق إلى أن تتمجد نعمة الله في حياتنا، وهذا الأمر يتحقق أيضًا بالإيمان. فالإيمان يستقبل صلاح النعمة المستقبلية، والإيمان يعكس مجد النعمة المستقبلية.. إنها روعة مزدوجة. هذان الأمران لا يتناقضان: أن نحصل على الفرح وأن يتمجد الله. ما أحوجنا أن يجعل هذا الأمر قلوبنا تتحرق شوقًا للثقة في الله في كل لحظة لتسديد كل احتياجاتنا. إن كل لحظة إيمان إنما هي إشادة واحتفاء بنعمته.

الناس لا يصيرون أتقياء
عندما يعتقدون أنهم أتقياء!
«سولومون ستودارد»

في كل أعمال الإيمان المخلِّص يمكِّننا الروح القدس،
ليس فقط من أن ندرك ونتيقن من الحق،
لكن أيضًا من أن نفهم ونحصل على الجمال الروحي.
إن الحصول على هذا الجمال الروحي
إنما هو الجوهر الأساسي
للإيمان المخلِّص.
هذا ما أقصده بالاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح.
فالجمال الروحي هو الجمال الإلهي الذي يتخلل جميع أعماله وكلماته.
والحصول على هذا الجمال الروحي،
أو الابتهاج أو الاكتفاء به يمثل جوهر الإيمان
المخلِّص والمقدِّس.

الفصل الخامس عشر

تذوق الجمال الروحي

هل يوجد "مؤمنون" هالكون؟

أحد أسباب احتواء هذا الكتاب على كمية كبيرة من الفصول هو أنني كلما كنت أفكر حول الإيمان بالنعمة المستقبلية، ازدادت الأسئلة التي تحتاج لإجابات. على سبيل المثال: هل يمكن للمرء الإيمان بوعود الله بشأن ضمان القديسين للحياة الأبدية، ورغم ذلك يهلك؟ إذا كان الإيمان بالنعمة المستقبلية يعني تصديق وعود الله، فكيف يمكن الإيمان بهذه الوعود ورغم ذلك لا يخلص المؤمن؟

هذه الإمكانية متضمنة في إنجيل متى: «ليس كل من يقول لي: يارب، يارب يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يارب، يارب! أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذٍ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط! اذهبوا عني يا فاعلي الإثم.» (مت ٧: ٢١- ٢٣).. آمن هؤلاء بأنهم في أمان وإلا لما أصابتهم الدهشة من جراء رفض يسوع. لقد عرفوا التعليم المسيحي، وعندما يقرأون وعدًا مثل: «لا أهملك ولا أتركك» (عب ١٣: ٥) فإنهم كانوا يؤمنون به، أو هكذا يبدون. فهم على الأقل كانوا يعتقدون بأن الوعود حقيقية بالنسبة لهم وأنها تمنحهم الضمان. ولذا أصيبوا بالدهشة عندما سمعوا أن الرب لم يعرفهم وأنهم سوف يُطردون من محضره.

في الأيام السالفة كان الأمر في غاية الأهمية

لم يكن المناخ الديني الخفيف والبسيط في الأجيال السالفة يحتمل الجدية والحساسية اللازمين للتعامل مع مثل هذه التحذيرات. لكن في بعض العصور ومع بعض المعلمين تم التعامل معها بعمق. لم يصارع الكثير من رعاة الكنائس واللاهوتيين بعمق مع الحقيقة المخيفة بشأن الرياء الكاذب بقدر ما فعل «چوناثان إدواردز» خلال أيام النهضة الكبرى الأولى في نيو إنجلاند. ففي كتابه «مقالة بشأن التأثيرات الدينية» (١٧٤٦) نراه يستقصي متاهات العواطف الإنسانية. ولم يكن وحده مَنْ فعل ذلك. فكل من تسلَّم التراث البيوريتاني اهتموا بعمق أن يكون الاختبار الديني روحيًا وغنيًا، لا أن يكون طبيعيًا وخادعًا. وقد مهد رجال مثل «توماس شيبارد» (١٦٠٥–١٦٤٩م) و«چون فلاڤيل» (١٦٣٠– ١٦٩١م) الطريق إلى «إدواردز» في تفكيره بشأن خبث الخطية وخداع الذات.

يقتبس «إدواردز» إشارة «شيبارد» إلى "السلام المتغطرس" لدى بعض المؤمنين.[١] ويقتبس ملاحظة «فلاڤيل» عن "كيف يصل خداع هذا اليقين إلى حد التجرؤ إلى الدخول إلى كرسي القضاء الإلهي والدفاع عنه."[٢] كما يقتبس من جده «سولومون ستودارد» قوله: "الناس لا يصيرون أتقياء عندما يعتقدون أنهم أتقياء."[٣] ويعبِّر «إدواردز» عن أفكاره بشأن الأمر من خلال الكلمات التالية: "ليس هناك سبب كافٍ للجزم بأن البشر قديسون وأن عواطفهم سامية لأن عواطفهم هذه يشوبها ثقة مفرطة في صلاح أحوالهم."[٤] بمعنى آخر كان «إدواردز» مهتمًا بعمق، خاصة في أوج مراحل النهضة، أن تكون الطبيعة الكتابية للإيمان المخلِّص واضحة حتى لا ينخدع الناس باختباراتهم الخاصة.

في هذا الأمر كان «إدواردز» يسير على خطوات الرسول بولس الذي انشغل، على سبيل المثال، بأن البعض في كنيسة كورنثوس انتفخوا بسبب روحانيتهم: «إنكم قد شبعتم! قد استغنيتم! ملكتم بدوننا! وليتكم ملكتم لنملك نحن أيضًا معكم.» (١كو ٤: ٨).. لقد اعتقدوا بأنهم متقدمون في حياتهم الروحية أكثر مما كانوا في واقع الأمر. بل ربما لم يكن البعض منهم مؤمنين أصلاً. ولمثل هؤلاء جاءت نصيحته: «جَرِّبوا أنفسكم، هل أنتم في الإيمان؟ امتحنوا أنفسكم. أم لستم تعرفون أنفسكم، أن يسوع المسيح هو فيكم، إن لم تكونوا مرفوضين؟» (٢كو ١٣: ٥).

ما مشكلة الإيمان الذي يصنع المعجزات؟

إذًا، إذا كان من الممكن أن نؤمن بوعود الله، ومع ذلك نهلك، فما الذي يلزم ليكون هذا الإيمان حقيقيًا؟ في متى ٧: ٢٣ دعا يسوع المخدوعين «فاعلي الإثم». وهكذا فإن مقاومتهم لإرادة الله (ع ٢١) واستسلامهم لفعل الإثم (ع ٢٣) فضحا حالة قلوبهم الحقيقية وغياب الإيمان الأصيل منها. لا يجب ببساطة أن نقول: "ما كانوا يحتاجونه هو الأعمال بجانب إيمانهم." لا، فإيمانهم كان بلا تأثير. نعلم هذا لأن الرب يسوع قال قبل ذلك بثلاث آيات: «لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارًا ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارًا جيدة.» (مت ٧: ١٨).. بمعنى أن ثمر الطاعة لا يدخل إلى شجرة فيجعلها جيدة، بل إن صحة الشجرة الأصلية هي التي تنتج ثمر الطاعة.

لذا فالسؤال هو: ما الخطأ بشأن إيمان هؤلاء الناس شديدي التدين؟ ما السبب في أن إيمانهم (الذي كان يمكنه أن يتنبأ ويُخرج شياطين ويصنع معجزات!) لم يثمر الثمر الصالح الذي يسميه يسوع: «إرادة أبي الذي في السموات» (ع ٢١)؟ ما الذي يمكن أن يجعل من الإيمان الذي اعتقدوا أنهم امتلكوه، إيمانًا مقدسًا، وبالتالي إيمانًا مخلِّصًا؟ ما هو جوهر الإيمان في النعمة المستقبلية؟

الإصغاء إلى حكمة "تشارلز هودج"

واحدة من طرق الوصول إلى الإجابة هي التأمل فيما كتبه واحد من عظماء المعلِّمين المسيحيين منذ ما يقرب من قرن ونصف. وُلد «تشارلز هودج» في عام ١٧٩٧م، وأصبح لاهوتيًا وأستاذًا مرموقًا في كلية لاهوت «برينستون» لمدة خمسين عامًا. ويطلق عليه «مارك نوك»: "أعظم ممثلي الفكر الكالفيني المحافظ في آخر مائتي عام من عمر أمتنا."[٥] لكنه كان أكثر من مجرد لاهوتي أكاديمي؛ فقد كان شخصًا عميق الروحانية. كتب عنه صديق عمره «هنري بوردمان»: "لم يكن المسيح أساس رجائه فقط، لكنه كان السيد المتوج على فكره، وروح لاهوته، والنبع الدائم لفرحه، وموضوع حياته الدائم وغايتها المجيدة."[٦]

لذا، فليس من المستغرب أنه في عام ١٨٤١م كتب «هودج» كتابًا عن الحياة المسيحية للمؤمنين العاديين. وكان عنوان الكتاب «طريق الحياة»، ويحتوي على فصل عن الإيمان أعانني على استيضاح جوهر الإيمان في النعمة المستقبلية. وهو يوضح في هذا الفصل أن الكتاب المقدس يستخدم كلمة "إيمان" لكل حالات الذهن المختلفة

بما فيها ركود الذهن وتوقفه: «لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت، هكذا الإيمان أيضًا بدون أعمال ميت» (يع ٢: ٢٦). كما أن الإيمان يمكن أن يشير إلى الإيمان الذي يمتلكه الشياطين: «أنت تؤمن أن الله واحد. حسنًا تفعل. والشياطين يؤمنون ويقشعرون» (يع ٢: ١٩).

أساس الإيمان يحدد اختبار الإيمان

يشير «هودچ» إلى أن أعمال الإيمان قد تختلف من شخص لآخر إذ يختلف أساس الإيمان من حالة إلى أخرى. على سبيل المثال، الإيمان بشيء لأنك سمعت شهادة موثوق فيها عنه (كما في يوحنا ٤: ٤٢)، ليس بالضرورة نفس الخبرة الذهنية والروحية التي يمثلها الإيمان بشيء لأنك تذوقت وأدركت جماله الروحي.

عندما تؤمن فقط على أساس شهادة، فإنك قد تتمسك بالإيمان دون أن تبتهج به أو بدون أن ترى جماله الروحي. لكن عندما تؤمن لأنك امتلكت تذوقًا أو إدراكًا للجمال الروحي، فإن الإيمان يتقوى بهذا التذوق لجماله الروحي. يقول «هودچ»: "قد نؤمن، على أساس شهادة أولئك الذين نثق في استقامتهم وحكمهم على الأمور، أن رجلاً لا نعرف شيئًا عنه يمتلك سمات أخلاقية راقية. لكن إذا رأينا بأنفسنا تجليات هذه السمات، فإننا نؤمن لأسباب أخرى، وبطريقة أخرى."[٧]

هذا ما يساعدنا به «هودچ» للإجابة على سؤالنا: ما الذي يحوِّل الإيمان ليكون إيمانًا مخلِّصًا؟ فهو يقول إننا عندما نرى بأنفسنا السمات الروحية، فإننا نؤمن "بطريقة أخرى". هذه "الطريقة الأخرى" هي ما تجعل الإيمان إيمانًا مخلِّصًا. لا تُسئ فهم هذا الأمر؛ فليس هناك من خطأ في الإيمان بالمسيح أو بوعوده على أساس شهادة الآخرين. ففي واقع الأمر لقد أتينا جميعًا إلى الإيمان بهذه الطريقة، إذ اعتمدنا على شهادة الرسل في الكتاب المقدس. لكن الاقتناع بفاعلية المسيح ووعوده ليس في حد ذاته إيمانًا مخلِّصًا. ولهذا سوف يُصدم بعض المسيحيين في اليوم الأخير عندما يسمعونه قائلاً: «إني لم أعرفكم قط»، رغم أنهم يقولون له «يارب يارب»؛ لأن الإيمان بالمسيح وبصدق وعوده على أساس الشهادة إنما هو جزء أساسي في الإيمان، لكنه ليس كافيًا ليجعل الإيمان إيمانًا مخلِّصًا.

ما يجعل من الإيمان إيمانًا مخلِّصًا هو "الطريقة الأخرى" للتصديق التي تأتي من أسلوب مختلف (ليس بديلاً أو مناقضًا) لفهم وتذوق الحقيقة من وراء الشهادة التي نصدقها. يصف «هودچ» هذه الطريقة بأنها "إدراك روحي للحق". ويقول: "إنه إيمان

يرتكز على إعلان الروح القدس لتميُّز الحق وجماله وملاءمته... وهو ينبع من إدراك روحي للحق، أو من شهادة الروح مع الحق وبالحق في قلوبنا."[٨]

لتوضيح هذا النوع من الإدراك الروحي يذكر «هودچ» لوقا ١٠: ٢١: «وفي تلك الساعة تهلل يسوع بالروح وقال: أحمدك أيها الآب، رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك.» بكلمات أخرى كان البعض يرى المظاهر الخارجية للحق بشأن يسوع وخدمته وملكوت الله؛ لكن الله أعلنها للأطفال. وهذا الإعلان فعَّل إمكانية ذلك الإدراك والتذوق الروحيين اللذين يحركان القلب لقبول واختبار الحقيقة وليس فقط الاعتقاد بصحتها.

كذلك ذكر «هودچ» متى ١٦: ١٦ و١٧ حين سأل يسوع تلاميذه عمَنْ يكون «فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الله الحي. فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحمًا ودمًا لم يُعلن لك، لكن أبي الذي في السماوات.» لقد كانت هناك مظاهر تؤكد أن يسوع هو المسيّا، ورآها بطرس، واقتنع بها، لكن يسوع أخبره أن الأمر الحاسم في إيمانه كان أن الله، وليس دمًا أو لحمًا، قد أعلن المسيح له. بكلمات أخرى، أن عملاً روحيًا قد جرى ليمكِّن بطرس من الذهاب إلى ما وراء ما يمكن للذهن الإنساني أن يدركه ويتذوقه عن الحقيقة الروحية عن قيمة يسوع والإيمان بها.

نص آخر أورده «هودچ» ليوضح هذه "الطريقة الأخرى" للوصول إلى الإيمان الحقيقي هو ٢كورنثوس ٤: ٦: «الله الذي قال: أن يشرق نور من ظلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا، لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح.» عندما يتم المناداة بالإنجيل، قد يقبل البعض شهادة الواعظ لأسباب عديدة.. ربما لأجل قدرته على الإقناع، أو ربما لخطابه المفوَّه، أو لشخصيته القيادية. هناك العديد من الأسباب، البعض منها منطقي والبعض الآخر ليس كذلك، لتأكيد الشهادة عن المسيح. هذا التأكيد يمثل جزءًا هامًا للإتيان إلى الإيمان بالمسيح (رو ١٠: ١٧).

لكن بولس ينادي بأهمية العمل الإلهي الخاص أيضًا. يجب أن يعمل الله فينا شيئًا مشابهًا لما عمله في أول أيام الخليقة عندما قال: «ليكن نور.» لابد أن يُشرق الله في قلوبنا ليهبنا إدراكًا روحيًا لمجد المسيح. بمعنى أنه يجب أن يكون الإيمان "تذوقًا" روحيًا لمجده العالي المتسامي عن كل قيمة سواه. عندما يحدث هذا فإننا لا نؤكد فحسب على كون المسيح القيمة الحقيقية من شهادة الآخر. لكننا أيضًا نقبله روحيًا كالكنز الوحيد لأروحنا. هذا هو جوهر الإيمان المخلِّص.[٩]

الإدراك والقبول

لذلك هناك أمران ضروريان حتى يُستعلن الإيمان المخلِّص. الأول هو استخدام بصيرتنا وذهننا لنسمع ونرى ونفهم ونقيِّم الشهادة عن الحق الذي في المسيح. والآخر هو أننا يجب أن نستوعب ونقبل جمال المسيح الروحي وقيمته من خلال استنارة الروح القدس. بدون هذا التذوق الروحي المؤثر لسمو المسيح الآسر، فإنه لن يمثل اقتناع الشخص بالشهادة أن يكون أكثر من يقين الشيطان غير المجدي بأن يسوع هو الطريق والحق والحياة. الشيطان يصدِّق هذا الأمر، لكنه لا يقبله كأمر جميل وثمين وصالح تمامًا لتحقيق الأهداف الصالحة والمقدسة. فهو من جهة يقتنع، لكنه ليس اقتناعًا "قلبيًا" كما يصفه البيوريتانيون. فهو لا يتذوق المسيح كشخص آسر جذاب. إن إيمانه ميت لأنه ليس مفعمًا بأمر هام هو: الإدراك الروحي للجمال الروحي.

تصديق الوعود

ماذا يعني هذا بخصوص تأكيدي المتكرر في هذا الكتاب عن أن الإيمان بوعود الله هو الأمر اللازم في الإيمان المخلِّص والمغيِّر للحياة؟ إن فكرتي هي أن الإيمان المبرر والإيمان المقدِّس إنما هما واحد، وأن قلب هذا الإيمان إنما هو ثقة مستقبلية بالله تؤمن بالوعود. ماذا تعني إذًا رؤية «هودچ» لفكرتي هذه؟

إنها تعني أنني يجب أن أتحدث أكثر عن فكرة تصديق الوعود. ينبغي أن أقول الآن إنها تحتوي على إدراك روحي للجمال الإلهي في داخل الوعود وما وراءها. يجب عليّ أن ألفت الانتباه إلى عنصر الإيمان الذي يقبل أو يدرك أو يتذوق مجد الله الذي سوف نستمتع به كجوهر لهذه الوعود. بكلمات أخرى أقول إن الإيمان المخلِّص بوعود الله ينبغي أن يحتوي على فرح روحي بإله الوعود. لا أريد أن أكرر ما قلته كثيرًا. إني أقول إن الإيمان المخلِّص يجب أن يحتوي على فرح.. مع أن الفرح بالمجد الإلهي ليس هو كل الإيمان، لكنني أظن أن الإيمان بدونه يُعد ميتًا.

أكثر أحاديث "داڤيد برينارد" قبولاً

«داڤيد برينارد»، المرسل الشاب إلى الهنود، والذي نُشرت يومياته على يد «چوناثان إدواردز» في عام ١٧٤٩م، كان يرى هذه الأمور أوضح مما يراها أغلبنا اليوم. فقبل ثلاثة شهور من موته في سن الثلاثين في أكتوبر عام ١٧٤٧م، كان «برينارد» في

بوسطن يناقش طبيعة الإيمان المخلِّص. وكان قد شهد نهضة رائعة بين الهنود في «كروسويكسنج» بولاية «نيوجرسي»؛ فعرف هذه الأمور ليس فقط من خلال الدراسة، بل أيضًا بواسطة الاختبار. من الواضح أن مناظرة جرت بينه وبين شخص غير معروف في «بوسطن» كان يقول بأن "جوهر الإيمان المخلص يكمن في الإيمان بأن المسيح مات من أجلي بشكل شخصي وأن هذا هو عمل الإيمان المبدئي في علاقة المؤمن الحقيقية مع المسيح."(١٠)

وعلى منوال «إدواردز»، لم يتفق «برينارد» مع ذلك. وقد شرح «إدواردز» ذلك في ملاحظاته المنشورة في يوميات «برينارد»: "إن جوهر الإيمان المخلِّص تم تجاهله بالكامل في هذا التعريف للإيمان المخلِّص.. فالإيمان الذي قام بتعريفه لا يحتوي على أي أمر إلهي، لا شيء فوق الطبيعة، وبالطبع لا شيء فوق قوة الشياطين."(١١) بكلمات أخرى، لدى الشياطين قدرة كاملة على الرغبة في الهروب من الجحيم والإيمان بأن شخصًا ما قد مات ليجد لهم مخرجًا. غير أنهم غير قادرين على الإيمان بذلك مبتهجين بقداسة الله ورحمته اللتين حققتا هذا الفداء. هذا ما قصده «إدواردز» بقوله إن الإيمان المخلِّص ينبغي أن يحتوي على الله في ثناياه.

بعد عام من ذلك، في ٧ يوليو ١٧٤٦م أوضح «برينارد» كيف عاش في جوهر الإيمان المخلِّص، رغم كل معاناته من الاكتئاب. فقد كتب قائلاً: "في صباح اليوم انتعش كياني وتقوّى. إني أرى أنه ليس هناك تعزية في أي فرح بدون الفرح بالله والانخراط في خدمته. وفي المساء خُضت أروع محادثة في حياتي كلها حول حقيقة كون الله «الكل في الكل» (١كو ١٥: ٢٨)، وحقيقة أن كل أفراحنا ينبغي أن يكون مصدرها الله فقط.. فمن الجيد أن نبدأ وننتهي بالله."(١٢)

النجاة من الجحيم والكفاية في شخص الله

ذلك الرجل من بوسطن امتلك نصف الإجابة.. لقد عرف أن الإيمان الحقيقي ينبغي أن يكون راحة للروح. يجب أن يتوفر شعور بالاطمئنان والأمان. لكن، حسبما نستطيع الرؤية، فإن طبيعة هذه "الراحة" لم يكن مركزها الله. علينا أن نتبين الطبيعة الروحية لهذه "الراحة" لكي نميزها عن الراحة المزيفة التي نقرأ عنها في إنجيل متى ٧: ٢٢ حيث كان للمرائين نوع من "الراحة" على أساس الضمان الإلهي. ما يجب أن نقوله بشأن هذه الطمأنينة هو أنه لكي تكون راحة خلاصية ينبغي أن تكون راحة، ليس فقط بسبب النجاة من الجحيم، بل أيضًا بسبب التأمل في تجليات الجمال الإلهي (مز ١٦: ١١).

يغيب هذا الأمر عن قلوب المرائين كما نقرأ في متى ٧: ٢٢. لو أن هذا الأمر لم يغب عنهم، لكانوا ابتهجوا وهم على الأرض بالصفات الإلهية التي من المفترض أنهم كانوا يعرفونها، ويجدون راحتهم فيها. لكن على العكس من ذلك، لقد كانوا فاعلي إثم. إن ما يحررنا من نوازع الخطية ليس فقط ضمان الوعود، لكن أيضًا حلاوة الجمال الإلهي الموجود في هذه الوعود. إنها الطبيعة الروحية للشيء الموعود به. عندما ندرك الجمال أو الحلاوة الروحية للأمر الموعود به ونبتهج به، فإننا لا نتحرر فقط من تهديد الطمع والخوف الذي يحرك شرورًا كثيرة، لكننا أيضًا نتشكل في قيمنا بما نفرح به في الوعد (انظر ١بط ٣: ٣). إذا ما فرحنا بجمال المسيح في الإنجيل، فإننا سوف نفرح بالسلوك الذي يعكس ذلك الجمال، حتى لو كان سلوكًا مؤلمًا ومضحيًا.

كيف تصدِّق التهديد؟

ماذا تعني هذه الرؤية للإيمان المخلِّص بالنسبة للإيمان بالوعود السلبية، أي بالتهديدات؟ هل نستمتع بالجمال الروحي لتهديدات كتابية مثل: «أسبق فأقول لكم... إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله» (غل ٥: ٢١؛ راجع كذلك ١كورنثوس ٦: ١٠)؟ بشكل ما نحن نستمتع بجمالها.. يعبر «هودج» عن هذا الأمر بقوله: "الإيمان بتهديداته المبنية على أساس إدراك عدالتها، وتناغمها مع كمالاته، وصحراء الخطية القاحلة، ينبغي أن ينشئ خوفًا ورعدة."(١٣)

ما يقوله «هودج» هو أنه لكيما يكون الإيمان بالتهديدات ذا مغزى روحي، ينبغي أن يرتكز على إدراك الجمال الروحي لهذه التهديدات من تجليات هذا الجمال: التناغم والعدل والرفض الأخلاقي للخطية. ليس كافيًا أن تدرك أن أمورًا سيئة سوف تحدث لك. لقد أخاف ذلك الكثيرين، ودفعهم إلى اتخاذ قرار بقبول المسيح اتضح فيما بعد أنه ليس بالإيمان المخلِّص. على العكس من ذلك ينبغي علينا أن ندرك ونقبل من عمق قلوبنا الملاءمة الروحية (أي الجمال القاتم) للتهديد الإلهي.

ما يعنيه كل هذا هو أن الإيمان يستقي عنصرًا هامًا من خلال الطريقة التي يدرك بها الحقيقة التي يؤمن بها. فإذا كان الإيمان يدرك الجمال الروحي للتهديدات الإلهية، فإن عنصرًا أساسيًا للإيمان يكون شعور النفور من قباحة الخطية والابتعاد عن خطر فعلها، والالتصاق بالله وقداسته. وإذا كان الإيمان يدرك الجمال الروحي للوعود الإلهية فإن عنصرًا أساسيًا من عناصر الإيمان يكون الابتهاج بصلاح الله والانجذاب له والثقة فيه. يشرح «هودج» الأمر كالتالي: "إن الإيمان بوعوده، والذي

يرتكز على إدراك أمانته وقوته وتناغمهما مع كل وعوده المُعلنة وملاءمتهما لطبيعتنا واحتياجاتنا، ينبغي أن يقود إلى الثقة والفرح والرجاء."[١٤]

هناك فرح في الإيمان ومن خلاله

لكني أريد أن أضيف المزيد على ما قاله «هودج». لا أود القول فقط إن ما ينتجه الإيمان بالوعود هو "الثقة والفرح والرجاء" فحسب، بل إن توافر الثقة والفرح والرجاء يمثل عنصرًا أساسيًا في الإيمان. ليس من الخطأ القول بأن الإيمان ينتج هذه الأمور. لكن هذا لا يتناقض مع الحقيقة الأخرى التي تقول إن الثقة والفرح والرجاء يمثلون نسيج الإيمان. ونوع من الفرح والرجاء يمكن أن يقود إلى أنواع أخرى؛ ويمكن للفرح أن يتبعه فرح. لكني أود الاحتفاظ بما توصلنا إليه وهو أن جوهر الإيمان المخلِّص يكمن في الإدراك الروحي للجمال الروحي، ألا وهو الابتهاج. نعم فالإيمان يقود إلى أفراح. لكن إذا لم نتذوق جمال المسيح في وعوده كأمر مفرح ومشبع، فإننا لا نكون مؤمنين بطريقة مخلِّصة ومغيِّرة.

أليس ذلك واحدًا من الأسباب التي تجعل من الكثير من الاعترافات الإيمانية فاشلة؟ في بعض الأحيان ندعو الآخرين لقبول المسيح ونضع الناس في أزمة بدون توقع؟ إن التغيير الوحيد الذي يدوم يرتكز على "النظر إلى مجد الرب كما في مرآة" (٢كو ٣: ١٨). وإذا لم نرَ الله إلهًا مجيدًا، فإننا لن «نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد»، وعندما يأتي الاضطهاد سوف نسقط. إن ما يدعمنا هو تقديرنا لقيمة المسيح الفائقة (في ٣: ١٨).

الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح

ما هو إذًا العنصر الأساسي المشترك في كل إيمان مخلِّص؟ ما الذي يجعل من تصديقنا للوعود عملاً مخلِّصًا، بدلاً من أن يكون إيمانًا زائفًا مثل اختبار المرائين في متى ٧: ٢٢؟ كنت أجيب لعدة سنوات كالتالي: جوهر الإيمان هو "أن يكتفي المرء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح."[١٥] أعتقد أن هذا هو أقرب تعبير عن ذلك لأنه يحتوي على فكرة الابتهاج أو الاعتزاز بالجمال الروحي أو إدراكه وقبوله.[١٦]

طريقة أخرى للتعبير عن ذلك.. في كل أعمال الإيمان المخلِّص يمكِّننا الروح القدس ليس فقط من أن ندرك ونتيقن من الحق، لكن أيضًا من أن ندرك ونقبل الجمال

الروحي. إن "قبول الجمال الروحي" هو الجوهر الأساسي للإيمان المخلِّص. هذا ما أقصده بأن نكون "مكتفين بكل ما يمثله الله لنا في المسيح"؛ فالجمال الروحي هو جمال الله الذي يتخلل كل أعماله وكلماته. قبول هذا الأمر، أو الابتهاج به، أو الاكتفاء به، يمثل جوهر الإيمان المخلِّص.

أو الأفضل من هذا: الاكتفاء بكل ما سيكونه الله لنا

لا شيء مما قلته هنا يقلل من دور هذا الكتاب في تقديم الوجه المستقبلي للإيمان. وأقف هنا كتفًا بكتف مع «دانيال فولر» في أفكار كتابه: «وحدة الكتاب المقدس» بأن:

> الإيمان الذي ينظر إلى الوراء.. إلى موت المسيح وقيامته فقط ليس كافيًا. فالغفران للإنسان المسيحي يعتمد أيضًا، مثل إبراهيم، على إيمان مستقبلي بوعود الله. لذلك لا يمكننا اعتبار الإيمان المبرِّر كافيًا إذا كان فقط يقدِّر موت والمسيح وقيامته في الماضي، لكنه لا يقدِّر وعود الله المستقبلية، وبالتالي السخرية من شخصه ونزاهته.[١٧]

أمام كل ذلك أقول إن الجمال الروحي الذي نحتاج لقبوله هو جمال الله الذي سيكون لنا في المستقبل، والذي تضمنه لنا نعمة الماضي المجيدة. نحتاج لأن نتذوق جمال الله الروحي في جميع وعوده. إن ثقتنا ينبغي أن تكون فيما سيكونه الله نفسه لنا في اللحظة القادمة، وفي الشهر القادم، وفي سني الأبدية التي لا تنتهي. إنه هو فقط الذي سيكفي أرواحنا ويشبعها في المستقبل. وسوف يكون المستقبل مضمونًا ومليئًا بغنى الأمجاد الروحية إذا ما عشنا الحياة المسيحية الأصيلة التي يدعونا المسيح لأن نحياها هنا والآن.

وصلاتي أن تساعدنا هذه الأفكار حول جوهر الإيمان على تجنب العبارات المصطنعة والسطحية حول الإيمان بالوعود الإلهية. هذا الأمر عميق ورائع، ليس عليك أن تكون لاهوتيًا لتختبره. فالله يقدم هذا الاختبار لملايين ممَنْ لا يمكنهم التعبير عما يحدث في قلوبهم. لكننا نظل ضعفاء إذا ما بقينا في هذه الخبرة الأولية.. علينا أن نذهب إلى عمق أبعد ونصير أقوى بأن نفهم كتابيًا ما الذي عمله الله فينا. أشترك مع الرسول بولس في صلاته أن تستنير عيون أذهاننا، لنعلم ما هو رجاء دعوته وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين (أف ١: ١٨ و١٩). هذه القوة أيقظت

فينا، ليس فقط رغبة في أن يهبنا الله مستقبلاً سعيدًا، بل أن يكون الله نفسه جوهر سعادتنا المستقبلية. ولقد أثمرت في داخلنا، ليس فقط ابتهاجًا بوعود الله، بل بإله الوعود. فالإيمان يقبل الله في كل وعوده.

«فقال لهم يسوع: أنا هو خبز الحياة.
مَنْ يقبل إليّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبدًا.»
(يو ٦: ٣٥)

إن الإيمان المخلِّص يحوي في طبيعته المحبة الإلهية...
فمحبتنا لله تمكِّننا من أن نتخطى الصعوبات التي تحول دون
إتمامنا لوصايا الله؛ مما يوضح أن المحبة هي جوهر
الإيمان المخلِّص؛ فهي حياته وقوته اللتان بهما يُحدث تأثيره العظيم.
«چوناثان إدواردز»

الفصل السادس عشر

الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح

لو أننا أسأنا فهم طبيعة الإيمان، فإن كل شيء في الحياة المسيحية يمضي في طريق غير صحيح. إذا كانت الطاعة الحقيقية تنبع من الإيمان بالنعمة المستقبلية، كما يبين هذا الكتاب، فإن كل طاعة يمكن أن تتعرض لخطر إساءة فهم حقيقة الإيمان واختباره بصورة خاطئة. إن جوهر الإيمان بالنعمة المستقبلية الذي توصلنا إليه في الفصل السابق أمر مصيري جدًا لذا نحتاج الآن لاختباره بأسلوب أكثر دقة.

إنجيل الإيمان العظيم

واحد من المواضع الجيدة التي نختبر فيها فهمنا للإيمان هو إنجيل يوحنا. لقد أُطلق على هذا الإنجيل "إنجيل الإيمان"[1]؛ حيث يرد الفعل «آمن» فيه أكثر من ٩٠ مرة، مقارنة بـ ١١ مرة في إنجيل متى، و١٢ مرة في إنجيل مرقس، و٩ مرات في إنجيل لوقا. ويقول يوحنا بوضوح إن الهدف من إنجيله هو: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو ٢٠: ٣١).

ويظهر هذا الموضوع عن الإيمان بالمسيح من أجل الحياة الأبدية في كل جنبات الإنجيل. فنحن نراه على سبيل المثال في يوحنا ٣: ١٦: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية»، وأيضًا: «الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» (يو ٥: ٢٤)، وأيضًا: «أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا»

(يو ١١: ٢٥). إذًا من الواضح أن الإيمان المخلِّص يمثل اهتمامًا لدى الرسول يوحنا؛ إذ يُذكر الإيمان بالمسيح في هذا الإنجيل بطريقة أكثر استمرارية وكثافة عنها في أي سفر آخر من أسفار العهد الجديد.

باعث محفز من "أوسكار كولمان"

هل يتفق فهمنا لجوهر الإيمان (على كون معناه الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح) مع هذا الإنجيل؟ واحد من الأسباب التي تدعوني للاقتناع بذلك هو أن إنجيل يوحنا هو الذي ساعدني على هذا الإدراك بالدرجة الأولى. في عام ١٩٧٤م كنت في بداية عملي كأستاذ للدراسات الكتابية في كلية لاهوت «بيت إيل» في مدينة «سانت بول». وكان ذلك في الفصل الدراسي الأول لي في التدريس بعد تخرجي، وكان عليّ تدريس مقدمات العهد الجديد. وعندما وصلت إلى إنجيل يوحنا، ركزت كل جهدي للتأمل فيما قصده يوحنا عن الإيمان. ولقد استوحيت هذه الفكرة بسبب تتلمذي على يد «أوسكار كولمان» في جامعة «ميونيخ» أثناء تقديمه لمحاضرات عن إنجيل يوحنا. وقد فتح التفسير الدقيق الذي كتبه «كولمان» عينيَّ مجددًا على عمق وجدية فكر يوحنا وراء لغته البسيطة.

الإيمان الذي لا يُخلِّص

أولاً، لاحظت أنه في إنجيل يوحنا يمكن أن يكون الإيمان عملاً خاطئًا أو ناقصًا لا يؤدي إلى الخلاص. على سبيل المثال يقول يوحنا: «ولما كان (يسوع) في أورشليم في عيد الفصح، آمن كثيرون باسمه، إذ رأوا الآيات التي صنع» (يو ٢: ٢٣). يوجد هنا تحذير من أن هذا الإيمان قد لا يكون إيمانًا مخلصًا. فهو إيمان مبني على رؤية المعجزات. وهذا الأمر ليس سيئًا في حد ذاته، خاصة مع قول يسوع: «صدقوني أني في الآب والآب فيّ، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها» (يو ١٤: ١١). فالإيمان الحقيقي يمكن أن يأتي من خلال معاينة معجزات الرب يسوع. لكن الخطر يكمن في أن البعض قد استحوذت عليهم فكرة قدرة يسوع على الإطاحة بالرومان. وقد رفض يسوع هذا النوع من الحماس تجاهه: «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكًا، انصرف أيضًا إلى الجبل وحده» (يو ٦: ١٥). وقال يوحنا نفسه إن إخوة يسوع، الذين آمنوا بقدرة يسوع على إجراء المعجزات (يو ٧: ٣ و٤)، وربما بإعلان نفسه على كونه المسيّا «لم يكونوا يؤمنون به» (يو ٧: ٥) بالرغم من ذلك.

لذا عندما يقول يوحنا «إن كثيرين آمنوا باسمه» (يو ٢: ٢٣) لأنهم رأوا الآيات التي صنع، فإننا نتحذر من حقيقة أن هذا الإيمان قد يكون اقتناعًا مبنيًا على قوته ولا يمتد إلى الاقتناع بحقيقة شخصه. وفي حقيقة الأمر يبدو أن هذا هو الواقع مع أولئك "المؤمنين": ففي العدد التالي نقرأ: «لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه، لأنه كان يعرف الجميع» (يو ٢: ٢٤). بمعنى آخر أن ما كان بداخلهم لم يكن متوافقًا مع ما كانوا يُبدونه في الظاهر. لقد كان "إيمانهم"، كما يقول «سي. كيه. باريت» "مظهر الإيمان"،[٢] أو كما يقول «ليون موريس»: "لم يكن أكثر من بداية"،[٣] إلا أنه أطلق عليه "إيمانًا" بطريقة استثنائية.

نقرأ في يوحنا ٨: ٣١- ٣٧ عن نفس الشيء عن الافتقار للإيمان. يبدأ هذا الجزء هكذا: «فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به... » (يو ٨: ٣١). لكن قبل نهاية الجزء يخاطب يسوع نفس أولئك اليهود قائلاً: «أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم. لكنكم تطلبون أن تقتلوني لأن كلامي لا موضع له فيكم» (يو ٨: ٣٧). فأولئك الذين «آمنوا به» كانوا يحاولون قتله. وقد جعل هذا أحد المفسرين يقول: "إما أن يوحنا كان غير دقيق في كتابته، أو أنه يقصد أن إيمان هؤلاء كان ناقصًا."[٤] وقد كان يوحنا أبعد ما يكون عن عدم الدقة في كتاباته. لذلك فمن الصائب أن نتبع الرأي الثاني. يقول «ليون موريس» في ذلك: "يتحدث يوحنا عن أناس جاهروا باعتراف، لكن هذا الاعتراف لم يتمكن من دواخلهم بعمق."[٥]

ورغم ذلك يستخدم يوحنا كلمة «آمن» ليصف هذا التجاوب الناقص وغير الكافي مع الرب يسوع. يشير هذا الأمر إلى أن الإيمان في إنجيل يوحنا ليس أمرًا ثابتًا يُعبِّر عنه اللفظ، لكنه يُفهم من خلال سياق الإنجيل. لذلك علينا أن نغوص في عمق مفهوم الإيمان في إنجيل يوحنا. فما هو جوهر الإيمان الذي يجعل منه إيمانًا مخلِّصًا وليس إيمانًا مزيفًا؟

الوقوع في هوى مديح الناس يجعل الإيمان مستحيلاً

أحد الأسباب التي تسمح لمعجزات يسوع أو تمنعها من الاقتياد إلى الإيمان الحقيقي هو أنها قد تدعم بسهولة حب القوة والمكانة الذي يتغلغل في القلب الآثم، ويجعل الإيمان الحقيقي مستحيلاً. تعامل يسوع مع هذه المشكلة في إنجيل يوحنا:

> «مجدًا من الناس لستُ أقبل. ولكني قد عرفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم. أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني. إن أتى آخر

باسم نفسه فذلك تقبلونه. كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدًا بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟» (يو ٥: ٤١- ٤٤)

في عدد ٤٤ يقول يوحنا إنه من المستحيل أن يؤمن المرء بالمسيح إيمانًا مخلصًا حقيقيًا بينما يحمل في قلبه هوى مديح الناس. بمعنى آخر، يحوي الإيمان الحقيقي تجديدًا روحيًا للقلب. فالإيمان لا يمكنه التعايش مع الإعجاب بالذات؛ فهو بطبيعته متضع ويهدف إلى تعظيم الله. إنه ينظر بعيدًا عن نفسه إلى الله ويفرح ليس بمديح الناس، بل بمجد الله.

يربط عدد ٤٣ هذا المبدأ بيسوع.. فهو قد أتى، ليس باسمه، بل باسم أبيه. يعني ذلك أنه يجسد النموذج القلبي للاتضاع وتمجيد الله الذي يحبذه الإيمان. لكنهم لم يقبلوه. لماذا؟ لأنه كان يهدد كبرياءهم. يقول يسوع إنه لو كان قد جاء باسمه لكانوا قبلوه، لماذا؟ لأنه وقتها كان سيتوافق مع ميولهم. هذه الميول تريد أن يمدح الناس اسمهم. لذا فإن الخلاصة هي أنهم لا يحبون الله (ع ٤٢). أي أنهم لم يكونوا يبتهجون بتعظيمه، بل بعظمة أنفسهم. هذه الميول لا تساعد أبدًا على الإيمان. فالإيمان مستحيل بالنسبة لشخص واقع في هوى استحسان الناس ومديحهم.

يمكننا إذًا أن نخلص من ذلك إلى أن الإيمان الحق في إنجيل يوحنا تعمل طبيعته على استبعاد عبودية المديح. إنه يشتمل على محبة وتلذذ بالله.. وهذا ما يجعل مديح الناسِ أمرًا شاحبًا بالمقارنة بالكنز الذي يمثله الله. وهذا ما رأيناه بشأن الإيمان المخلص في الفصل السابق.

محبة النور هي أصل الإيمان

نص آخر يساعدنا على فهم جوهر الإيمان المخلِّص في يوحنا ٣: ١٩- ٢١:

«وهذه هي الدينونة: إن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل مَنْ يعمل السيآت يبغض النور، ولا يأتي إلى النور لئلا توبخ أعماله. وأما مَنْ يفعل الحق فيقبل إلى النور، لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.»

يقول يوحنا هنا إنك قبل أن تجيء إلى المسيح، عليك أن تحب النور لا أن تكرهه. تمثل عبارة "الإتيان إلى المسيح" أحد التعبيرات التي يستخدمها يوحنا ليصف

الإيمان المخلِّص بالمسيح. يمكنك أن ترى ذلك على سبيل المثال في يوحنا ٥: ٤٠: «ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة»، و٦: ٣٧: «كل ما يعطيني الآب فإليّ يقبل، ومَنْ يقبل إليّ لا أخرجه خارجًا»، و٦: ٤٤: «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني، وأنا أقيمه في اليوم الأخير»، وهكذا يقول يوحنا إن الإيمان المخلِّص، أو الإتيان إلى المسيح، يجب أن يسبقه نوع من التغيير القلبي لكي يطرد الكراهية المتأصلة للنور الروحي.

معنى هذا أن الإيمان المخلِّص في إنجيل يوحنا إنما هو نتاج قلب مستنير أو متجدد يحب النور. فالإيمان المخلص ليس توافقًا عقليًا لقلب عتيق يحب الظلمة. إن المحبة مُتَضمنة في رؤية يوحنا للإيمان المخلِّص. هذه المحبة هي ما أطلقنا عليها في الفصل السابق "التذوق الروحي". فالإيمان ليس مجرد الإقرار بسمو المسيح اللامحدود، بل هو الإقرار بسمو المسيح لأن نور المسيح يكون موضوع محبة وليس كراهية.

الإيمان هو الإتيان إلى المسيح للارتواء من العطش

ذكرت في الفصل السابق أن جوهر الإيمان المخلِّص يكمن في الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. نص آخر في إنجيل يوحنا يقودني إلى هذه القناعة.. هذا النص يقول: «أنا هو خبز الحياة. مَنْ يقبل إليّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبدًا» (يو ٦: ٣٥). ويشير هذا النص إلى حقيقة أن الإيمان بيسوع هو بمثابة أكل وشرب من كل ما يمثله يسوع. فهو يمضي إلى أبعد من ذلك ليقول إن عطش أرواحنا يرتوي بيسوع حتى أننا لا نعطش فيما بعد. فهو منتهى ما نصبو إليه لكفايتنا. عندما نثق في يسوع بالطريقة التي يقصدها لنا يوحنا، فإن حضور يسوع ووعده بكفايتنا يجعلنا نتحرر من كل متع الخطية الزائفة (راجع رو ٦: ١٤). هذا الأمر يفسر لماذا يبطل مثل هذا الإيمان بيسوع سطوة الخطية ويساعدنا على الطاعة.

يشير يوحنا ٤: ١٤ إلى نفس الاتجاه: «ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» واتفاقًا مع يوحنا ٦: ٣٥ فإن الإيمان المخلِّص هو بمثابة الشرب من ماء يروي أعمق اشتياقات النفس. ونجد نفس الأمر في يوحنا ٧: ٣٧ و٣٨: «وقف يسوع ونادى قائلًا: إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. مَنْ آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي.» فمن خلال الإيمان يصير المسيح فينا نبع اكتفاء لا ينضب لحياتنا ويستمر للأبد ويقودنا إلى السماء. وهو يفعل هذا من خلال إرساله لنا الروح القدس

(راجع يو ٧: ٣٨ و٣٩). وهذا يتوافق مع ما رأيناه في الفصل الثاني عشر بشأن عمل الروح القدس الذي يجري فينا بواسطة الإيمان.

الإيمان هو عطية النعمة

هذا الأمر ينطوي على حقيقة أن الإيمان المخلِّص في إنجيل يوحنا ليس مجرد عمل بشري، بل إنه نعمة مجانية من الله. يوضح يوحنا هذا الأمر بجلاء بطرق متعددة. على سبيل المثال في ٨: ٤٥- ٤٧ يوضح يوحنا أن عدم الإيمان يعود إلى عدم الولادة من الله:

> «وأما أنا فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي. مَنْ منكم يبكتني على خطية؟ فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون، لأنكم لستم من الله.»

بحسب هذا النص لا يمكنك حتى الاستماع لكلمة الله (في خضوع لها) إذا لم تكن «من الله»، أي إذا لم تكن قد وُلدت من جديد بنفخة روح الله (يو ٣: ٨؛ ١: ١٢ و١٣). وهكذا فالإيمان ليس عملاً ذاتيًا؛ لكنه ثمر لعمل الله في النفس البشرية. كما ينبع من قلب مولود من فوق اجتذبه المسيح. هذا ما قصده الرب يسوع في إنجيل يوحنا ٦: ٤٤ بقوله: «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني.» هذا الاجتذاب يُمَكِّن من الإتيان، الذي رأيناه قبلاً يتطابق مع الإيمان.[٦] هذا الاجتذاب يقابل فكرة أن يكون المرء «من الله» كما في يوحنا ٨: ٤٧.

ما معنى أن نكون خراف المسيح؟

إن اجتذابنا إلى المسيح يتطابق مع فكرة كوننا خراف المسيح في يوحنا ١٠: ٢٧، وكذلك في يوحنا ١٠: ٢٥- ٢٧ يقول الرب يسوع:

> «إني قلت لكم ولست تؤمنون. الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي. ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي، كما قلت لكم. خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني.»

إن أكثر عبارة مدهشة هنا هي أننا لا نصير خرافًا بالإيمان، بل أننا نؤمن فقط لأننا خراف. هذا بالضبط يماثل القول: «لذلك أنتم لستم تسمعون، لأنكم لستم من

الله». أن نكون «من الله» وأن نكون "خرافًا" إنما هما نفس الشيء، وهما ليسا نتيجة لما نفعله عندما نؤمن بل هما نتيجة لما يفعله الله بنا حتى نستطيع أن نؤمن.

الإيمان أساسي لدرجة يستحيل معها أن يكون منبعه ذاتيًا

الفكرة هنا ببساطة أننا نقول إن هذه المبادرة الإلهية السيادية لخلق الإيمان تتناسب مع طبيعة الإيمان وجوهره. إن الإيمان يتناقض بشدة مع القلوب المتكبرة المتعاظمة.. البعيدة عن الروحانية.. والمُحبة للعالم؛ حتى أنه لا مجال للقول بأنه ينبع من ذات الإنسان. إذا أتينا إلى المسيح بالأسلوب الذي علَّمنا إياه فإننا ينبغي أن نُجتذب من الله الآب. وينبغي أن يهزم الله كراهيتنا للنور، ويغيِّر الله من نفورنا وعدم تذوقنا للخبز السماوي ولماء الحياة، ويبدد الله محبتنا لمديح الناس. إن رجاءنا الوحيد هو النعمة المجانية.

يرى الإيمان المخلِّص في هذه النعمة رجاءنا الوحيد، ويتذوق جمالها من خلال تمييز روحي، ويقبلها كأعظم كنز في الكون. يقبل الإيمان نعمة الله المغيِّرة عندما يرى استحقاق الرب يسوع المجيد. فكل ما يمثله الله لنا في المسيح، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً، يصير شبعًا للروح المؤمنة. ويحيا المرء بقية حياته، ليس تحت سلطان الرغبات العالمية، بل في رحاب الحرية المقتدرة للإيمان بالنعمة المستقبلية.

كلمة أخرى للتعبير عن هذه "الرغبات العالمية" هي الطمع. تقف هذه الخطية في أكثر الأماكن قربًا من مركز الشر. والانتصار عليها يتطلب الدخول في معركة قوية لا تتوقف. إن التحرر من الطمع إنما هو واحد من أعظم أعمال الله في النفس البشرية. نتحول في الفصل التالي إلى التأمل في وعود الرب يسوع التي تطهرنا من هجمات الطمع المتواصلة.

«لتكن سيرتكم خالية من محبة المال. كونوا مكتفين بما عندكم لأنه قال:
لا أهملك ولا أتركك، حتى إننا نقول واثقين:
الرب معين لي فلا أخاف. ماذا يصنع بي إنسان؟»
(عب ١٣: ٥ و٦)

«فإني قد تعلمت أن أكون مكتفيًا بما أنا فيه.
أعرف أن أتضع وأعرف أيضًا أن أستفضل.
في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع،
وأن أستفضل وأن أنقص.
أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني.»
(في ٤: ١١- ١٣)

«وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة.»
(١تي ٦: ٦)

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الطمع

الصورة الأشمل

دعونا نُبقي على وضوح الصورة الأشمل ونحن نركز في هذه الفصول التطبيقية على الحروب الروحية المختلفة في الحياة المسيحية. إن هدف هذا الكتاب هو تثبيت هذا الحق في أذهاننا: إن الطريق لمحاربة الخطية في حياتنا يكون بمواجهة ميلنا إلى عدم الإيمان. أو للتعبير عن الأمر بطريقة أكثر إيجابية نقول: إن الطريق لاتباع البر والمحبة يكون بالجهاد من أجل الإيمان بالنعمة المستقبلية.

لماذا الجهاد من أجل الإيمان بالنعمة المستقبلية؟

هناك قداسة سلوكية بدونها لا يمكننا أن نرى الرب.. «اتبعوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب ١٢: ١٤). الكثيرون يعيشون وكأن الأمر ليس هكذا. فهناك الكثير من المسيحيين يعيشون حياة غير مقدسة يستحقون بسببها أن يسمعوا كلمات يسوع المُخيفة: «إني لم أعرفكم قط! اذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (مت ٧: ٢٣). وهناك الكثير ممن يواظبون على حضور الكنائس يعتقدون أنهم

نالوا الخلاص لأنهم صلوا مرة معلنين قبولهم للرب يسوع، غير مدركين أن أصالة هذا الاختبار تتبرهن من خلال الاستمرارية: «ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مت ٢٤: ١٣). ويقول بولس الرسول للمؤمنين: «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون» (رو ٨: ١٣). وهكذا هناك قداسة بدونها لا يمكن لأحد أن يرى الله. ويمثل تعلُّم الجهاد من أجل القداسة بالإيمان بالنعمة المستقبلية أهمية فائقة.

سبب آخر للتأكيد على هذه الاستراتيجية في محاربة خطيتنا هو وجود طريق آخر لاتباع القداسة يعطي نتائج عكسية ويقود إلى الموت. يالها من مأساة عندما أتمكن من إقناعك من خلال الكلمة المقدسة بوجود قداسة لا يمكن بدونها أن نرى الرب فلا تلبث أن تجاهد من أجلها بأسلوب يرفضه الكتاب المقدس ويكون محكومًا عليه بالفشل!

تذكر أن كلمات رومية ٩: ٣١ و٣٢ تقول: «ولكن إسرائيل، وهو يسعى في أثَر ناموس البر، لم يدرك ناموس البر! لماذا؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان، بل كأنه بأعمال الناموس»، ولم يكن ذلك صائبًا! فعمليًا يصل المرء إلى البر عندما يتبع ناموس البر بالإيمان، وليس بالأعمال. ويشير مصطلح "الأعمال" إلى الجهاد من أجل البر دون دعم إيماني مستمد من وعود النعمة المستقبلية الكافية والمحررة. وأنا أكتب هذا الكتاب لأني أشتاق كثيرًا لأن نتعلَّم الجهاد في سبيل القداسة التي تأتي من خلال الإيمان وليس الأعمال.

سبب ثالث وراء هذا التركيز على الجهاد في سبيل الإيمان بالنعمة المستقبلية هو أني أتوق إلى أن نمجد الله في مسيرة قداستنا ومحبتنا. لكن الله لن يتمجد ما لم تتقوَ مسيرتنا بالإيمان بوعوده. فالله يتعظم عندما نتضع أمام ضعفنا وفشلنا وعندما نثق في أن عنده النعمة المستقبلية (راجع رو ٤: ٢٠). وبالتالي إذا لم نتعلَّم كيف نحيا بالإيمان بالنعمة المستقبلية، فربما نحرز نجاحات روحية متميزة، لكن ليس لمجد الله. فهو يتمجد عندما تستمد القوة اللازمة للقداسة من الإيمان المتضع بالنعمة المستقبلية. قال مارتن لوثر: "[الإيمان] يكرم ذاك الذي توضع فيه الثقة إذ يحسبه مستحقًا للثقة."[1] فالمعطي الذي نثق فيه هو مَنْ يحصل على المجد.

إن رغبتي العميقة هي أن نتعلَّم كيف نعيش لمجد الله. وهذا يعني الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية، والتي تعني بدورها الجهاد ضد عدم الإيمان في كل صوره، والتي من بينها الطمع.

ما هو الطمع؟

الشيء العجيب، من بين كل الخطايا يبلغ الطمع من الخطورة والحقارة ما جعل الوصايا العشر تنهي عنه بوضوح: «لا تشتهِ» (لا تطمع) (خر ٢٠: ١٧). وهناك مفتاح جيد لفهم معناها في رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس الأولى ٦: ٥ و٦ حيث الحديث عن «أناس فاسدي الذهن وعادمي الحق، يظنون أن التقوى تجارة.. وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة». ولا تستخدم كلمة "طمع"، هنا لكن الحقيقة هي ما يعنيه هذا النص برمته. فعندما يقول عدد ٥ إن البعض يعتبرون «التقوى تجارة» فإن الرسول بولس يجيب في عدد ٦ بأن «التقوى مع القناعة تجارة عظيمة». يقدِّم لنا هذا مفتاحًا لتعريف الطمع.. فالطمع هو الرغبة العارمة في شيء بحيث تقودنا إلى فقدان اكتفائنا بالله.

إن عكس الطمع هو الاكتفاء بالله. فعندما يُستعلن الاكتفاء بالله يتضاءل الطمع. لهذا يقول بولس في رسالته إلى كولوسي ٣: ٥ إن الطمع هو عبادة الأوثان: «فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض: الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الردية، الطمع الذي هو عبادة الأوثان». الطمع هو عبادة أوثان؛ لأن الاكتفاء الذي ينبغي على القلب أن يستمده من الله، يبدأ في استمداده من أمر آخر.

إذًا فالطمع هو الرغبة العارمة في شيء بحيث تُفقدنا اكتفاءنا بالله، أو فقدانك لاكتفائك بالله حتى أنك تبحث عن هذا الاكتفاء في مكان آخر.

هل فكرت ذات مرة أن الوصايا العشر تبدأ وتنتهي تقريبًا بنفس الوصية: «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (خر ٢٠: ٣)، و«لا تشتهِ» (خر ٢٠: ١٧)؟ إن هاتين الوصيتين متطابقتان تقريبًا. فالطمع (الاشتهاء) هو الرغبة في أي أمر آخر غير الله بحيث أنك تفقد الاكتفاء به. الطمع يعبِّر عن قلب منقسم بين إلهين؛ لذلك يدعوها بولس عبادة أوثان.

اهرب من الطمع، جاهد لأجل الإيمان

في تيموثاوس الأولى ٦: ٦- ١٢ يحاول الرسول بولس أن يقنع ويدعم الناس لكي يمتنعوا عن الطمع. لكن دعونا نتيقن من إدراكنا لرؤية الرسول لهذه المعركة ضد الطمع. فهو يقدِّم أسبابًا لعدم الطمع في الأعداد ٦- ١٠ (والتي سوف نتناولها لاحقًا). ثم يشجع تيموثاوس في العدد ١١ على الهروب من محبة المال والرغبة في الغنى: «وأما أنت يا إنسان الله فاهرب من هذا.» وبدلاً من الحديث عن الطمع يستمر

ثالثاً: «واتبع البر والتقوى والإيمان والمحبة والصبر والوداعة»، ثم من بين هذه القائمة تقط الإيمان ليوليه اهتمامًا خاصًا بقوله في عدد ١٢: «جاهد جهاد الإيمان الحسن.» إن جوهر ما يقوله هو: «فاهرب من هذا (الطمع)... جاهد جهاد الإيمان الحسن.»

بكلمات أخرى، ليس الجهاد ضد الطمع سوى جهاد الإيمان بالنعمة المستقبلية. يعد هذا واحدًا من أوضح الدلائل على أن الطريق إلى إطاعة الوصايا العشر (وواحدة منها هي: «لا تشتهِ») إنما تكون بالإيمان (كما رأينا في رومية ٩: ٣٢). وهو برهان إضافي على أن الطمع يمثل شكلاً من أشكال عدم الإيمان بالنعمة المستقبلية.

الجهاد لأجل الاكتفاء يعني الإيمان بالنعمة المستقبلية

عندما تتوقف لتفكر في الأمر، فإن هذا بالضبط هو ما يتضمنه تعريف الطمع. لقد قلت إن الطمع هو الرغبة العارمة في شيء إلى درجة فقدان الاكتفاء بالله. أو إنه فقدان اكتفائك بالله حتى أنك تبحث عن هذا الاكتفاء في موضع آخر. لكن هذا الاكتفاء بالله هو بالضبط جوهر الإيمان.

أشرت في الفصل السادس عشر كيف أن الرب يسوع قال في يوحنا ٦: ٣٥: «أنا هو خبز الحياة. مَنْ يقبل إليّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبدًا». بكلمات أخرى، إن معنى الإيمان بالرب يسوع هو اختباره كشخص كافٍ لإرواء عطشنا الروحي وإشباع جوع قلوبنا. إن الإيمان هو اختبار كفاية يسوع. وجهاد الإيمان هو الجهاد في أن تحفظ قلبك مكتفيًا بالمسيح، وأن تؤمن حقًا وتستمر في الإيمان في أنه سوف يسدد كل احتياج ويشبع كل اشتياقاتك.

الامتنان لأجل العطايا التي تشعر بالاكتفاء حتى بدونها

قال الرسول بولس أن هذا ليس مجرد جهاد نخوضه (١تي ٦: ١٢)، لكنه أيضًا سر نتعلمه: «فإني قد تعلمت أن أكون مكتفيًا بما أنا فيه... في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع، وأن أستفضل وأن أنقص» (في ٤: ١١ و١٢). إن قوة شهادة الرسول بولس هنا تتضح أكثر إذا عرفنا سبب كتابته لكنيسة فيلبي. يكتب الرسول هذا الأصحاح الرابع من رسالة فيلبي ليشكر الكنيسة على سخائهم المادي معه. غير أن الرسول كان قد تعرض لانتقادات لاذعة لأكثر من مرة تدعي أنه يحمل دوافع خفية في خدمته- أي أنه كان يتطلع إلى أموال الناس، لا إلى

خلاصهم (انظر ١كو ٩: ٤- ١٨؛ ٢كو ١١: ٧- ١٢؛ ١٢: ١٤- ١٨؛ ١تس ٢: ٥، ٩؛ أع ٢٠: ٣٣). لذا فهو يُظهر حرصًا شديدًا على عدم إبداء أي لفتة تشير إلى اشتياقه للحصول على أموالهم.

كيف يصد الرسول هذه الشُبهات؟ يقول مرتين عبارة: «شكرًا، ولكن...». ففي رسالته إلى أهل فيلبي ٤: ١٠ و١١ يقول: «ثم إني فرحت بالرب جدًا لأنكم الآن قد أزهر أيضًا مرة اعتناؤكم (المادي) بي... ليس أني أقول من جهة احتياج.» بكلمات أخرى يقول إن فرحي بعطائكم ليس بسبب إنني فقدت اكتفائي، بل على العكس من ذلك: «فإني قد تعلَّمت أن أكون مكتفيًا بما أنا فيه. أعرف أن أتضع وأعرف أيضًا أن أستفضل.» ولكي يرد على انتقادات البعض بأنه طامع في عطاياهم، فإنه يقول إن شعوره بالامتنان من أجل هذه العطايا لا ينبع من عدم اكتفاء.

ويقوم الرسول بنفس الأمر في المقطع التالي (في ٤: ١٥- ١٧). فهو يمدحهم على كونهم الكنيسة الوحيدة التي دأبت على مساندته: «وأنتم أيضًا تعلمون أيها الفيلبيون أنه... لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ إلا أنتم وحدكم... ليس أني أطلب العطية، بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم.» ويقول هنا نفس العبارة مجددًا: «شكرًا، ولكن...»، ويرد على اتهامه بالطمع قائلاً إني مبتهج بتعضيدكم لي... لكن لا تسيئوا فهم ذلك. فلو أن الأمر بدا أني أبحث عن عطاياكم، فإن هذا غير صحيح.

وفقط في هذه المرة، بدلاً من أن يقول إنه قد تعلَّم الاكتفاء بدون عطاياهم (ع ١١، ١٢)، فإنه يقول إن سبب فرحه هو فائدتهم لا فائدته هو: «أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم.» فهم أيضًا يزدادون غنى من خلال سخائهم وليس بولس فقط. وكما قال يسوع، فإنهم قد كنزوا لأنفسهم كنوزًا في السماء من خلال عطائهم السخي للمحتاجين (لو ١٢: ٣٣).

وهكذا، فإنه بعد تعبيره أول مرة عن امتنانه، أراد أن يقول: "لا تسيئوا فهم ذلك، فإنني لا أشعر بعدم الاكتفاء." (راجع في ٤: ١١). وبعد تعبيره مرة ثانية عن امتنانه أراد أن يقول: "لا تسيئوا فهم ذلك، فإن ما أتطلع إليه هو بركتكم أنتم". (راجع في ٤: ١٧). يتبين من هذا أن المحبة هي الوجه الآخر للشعور بالاكتفاء والرضا. فالمحبة «لا تطلب ما لنفسها» (١كو ١٣: ٥)، وإنما تطلب «ما هو للآخر» (١كو ١٠: ٢٤). وهذا ما كان يفعله بولس: «ليس أني أطلب العطية، بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم.» من أين أتت نوازع المحبة هذه؟ لقد نبعت من الاكتفاء.. «قد تعلمت أن أكون مكتفيًا بما أنا فيه»، ولهذا فإن ما أطلبه ليس هو العطية التي تأتيني بالأخذ لكن البركة التي تأتيكم بالعطاء. فالاكتفاء هو سبب المحبة.

أستطيع كل شيء في المسيح، بما في ذلك الجوع

ومن أين يأتي هذا الاكتفاء؟ يقدم عدد ١٣ الإجابة: «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني.» إن تدبير الله اليومي من النعمة المستقبلية يقوي الرسول بولس ليشبع أو يجوع، ليرتفع أو يعاني، ليفيض أو يعتاز. «أستطيع كل شيء» معناها «كل شيء» وليس فقط الأمور السهلة. «كل شيء» معناها "في المسيح أستطيع أن أجوع وأعاني وأحتاج." وهذا يسلط الضوء على الوعد الرائع في عدد ١٩: «فيملأ إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع.» ما معنى عبارة «كل احتياجكم» في ضوء فيلبي ٤: ١٩؟ إن معناها: "كل ما تحتاجونه لتعيشوا بالاكتفاء الذي يمجد الله." إن محبة الرسول للفيلبيين تنبع من اكتفائهم بالله، وينبع اكتفاؤه بالله من إيمانه بنعمة معونة الله الدائمة المستقبلية.

واضح إذًا أن الطمع هو عكس الإيمان تمامًا. إنه فقدان الاكتفاء بالمسيح حتى أننا نبدأ في البحث النهم عن أمور أخرى لتشبع أشواق قلبنا. وليس خطأ أن نقول إن الصراع ضد الطمع إنما هو صراع ضد عدم الإيمان وجهاد من أجل الإيمان بالنعمة المستقبلية. ووقتما نشعر بأقل تحرك للطمع في قلوبنا، علينا أن نواجهه ونحاربه بكل قوتنا مستخدمين أسلحة الإيمان.

علينا أن نصدق التحذيرات أيضًا

رأى الرسول بولس بوضوح أن الداعم الأساسي للإيمان هو كلمة الله، والوعود الإلهية مثل: «فيملأ إلهي كل احتياجكم...» لذا عندما يبدأ الطمع يطل برأسه القبيحة، ما يجب علينا فعله هو أن نعظ بكلمة الله إلى نفوسنا. نحتاج أن نسمع ما يقوله الله. نحتاج أن نستمع إلى تحذيراته بشأن نتائج الطمع وخطورته. وكذلك نحتاج أن نصغي إلى وعود النعمة المستقبلية التي تمنح النفس اكتفاءً وشبعًا عظيمًا وتحررها لكي تحب.

لنتوقف أمام بعض التحذيرات ضد الطمع ولندعها توجه نظرنا إلى الوعود التي تقضي عليه.

(١) الطمع لن يُشبعك أبدًا

«مَنْ يحب الفضة لا يشبع من الفضة، ومَنْ يحب الثروة لا يشبع من دخلٍ. هذا

أيضًا باطل» (جا ٥: ١٠). إن كلمة الله بشأن المال تقول إنه لا يُشبع أولئك الذين يحبونه. فإذا صدقناه، فإننا سوف نتحول عن محبة المال، فهي طريق مسدود لن يوصلنا إلى شيء.

يعبِّر الرب يسوع عن هذا الأمر في لوقا ١٢: ١٥ كالتالي: «انظروا وتحَفَّظوا من الطمع، فإنه متى كان لأحدٍ كثيرٌ فليست حياته من أمواله.» وإذا كانت كلمة الرب تحتاج إلى تدعيم، فهناك الكثير من الأغنياء التعساء في العالم الذين يثبتون لنا أن الحياة المكتفية والراضية لا تتحقق باقتناء الأشياء. فالكثيرون ينتحرون قفزًا من فوق جسر «كورونادو» في «سان دييجو» (بالرغم من غناهم)، تمامًا كما يقفز الكثيرون من فوق جسر «بروكلين» في نيويورك (بسبب فقرهم).

(٢) الطمع يخنق الحياة الروحية

عندما تكلَّم الرب يسوع بمثل الزارع (مر ٤: ١- ٢٠)، قال إن بعض البذار «سقط... في الشوك، فطلع الشوك وخنقه». ثم فسر المَثل قائلاً إن البذار هي كلمة الله، والأشواك التي تخنق البذار هي: «هموم هذا العالم وغرور الغنى وشهوات سائر الأشياء» (ع ١٩). والطمع هو «شهوات سائر الأشياء» التي تنافس كلمة الله.

وتحتدم المعركة عندما تعلن كلمة الله من خلال الوعظ. و«شهوات سائر الأشياء» يمكن أن تكون من القوة بحيث تخنق براعم الحياة الروحية. وهذا تحذير مُخيف لكي نحتاط عندما نسمع كلمة الله لنقبلها بالإيمان ولا نخنقها بالطمع. وهذه هي الخلاصة التي يصل إليها يسوع بعد عرضه للمثل: «فانظروا كيف تسمعون» (لو ٨: ١٨).

(٣) الطمع يُنتج خطايا أخرى كثيرة

عندما يقول الرسول بولس: «محبة المال أصل لكل الشرور» (١تي ٦: ١٠)، فإنه يقصد أن طبيعة القلب التي تجد كفايتها وشبعها في المال وليس في الله إنما هي طبيعة ينتج عنها كل أنواع الشرور. يقدِّم الرسول يعقوب مثلاً لذلك: «تشتهون ولستم تمتلكون، فتتشاجرون وتندلع الحرب بينكم» (يع ٤: ٢- ترجمة خاصة بالمؤلف). بكلمات أخرى، إذا كنا مكتفين، كما يقول الرسول بولس، في أوقات العُسر واليسر، فإننا لن نضطر للدخول في صراع. فالطمع يمثل تربة خصبة لآلاف الخطايا الأخرى. وهذا الأمر يضاعف من قيمة التحذير للهروب منه والجهاد بكل قوانا في سبيل الاكتفاء بالله.

(٤) الطمع يخذلك في أكثر أوقاتك احتياجًا للمعونة

إنه يخذلك في ساعة الموت. في تيموثاوس الأولى ٦: ٧ يقول الرسول بولس: «لأننا لم ندخل العالم بشيء، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء.» في أكبر أزمات حياتك، عندما تحتاج للاكتفاء والرجاء والاطمئنان أكثر من أي وقت مضى، تأخذ أموالك ومقتنياتك جناحين وتهرب بعيدًا. إنها تخذلك، فهي لا تصحبك إلا حينما تصفو الحياة. وأنت لا تدخل أبديتك إلا بمقدار اكتفائك بالله.

فإذا ما سقطت ميتًا الآن فهل ستحمل معك الكثير من الاستمتاع الذي كان لك بالله، أم أنك ستقف أمامه بفراغ روحي اعتاد الطمع أن يعيش عليه؟ إن الطمع يخذلك في أشد الأوقات التي تحتاج فيها كل دعم ومساندة.

(٥) في نهاية الأمر، الطمع يُهلك النفس

في تيموثاوس الأولى ٦: ٩ يقول الرسول مجددًا: «وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء، فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة، تغرق الناس في العطب والهلاك.» وبالتالي في نهاية الأمر يمكن للطمع أن يهلك النفس في الجحيم. السبب الذي يجعلني متأكدًا من أن هذا الهلاك ليس خدعة لكنه هلاك نهائي في الجحيم هو ما يقوله الرسول في عدد ١٢. فهو يقول إنه ينبغي مواجهة الطمع بجهاد الإيمان، ثم يضيف: «وأمسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيت أيضًا واعترفت الاعتراف الحسن.» إن الحياة الأبدية تكون في خطر إذا لم نهرب من الطمع، ونجاهد لأجل الاكتفاء بالنعمة المستقبلية.

لذا عندما يقول بولس في ١تيموثاوس ٦: ٩ إن الرغبة في الغنى تُغرق الناس في العطب، فإنه لا يقول إن الطمع يمكن أن يفسد زواجك أو عملك (وهو بالتأكيد يمكنه ذلك!)، لكنه يقول إن الطمع يمكنه أن يفسد أبديتك أيضًا. أو كما يقول عدد ١٠ في نهايته: «إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة.»

لقد مشى الله الميل الثاني في الكتاب المقدس ليحذرنا برحمة من أن وثن الطمع لا يفيد بشيء. إنه طريق مسدود بأسوأ ما يعينه التشبيه من معنى. إنه خدعة وفخ. لذا فكلمتي إليك هي نفس ما قاله بولس لتلميذه تيموثاوس: «فاهرب من هذا!» (١تي ٦: ١٢). وعندما تراه قادمًا (في برنامج تليفزيوني، أو كتالوج للسلع، أو شيء جديد يقتنيه شخص آخر)، اهرب منه كما تهرب من أسد مزمجر جائع هارب من حديقة الحيوان. لكن إلى أين تهرب؟

السلاح الذي يُميت الطمع

عليك أن تسرع إلى ترسانة الإيمان والإمساك برداء الصلاة في مزمور ١١٩: ٣٦، ولفه حول نفسك: «(يارب)، أمل قلبي إلى شهاداتك، لا إلى المكسب.» بكلمات أخرى: "ضع في قلبي النعمة المستقبلية بتأثيراتها القوية، واجعلها تهبني اشتهاء لحقك؛ يبدد في داخلي اشتهائي للأشياء الأخرى." فبدون نعمة الله المستقبلية، سوف تسعى قلوبنا وراء المال. وعلينا أن نصلي حتى يميل الرب قلوبنا نحو كلمته، حيث الوعد بالانتصار على الطمع.

بعد ارتداء عباءة الصلاة، علينا أن نُسرع باتخاذ سيفين من أسلحة كلمة الله: واحد منهما قصير والآخر طويل صنعهما الروح القدس خصيصًا للقضاء على الطمع. وعلينا أن نقف لنحرس الباب. عندما يطل أسد الطمع بوجهه المهلك نشهر في وجهه السيف القصير.. تيموثاوس الأولى ٦: ٦: «وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة.»

علينا أن نعظ نفوسنا بهذه الكلمات ونطعن بها الطمع الهاجم علينا. "تجارة عظيمة! تجارة عظيمة هي التقوى مع القناعة! اثبت في مكانك يا وحش الطمع.. فأنا لي مكسب عظيم عندما أبقى قانعًا بالله. فهو الآن كنزي، وسوف يظل كذلك وإلى النهاية. هذا هو إيماني بالنعمة المستقبلية. ابعد عن وجهي."

ثم، إذا أصر الأسد على موقفه، أمسك بالسيف الأطول.. عبرانيين ١٣: ٥ و٦: «لتكن سيرتكم خالية من محبة المال. كونوا مكتفين بما عندكم، لأنه قال: لا أهملك ولا أتركك، حتى إننا نقول واثقين: الرب معين لي فلا أخاف. ماذا يصنع بي إنسان؟» ومن خلال ثقتك بوعد النعمة المستقبلية المشبعة، فإنك توجهه إلى صدر وحش الطمع. وبذلك فإنك تفعل تمامًا ما يقوله بولس في كولوسي ٣: ٥: «فأميتوا ... الطمع.»

إخوتي وأخواتي، كل طمع إنما هو عدم إيمان بالنعمة المستقبلية. لنتعلَّم سويًا كيف نستخدم سيف الروح لنجاهد جهاد الإيمان الحسن ونمسك بنعمة الحياة الأبدية المستقبلية.

الجزء السادس

النعمة المستقبلية المشروطة غير المستحقة

إن الشرطين الواردين في رومية ٨: ٢٨
يوضحان ببساطة
معنى الثقة الحقيقية بالله بشأن وعد النعمة المستقبلية العظيم.
إن الثقة فيه من أجل هذا الوعد لا تعني فقط تصديقًا
بأنه سوف يعمل لخيرك. يمكنك أن تصدق هذا وتكون مخطئًا.
وإنما معناه هو النظر
من خلال الوعد إلى صاحب الوعد، وبالنعمة،
أي من خلال دعوته العليا
ترى فيه الاستحقاق والجمال الروحيين
اللذين سيشبعان قلبك إلى الأبد،
ثم الإمساك بهذا الجمال على كونه كنزك الرئيسي
فوق كل ما يستطيع العالم أن يقدِّمه.
هذا هو معنى المحبة لله،
وهذا هو جوهر الإيمان بالنعمة المستقبلية.
عندما يكون لك هذا الإيمان، وعندما تحقق هذا الشرط
من خلال نعمة الدعوة الإلهية،
فإن الله يجعل جميع الأشياء تعمل معًا لخيرك.

الفصل الثامن عشر

كيف نثق في وعود مشروطة

إن نقاشنا في الفصول من الرابع عشر إلى السادس عشر حول طبيعة الايمان المخلِّص في منتهى الأهمية لفهم مشروطية[1] النعمة المستقبلية. أنا اعرف أنه بالنسبة للكثيرين يبدو مصطلح "النعمة المشروطة" تناقضًا لفظيًا، مثل "المياه الجافة" أو "ناطحة سحاب قصيرة". هذا الأمر في مجمله ليس سيئًا لأنه، في واقع الأمر، ليست كل النعمة مشروطة. وليس كل ما هو مشروط مشروطًا بنفس الطريقة. ابقوا معي لدقائق قليلة، وأعتقد أن الكتاب المقدس سوف يقدِّم توضيحًا رائعًا لهذه المعضلة.

بانوراما النعمة المشروطة

لننظر على سبيل المثال إلى الوعد الثمين في رومية ٨: ٢٨ الذي تناولناه في الفصل التاسع. هذا الوعد يشمل في طياته وعدًا شاملاً للنعمة المستقبلية، وتحديداً أن الله سوف يجعل كل الأشياء تعمل معًا لخيرك. غير أن هذا الوعد الرائع الذي صاحب ملايين المؤمنين في أحلك الأوقات إنما هو مزدوج الشرطية: «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده.» الشرط الأول هو أننا يجب أن نحب الله، أما الشرط الثاني فهو أننا يجب أن نكون مدعوين بحسب قصد الله. تتلخص البانوراما الهائلة الأزلية للنعمة المستقبلية في الوعد بأن الله سوف يجعل كل الأشياء تعمل لخيرنا. وكل هذه النعمة المستقبلية مشروطة.

من كل قلوبنا نريد أن يتحقق لنا هذا الوعد. ونريد أن نصدِّقه، ونضع ثقتنا ورجاءنا فيه. لكن كيف لك أن تؤمن بوعد مشروط؟ أقصد، كيف يمكن لك أن تؤمن به بطريقة حقيقية تعزي روحك وليس بأسلوب زائف؟ أقول إن الوعد لا يتحقق لأناس لا يحبون الله وليسوا مدعوين حسب قصده. وإذا آمن مثل هؤلاء بأن الله قد يجعل كل الأشياء تعمل معًا لخيرهم فإنهم بذلك يخدعون أنفسهم مثل الأشخاص الواردين في متى ٧: ٢٢ و٢٣ (راجع الفصل الخامس عشر).

قبل أن أحاول الإجابة على السؤال بشأن كيفية الإيمان بوعد مشروط مثل رومية ٨: ٢٨، أعتقد أننا نحتاج أن نتيقن من وضوح عظمة هذا الأمر أمامنا. لذا دعونا أولاً أن نوضح من خلال الكلمة المقدسة ما هي أعمال النعمة العظيمة غير المشروطة؟ ثم ما هي أعمال النعمة العظيمة المشروطة، وما هي صفات كليهما.

نعمة الاختيار غير مشروطة

إنها نعمة لا تُقدر بثمن أن الله قد اختارنا لنفسه قبل تأسيس العالم. اختار شعبًا سوف يُخلِّصه من خطاياه، وسوف يمجده ويفرح به إلى الأبد. هذا الاختيار كان غير مشروط تمامًا. «كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة، إذ سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته» (أف ١: ٤ و٥).[٢] ويوضح الرسول بولس عدم مشروطية اختيار الله من خلال نموذج يعقوب؛ فيقول إن الله اختار يعقوب بدلاً من عيسو «وهما لم يولدا بعد، ولا فعلا خيرًا أو شرًا، لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار، ليس من الأعمال بل من الذي يدعو» (رو ٩: ١١).[٣]

لاحظ في تلك العبارة الأخيرة أن بولس لا يذكر «الأعمال» في مقابل «الإيمان» فهو لا يقول: «ليس من الأعمال بل من الإيمان»؛ فهذا يجعل من الإيمان شرطًا للاختيار، لكن الأمر ليس كذلك. فلا شيء يمثل شرطاً للاختيار سوى نعمة وحكمة الله. لهذا يقول الرسول بولس «ليس من الأعمال بل من [الله] الذي يدعو».

نعمة التجديد غير مشروطة

هذا يقودنا إلى ثاني عمل غير مشروط من أعمال النعمة: دعوة الله. والدعوة التي أقصدها هنا ليست الدعوة الخارجية التي تحدث في كل مرة يوعظ فيها بالإنجيل،[٤] وإنما عمل الله في الداخل، أي عندما تقيم دعوته خاطئًا من الموت، وتنتصر على كل مقاومة، وتجعل مجد المسيح أمرًا لا تقاوم جاذبيته. عندما يحدث هذا الأمر فإن

الإيمان يُخلق، ويؤمن المرء بالمسيح بكامل حريته من خلال قلب جديد (١كو ١: ٢٣ و٢٤؛ ٢كو ٤: ٤- ٦؛ أع ١٦: ١٤؛ رو ٨: ٣٠؛ حز ٣٦: ٢٦).[٥] هذه الدعوة الإلهية لا تتوقف على الإيمان أو الأعمال.. إنها تسبقه وتُفعِّل الاثنين. يقول بولس إن الله «دعانا دعوة مقدسة، لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية» (٢تي ١: ٩). لاحظ مجددًا أنه، تمامًا مثل الاختيار، أساس دعوتنا ليس الأعمال أو الإيمان، لكن «القصد والنعمة» الإلهية المعينة «قبل الأزمنة الأزلية».

يُشار إلى هذه الدعوة كذلك بأنها الولادة الجديدة (١بط ١: ٣)، أو التجديد (تي ٣: ٥). وهي غير مشروطة؛ لأنه قبل هذه "الدعوة" أو "الولادة الجديدة" كنا أمواتًا روحيًا (أف ٢: ١- ٥)، وغير قادرين على التجاوب الإيجابي مع الله (رو ٨: ٧ و٨؛ ١كو ٢: ١٤). وهذه الدعوة هي عمل النعمة الذي من خلاله يضمن الله التوبة (٢تي ٢: ٢٥؛ أع ٥: ٣١؛ ١١: ١٨)، ويخلق الإيمان (أف ٢: ٨ و٩؛ في ١: ٢٩).

النعم العامة غير المشروطة

بجانب هذين العملين من أعمال النعمة غير المشروطة (الاختيار والدعوة)، يمطر الله كذلك دون شروط على العالم نعمًا عديدة لا يستحقها أحد. قال الرب يسوع: «[الله] يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين» (مت ٥: ٤٥)، وقال الرسول بولس نفس الشيء في لسترة للأمم الذين لم يعرفوا قط الإله الحقيقي: «[الله] لم يترك نفسه بلا شاهد، وهو يفعل خيرًا: يعطينا من السماء أمطارًا وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبنا طعامًا وسرورًا» (أع ١٤: ١٧)، ويلخص المرنم الأمر هكذا: «الرب صالح للكل، ومراحمه على كل أعماله» (مز ١٤٥: ٩). والله يفيض بنعمه على عالم لا يحقق في غالبية الأحوال شروط الإيمان والبر التي يطلبها الله من الناس.

لهذا أخلص إلى أنه على الأقل في هذه الحالات الثلاث، النعمة غير مشروطة: نعمة الاختيار، والدعوة، والأشكال الكثيرة الأخرى للنعمة العامة التي تحفظ العالم من الغرق في الفوضى والتخبط.

ثلاث نِعَم عظيمة مشروطة

لكن هناك جوانب جميلة من خلاصنا مشروطة. شرط التبرير هو الإيمان: «الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس» (رو ٣: ٢٨؛ ٥: ١؛ غل ٢: ١٦؛ ٣: ٢٤).

وشرط التقديس هو الإيمان أيضًا: «الله اختاركم من البدء للخلاص، بتقديس الروح وتصديق الحق» (٢تس ٢: ١٣). وشرط التمجيد النهائي هو المثابرة في هذا الإيمان عينه والرجاء: «ليحضركم [الله] قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه، إن ثبتم على الإيمان، متأسسين وراسخين وغير منتقلين عن رجاء الإنجيل» (كو ١: ٢٢ و٢٣).

بعض أعمال النعمة العظيمة غير مشروطة وبعضها الآخر مشروطة. فالاختيار والولادة الجديدة ليسا مشروطين بأي عمل إنساني؛ فالله يصنعهما مجانًا دون إشارة إلى أعمالنا أو إيماننا. أما التبرير والتقديس والتمجيد النهائي فإنها جميعًا مشروطة بالإيمان. لكنها لا تزال أعمالاً للنعمة العظيمة، لكن الله قصد أن تكون هذه النعمة استجابة للإيمان، بينما نعمة الاختيار والولادة الجديدة تسبق الإيمان وتنتجه.

مشروطة ولكن ليست مستحقة

يجب أن يتضح من ذلك أن تحقيق الشروط لا يعني استحقاق أي شيء؛ فالنعمة تظل مجانية حتى إذا كانت مشروطة. فلا يمكن أن نساوي بين توافر شروط النعمة واستحقاق النعمة. إن "استحقاق النعمة" سيمثل دون شك تناقضًا في المصطلحات مثل "الثلج الساخن" أو "الصحراء الخضراء".

لنفترض أنني أقول: "إذا كنت على متن الطائرة، فإنك سوف تذهب إلى شيكاغو." هذا شرط أساسي ينبغي توافره، لكن هذا لا يخبرك مَنْ سوف يشتري تذكرتك أو إذا كنت سوف تُحمل عنوة إلى الطائرة. فإذا اشترى أحدهم لك التذكرة، وحملك إلى الطائرة فإنك بذلك تكون قد حققت شرط السفر إلى شيكاغو، لكنك بذلك لا تكون بالضرورة مستحقًا لهذا السفر. من الهام للغاية أن نحتفظ بهذا الفرق في أذهاننا. فليست كل الشروط سببًا للاستحقاق. في واقع الأمر هناك بعض الشروط التي تدعو للتخلي عن الاستحقاق. وهذا ما أقصده عندما أتحدث عن النعمة المشروطة.

هناك على الأقل سببان وراء أن النعمة المشروطة مجانية وغير مستحقة. وقد رأيناهما سابقًا في الفصل الخامس. أولاً: النعمة المشروطة مجانية وغير مستحقة لأن طبيعة الشرط -الإيمان- تلفت الانتباه إلى فيض الله المجاني واحتياجنا الشديد. الإيمان لا يُكتسب، فهو يعتمد أيضًا على عطايا النعمة المستقبلية. ثانيًا: النعمة المشروطة مجانية وغير مستحقة لأن شرط الإيمان في ذاته إنما هو عطية من عطايا النعمة. فالله في نعمته يفعل الشروط التي يطلبها. وقد عبَّر القديس أوغسطينوس (٣٩٦- ٤٣٠ ميلادية) عن هذا الأمر بقوة فيما يتعلق بصراعه الشخصي مع شهواته

وخلاعته. لقد تاب عن حياة مليئة بالفساد، واكتشف أن رجاءه الوحيد في حياة الطهارة يكمن في نعمة الله المغيِّرة التي مكَّنته من تحقيق ما يطلبه الله. وقد كتب في اعترافاته قائلاً: "إنها المحبة التي تشتعل أبدًا ولا تنطفئ. يارب أشعل محبتك في داخلي! لقد أمرتني بكبح شهواتي.. فأعطني ما أمرت به، ومُرني بما تريده."[٦] هذا هو بالضبط معنى التعهد من جديد، كما رأيناه في الفصلين الحادي والثاني عشر: «ويختن الرب إلهك قلبك... لكي تحب الرب إلهك» (تث ٣٠: ٦).

كيف تؤمن بوعد مشروط؟

هناك شروط أخرى للنعمة المستقبلية. هذه الشروط في طبيعتها ترتبط بالإيمان وبتحرر النعمة اللذين سوف نناقشهما في الفصل القادم. لكني أود أن أعود إلى السؤال الذي طرحته حول رومية ٨: ٢٨، وهو بالتحديد عن كيفية الإيمان بمثل هذا الوعد المزدوج الشرطية؟ «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده». هنا شرطان: ١- محبة الله، ٢- الدعوة. كيف يمكنك أن تؤمن بهذا الوعد دون أن تعتقد خطأ أنه ينطبق عليك مع أنه ليس كذلك؟

الشرط الأول: أن تحب الله

في سبيل الإيمان بوعد مشروط بدون انخداع، عليك أن تتيقن من أن الشرط ينطبق عليك. ما معنى هذا بالنسبة لرومية ٨: ٢٨؟ معناه أن تتأكد من أنك شخص يحب الله. هل هذا شرط مختلف عن شرط الإيمان؟ هنا تظهر أهمية مناقشتنا في الفصلين الخامس عشر والسادس عشر عن جوهر الإيمان. فما بدا في هذين الفصلين هو أن جوهر الإيمان المخلِّص والمقدِّس هو الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. ورأينا كذلك أن الطريقة الأخرى لوصف هذا الجوهر هو التحدث عن مصطلح محبة الله، أي الابتهاج به وتذوقه والاستمتاع به. ونحن نتفق مع «چوناثان إدواردز» الذي قال: "المحبة هي الأمر الأساسي في الإيمان المخلِّص، فهي حياته وقوته التي بها يخلق تأثيرات عظيمة."[٧]

وهكذا فشرط الوعد الوارد في رومية ٨: ٢٨ ليس مضادًا لشرط الإيمان، لكنه في واقع الأمر أسلوب آخر للقول بأننا يجب أن نمتلك إيمانًا أصيلاً وليس فقط اقتناعًا عقليًا. إن الله لا يجعل كل الأمور تعمل معًا لخير أولئك الذين يعتقدون فقط أنه قادر على ذلك. لكنه يفعل ذلك لخير أولئك الذين يحبونه، أي الذين يكتفون بكل ما يمثله لهم

في المسيح. وخبرة التأكد من محبتك لله هي ذاتها خبرة الاستمتاع بكل ما يمثله لك في المسيح. وعندما تسلك في هذه الخبرة فإنك تحب الله. وفي هذه الخبرة تحصل على العنصر الجوهري في الإيمان المخلِّص.

ما يعنيه هذا هو أن القصد من الشروط التي يضعها الله في الوعد الوارد في رومية ٨: ٢٨ توضيح الطبيعة الحقيقية للإيمان بوعد الله. فأنت لا تستطيع أن تؤمن إيمانًا صحيحًا بوعد الله دون أن تدرك روحيًا مكانة الله وجماله، وتقبلهما. هذا الإدراك والقبول يمثلان جوهر الإيمان.

الشرط الثاني: أن تكون مدعوًا

إنه أيضًا الدليل الأساسي بأنك مدعو من الله. وهذا هو الشرط الثاني الوارد في رومية ٨: ٢٨: «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده.» لقد أوضحت سابقًا في هذا الفصل وفي الفصل التاسع أن دعوة الله في هذا السياق إنما هي عمل إلهي للنعمة يقيم الله من خلاله خاطئًا من الموت ويهبه قلبًا جديدًا. إنه تحقيق لوعد العهد الجديد في تثنية ٣٠: ٦: «ويختن الرب إلهك قلبك... لكي تحب الرب إلهك؟»

بكلمات أخرى، يمثل شرطا النعمة المستقبلية في رومية ٨: ٢٨ وجهين لعملة واحدة. الوجه الأول هو عمل الله بدعوة (خلق) قلب جديد محب لله. والوجه الآخر هو اختبار هذا العمل الإلهي- بأن تحب الله. ويمكنك أن تعرف أنك مدعو إذا كنت قد فتحت قلبك لنعمة الله وانجذبت إليه في اكتفاء يعلو فوق كل إغراءات العالم ويحررك لتعيش حياة المحبة.

الخلاصة: شرط النعمة المستقبلية هو الإيمان

وهكذا، فإن الشرطين الواردين في رومية ٨: ٢٨ يوضحان ببساطة معنى الثقة الحقيقية بالله بشأن وعد النعمة المستقبلية العظيم. إن الثقة في هذا الوعد ليست فقط تصديقًا بأنه سوف يعمل لخيرك. يمكنك أن تصدق هذا وتكون مخطئًا. إنما معناها النظر من خلال الوعد إلى صاحب الوعد، وبالنعمة التي من خلال دعوته العليا، ترى فيه الاستحقاق والجمال الروحيين بحيث يشبع قلبك إلى الأبد، ثم التشبث بهذا الجمال كأنه كنزك الأعظم فوق كل ما يستطيع العالم أن يقدمه. هذا هو معنى محبة

الله، وهذا هو جوهر الإيمان بالنعمة المستقبلية. عندما يكون لك هذا الإيمان، وعندما تحقق هذا الشرط من خلال نعمة الدعوة الإلهية، فإن الله يجعل جميع الأشياء تعمل معًا لخيرك.

إن وعد النعمة المستقبلية مشروط، لكنه غير مُستحق. إنك تؤمن به وتصدقه وترجوه. وجوهر هذا الإيمان والتصديق والرجاء هو اكتفاؤنا بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. مع هذا الاكتفاء تأتي الثقة في أن هذا الوعد إنما هو حقيقي بالنسبة لنا. ومع هذه الثقة تأتي نوعية أصيلة من حياة الطاعة المضحية التي أطلق عليها الحياة بالإيمان في النعمة المستقبلية.

«التفت إليّ وارحمني، كحق محبي اسمك.»
(مز ١١٩: ١٣٢)

«النعمة مع جميع الذين يحبون ربنا يسوع المسيح في عدم فساد.»
(أف ٦: ٢٤)

«أما رحمة الرب فإلى الدهر والأبد... لحافظي عهده.»
(مز ١٠٣: ١٧ و١٨)

رغم أننا نخطئ كل يوم بأشكال متعددة،
إلا أن هناك اختلافًا شديدًا بين خطاة
يحفظون عهد الله وخطاة لا يفعلون ذلك.

الفصل التاسع عشر

كم شرطًا هناك؟

في الأمور الصغيرة والكبيرة يصبح الأمر مختلفًا عندما لا تعرف إذا كنت منتفعًا بهذا الأمر أم لا. لنفرض أنك طالب فقير وقد دعاك عمك المتيسر الأحوال أنت وبعض أصدقائك للذهاب معه إلى إحدى الملاهي العالمية لقضاء وقت ترفيهي. لكنك لا تعلم ما إذا كان ينوي دفع تكلفة هذه الرحلة أم لا. وبينما تقترب من شباك التذاكر تنظر بريبة نحوه دون أن تلحظ أدنى إشارة على أنك سوف تنتفع بغناه. وبالتالي تطلب أقل التذاكر تكلفة لتتناسب مع ميزانيتك. لكن جميع أصدقائك يشترون أغلى التذاكر. وتكتشف أن عمك سوف يسدد ثمن التذاكر جميعًا. وهكذا فقد فاتك بشكل ما الوعد بأنك مشمول بكرم عمك عليك.

أو تخيل أن متبرعًا بكبده وبنكرياسه قد تُوفي لتوه، وأنت في حالتك المرضية الحرجة علمت بأنك المستفيد من أعضائه، ألا تتأثر حياتك بعمق عندما تعرف هذا؟ إن أملك يتجدد وتخطيطك للمستقبل سوف ينتعش من جديد. نفس الأمر ينطبق –ربما بأكثر قوة– على الأمور المتعلقة بالأبدية.

واحد من عوائق الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية هو التشكك في أهليتنا لوعود الله. إن غالبية الوعود بالنعمة المستقبلية في الكتاب المقدس تأتي مرتبطة بشروط تأهيلية. والأمر ليس قضية الناموس في مقابل النعمة.. فكل من العهدين القديم والجديد يتوحدان في هذا النموذج. ورسل عهد النعمة الجديد، على غرار موسى وأنبياء العهد القديم، يقدمون وعود النعمة المستقبلية، ليس لجميع الناس دون تمييز، لكن لأولئك الذين...

كيف تنتهي هذه العبارة في الكتاب المقدس؟ لقد تأملنا في الشروط الواردة في رومية ٨: ٢٨ في الفصل الثامن عشر. لكن الآن سوف نلقي بشبكتنا على نطاق أوسع. ما هي شروط وعود النعمة المستقبلية؟ وكيف يرتبط الواحد بالآخر، وبالإيمان المخلِّص؟ يعتمد كل شيء على ذلك عندما تأتي ساعات الصباح المبكرة بتساؤلات القلب الحائرة حول ما إذا كنا حقًا ننتمي إلى زمرة المفديين. نحن نعلم أننا خطاة ولا يمكننا أن نزكي أنفسنا أمام إله قدوس، غير أن الكتاب المقدس يقدِّم وعودًا لأولئك الذين يستوفون بعض الشروط. هل يمكننا أن نتشجع لنصدق هذه الوعود إذا كنا خطاة غير كاملين؟ هذا ما سوف نناقشه في هذا الفصل والفصل التالي.

أولئك الذين يحبون الكتاب المقدس ويتأملون فيه يومًا بعد يوم يدركون غالبًا حجم الشروط المرتبطة بوعود النعمة المستقبلية وتنوعها. سيكون من المفيد لنا أن نعرض بعضًا من هذا التنوع أمامنا؛ وبذلك نستطيع أن نفكر مليًا بشأن ما هو مطلوب منا لكيما نتمتع بنعمة الله المستقبلية في حياتنا.[1]

أولئك الذين يحبون الآب والابن

بجانب رومية ٨: ٢٨ هناك العديد من شروط النعمة المستقبلية المقدمة فقط لأولئك الذين يحبون الله وابنه الرب يسوع. في رسالة أفسس ٦: ٢٤ يقول الرسول بولس: «النعمة مع جميع الذين يحبون ربنا يسوع المسيح في عدم فساد.» لاحظ العلاقة بين النعمة المستقبلية والمحبة الحقيقية ليسوع. إنه لا يهب هذه النعمة للجميع؛ فهناك شرط لهذه النعمة المستقبلية- محبة يسوع محبة قلبية حقيقية ودائمة. ويقدم بولس أيضًا الشرط في شكل تحذيري قاسٍ: «إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أناثيما (ملعونًا)» (١كو ١٦: ٢٢). فاللعنة المستقبلية بدلاً من النعمة المستقبلية تحل على أولئك الذين لا يحبون الرب يسوع.

وقد تحدث يسوع بأسلوب مماثل: «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). إن نعمة محبة الآب ونعمة معرفة يسوع معرفة لصيقة إنما تكون لأولئك الذين يحبون الرب يسوع (راجع مت ١٠: ٣٧). وهكذا الحال مع نعمة قبول إكليل البر من يده في اليوم الأخير: «وأخيرًا قد وُضع لي إكليل البر، الذي يهبه لي في ذلك اليوم، الرب الديان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضًا» (٢تي ٤: ٨).

كذلك كانت النعمة في العهد القديم توهب بشرط أن نحب الله. على سبيل المثال

في مزمور ١١٩: ١٣٢ يصلي المرنم قائلاً: «التفت إليَّ وارحمني، كحق محبي اسمك.» إن النعمة المستقبلية التي نتوق إليها تأتي إلينا إذا أحببنا الله. وقد كان هذا هو الوعد المستمد من جوهر الوصايا العشر ذاتها. ففي الوصية الثانية بشأن عدم تصوير الله بأي أسلوب يقول الرب: «لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي. وأصنع إحسانًا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي.» (خر ٢٠: ٥ و٦) لا تقع هنا في خطأ الظن بأنه لما كانت معونة الله المخلصة تحت عهد الناموس القديم مشروطة، بالتالي فهي لا تمثل نعمة. لقد كانت مشروطة، وكانت أيضًا نعمة، أو كما وردت في العدد ٦ كانت «إحسانًا» (رحمة ومحبة). وسوف ترون فيما يلي أن النعمة كانت دائمًا مشروطة في العهدين القديم والجديد.

في هذا الشأن يربط الرسول بولس العهدين القديم والجديد معًا من خلال اقتباسه لإشعياء ٦٤: ٤: «كما هو مكتوب ما لم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان: ما أعده الله للذين يحبونه. فأعلنه الله لنا نحن بروحه» (١كو ٢: ٩ و١٠). إن عظمة النعمة المستقبلية التي لا يمكن تخيلها معدة لأولئك الذين يحبون الله. وتوضح رسالة يعقوب هذا الأمر بجلاء في وعدين واضحين من وعود النعمة المستقبلية: «طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبونه» (يع ١: ١٢)، «أما اختار الله فقراء هذا العالم أغنياء في الإيمان، وورثة الملكوت الذي وعد به الذين يحبونه» (يع ٢: ٥).

أولئك الذين يتضعون

النعمة تتضاعف للمتضعين: «ولكنه (الله) يعطي نعمة أعظم. لذلك يقول: يقاوم الله المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (يع ٤: ٦). هنا نعمة فوق نعمة. وشرط تحقق هذه النعمة المتضاعفة العظيمة هو روح الاتضاع: «وتسربلوا بالتواضع، لأن الله يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (١بط ٥: ٥).

أولئك الذين يقتربون من الله

إن النعمة المستقبلية لحميمية الله المتزايدة تجاهنا، واستعداده للعودة إلينا بالقوة والبركة بعد أزمنة الحيدان عنه إنما يختبرها كل مَنْ يشعرون بضعفهم الروحي. يقول الرسول يعقوب: إن هذه النعمة تشترط منا الاقتراب إلى الله: «اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم. نقوا أيديكم أيها الخطاة، وطهروا قلوبكم ياذوي الرأيين» (يع ٤: ٨). ويعبِّر

العهد القديم عن هذا الأمر هكذا: «لأن الرب إلهكم حنان ورحيم، ولا يحول وجهه عنكم إذا رجعتم إليه» (٢أخ ٣٠: ٩). إنه «حنان ورحيم»، لكن رحمته مشروطة؛ فهو سوف ينظر إلينا «إذا رجعنا إليه». أما الوجه الآخر للوعد هو التحذير: إذا لم نعد إليه، فإننا نسقط من النعمة: «أقول لكم: بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون» (لو ١٣: ٣).

أولئك الذين يصرخون لله طلبًا للنعمة

هناك نعمة مستقبلية تأتينا فقط إذا صرخنا إلى الله طالبين لها: «ارحمني يارب، لأنني إليك أصرخ اليوم كله» (مز ٨٦: ٣). يتوسل المرنم طلبًا للنعمة على أساس صرخته من أجل المعونة: ارحمني لأنني إليك أصرخ. ويقدِّم إشعياء وعدًا للنعمة المستقبلية مستندًا على نفس هذا الشرط: «يترأف عليك عند صوت صراخك. حينما يسمع يستجيب لك» (إش ٣٠: ١٩).

أولئك الذين يخافون الله

إن مخافة الله ليست اختبارًا سلبيًا لمن يحبون الله. إنه نوع من الرعدة المقدسة والاتضاع الحلو والخضوع الذي يملأنا في محضر قوة وقداسة الله المطلقتين. تحدث نحميا عن عبيد الرب على كونهم «الذين يريدون مخافة اسمك» (نح ١: ١١) (راجع كذلك إش ١١: ٣). وقال المرنم: «لأن عندك المغفرة لكي يُخاف منك» (مز ١٣٠: ٤)، لأن غفران الله ينشئ فينا مخافة له. هناك خوف العبيد الذي يبعدنا عن الله، وهناك خوف لذيذ يقربنا منه. وقد حذر موسى من النوع الأول ودعا إلى النوع الثاني في نفس الآية: «فقال موسى للشعب: لا تخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم، ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا» (خر ٢٠: ٢٠).

أوضح مثال رأيته لهذا النوع من الخوف كان عندما نظر واحد من أبنائي إلى كلب من نوعية الكلاب «الچيرمان شيبرد» في عينيه. كنا نزور أسرة من أعضاء كنيستي وكان ابني «كارستن» يبلغ السابعة من عمره. وكانت الأسرة تمتلك كلبًا ضخمًا وقف مصوبًا عينيه إلى عيني الطفل ذي السبعة الأعوام. وكان الكلب ودودًا ولم يجد «كارستن» صعوبة في مصادقته. لكن عندما أرسلنا كارستن إلى السيارة لإحضار شيء منها كنا قد نسيناه، بدأ في الجري وتبعه الكلب جريًا وهو يصدر غمغمة منخفضة الصوت. وبالطبع أخاف ذلك ابني. لكن قال رب الأسرة: "كارستن، لماذا لا تمشي فقط. فالكلب لا يحب أن يجري الناس من أمامه." فعندما كان ابني

يحتضن الكلب، كان ودودًا معه، بل ربما كان يلعق وجهه. لكن عندما جرى منه، كان الكلب يغمغم ويثير الفزع في قلبه.

هذه صورة واقعية لمعنى مخافة الرب (مع فارق التشبيه بالطبع). فالله يريد أن تملأنا قوته وقداسته مخافة له، ليس أن تبعدنا عنه بل أن تقربنا منه. لكن غضبه يكون ضد أولئك الذين ينسونه ويحبون أمورًا أخرى أكثر منه. إن أكثر الأماكن أمانًا في العالم لنا هو حيث تكون أذرعنا متعلقة بعنق الله. وأكثر الأماكن خطرًا هو الطريق التي منها نهرب من محضر الله.

هذه المخافة لله هي «رأس الحكمة» (مز ١١١: ١٠)؛ فبدونها يكون كل شيء آخر مبنيًا على الرمل. لهذا فليس من المدهش أن نرى الكثير من وعود النعمة المستقبلية مبنية على هذا الشرط.. وإليكم القليل منها:

«يعمل (الله) رضى خائفيه.» (مز ١٤٥: ١٩)

«لأنه مثل ارتفاع السماوات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه.» (مز ١٠٣: ١١)

«هوذا عين الرب على خائفيه.» (مز ٣٣: ١٨)

«ما أعظم جودك الذي ذخرته لخائفيك.» (مز ٣١: ١٩)

«ملاك الرب حال حول خائفيه، وينجيهم.» (مز ٣٤: ٧)

«اتقوا الرب يا قديسيه، لأنه ليس عوز لمتقيه.» (مز ٣٤: ٩)

«أعطيت ميراث خائفي اسمك.» (مز ٦١: ٥)

«لأن خلاصه قريب من خائفيه.» (مز ٨٥: ٩)

«كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه.» (مز ١٠٣: ١٣)

«يبارك متقي الرب.» (مز ١١٥: ١٣)

«يرضى الرب بأتقيائه.» (مز ١٤٧: ١١)

«ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتقونه.» (لو ١: ٥٠)

الرحمة، والجود، والبركة، والخلاص، والمحبة، والميراث، والحماية الملائكية، والإحسان، والحفظ، وإشباع الاحتياج.. هذه هي النعمة المستقبلية التي تنتظر أولئك الذين يخافون الله. جميعها مشروط، وكلها نعمة مجانية غير مستحقة.

أولئك الذين يبتهجون بالله

من اللافت للنظر أن الوعد بأن الله سوف يسد أعواز قلوبنا لنا، ليس فقط بشرط أن نخافه (مز ١٤٥: ١٩)، لكن أيضًا بشرط أن نبتهج به: «تلذذ بالرب فيعطيك سُؤل قلبك» (مز ٣٧: ٤). لكن ربما لا يجب أن يبدو هذا بالغريب؛ إذ على القديسين أن يتلذذوا بمخافة الرب (نح ١: ١١).

أولئك الذين يترجون الله

تأتي إلينا نعمة الرب ورحمته بحسب رجائنا فيه: «لتكن يارب رحمتك علينا حسبما انتظرناك» (مز ٣٣: ٢٢). وتأتي الوصية قائلة: «لتتشدد ولتتشجع قلوبكم، يا جميع المنتظرين الرب» (مز ٣١: ٢٤). والسبب وراء تشدد أولئك الذين يترجون الرب هو أنهم ينتفعون بوعد النعمة المستقبلية القائل: «هوذا عين الرب على... الراجين رحمته» (مز ٣٣: ١٨). إن أسلوب الحياة المتغير والمتسم بالقوة والشجاعة في أمور البر ينبع من الرجاء في محبة الله التي تنبع بدورها من الإيمان بالنعمة المستقبلية.

أولئك الذين يلجأون إلى الله

تتعلق خبرة النعمة المستقبلية غالبًا بما إذا كنا نلتجئ إلى الله، أو إذا كنا نشك في عنايته ونركض لنجد العون في ملاذ آخر. بالنسبة لأولئك الذين يلجأون إلى الله فإن الوعود بالنعمة المستقبلية كثيرة وغنية:

«ارحمني يا الله ارحمني، لأنه بك احتمت نفسي.» (مز ٥٧: ١)

«احفظني يا الله لأني عليك توكلت.» (مز ١٦: ١)

«ما أعظم جودك الذي... وفعلته للمتكلين عليك.» (مز ٣١: ١٩)

«كل من اتكل عليه لا يعاقب.» (مز ٣٤: ٢٢)

«أما خلاص الصديقين فمن قبل الرب، حصنهم في زمان الضيق.» (مز ٣٧: ٣٩)

«ترس هو لجميع المحتمين به.» (٢صم ٢٢: ٣١)

«طوبى لجميع المتكلين عليه.» (مز ٢: ١٢)

«صالح هو الرب، حصن في يوم الضيق، وهو يعرف المتوكلين عليه.» (نا ١: ٧)

نحن لا نستحق أو نستأهل أي شيء بالتجائنا إلى الله. فالاختباء في مكان لا يضيف شيئًا لمكان الاختباء. كل ما في الأمر أن هذا يبين عجز حيلتنا ويبين أن مكان الاختباء هو وسيلتنا للنجاة. الشرط الذي يجب أن يتوافر فينا لنوال النعمة ليس على سبيل الاستحقاق، لكنه شرط اليأس والاعتراف بضعفنا واحتياجنا. إن العوز لا يطالب أو يستحق، لكنه يتوسل من أجل الرحمة ويتطلع إلى النعمة.

أولئك الذين ينتظرون الله

تأتي النعمة المستقبلية في توقيت الله. وعلينا أن ننتظرها. وعندما يتحدث الكتاب المقدس عن انتظار الرب فهو لا يقصد بذلك أن نفعل ذلك بضجر وعدم إيمان، بل المعنى هو أن ننتظره بثقة كافية؛ بحيث أنه حتى إذا تأخر فإننا لا نتحول عنه إلى مصدر آخر للعون. فانتظار الرب هو الشرط الذي يحظى بالكثير من النعمة.

«أيضًا كل منتظريك لا يَخزَوا.» (مز ٢٥: ٣)

«الذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض.» (مز ٣٧: ٩)

«يرضى الرب... بالراجين رحمته.» (مز ١٤٧: ١١)

«طيب هو الرب للذين يترجونه.» (مرا ٣: ٢٥)

أولئك الذين يثقون في الله

يريد الرب أن يرانا واثقين فيه. وهو لا يمكنه أن يكرِّم اسمه أو يبارك بلا حدود في حياة مَنْ لا يثقون به. لذلك فالثقة في الرب شرط لا يمكن الاستغناء عنه لبركات النعمة المستقبلية. وهناك تحذيرات جادة فيما يخص عدم الإيمان: «سمع الرب فغضب... لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتكلوا على خلاصه» (مز ٧٨: ٢١ و٢٢). لكن هناك وعود إيجابية أكثر بكثير بشرط الإيمان بالرب والثقة في شخصه:

«... أما المتوكل على الرب فالرحمة تحيط به.» (مز ٣٢: ١٠)

«إن لم تؤمنوا فلا تأمنوا.» (إش ٧: ٩)

«من آمن لا يهرب.» (إش ٢٨: ١٦)

«وتشجع بنو يهوذا لأنهم اتكلوا على الرب.» (٢أخ ١٣: ١٨)

«آمنوا بالرب إلهكم فتأمنوا. آمنوا بأنبيائه فتفلحوا.» (٢أخ ٢٠: ٢٠)

«عليك اتكل آباؤنا. اتكلوا فنجيتهم.» (مز ٢٢: ٤)

«سلِّم للرب طريقك واتكل عليه وهو يجري.» (مز ٣٧: ٥)
«خلِّص أنت عبدك المتكل عليك.» (مز ٨٦: ٢)
«توكل على الرب بكل قلبك... وهو يقوم سبلك.» (أم ٣: ٥ و٦)
«يارب الجنود، طوبى للإنسان المتكل عليك.» (مز ٨٤: ١٢)

أولئك الذين يحفظون عهده

لم يكن حفظ عهد الرب يعني الحياة بكمال، لكنه كان يعني الحياة في تكريس دائم للرب وثقة ومحبة في شخصه.. كان يعني أيضًا حياة تتحول عن الشر وتتبع الرب في كل طرقه. وعند حدوث زلة ما كان الشخص الحافظ العهد يتذكر كلمات العهد على جبل سيناء: «الرب الرب إله رحيم ورؤوف... غافر الإثم والمعصية والخطية» (خر ٣٤: ٦ و٧)، فيتوب ويُصعد ذبيحة فيحصل على الغفران والتجديد.

عندما يقول العهد القديم إن حفظ العهد شرط لنوال رأفة الله، فإن هذا ما يعنيه فعلاً. وأنا هنا لا أشير إلى الكمال. «أما رحمة الرب فإلى الدهر والأبد... لحافظي عهده وذاكري وصاياه ليعملوها» (مز ١٠٣: ١٧ و١٨)، «كل سُبل الرب رحمة وحق لحافظي عهده وشهاداته» (مز ٢٥: ١٠). إن كل عهود الرب عهود نعمة مشروطة- سواء في العهد القديم أو العهد الجديد. فهي تقدم نعمة مستقبلية كافية لأولئك الذين يحفظون العهد.

هذا الشرط بحفظ العهد لنوال النعمة المستقبلية لا يعني أننا نخسر الضمان أو الاطمئنان؛ لأن الله قد ألزم نفسه بإتمام العمل الذي بدأه في المختارين (في ١: ٦). فهو يعمل فينا لنريد ولنعمل مسرته (في ٢: ١٢ و١٣). إنه يعمل فينا ما يرضي أمامه (عب ١٣: ٢١). وهو يحقق شروط العهد بواسطتنا (حز ٣٦: ٢٧). إن ضماننا ثابت بقدر أمانة الله.

لكن ما معنى أن كل البركات المستقبلية تقريبًا[٢] في الحياة المسيحية مشروطة بحفظنا للعهد؟ واحد من أفضل الأماكن التي فيها نرى أن هذا الحفاظ على العهد ليس مستحيلاً أو مستبعدًا هو مزمور ٢٥. عند قراءتك للمقطع التالي من المزمور، لاحظ أن الكلمات المكتوبة بخط مائل تعبِّر عن أعمال نعمة الله، والتي لا يستحقها الإنسان، أما الكلمات المكتوبة بخط غامق فهي تعبِّر عن الشروط التي تتوافر في المرنم ليتمتع ببركات النعمة هذه.

> الرب صالح ومستقيم، لذلك يعلم الخطاة الطريق. يدرب **الودعاء** في الحق، ويعلم **الودعاء** طرقه. كل سبل الرب رحمة وحق **لحافظي عهده** وشهاداته. من أجل اسمك يارب اغفر إثمي لأنه عظيم. مَنْ هو الإنسان **الخائف الرب**؟ يعلمه طريقًا يختاره.... التفت إليّ وارحمني، لأني وحيد ومسكين أنا... انظر إلى ذلي وتعبي، واغفر جميع خطاياي.... احفظ نفسي وأنقذني، لا أخزى **لأني عليك توكلت....** يحفظني **الكمال والاستقامة، لأني انتظرتك.**

لاحظ أن هناك شروطًا نحققها في سبيل الحصول على الإرشاد الإلهي (ع ٩)، ورحمته (ع ١٠)، وتعليمه (ع ١٢) وحفظه (ع ٢٠). غير أن هذا الحفظ للعهد يحققه "خطاة" (ع ٨، ١١). لاحظ كذلك أن هؤلاء الخطاة حافظي العهد الذين يحظون بإرشاد الله وحمايته يحفظهم "الكمال والاستقامة." (ع ٢١)

بكلمات أخرى، رغم أننا نخطئ كل يوم بطرق مختلفة[٣]، إلا أن هناك فرقًا كبيرًا بين خطاة يحفظون عهد الله وخطاة لا يفعلون ذلك. والأمر الذي يواجهنا في ضوء هذا المزمور هو: هل نحن "ننتظر الرب" (ع ٢١)، و"نتكل عليه" (ع ٢٠)، و"نخافه" (ع ١٢)، و"نتضع أمامه" (ع ٩)، وبهذه الطريقة "نحفظ عهده" (ع ١٠)؟ هؤلاء هم الخطاة الذين سيقودهم الله ويحميهم.

أشعر بصعوبة في تصور وجود أي أمر آخر أكثر أهمية في حياتنا من حفظ العهد الذي أقامه الله معنا من أجل خلاصنا النهائي. ويرهبني جدًا تحذير العهد الجديد من أن البعض في الكنيسة «لا يرثون ملكوت الله» (غل ٥: ٢١؛ ١كو ٦: ٩). إنه لأمر صادم بالنسبة لي كيف أن الكثير من المؤمنين لا يبالون بهذا الأمر. إن الأمر يبدو كما لو أن الخلاص شيء عرضي لا نقاش فيه، وكما لو أن النعمة فرصة للحظيان بأكبر قدر يمكن تخيله من التسامح الإلهي. أرجو أن يعيدك كل ما رأيناه إلى التوازن بعيدًا عن هذه الترهات. وأصلي وأنا أكتب هذه الكلمات أن تنتقل إلى الفصل التالي حيث نتساءل عن كيف ترتبط كل هذه الشروط المتباينة معًا. هل هي حقًا متباينة؟ كيف ترتبط بعضها ببعض وبالإيمان؟ هل هناك عنصر موحد يساعدنا في الحصول على رؤية متماسكة لحياتنا دونما توتر وكذلك دون تجاهل؟ أظن أن هذا متوفر. وأدعوك للبحث عنه معي.

نحن لسنا مطالبين بأن نحب الآخرين
قبل أن نصبح أناسًا يثقون في الله.
غير أن الثقة في الله تعني الثقة في نعمته المستقبلية.
وهكذا من الممكن، وبالطبع من المهم،
أن نعتمد على مواعيد النعمة المستقبلية
قبل أن نتحول إلى نوعية الناس التي تحب الآخرين.
ليس علينا أن نمارس قبل الإيمان
ما يُفترض في الإيمان أن يجعلنا نمارسه.

الفصل العشرون

ماذا يستطيع الإيمان وحده أن يفعل

إشكالية مستترة

لأولئك الذين دُعوا[1] إلى شركة المسيح، إن فيض النعمة المستقبلية مجاني، لا ينضب، غير مستحق -ومشروط.. هذا ليس تناقضًا، وإنما متوافقًا تمامًا مع الكتاب المقدس، كما شرحت في الفصلين السابقين. وهذا ليس متناقضًا مع الفكرة الأساسية لهذا الكتاب، وهي: التقديس بالإيمان بعيدًا عن أي أعمال استحقاقية. لكن هناك إشكالية مستترة وراء مشروطية النعمة المستقبلية. فمن جهة أرى أن الإيمان بالنعمة المستقبلية هو الوسيلة الي بها نتحرر من وعود الخطية الزائفة ونفوز بالقوة والشجاعة لنحيا الحياة المسيحية الأصيلة المغامرة. ومن جهة أخرى يبدو أن شروط النعمة المستقبلية تقول إنه قبل أن أستطيع أن أعرف أن الوعود تنطبق عليَّ، ينبغي أن أحيا بالفعل حياة يمكن للوعود وحدها أن تقويها.

بكلمات أخرى أقول: هل تجعلنا الوعود صالحين، أم علينا أن نكون صالحين لكي تتحق لنا الوعود؟

في هذا الفصل أرجو أن أوضح أن هذه ليست معضلة حقيقية. فليس علينا أن نمارس قبل الإيمان ما يمكن للإيمان فقط أن يحققه. لكن لكي نرى ذلك علينا أن نوضح أن شروط النعمة المستقبلية التي عرض الفصل السابق خطوطها العريضة تنتمي جميعها لنوعية خاصة. لقد كانت الشروط العشرة هي: محبة الله، الاتضاع،

الاقتراب من الله، الصراخ إلى الله من عمق القلب، مخافة الله، الابتهاج بالله، ترجي الله، الالتجاء إلى الله، انتظار الله، والثقة في الله. والشرط الحادي عشر كان حفظ العهد الإلهي، والذي أعتقد أنه يلخص جميع الشروط الأخرى.

الأعمال الداخلية للنفس المؤمنة

الأمر المشترك في جميع هذه الشروط هو أنها جميعًا أعمال داخلية روحية للنفس تجاه الله. فهي ليست سلوكيات ظاهرة لعلاقات مع أشخاص آخرين. لذلك فإن ما تمثله كل هذه الشروط إنما هو نوعية معينة من القلوب.. فهي تصف القلب الذي يقبل النعمة. فهي ليست سلوكيات استحقاقية تصدر من قلب يشير إلى قيمته فيصبح الله مديونًا لنا، بل إنها أعمال نكران الذات والإخلاء أمام كل ما يمثله الله لنا.

على سبيل المثال، إن محبة الله والابتهاج به والاقتراب إليه تعني أن ننظر إلى الله في جماله واستحقاقه وقيمته. ويعني انتظار الله والالتجاء إليه والصراخ له أن ننظر إليه كملجأ حصين. كذلك الثقة في الله تعني اتكالنا على أمانته في تسديد كل احتياجاتنا. وتعني مخافة الله أن نقف في خشوع في الهوة الشاسعة التي تفصل بين قداسته وقوته من جهة وخطيتي وضعفي من الجهة الأخرى. إن امتلاك قلب مثل هذا هو الشرط الداخلي لحفظ العهد مع الله.

في واقع الأمر، بينما تتأمل في هذه الشروط العشرة، فإن انفصالها عن بعضها البعض يبدأ في التلاشي رويدًا رويدًا، وعوضًا عن ذلك تبدو أنها طرق مختلفة لوصف القلب العامر بالإيمان. وهذا في الواقع هو ما أراه بالفعل. فالقلب الذي يكتفي بكل ما يمثله الله لنا في المسيح يتميز بكل هذه البركات. وكل هذه الأعمال الصادرة من القلب إنما هي بمثابة دوائر تتداخل مع دائرة الإيمان المخلِّص. فالإيمان ليس مطابقًا لأي منها، كما أن هذه الأعمال ليست متطابقة مع الإيمان. لكن عناصر من كليهما تمتزج معًا لتشكل حقيقة الإيمان.

إن الإيمان المخلِّص بطبيعته يحب الله، ويبتهج به لكونه يمثل كل ما يكفي النفس ويشبعها. ويتصف الإيمان المخلِّص بالاتضاع لأنه بطبيعته ييأس من الذات ويتطلع إلى الله. كما يقترب الإيمان المخلص من الله صارخًا له وينتظره ملتجئًا إليه واثقًا فيه وراجيًا إياه: لأن جوهر الإيمان هو أن يرى الله وحده ويمسك به لكونه الكافي لسد كل احتياج. ويرتعد الإيمان المخلص لفكرة إهانة مثل هذا الإله العظيم من

خلال عدم الإيمان بمواعيده. إن جميع شروط النعمة المستقبلية التي رأيناها ليست إضافات للإيمان، لكنها تعبيرات عنه.

شروط النعمة المستقبلية الظاهرة والتي ليست إيمانًا

لكن، ليس من السهل حل المعضلة التي ذكرناها آنفًا. فما لم نُلقِ له بالاً في الفصل السابق هو شروط النعمة المستقبلية التي تحوي أعمالاً ظاهرة من نحو الآخرين بالإضافة إلى الأعمال الداخلية من نحو الله. لا تعد هذه الشروط جزءًا من جوهر الإيمان. إذًا ما هو وضعها؟ فيما يلي القليل من شروط النعمة المستقبلية التي ليست إيمانًا لكنها تنبع من الإيمان.

لقد قال يسوع إنه «تأتي ساعة فيها... يخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو ٥: ٢٨ و٢٩). وهكذا فإن النعمة المستقبلية لقيامة الحياة توهب لأولئك الذين فعلوا الصالحات. وعلى الوجه الآخر من الوعد هناك التحذير من الإتيان بالأعمال الشريرة: «إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله» (غل ٥: ٢١). وهنا النعمة المستقبلية ميراث الملكوت مرهونة بعدم ممارسة أعمال الجسد.

يقدِّم يوحنا تحذيرًا مماثلاً فيما يخص سلوك المحبة بوجه خاص: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة، مَنْ لا يحب أخاه يبق في الموت» (١يو ٣: ١٤). فنحن لا يمكننا ضمان النعمة المستقبلية للحياة الأبدية ما لم نكن نحب «ومَنْ لا يحب لم يعرف الله؛ لأن الله محبة» (١يو ٤: ٨).

ويأخذ الرب يسوع تعبيرًا خاصًا عن المحبة ليجعله شرطًا للنعمة المستقبلية للغفران الإلهي المستمر لنا: «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم» (مت ٦: ١٤ و١٥). ويلخص كاتب الرسالة إلى العبرانيين مشروطية النعمة المستقبلية بكلمة "قداسة" أو "تقديس": «اتبعوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» (عب ١٢: ١٤).

هذه الشروط الإضافية للنعمة المستقبلية تختلف عن العشرة الذين سبق تناولهم في الفصل السابق؛ فهي أفعال أو اتجاهات من نحو الآخرين، وليس فقط سلوكيات قلبية داخلية من نحو الله. والآن تبدو ملامح انفراجة للمعضلة التي تحدثنا عنها قبلاً. أيجب علينا أن نلبي هذه الشروط قبل أن نتأكد من أن مواعيد النعمة المستقبلية لنا، أم أن ثقتنا في أنها لنا هي الوسيلة التي بها نستوفي هذه الشروط؟

المحبة هي تكميل الناموس

أولاً، لاحظ أن جميع الشروط تتلخص في المحبة. لقد قال الرسول بولس، فيما يخص الأعمال الصالحة وإطاعة وصايا الله، أن هذا بالضبط ما تحققه المحبة: «المحبة لا تصنع شرًا للقريب، فالمحبة هي تكميل الناموس» (رو ١٣: ١٠). ودون شك يمثل الغفران تعبيرًا عن المحبة (١كو ١٣: ٥). ويقول بولس أيضًا إن المحبة هي جوهر القداسة أو التقديس: «والرب ينميكم ويزيدكم في المحبة... لكي يثبت قلوبكم... في القداسة» (١تس ٣: ١٢ و١٣). بمعنى آخر أن كل السلوكيات المطلوبة من الإنسان المؤمن يمكن تلخيصها في المحبة: «لتصر كل أموركم في محبة» (١كو ١٦: ١٤).

فمن ثَمَّ مارأيناه هو أن شروط النعمة المستقبلية العشرة والتي ناقشناها في الفصل السابق تتلخص كلها في الإيمان. والشروط السلوكية التي ناقشناها للتو تتلخص جميعها في المحبة.. مما يعني أننا يمكننا الآن القول بأن الشروط التي ينبغي على المؤمن أن يستوفيها لكي يستمر في التمتع ببركات النعمة المستقبلية هي الإيمان والمحبة.

هناك تأكيد لافت للانتباه لكوننا على الطريق الصحيح في هذه الرؤية التلخيصية. فقد قال الرسول بولس إن السلوك في الناموس ينبغي أن يكون بالإيمان (رو ٩: ٣٢)، ويقول إن كل الناموس يكمل في كلمة واحدة: تحب قريبك كنفسك (رو ١٣: ٩). هذان الأمران، الإيمان والمحبة، يمثلان بؤرة الفكر الكتابي كتلخيص لكل ما يطلبه الله من شعبه.

لقد قدَّم يوحنا الأمر بصورة واضحة في رسالته الأولى: «وهذه هي وصيته: أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح، ونحب بعضنا بعضًا» (١يو ٣: ٢٣). المدهش هنا هو أن كلمة "وصية" جاءت في صيغة المفرد رغم أنه يوصي بأمرين. هذه هي الوصية: آمن وأحبب. تمثل الوصيتان ليوحنا وصية واحدة لا يمكن فصلها أو التفرقة فيها. والمحبة في فكره تُوجَّه للآخرين بينما يُوجَّه الإيمان إلى المسيح.

كذلك تجد في كتابات الرسول بولس أن كلمتي الإيمان والمحبة يردان معًا في الكثير من المرات على كونهما مجمل ما ينتظره الرسول من كنائسه: «سمعت بإيمانكم بالرب يسوع، ومحبتكم نحو جميع القديسين» (أف ١: ١٥)، «سامعًا بمحبتك، والإيمان الذي لك نحو الرب يسوع، ولجميع القديسين» (فل ٥)، «سمعنا إيمانكم بالمسيح يسوع، ومحبتكم لجميع القديسين» (كو ١: ٤)، «لأن إيمانكم ينمو كثيرًا، ومحبة كل واحد منكم جميعًا بعضكم لبعض تزداد» (٢تس ١: ٣)، «جاء إلينا تيموثاوس من عندكم، وبشرنا بإيمانكم ومحبتكم» (١تس ٣: ٦)، «وتفاضلت نعمة ربنا جدًا مع الإيمان

والمحبة التي في المسيح يسوع» (١تي ١: ١٤)، «تمسك بصورة الكلام الصحيح الذي سمعته مني، في الإيمان والمحبة التي في المسيح يسوع» (٢تي ١: ١٣).

أخلص من هذا إلى أنه ليس من قبيل الصدفة أن قائمة كاملة من شروط النعمة المستقبلية تتلخص في الإيمان، وقائمة أخرى تتلخص في المحبة. يبدو أن الرسل قد نظروا إلى الأمر بهذا الأسلوب.

كيف يُعتبر الإيمان والمحبة شرطين للنعمة المستقبلية؟

الآن نحن في وضع نسأل فيه مجددًا بشأن معضلتنا. هل شرط المحبة للآخرين يعني أننا قبل أن نطالب بوعد من وعود النعمة المستقبلية، علينا بالفعل أن نكون على الصورة التي من المفترض من الوعد أن يساعدنا على بلوغها، أي أن نكون أشخاصًا محبين بصورة حاسمة ومغامرة؟ هل علينا أن نمارس، قبل الإيمان، ما يجب على الإيمان أن يساعدنا على ممارسته؟ الإجابة هي: لا.

والسبب هو أن الإيمان الموجَّه إلى الله والمحبة الموجهة للإنسان ليسا شرطين متوازيين، فهما ينميان جنبًا إلى جنب في القلب. فالإيمان ينشأ أولاً ثم تولد المحبة. وهذا واضح من غلاطية ٥: ٦: «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبة»؛ فالإيمان ينتج كل ما يطلبه الله، ويحققه من خلال المحبة.[٢] كذلك يقول الرسول بولس الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ١: ٥: «وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء.» لذا فإن المحبة هي الهدف، والإيمان هو المصدر.

معنى هذا أن المحبة ليست منتظرة منا قبل الإيمان؛ فالإيمان هو أصل ومصدر المحبة. دع الأمر لا يختلط عليك هنا بسبب عباراتنا السابقة عن أن المحبة جزء من جوهر الإيمان. فهذه كانت إشارة إلى المحبة من نحو الله، أما هنا فنحن نتكلم عن المحبة من نحو الآخرين. نحن لسنا مطالبين بأن نحب الآخرين قبل أن نصير أناسًا يثقون في الله. غير أن الثقة في الله تعني الثقة في نعمته المستقبلية. وهكذا فمن الممكن –وبالطبع من المهم جدًا– أن نعتمد على مواعيد الله المستقبلية قبل أن نتحول إلى نوعية الناس التي تحب الآخرين. ليس علينا أن نمارس قبل الإيمان ما يُفترض في الإيمان أن يجعلنا نمارسه.

قد يكون ما يمارسه الإيمان في غاية الصعوبة في بعض الأحيان. يحكي «إرنست جوردون» في كتابه «معجزة على نهر كواي» القصة الحقيقية لمجموعة من أسرى

''حرب كانت تعمل في خطوط سكة حديد بورما خلال الحرب العالمية الثانية:

في نهاية كل يوم كان يتم تجميع الأدوات في مجموعات العمل. في أحد الأيام صرخ حارس ياباني معلنًا اختفاء أحد الجواريف، وأصر على معرفة الشخص الذي أخذه. وبدأ في الصراخ والاحتداد الشديد، ودخل في نوبة من الغضب العارم مطالبًا مَنْ أخذ الجاروف بالتقدم إلى الأمام. وإذ لم يتقدم أحد صاح قائلاً: "الموت لجميعكم" موجهًا سلاحه نحو المساجين. في هذه اللحظة تقدم أحد الرجال وأرداه الحارس قتيلاً وهو واقف في صمت يثير الاهتمام. وعندما عادوا إلى المعسكر، تم إحصاء الأدوات مرة أخرى ولم يكن هنالك نقص فيها.[٣]

ما الذي يدفع المرء للموت من أجل الآخرين، رغم براءته؟ الإجابة نجدها في رسالة العبرانيين ١٢: ٢: «من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل [يسوع] الصليب، مستهينًا بالخزي، فجلس في يمين عرش الله.» إن ما شجَّع وثبَّت الرب يسوع في محبته لنا كان «السرور الموضوع أمامه». معنى هذا أن محبته تدعمت بواسطة الإيمان بالنعمة المستقبلية.[٤] فكإنسان يقدِّم لنا نموذجًا في كيفية حمل الصليب واتباعه على طريق المحبة إلى الجلجثة، أودع يسوع نفسه للآب (١بط ٢: ٢٣)، وألقى رجاءه على القيامة وكل أفراح لقائه بالآب مرة أخرى وفدائه لشعبه. إن ثقته في أبيه أعلنت عن نفسها من خلال المحبة.

كيف تُعتبر المحبة شرطًا للنعمة المستقبلية؟

عندما يذكر الكتاب المقدس سلوك المحبة -أو أحد أشكاله- كشرط للنعمة المستقبلية، نحتاج أن نتذكر أمرين. الأول هو: المحبة للآخرين لا تنبع في كمال بهائها من تربة الإيمان، لكنها تنمو وتكبر شيئًا فشيئًا (١تس ٣: ١٢؛ في ١: ٩). إن شرط النعمة المستقبلية ليس المحبة الكاملة، بل المحبة الحقيقية. دأب البيوريتانيون الحديث عن "مبدأ" جديد للمحبة في القلب. هذا المبدأ يكون في القلب بمجرد أن نختبر الميلاد الثاني. وتعتبر سلوكيات المحبة نتاجًا لمبدأ المحبة هذا والمتأصل في تربة الإيمان. لذلك علينا ألا نعتقد أن بركات النعمة المستقبلية سوف تتأجل بما أن محبتنا سوف تحتاج لوقت كثير حتى تثبت وجودها؛ فالله يرى القلب ويعرف ما بداخله.

لكن هنالك أمر آخر علينا أن نتذكره عندما يتعرض الكتاب المقدس إلى محبة

الآخرين كشرط للنعمة المستقبلية. علينا أن نُبقي في ذهننا أن المحبة ترتبط بالإيمان ارتباط البرهان بالأصل.[٥] فالمحبة هي البرهان اللازم لإظهار حقيقة الإيمان. الإيمان يدرك ويقبل جمال وقيمة كل ما يمثله الله لنا في وعود النعمة المستقبلية. هذا الإدراك الروحي لمجد الله في الوعود هو الأداة التي يستخدمها الله ليوحدنا مع المسيح ويربطنا بالفيض الروحي للنعمة المستقبلية. لكن هذه النوعية من الإيمان لا شك أنها "تعمل بالمحبة" (غل ٥: ٦)، بحيث أن المحبة تؤكد على أصالة الإيمان. هذا ما كان يحمله الرسول بطرس في ذهنه عندما كان يشجِّع في رسالته الثانية على أن ندلل على ثبات دعوتنا واختيارنا (كما توضح العلاقة مع عدد ٧) من خلال المحبة (راجع ٢بط ١: ١٠). وهو أيضًا ما قصده يوحنا بقوله: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة» (١يو ٣: ١٤).

وهكذا، ففي بعض الأحيان يجعل الكتاب المقدس من المحبة شرطًا لاختبار النعمة المستقبلية المستمرة والنهائية. وليس معنى ذلك أن المحبة يجب أن تسبق الإيمان بالوعد. على العكس من ذلك، هذا يعني أن الإيمان بالوعد يجب أن يكون من الحقيقة بحيث أن المحبة التي تنتج عنه تثبت جدية هذا الإيمان. وهكذا فالمحبة للآخرين تمثل شرطًا للنعمة المستقبلية بمعنى أنها تؤكد أن الشرط الأساسي -أي الإيمان- حقيقي وأكيد. يمكننا اعتبار المحبة للآخرين شرطًا ثانويًا يثبت حقيقة الإيمان كشرط أساسي.

لنتأمل هذا التشبيه! هَب أنك تعيش في قرية تستمد الكهرباء بواسطة مُولِّد موجود على تلة قريبة. في كل مساء يقرر صاحب المولِّد أي المنازل التي ستحصل على الطاقة. ووضع شرطين للحصول على كهرباء للإنارة في منزلك. أولاً، يقول: "إذا رأيت أنوارًا في منزلك فسوف أُبقي على سريان الكهرباء إلى منزلك، أما إذا لم أرَ أية أنوار لفترة من الوقت، فسوف أفترض أنك لستَ بالمنزل وبالتالي سوف أقطع الكهرباء عنه."

في هذا المثل التوضيحي، الاتصال بمصدر الكهرباء هو شرط الإيمان بمواعيد الله. فهي تجعلك تتصل بقوة النعمة المستقبلية. هذا هو الشرط الأساسي للنعمة المستقبلية. لكن هنالك شرط آخر.. إذا لم تضئ المصابيح ولم يكن هناك نور، فإن مصدر الكهرباء سوف ينقطع. هذه الأنوار في المنزل تمثل الشرط الثانوي لمحبة الآخرين. فأنت لا تملك ضوءًا لكي تحصل على كهرباء. إن أنوارك تثبت أن المصباح متصل بالكهرباء. ومحبتك تثبت أصالة إيمانك- أي أنك بالحقيقة متصل بالله وتشعر بالاكتفاء بكل ما يمثله الله لك في المسيح. فالنور والمحبة كلاهما شرطان للنعمة المستقبلية. وإذا كان الله يرى أنك لا تملكهما، فسوف يعرف أنك لست متصلاً بمصدر

النعمة المستقبلية بالإيمان، وسوف يخبرك بأن هذا الإظلام وعدم المحبة لن يُعطى لهما إحسانات النعمة المستقبلية.[٦]

وهكذا فالإيمان والمحبة شرطان للنعمة المستقبلية، لكن ليس بنفس الطريقة. فالإيمان يدرك مجد الله في مواعيد النعمة المستقبلية ويقبل ما تعلنه المواعيد عن كل يمثله لنا الله في المسيح. هذا الإدراك الروحي والابتهاج بالله إنما يمثلان البرهان الذاتي على أن الله قد دعانا لنستفيد بنعمته. هذا البرهان يحررنا لنتكل على الوعد كأنه لنا، وهذا الاتكال على الوعد يقوينا لنحب، وبدوره يثبت لنا الحب صدق إيماننا.

إن العالم يتوق إلى إيمان يجمع الأمرين: إدراكًا متينًا لا يتزعزع بالحق الإلهي، وقوة عملية ومستمرة تصنع فرقًا محررًا في الحياة. وهذا ما أتوق إليه أيضًا. ولهذا السبب أنا مسيحي.. هناك إله منعم عظيم يعلن كفايته من خلال تحقيقه الوعود لأناس عاجزين يثقون فيه، وهناك قوة تأتي من الالتصاق بهذا الإله الذي لا يترك ركنًا أو زاوية في الحياة إلا ويلمسها بلمسته. هذه القوة تمكننا من أن نظهر المحبة بأكثر الطرق العملية. واحدة من الأساليب التي يطلق بها هذا الإيمان المحبة هو الانتصار على نوازع الانتقام لأنفسنا من الشرور التي تلحق بنا. في الفصل القادم سوف نتأمل في كيفية حدوث هذا. كيف يعمل تقديرنا لكل ما يعدنا به الله على تطهيرنا من سطوة الانتقام ومرارته؟

«لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب،
لأنه مكتوب: لي النقمة أنا أجازي، يقول الرب.»
(رو ١٢: ١٩)

لا يمكننا تجاهل سلوكيات الآخرين الحقيرة،
غير أنه ليس من حقنا تنفيذ عقوبة القانون.
ليس لدينا الحق أن نكمِّل الدورة الأخلاقية..
ورغم أنه لا يوجد ما يعوقنا روحيًا عن أن نصرخ ضد الظلم،
إلا أن نقاء حياتنا الأخلاقية يتدهور
في اللحظة التي نحاول أن نقيم العدل بأيدينا.
«إدوارد چون كارنيل»

إن وادي روح المرارة المظلم -قصير المدى أو طويل المدى-
لا يمكنه أن يعيش في الطرق السامية للإيمان بالنعمة المستقبلية.
فالانتقام يتطلب الأودية الضبابية لرثاء الذات والخوف والخواء.
إنه لا يتحمل الاكتفاء والثقة وملء الفرح
الذي يأتي من إله النعمة المستقبلية الغافر.

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة المرارة

ماذا بشأن الإيمان بالعدالة المستقبلية؟

هل دينونة الله على أعدائنا لمحة من لمحات النعمة المستقبلية من نحونا؟ هذا سؤال حاسم لأن الفكرة المحورية لهذا الكتاب هي معاونة الناس على الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية. لكن ما أجده في العهد الجديد هو أن واحدًا من الأساليب القوية للانتصار على المرارة والانتقام هو امتلاك الإيمان في الوعد بأن الله سوف يحاسب أعداءنا، وبالتالي ليس علينا أن نفعل ذلك. يُعلِّم العهد الجديد بأننا قد تحررنا من الانتقام من خلال إيماننا بأن الله سوف ينتقم لنا، إذا تطلب الأمر ذلك. لذا فسؤالي هو: هل الإيمان بانتقام الله نموذج للإيمان بالنعمة المستقبلية، أم أنه فقط إيمان بالعدالة المستقبلية؟ إجابتي هي أن الإيمان بدينونة الله إنما هو شكل آخر للإيمان بالنعمة المستقبلية. لذا فالحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية تحتوي على الانتصار على الانتقام والمرارة من خلال الثقة في أن الله سوف يقضي بعدل في كل يحدث لنا.

تأمل معي للحظات وعد الله بالعدالة المستقبلية. في سفر الرؤيا أصحاح ١٨ نجد وصفًا لدينونة الله على القوى المرتفعة المضادة للمسيحية. في بعض الأحيان تُسمى هذه القوى «بابل» للإشارة إلى عدائها لشعب الله، وفي أحيان أخرى تدعى «الزانية

العظيمة» للإشارة إلى فجورها. وهنا قد تتولد لدى الإنسان المؤمن مشاعر الانتقام والمرارة. فهؤلاء الأعداء يهزأون بوصايا الله في فجور، ويسفكون دماء المؤمنين. أضف إلى ذلك أنهم سيستمرون في غيهم بلا توبة إلى النهاية. في سفر الرؤيا يقول يوحنا: «وفيها (في بابل) وجد دم أنبياء وقديسين»، و«قد دان الزانية العظيمة التي أفسدت الأرض بزناها» (رؤ ١٨: ٢٤؛ ١٩: ٢). كيف يجب على المؤمنين أن يتجابوا مع هكذا فجور واضطهاد؟

إن وصية الرب يسوع في هذا العالم هي: «أحبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يسئون إليكم» (مت ٥: ٤٤)، والسبب وراء هذه الوصية هو: «لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين» (مت ٥: ٤٥). وفي هذه الحياة يسكب الله بركاته على أولئك الفجار والقساة. وقال الرسول بولس إلى الأمم الذين لم يسمعوا قط عن الإله الحقيقي: «وهو (الله) يفعل خيرًا: يعطينا من السماء أمطارًا وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبنا طعامًا وسرورًا» (أع ١٤: ١٧). وفي كل هذا، يُبدي الله «لطفًا وإمهالاً وطول أناة» بدون استحقاق أحد، ومن شأن ذلك أن يقود الأمم نحو التوبة (رو ٢: ٤). ويأمرنا الرب يسوع بأن نتمثل بأبينا في هذه الأمور: «أحبوا أعداءكم، وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئًا، فيكون أجركم عظيمًا وتكونوا بني العلي، فإنه ينعم على غير الشاكرين والأشرار. فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضًا رحيم» (لو ٦: ٣٥ و٣٦).

وبالطبع مادام هناك رجاء في تجديدهم، ينبغي أن يكون شعورنا مثل الرسول بولس في قوله: «إن مسرة قلبي وطلبتي إلى الله هي للخلاص» (رو ١٠: ١). فإذا تعرضنا للاضطهاد كمؤمنين علينا أن نحوِّل الخد الآخر (مت ٥: ٣٩)، وأن نبارك لاعنينا (لو ٦: ٢٨)، ولا نجازي الشر بالشر (١تس ٥: ١٥؛ ١بط ٣: ٩)، بل بحسب الطاقة نسالم الجميع (رو ١٢: ١٧ و١٨).

الدينونة المستقبلية هي أيضًا نعمة مستقبلية

لكن سيأتي وقت تنتهي فيه أناة الله. عندما رأى الله شعبه يعاني بينما اكتمل الزمان المعين وعدد الشهداء (رؤ ٦: ١١)، عندئذٍ ستحل الدينونة في السماء. يصف الرسول بولس الأمر كالتالي: «إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقًا، وإياكم الذين تتضايقون راحة... عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته، في نار لهيب، معطيًا نقمة للذين لا يعرفون الله، والذين لا يطيعون إنجيل

ربنا يسوع المسيح» (٢تس ١: ٦- ٨). لاحظ أن انتقام الله من مضايقينا يكون بالنسبة لنا اختبار «راحة». بكلمات أخرى، إن الدينونة على أولئك المضايقين لنا إنما هي شكل من أشكال النعمة من نحونا.

عَلَّم الرب يسوع عن حقيقة مماثِلة في مثل قاضي الظلم.. فقد حكى قصة أرملة «كانت تأتي إليه (إلى القاضي) قائلة: أنصفني من خصمي» (لو ١٨: ٣). وفي نهاية الأمر امتثل القاضي لطلبتها وأعطى لها ما تحتاجه. ويفسِّر يسوع القصة قائلاً: «أما ينصف الله مختاريه، الصارخين إليه نهارًا وليلاً، وهو متمهل عليهم؟ أقول لكم: إنه ينصفهم سريعًا» (لو ١٨: ٧ و٨). لذا، مرة أخرى تعتبر عدالة الله المستقبلية ودينونته على المقاومين لشعبه صورة من صور الراحة- مثل إنصاف الأرملة الواقعة تحت الضغط. الدينونة المستقبلية على أعداء الله يتم تصويرها على كونها نعمة مستقبلية لشعب الله.

ربما تكون أكثر صورة لافتة للانتباه تصور الدينونة كنعمة هي تلك التي ترسم دمار بابل في سفر الرؤيا أصحاح ١٨. فعند دمارها جاء صوت صارخ من السماء قائلاً: «افرحي لها أيتها السماء والرسل القديسون والأنبياء، لأن الرب قد دانها دينونتكم» (رؤ ١٨: ٢٠). ثم سمع صوت جمهور عظيم قائلاً: «هللويا! الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا، لأن أحكامه حق وعادلة، إذ قد دان الزانية العظيمة التي أفسدت الأرض بزناها، وانتقم لدم عبيده من يدها» (رؤ ١٩: ١ و٢).

عندما تصل أناة الله إلى منتهاها وينتهي الزمان الحاضر وتحل الدينونة على أعداء شعب الله، فإن القديسين لن يستهجنوا عدالة الله، ولن يصرخوا ضده. بل على العكس من ذلك، فإن الرسول يوحنا يدعوهم ليفرحوا ويصرخوا قائلين «هللويا». معنى هذا أن الدمار النهائي لغير التائبين لن يكون بمثابة اختبار بائس لشعب الله. فعدم استعداد الآخرين للتوبة لن يخمد مشاعر القديسين، ولن يكون الجحيم قادرًا على أن يضفي مسحة من البؤس على أجواء السماء، وستكون دينونة الله مقبولة، وسوف يختبر القديسون استعلان الحق كنعمة عظيمة.

منذ مائتين وخمسين عامًا قام «جوناثان إدواردز» بتفسير رؤيا ١٨: ٢٠ بالكلمات التالية: "لا شك أن [القديسين] ليسوا مدعوين لأن يفرحوا بأنهم يشعرون بشوق ونهم إلى الانتقام، بل بأن العدالة تتحقق، وبرؤية محبة الله وعطفه نحوهم والظاهرة في قسوته من نحو أعدائهم."[١] هذا ما تشدد عليه كلمات رؤيا ١٩: ٢: «أحكامه حق وعادلة»، وهكذا فإجابة «إدواردز» على سؤالنا هي أن دينونة الله النهائية تمثل بالتأكيد نعمة مستقبلية لشعب الله. يقول: "يُذكر مرارًا في الكتاب المقدس، كمثال

على محبة الله العظيمة لشعبه، أن غضبه يشتعل عندما يُظلمون ويُضارون. وهكذا فالمسيح قد وعد قائلاً: «مَنْ أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخيرٌ له أن يُعلَّق في عنقه حجر الرَّحي ويُغرق في لجة البحر» (مت ١٨: ٦)."[٢]

وعد: لي النقمة، أنا أجازي

إن الوعد بنعمة دينونة الله المستقبلية يُقَدَّم لنا كوسيلة تعيننا للتغلب على روح الانتقام والشعور بالمرارة. على سبيل المثال، يقول الرسول بولس في رسالته إلى رومية: «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب، لأنه مكتوب: لي النقمة أنا أجازي يقول الرب. فإن جاع عدوك فأطعمه. وإن عطش فاسقه. لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه» (رو ١٢: ١٩، ٢٠).

فكرة بولس هي أنه لا ينبغي علينا أن ننتقم لأن الانتقام هو حق إلهي. ولتشجيعنا على التخلي عن رغبتنا في الانتقام يُقدَّم لنا وعدٌ –نعرف الآن أنه وعد للنعمة المستقبلية– «أنا أجازي يقول الرب»، فالوعد الذي يحررنا من الروح غير الغافرة، المرة، والمنتقمة هو الوعد بأن الله سوف يقضي لنا. وهو سوف يفعل ذلك بأسلوب أكثر عدلاً واكتمالاً منا نحن. ولذلك يمكننا أن نتراجع لنفسح المجال لله ليعمل.

هل من الخطأ الرغبة في تحقيق العدل؟

لماذا يعتبر هذا الوعد حاسمًا لمغالبة ميلنا إلى المرارة والانتقام؟ السبب هو أن هذا الوعد يجيب على واحد من أقوى الدوافع الكامنة وراء الغضب– وهو دافع ليس خاطئًا في مجمله.

يمكنني توضيح ذلك من خلال اختبار اجتزته خلال سني دراستي بكلية اللاهوت. كنت عضوًا بمجموعة صغيرة للمتزوجين، وبدأت تتوطد العلاقات بين أعضائها بطريقة عميقة. في إحدى الأمسيات كنا نتناقش حول الغفران والغضب. وقالت واحدة من الزوجات الشابات إنها لا تقدر ولا تريد أن تغفر لوالدتها أمرًا قامت به من نحوها وهي لا تزال فتاة صغيرة. وتحدثنا حول بعض الوصايا الكتابية والتحذيرات بشأن روح عدم الغفران: «كونوا لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين، متسامحين، كما سامحكم الله أيضًا في المسيح» (أف ٤: ٣٢)، «إن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم» (مت ٦: ١٥؛ انظر كذلك ١٨: ٣٤ و٣٥؛ مر ١١: ٢٥؛ لو ١٧:

٤؛ ٢كو ٢: ٧). لكنها لم تتزحزح عن موقفها. وحذرتها من أن روحها ستكون في خطر إذا استمرت في هذا الاتجاه من المرارة غير الغافرة، لكنها صممت على أنها لن تغفر لوالدتها.

إن ما يعطي الكثير من القوة لدافع الغضب في مثل هذه الحالات هو الشعور المسيطر بأن المسيء لا يستحق الغفران. بمعنى أن الحزن يكون عميقًا ومبررًا بحيث أن البر الذاتي لا يقوي فقط من الشعور بالمهانة، بل أيضًا يعطي إحساسًا بمشروعية غضبنا. هذا الإحساس العميق بالمشروعية هو الذي يعطي مرارتنا دافعها الذي لا يقاوم. فنحن نشعر أن جريمة كبرى سوف تتم إذا تم التغاضي عن الإساءة، وقررنا أن نسلِّم بأن ما حدث قد حدث. ونكتشف أننا ممزقون؛ فحسنا الأخلاقي يقول إن هذا الشر لا يمكن التغاضي عنه، بينما تقول كلمة الله إننا يجب أن نغفر.

إذا اضمرت ضغينة، فأنت تتشكك في القاضي

في كتابه الهام «الالتزام المسيحي» (Christian Commitment) يصف «إدوارد چون كارنيل» هذا الصراع بين الغضب المشروع والغفران بـ«ورطة العدالة"، فيقول: "لا يمكننا تجاهل سلوكيات الآخرين الحقيرة، غير أنه ليس من حقنا تنفيذ عقوبة القانون. ليس لدينا الحق أن نكمِّل الدورة الأخلاقية.. ورغم أنه لا يوجد ما يعوقنا روحيًا عن أن نصرخ ضد الظلم، إلا أن نقاء حياتنا الأخلاقية يتدهور في اللحظة التي نحاول أن نقيم العدل بأيدينا."[٣] ورغم ذلك فالإهانة التي نشعر بها تكون دائمًا صاحبة اليد الطولى وتتحفظ على الإساءة، لأنه من المرفوض أخلاقيًا التهوين من الخطأ.

الآن نستطيع أن نرى مدى أهمية دينونة الله في مغالبة هذا الميل إلى الانتقام. فهي تُنهي "ورطة العدالة". لأن الله يتدخل كمنتقم حتى يمكننا إدراك الجُرم، لكن أيضًا حتى لا نضطر أن نكون نحن القضاة. إن وعد الله بالانتقام يقضي على المشروعية الأخلاقية لميلنا الشخصي للانتقام. وعد الله يقول: "نعم هناك إساءة تم توجيهها ضدك. نعم إنها تستحق العقاب الشديد. نعم، الشخص المسيء لم يتلقَ عقابه بعد. لكن، لا، أنت لست الشخص المنوط به إنزال العقاب، ولا ينبغي عليك الانزلاق نحو الانتقام الشخصي. لماذا؟ لأن الله سوف يحرص على تحقيق العدل. الله سوف يجازي. لا تستطيع أن تزايد على عدالته. فهو يرى كل زاوية من زوايا الشر الموجه ضدك- أفضل مما ترى أنت. وعدله سيكون أكثر اكتمالاً من أي عدل تستطيع أنت إنجازه." إنك إذا اضمرت ضغينة في قلبك، فإنك تشكك في نزاهة القاضي.

هذا ما يقوله الوعد الوارد في رومية ١٢: ١٩. والآن تصبح المسألة بالنسبة للشخص الغاضب بسبب الإساءة إليه هي: "هل تؤمن بهذا الوعد؟" بمعنى آخر، إن التخلي عن فكرة الانتقام إنما هي مسألة إيمان بوعود نعمة الله المستقبلية- نعمة الدينونة المستقبلية على المسيء. إذا كنا نؤمن بالوعد الإلهي: «لي النقمة، أنا أجازي» فإننا بذلك لن نقلل من شأن الله بسبب مجهوداتنا المتدنية في سبيل إقامة العدل. سوف نترك الأمر له ونحيا في حرية المحبة من نحو عدونا- سواء تاب هذا العدو أم لم يتب. فماذا إذا لم يتب؟ قبل ثلاثمائة عام عبَّر «توماس واتسون» عن هذا الأمر ببراعة فقال: "لسنا ملتزمين بالثقة في عدو، لكننا ملتزمون بأن نغفر له."[٤] نحن لسنا مسؤولين عن إجراء المصالحة، لكننا مسؤولون عن السعي في إثرها: «بحسب طاقتكم، سالموا جميع الناس» (رو ١٢: ١٨).

كيف وجد الرب يسوع حلاً لـ "ورطة العدالة"؟

يوضح الرسول بطرس بأن الرب يسوع نفسه تعامل مع "ورطة العدالة" بنفس هذا الأسلوب. فلم يتعرض أحد للإساءة بقدر ما تعرض لها الرب يسوع. لم يكن يستحق أقل ذرة من العداوة تجاهه. لم يعش إنسان مُستحقًا لكرامة بقدر يسوع، ولم يتعرض أحد للإهانة مثله. فإذا كان لشخص الحق في الغضب والشعور بالمرارة والرغبة في الانتقام، يكون يسوع هو هذا الشخص. كيف استطاع التحكم في نفسه عندما قام الأنذال، الذين حياتهم الشخصية بيده، بالبصق في وجهه؟

يقدِّم بطرس الإجابة في هذه الكلمات: «الذي [يسوع] لم يفعل خطية، ولا وُجد في فمه مكر، الذي إذ شُتم لم يكن يشتم عوضًا، وإذ تألم لم يكن يهدد بل كان يُسلِّم[٥] لمن يقضي بعدل» (١بط ٢: ٢٢ و٢٣). معنى هذا أن الرب يسوع امتلك إيمانًا في نعمة دينونة الله العادلة المستقبلية. فهو لم يكن بحاجة للانتقام لنفسه في مقابل كل الإهانات التي تعرض لها؛ لأنه سلَّم قضيته لله. لقد ترك الانتقام في يد الله، وصلّى من أجل توبة أعدائه (لو ٢٣: ٣٤).

يعطي الرسول بطرس هذه اللمحة عن إيمان الرب يسوع حتى ما نستطيع نحن أن نحيا بذات الأسلوب. فهو يقول: «لأنكم لهذا دعيتم (لاحتمال المعاملة السيئة بصبر)، فإن المسيح أيضًا تألم لأجلنا، تاركًا لنا مثالاً لكي تتبعوا خطواته.» (١بط ٢: ٢٢). إذا كان المسيح قد دحر المرارة والانتقام بالإيمان بالنعمة المستقبلية، فكم بالحري علينا نحن الذين ليس من حقنا أن نتذمر من سوء المعاملة إذ أنه تعرض لها أكثر منا كثيرًا؟!

أساس الغفران للمؤمنين الآخرين

لكن هنا يظهر سؤال شائك آخر. إذا كان وعد الله بالدينونة هو الأساس لعدم انتقامنا من أعدائنا غير التائبين، فما هو الأساس لعدم الانتقام من إخوتنا وأخواتنا المؤمنين الذين يتوبون؟ إن الإهانة المعنوية التي تلحق بنا نتيجة الإساءة القوية لا تتبخر لمجرد أن المسيء شخص مؤمن. في واقع الأمر إننا قد نشعر بعظم الخيانة عندما يحدث ذلك. ولن يساوي الاعتذار حجم ألم الإساءة وقبحها.

غير أننا في هذه الحالة نتعامل مع أحباء مؤمنين، ولا ينطبق هنا الوعد بالغضب الإلهي؛ إذ أنه «لا شيء من الدينونة على الذين هم في المسيح يسوع» (رو ٨: ١)، «لأن الله لم يجعلنا (المؤمنين) للغضب، بل لاقتناء الخلاص بربنا يسوع المسيح» (١تس ٥: ٩). إذًا في أي اتجاه ننظر لكي نهرب من "ورطة العدالة"؟ إلى أين نلجأ لنؤكد لأنفسنا أن العدالة سوف تتحقق بالتأكيد، وأن المسيحية لا تنظر للخطية باستخفاف؟

الإجابة هي أن ننظر إلى صليب المسيح. فكل الإساءات التي حلت بنا على يد مؤمنين تم الانتقام لها في موت الرب يسوع، هذا الأمر متضمن في الحقيقة البسيطة والمدهشة معًا عن أن جميع خطايا كل شعب الله قد وُضعت على يسوع (إش ٥٣: ٦؛ ١كو ١٥: ٣؛ غل ١: ٤؛ ١يو ٢: ٢؛ ٤: ١٠؛ ١بط ٢: ٢٤؛ ٣: ١٨). إن آلام الرب يسوع كانت المجازاة الإلهية على كل جُرح لحق بي من أخ مؤمن (رو ٤: ٢٥؛ ٨: ٣؛ ٢كو ٥: ٢١؛ غل ٣: ١٣). وهكذا فالمسيحية لا تستخف بالخطية، ولا تزيد إهانة على جراحنا. لكن على العكس من ذلك فهي تتعامل مع الخطايا الموجهة لنا بجدية شديدة، حتى أنه في سبيل تصحيحها، جعل الله ابنه يتألم أكثر جدًا مما لو جعلنا نحن البشر يعانون دينونة ما فعلوه بنا.

لهذا عندما يقول الله: «لي النقمة» فإن المعنى أوسع مما قد نتخيله. فالله قد أقام العقاب ضد الخطية، ليس فقط من خلال الجحيم، لكن أيضًا من خلال الصليب. إن كل خطية سوف تعاقب بقسوة وبحسم وبعدل إما في الجحيم أو في الصليب. وخطايا غير التائبين سوف تُدان في الجحيم، وخطايا التائبين أدينت في الصليب.

ما يعنيه هذا هو أنه ليس لنا احتياج أو حق في أن نضمر في قلوبنا مرارة من نحو المؤمنين أو غير المؤمنين. فقد تم حل "ورطة العدالة". لقد تدخل الله لينجينا من الواعز الأخلاقي لمجازاة الأخطاء التي تعرضنا لها. وقد فعل ذلك إلى حد كبير من خلال وعده: «لي النقمة، أنا أجازي».. فإذا آمنا به، لن نسعى للانتقام بأيدينا. بل عوضًا عن ذلك سوف نمجِّد كفاية الصليب وعدالة الجحيم الرهيبة في ثقة تامة بأن

الله، وليس نحن، سوف يصحح كل شيء. ما يخصنا هو أن نحب، وما يخص الله هو أن يقيم العدل. والإيمان بالنعمة المستقبلية هو المفتاح للحرية والغفران.

النعمة الماضية: ضرورية لكنها غير كافية

كان الصليب في الماضي. وأرغب أن أؤكد هنا أن النظرة إلى الجلجثة أمر جوهري لا غنى عنه لدعم إيماننا بالنعمة المستقبلية. فإذا جرحتني زوجتي بكلمة غير لطيفة، ليس عليّ أن أنهي العلاقة معها أو أبدي الغضب الشديد لأن خطيتها قد وضعت على يسوع، وقد احتمل العناء الشديد ليحملها عنها- وعني. فقد أخذ الرب يسوع هذه الإهانة الموجهة له ولي على محمل الجد؛ حتى أنه مات ليفضح شر هذه الإهانة ويزيل ذنب زوجتي. فإذا كان كل هذا قد تم ليحررني من الانتقام، فعليّ أن أنظر إلى الخلف وأؤمن أن هذا ما قد حدث فوق الصليب. إن النظرة إلى الماضي هامة. والحديث في هذا الكتاب عن الإيمان بالنعمة المستقبلية لا يلغي هذا الأمر.

لكن النظرة إلى الخلف ليست كافية. إن ما أنجزه الرب يسوع على الصليب يبقى إلى الأبد، وعليّ أن أتيقن من هذا الأمر. فنعمة الجلجثة التي تعاملت مع الخطايا الموجهة نحوي هي أيضًا النعمة المستقبلية التي تحفظني أنا وزوجتي في المسيح، حتى ما يكون الصليب فعالاً بالنسبة لنا. إن النعمة المستقبلية هي التي تعدنا أنا وزوجتي أننا إن اعترفنا بخطايانا، فالله أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا (١يو ١: ٩). بكلمات أخرى، تتجدد نعمة كفارة الصليب الماضية باستمرار من خلال الاعتراف في المستقبل. وهذا مضمون فقط بواسطة النعمة المستقبلية.

قوة الغفران الإلهي

لا شك لدى أولئك الذين يعرفونني أنا وزوجتي في أنني الذي سأحتاج غفرانها أكثر بكثير من احتياجها هي لغفراني. فأنا الذي أملك لسانًا متسرعًا ولاذعًا. ولهذا لا يتحدث الكتاب المقدس فقط عن كون الله هو المنتقم من الخطايا الموجهة ضدنا، لكنه يتحدث أيضًا عن كون الله الغافر للخطايا التي نقترفها ضد الآخرين. هذا الأمر حاسم أيضًا في كسر حاجز المرارة وتحريرنا لكي نغفر.

يقول الرسول بولس: «كونوا لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين، متسامحين كما سامحكم الله أيضًا في المسيح. فكونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء، واسلكوا

في المحبة كما أحبنا المسيح أيضًا، وأسلم نفسه لأجلنا» (أف ٤: ٣٢- ٥: ٢).. هنا تتدفق قوة الغفران ليس في كيفية تعامل الله مع الخطايا الموجهة ضدي، لكن في كيفية تعامل الله مع الخطايا التي تصدر مني ضد الآخرين.

إن المعركة ضد المرارة تُخاض ليس فقط من خلال تصديق الوعد بأن الله سوف ينتقم من الأخطاء الموجهة ضدنا، لكن أيضًا من خلال الابتهاج باختبار غفران الله لنا. كيف يساعدنا غفران الله لنا أن نغفر للآخرين؟ أجيب فأقول: بالإيمان بأننا قد نلنا الغفران. لكن هنالك أمرًا محيرًا هنا.. تلك المرأة التي كانت معي في المجموعة في أيام كلية اللاهوت لم تكن تنوي الغفران لوالدتها، لكنها كانت تؤمن بشدة بأنها قد حصلت على الغفران. ولم تكن تسمح للضغينة التي في قلبها أن تسلب منها ضمانها بنوال الغفران. هل الإيمان بنوال الغفران يحررنا حقًا من الروح الانتقامية؟

ما الخطأ هنا؟ الخطأ هو أنه يبدو أنها كانت تفتقر إلى جوهر الإيمان المخلِّص- أقول ذلك مرتعدًا. فالإيمان المخلِّص ليس مجرد الإيمان بنوالك الغفران، وإنما الإيمان المخلِّص يعني تذوق هذا الغفران كجزء من معرفة الله والتلامس معه. إن الإيمان المخلِّص ينظر إلى بشاعة الخطية، ثم ينظر إلى قداسة الله، فيدرك روحيًا أن غفران الله مجيد جدًا. ولا يعني الإيمان بالغفران الإلهي مجرد الاقتناع بأنني قد خلصت من الخطر، بل معناه تذوق حقيقة بأن الإله الغافر التي هي أثمن حقيقة في الوجود. ولهذا لجأت إلى استخدام الكلمة "ابتهاج".. فالإيمان المخلِّص يبتهج بغفران الله، ومن هنا ينبع الابتهاج بالله الذي يغفر وكل ما يمثله لنا في المسيح.

نرى مجددًا أن النظرة إلى الخلف ليست كافية. فعمل الغفران العظيم أمر يتعلق بالماضي- وبصليب المسيح. من خلال هذه النظرة نتعلَّم عن النعمة التي نحن فيها مقيمون (رو ٥: ٢). ونتعلَّم أننا سنظل محبوبين ومقبولين. ونتعلَّم أن الإله الحي هو إله غافر. لكن اختبار نوال الغفران العظيم إنما أمر يتعلق بالمستقبل. فالشركة مع الإله العظيم الذي يغفر أمر يتعلق تمامًا بالمستقبل.

لقد تعلمت أنه من الممكن أن تحتفظ بالضغينة في قلبك إذا كان إيمانك يعني ببساطة أنك قد نظرت إلى الوراء على الصليب وفهمت أنك نجوت. لكني دُفعت إلى التعمق في جوهر الإيمان الحقيقي.. إنه الاكتفاء بكل ما يعنيه الله لنا في المسيح. إنه ينظر إلى الوراء ليس لمجرد أن يكتشف أنه قد نال النجاة، لكن لكي يعاين ويتذوق هذا الإله الذي يهبه أبدية لا نهاية لها ملؤها الشركة معه.

ربما وأنت تقرأ هذه الكلمات لا تحمل أية ضغائن قديمة. ربما يكون الله قد حررك باقتدار من الجراحات والمضايقات القديمة، وأعطاك النعمة لكي تتركها وراءك. لكن

كُنْ متأكدًا من أن تفحص نفسك بشأن الضغائن الحالية أيضًا. هل هناك مضايقات متكررة في الحاضر قد لا تحمل سمات المرارة القديمة، لكنها تظهر في شكل نوبات من الغضب؟ هل يصدر من أبنائك أو زوجتك أو كنيستك أو مديرك ما يجعلك أسبوعًا وراء الآخر تجز على أسنانك، وتعيد في رأسك الأسباب التي تجعلك تقول هذا لا يحتمل ولا ينبغي أن يستمر؟ حسب خبرتي وجدت أن هناك صراعًا كبيرًا مع عدم الإيمان في هذه المضايقات القصيرة الأمد والمتكررة، تمامًا مثل المرارة طويلة الأمد التي نتجت بسبب إساءة كبيرة أو خيانة. نحتاج هنا أيضًا أن نثق في وعود الله بأسلوب عملي يومًا بعد يوم.

إن وادي روح المرارة المظلم لا يمكنه أن يعيش في الطرق السامية للإيمان بالنعمة المستقبلية. فالانتقام يتطلب الأودية الضبابية لرثاء الذات والخوف والخواء. إنه لا يتحمل الاكتفاء والثقة وملء الفرح الذي يأتي من إله النعمة المستقبلية الغافر.

الجزء السابع

قوة التقديس في الإيمان بالنعمة المستقبلية

«لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة،
بل الإيمان العامل بالمحبة.»
(غل ٥: ٦)

إن الإيمان، بمعنى قبول المسيح والاتكال عليه وعلى بره،
هو الأداة الوحيدة للتبرير. غير أنه ليس هو الأمر الوحيد في
الإنسان المبرَّر؛ إذ يكون دائمًا مصحوبًا بجميع النعم الخلاصية الأخرى،
وهو ليس إيمانًا ميتًا، بل إيمانًا عاملاً بالمحبة.
«إقرار إيمان ويستمنستر»

الفصل الثاني والعشرون

صناعة الحب في مصنع الرغبات

كانت الأوقات التي شعرت فيها بالحب يتدفق من قلبي بكل قوته هي الأوقات التي تباركت فيها في وسط خطيتي. أتذكر صباحًا مر عليه قرابة العشرين عامًا عندما اصطدمت بهذا الحق لأول مرة في حياتي. كنت أنا وزوجتي «نويل» قد تشاجرنا، لا أذكر ماذا كان موضوع المشاجرة، لكني كنت غاضبًا، لذلك حملت القمامة لأضعها خارج المنزل كحجة للخروج في الهواء الطلق. وبينما أتذكر الأمر الآن، من الواضح أن انفعالاتي كانت قد تجاوزت الحد، مهما كان موضوع الخلاف.

وبينما كنت أعبر الشارع إلى حيث المكان المخصص لوضع القمامة، تسللت أشعة الشمس من بين سحب الصباح المتراكمة. وحتى يومنا هذا يسيطر عليَّ عمق تلك اللحظة. لقد كنت أزفر حنقًا بسبب مشاعري المجروحة ورغبتي في تبرئة نفسي، والغضب من أعز الناس عندي على الأرض، وغضبي من الله، الذي كان يملك كل الحق في إماتتي بسبب خطيتي.. أقول إنه فتح لي نافذة من السماء وغمرني بالسعادة. وأتذكر أني توقفت لأستمتع بتلك اللحظة. كان نسيم الصباح باردًا، وكانت الشمس دافئة، وكانت أوراق الشجر تميل إلى الاصفرار الكامل مع بقايا من الاخضرار. وشعرت بأنني في الفردوس- ممسكًا بالقمامة في يدي.

ولم يكن التأثير عليَّ هو أني شعرت بحرية التبرئة، بل بالانكسار. لقد فكرت أن الله لديه من الأسباب التي تجعله يتجهم في وجهي ما يساوي آلاف المرات الأسباب التي أملكها لأتجهم في وجه زوجتي. غير أنني هنا مغمور بالبهجة في نفس لحظة خطيتي.

وقد ملأ هذا الموقف عينيَّ بالدموع. لكن أكثر من الدموع، ملأني بقوة محبة وغفران ومصالحة. لذا وضعت القمامة على الأرض، وعدت إلى «نويل» واعتذرت لها.

هذه ديناميكية روحية أدعوها الآن الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية. لقد ابتسم الله في وجهي، وأعطاني صباحًا بدا لي مليئًا بالفرح والرجاء. هذا ما تكلمت به الشمس الدافئة والنسيم والأشجار.. هذا هو اليوم الذي صنعه الرب لك لتفرح وتبتهج به. هنا رجاء ولطف وغفران. وإذ تمكن مني هذا الرجاء؛ انكسر شيء ما في داخلي. وامتلكت رؤية جديدة من نحو خطيتي، ووُهبت قوة جديدة للتخلي عن "حقوقي" الموهومة، واشتعلت فيّ محبة جديدة. لقد تكرر هذا مرة ومرات في حياتي.

الإيمان بالنعمة المستقبلية يملأ الحياة بالمحبة

لماذا يجب أن تكون الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية دومًا حياة محبة؟ ما الذي يجعل الإيمان بالنعمة المستقبلية لا محالة يعمل بالمحبة؟ تقول كلمات غلاطية ٥: ٦: «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبة.» مثل هذه النصوص جعلت الكنيسة تعلم بأن الإيمان وحده هو الذي يبرر، لكن الإيمان الذي يبرر لا يكون أبدًا بمفرده.. بمعنى أنه يكون مصحوبًا بأعمال المحبة.

على سبيل المثال يقول إقرار إيمان ويستمنستر الذي يعود تاريخه إلى عام ١٦٤٧م:

> "إن الإيمان، بمعنى قبول المسيح والاتكال عليه وعلى بره، هو الأداة الوحيدة للتبرير. غير أنه ليس هو الأمر الوحيد في الإنسان المبرَّر؛ إذ يكون دائمًا مصحوبًا بجميع النعم الخلاصية الأخرى، وهو ليس إيمانًا ميتًا، بل إيمانًا عاملاً بالمحبة."[١]

وقبل صدور إقرار إيمان ويستمنستر بنحو مائة عام، علَّق «چون كالڤن» مفسرًا غلاطية ٥: ٦ كالتالي: "إن عقيدتنا لا تقول بأن الإيمان الذي يبرر يقف منفردًا. فنحن نؤمن أنه دائمًا يكون مصحوبًا بالأعمال الصالحة."[٢] وعلى مر حوالي خمسمائة عام كان ولا يزال هذا هو الأسلوب البروتستانتي السائد في الحديث عن العلاقة بين الإيمان والمحبة.

لماذا يندر التركيز على هذه العلاقة؟

لكن من الملاحظ ندرة المجهود الذي يُبذل للتعمق في ديناميكية الخبرة المتعلقة

بالكيفية التي تتكون بها المحبة بواسطة الإيمان. ويدهشني أنه في تفسير «كالڤن» لعبارة «الإيمان العامل بالمحبة»، فإنه لا يحلل آليات كيفية أو سببية عمل الإيمان من خلال المحبة. ويبدو أن هذا التجاهل مستمر إلى يومنا هذا، رغم أن الاختبار يُعلِّم أن فهمنا لتقديسينا في واقع الأمر يسبقه. عندما نصل أخيرًا إلى فهم الأساليب التي أعدها الله للتغيير، فإن أذهاننا وقلوبنا ترتبط أكثر به، ويكون بمقدورها إحراز تقدم أفضل على طريق المحبة. فما هو السبب وراء هذا التجاهل؟

هل يمكن أن يكون أحد الأسباب أن المفتاح الذي يفتح الباب أمام العلاقة الاختبارية بين الإيمان والمحبة هو طبيعة الإيمان كتوجه مستقبلي مُكتَفٍ بكل ما يمثله الله لنا في المسيح؟ هل هو الفشل في التعامل بطريقة مناسبة مع طبيعة الإيمان الحقيقية والتي تجعل من الصعب التعرف على قوته اللازمة لاقتلاع جذور الخطية وتفعليل أعمال المحبة؟ إن الفشل في إعطاء الاهتمام الكافي إلى جوهر الإيمان ذي الطابع المستقبلي والمتطلب للثقة، والذي يكتفي بكل ما يمثله الله لنا في المسيح، إنما يُحد من إدراكنا للكيفية التي يقدِّس بها هذا الإيمان القلب (أع ١٥: ٩)، والطريقة التي يخدم بها الآخرين بالمحبة (غل ٥: ٦). ما اكتشفته من خلال قراءاتي أنه بالقدر الذي يدرس فيه أحد الكتاب طبيعة قوة الإيمان لجعل القلب مكتفيًا بكل الوعود الإلهية، فإنه بنفس القدر يكون قادرًا على تبيان عمل الإيمان بالمحبة. في المقابل بقدر ما يتم تجاهل هذا الجانب من جوانب الإيمان، فإنه بنفس القدر يكون دور الإيمان في التقديس منتقصًا، وتكون الدعوة دومًا هي حمل ثمار عمل الروح القدس دون الشرح الواجب، بالإضافة إلى ذلك، للديناميكيات الاختبارية التي تمثل أمرًا جوهريًا في حياتنا.

ولذا ففي هذا الفصل أريد التعمق في دراسة السبب في أن الإيمان يعمل بالمحبة. إن سر قوة الإيمان هو أنه يقبل النعمة المستقبلية التي يعد بها الله، وأنه مكتفٍ بذلك أكثر جدًا من اللذات التي تعد بها الخطية- حتى لو تطلب الأمر حياتنا.

القلب مصنع الرغبات

يُولِّد القلب البشري الرغبات، كما تولد النار الحرارة. وتمامًا كما يتطاير الشرر في النار، فإن القلب ينبض برغبة وراء الأخرى سعيًا وراء مستقبل أكثر سعادة. وتُقدَّر حالة القلب بنوعية الرغبات التي تملأه. أو للتعبير عن ذلك بأسلوب آخر، تتضح حالة القلب من خلال الأشياء التي تشبع رغباته. فإذا كان القلب يشبع من أمور شريرة وسيئة، فإنه يكون قلبًا شريرًا وسيئًا. وإذا كان يشبع بالله، فإنه يكون قلبًا نقيًا. وكما يقول «هنري سكوجال»: "إن استحقاقية النفس ورفعتها تُقاس بموضوع رغبتها."[٣]

قلب "الأعمال"

تأمل الفارق بين قلب "الإيمان" وقلب "الأعمال". يحصل قلب الأعمال على اكتفائه من الفخر الذاتي بسبب القيام بأمر بفضل قوته الشخصية. قد يكون هذا الأمر دينيًا أو عالميًا. ما يهم هو أن القلب يشعر بأنه قد قام بأمر يفتخر به. ويحاول القلب المتكل على الأعمال أن يقوم بالأمور الصعبة، أو يتحمل مسؤوليات أكثر في العمل، أو يخاطر بالحياة في ساحة منافسة، أو يناضل في سباق، أو يجتاز مواجهة دينية لأسابيع- كل ذلك للحصول على الرضا الذاتي بسبب الانتصار في تحدٍ بفضل قوة إرادته الشخصية وقدرة جسده على الاحتمال.

القلب الذي يتبنى توجه الأعمال قد يعبِّر كذلك عن محبته للاستقلالية والتوجه الذاتي والتحقيق الذاتي من خلال التمرد ضد اللطف والتأدب والفضيلة (راجع غلاطية ٥: ١٩- ٢١). لكن نفس توجه الأعمال الذي يتسم بالإصرار والتفاخر الذاتي هو ذاته يشمئز من السلوك الفظ، ويحاول إثبات أفضليته من خلال إنكار الذات والشجاعة والعظمة الشخصية. وفي كل هذا يكون الاكتفاء المبدئي لتوجه الأعمال هو تذوق واختبار الفرد بحسم ذاته واستغلالها وانتصارها إن أمكن.

قلب "الإيمان"

يختلف قلب الإيمان عن ذلك تمامًا. إن رغباته لا تقل عن ذلك قوة في تطلعه إلى المستقبل، لكن ما يرغبه هو الشبع الكامل باختبار كل ما يمثله الله لنا في المسيح. فإذا كانت "الأعمال" تبغي الاكتفاء بشعورها بأنها تجتاز عقبة ما، فإن "الإيمان" يتذوق الاكتفاء بالشعور بأن الله هو الذي يجتاز العقبة. الأعمال تتوق إلى الفرح النابع من حصولها على المجد لكونها قادرة وقوية وذكية، أما الإيمان فيتوق إلى الفرح برؤية الله يتمجد بفضل قدرته وقوته وحكمته. تقبل الأعمال في شكلها الديني تحدي الالتزام بالأخلاق والتغلب على عوائقه من خلال جهاد عظيم، ثم تقدِّم الانتصار لله كمقابل للحصول على رضاه ومجازاته. والإيمان أيضًا يقبل التحدي الأخلاقي، لكن فقط كفرصة ليكون أداة في يد القوة الإلهية، وعندما تأتي النصرة يبتهج الإيمان بأن كل المجد والفضل يعود لله.

وهكذا، إذ يحشد الإيمان قوته ليعمل من خلال المحبة، فإنه يقر بأن الله وحده القادر على خلق هذه المحبة. و"المحبة" التي قد ننجزها بدون الله لن تكون محبة حقيقية؛ لأنك لا يمكن أن تفعل خيرًا يدوم لأي شخص بدون الله. فكل مكتسبات

العالم بدون الله لن تكون في النهاية سوى بؤس. أضف إلى ذلك، إن أعمال الرحمة بدون الله لن تفعل شيئًا سوى تغذية الإحساس بالافتخار الذاتي، وهذا يمثل عداوة للإيمان. إن الإيمان يحب أن يختبر كل ما يستطيع الله أن يفعله، لا كل ما تستطيع الذات أن تفعله.

الإيمان لا يقوم بخطوة بدون الروح القدس

معنى هذا أن الإيمان لن يحاول أن "يعمل بالمحبة" بدون الروح القدس. فالإيمان يعرف من غلاطية ٥: ٢٢ أن «ثمر الروح هو محبة». والمحبة تتولد في قلوب المؤمنين من خلال الروح القدس؛ فهي ليست عملاً من أعمال الجسد، وعندما تحدث فإنها لا تترك فرصة للتفاخر. ويبتهج الإيمان بهذا الأمر. إن ما يحبه الإيمان هو اختبار كل ما يمثله الله لنا في المسيح، ومن ضمن ذلك قوة المحبة.

لكن لن يثمر الروح القدس ثمرة المحبة بمعزل عن الإيمان. وهذا ما يتضح من غلاطية ٣: ٢- ٥. ينتقد هنا الرسول بولس بعضًا من أهل غلاطية لفشلهم في الاستمرار في الحياة المسيحية بنفس الطريقة التي بدأوا بها، أي بالإيمان بالنعمة المستقبلية. يشير إليهم الرسول مخبرًا إياهم أن الأسلوب الذي بدأوا به الحياة المسيحية كان من خلال قبول الروح، وليس بالأعمال بل بالإيمان: «أبأعمال الناموس أخذتم الروح أم بخبر الإيمان؟» (ع ٢) الإجابة هي: بخبر الإيمان. فعندما استمعوا لكلمة الله في البداية بوعودها عن الغفران والمعونة والحياة الأبدية، وضعوا إيمانهم في المسيح وفي نعمته المستقبلية. لقد تشجعوا بأن موت المسيح وقيامته كافيان لإعطائهم مثل هذا المستقبل.

هكذا بدأوا الحياة المسيحية.. من خلال قبول الروح القدس بواسطة الإيمان بالنعمة المستقبلية (المرتكزة على النعمة الماضية). لكنهم بدأوا بعد ذلك في الانجراف وراء اتجاه الأعمال، وبدأوا يفكرون بأن الحياة المسيحية تبدأ بالإيمان في قوة الروح، لكنها تُكمل أو تُكَمَّل من خلال مساعي "الجسد". «أهكذا أنتم أغبياء! أبعدما ابتدأتم بالروح تكملون الآن بالجسد؟» (ع ٣) لقد كانوا واقعين في الفخ الذي يقع فيه الكثيرون اليوم.. وهو أن حدث التبرير يكون بالإيمان، بينما تتم عملية التقديس من خلال الأعمال.

لكن بولس يقول إن هذا "غباء": «إن كنا نعيش بالروح. فلنسلك أيضًا بحسب الروح.» (غل ٥: ٢٥). الروح جاء في البداية من خلال الإيمان بالوعود الإلهية التي

اقتناها لنا دم المسيح، ويستمر الروح في الإتيان وفي العمل بنفس الطريقة. ولذا يتساءل بولس بصورة بديهية: «فالذي يمنحكم الروح، ويعمل قوات فيكم، أبأعمال الناموس أم بخبر الإيمان؟» (غل ٣: ٥) الإجابة هي: بخبر الإيمان. وهكذا فقد جاء الروح في المرة الأولى، ويستمر في الانسكاب من خلال قناة الإيمان. إن ما ينجزه الروح في داخلنا يكون بواسطة الإيمان.

إذا كنت مثلي، ربما تشتاق بقوة من وقت إلى آخر إلى أعمال الروح القدس المقتدرة في حياتك. ربما تصرخ إلى الله من أجل انسكاب الروح في حياتك أو في أسرتك أو في كنيستك أو في مدينتك. مثل هذه الصرخات صالحة وجيدة. فقد قال الرب يسوع: «فكم بالحري الآب الذي من السماء، يعطي الروح القدس للذين يسألونه؟» (لو ١١: ١٣) لكن ما اكتشفته في الغالب الأعم من حياتي هو فشلي في استيعاب كل ملء عمل الروح من خلال الإيمان بوعود الله. لا أعني بذلك فقط الوعد بأن الروح سوف يأتي وقتما نطلب، لكني أعني بذلك كل المواعيد الثمينة التي ليست مختصة مباشرة بالروح، وإنما ربما مختصة بعناية الله المستقبلية، على سبيل المثال: «فيملأ إلهي كل احتياجكم» (في ٤: ١٩).. هذا هو الأمر المفقود في اختبار الكثير من المؤمنين وهم يلتمسون قوة الروح في حياتهم. فالروح يعطى لنا بواسطة «خبر الإيمان» (غل ٣: ٥)، وليس فقط من خلال الإيمان بوعد أو اثنين عن الروح نفسه، لكن عن حضور الله المشبع للنفس في كل مستقبلنا.

لماذا يربط الروح نفسه بالإيمان؟

يظهر ثمر المحبة فينا من خلال الروح «بخبر الإيمان». ولا يحمل الروح ثمره فينا بمعزل عن إيماننا. ما السبب في ذلك؟ لماذا يربط الروح نفسه بالإيمان كوسيلة لخلق أعمال المحبة؟

يبدو أن الإجابة هي أن الروح القدس يحب أن يمجد الاعتماد والاكتفاء الكامل على المسيح وعلى كلمته (يو ١٦: ١٤). فلو أن الروح القدس ببساطة يخلق سلوكيات المحبة في القلب الإنساني دونما علاقة سببية واضحة بين المحبة من ناحية والإيمان بوعود المسيح من ناحية أخرى، فلن يتمجد الاعتماد الكامل على المسيح من خلال هذه المحبة. لكن الروح ملتزم تمامًا بجلب المجد للرب يسوع. وهكذا فهو يبقى دومًا هادئًا تحت السطح مبينًا أن «خبر الإيمان» هو السبب الواضح للمحبة.

يعني «خبر الإيمان» (غل ٣: ٢، ٥) الاستماع لكلمة الله، أو كلمة المسيح وقبولها

بشبع كامل. والكلمة التي نسمعها إنما تمثل في مجملها وعودًا. تلخص غلاطية ٣: ٢٩ رسالة الإنجيل كالتالي: «فإن كنتم للمسيح، فأنتم إذًا نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة». إن الوعد بأن نكون «ورثة الله» (رو ٨: ١٧) يتضمن بوضوح كل النعمة المستقبلية. تقول رومية ٤: ١٣ إن إبراهيم، مع كل نسله، "وارث للعالم". بمعنى آخر، أن الله سوف يهبنا كل شيء مع المسيح (رو ٨: ٣٢) سواء «العالم، أم الحياة، أم الموت، أم الأشياء الحاضرة، أم المستقبلية، كل شيء لكم. وأما أنتم فللمسيح، والمسيح لله» (١كو ٣: ٢٢ و٢٣).

يخفي الروح القدس ذاته، ويُعْزي السبب الواضح للمحبة إلى «الإيمان العامل بالمحبة». وهو يفعل ذلك لأن بؤرة الإيمان هي الاعتماد الكامل على المسيح وعلى كلمته فيما يخص غنى النعمة المستقبلية الذي لا ينتهي. الروح يحب أن يزيد المسيح علوًا، ولا شيء يعلي المسيح مثل الثقة فيه والاتكال عليه أكثر من أي غنى مستقبلي.

المسيح يتمجد من خلال هذه الرابطة: الإيمان بالنعمة المستقبلية والمحبة

لذلك نحن نقاوم الروح القدس عندما لا نفسح المجال لتمجيد المسيح أمام الإيمان ليعمل بالمحبة. فإنه مما لا يتوافق مع إرادة الروح أن نقول ببساطة إن الإيمان المبرِّر يصحبه دومًا روح القداسة. فالروح يريد منا أن نبرز الاعتماد على المسيح كمحور للإيمان، ثم لنبيِّن لماذا يعمل هذا الإيمان من خلال المحبة. كن متيقنًا من أن الإيمان سيكون الحامل لثمرة المحبة. وكن متيقنًا من أن الإيمان سوف يبتهج دومًا بأن قوة الروح هي التي عملت من وراء الإيمان ومن خلاله. ومع ذلك، فالمسيح ومنابع نعمته المستقبلية الهائلة لن يجد كرامته اللائقة به إذا لم نرجع المحبة إلى الإيمان بالنعمة المستقبلية.

الفكرة المطروحة هنا هي مدح مجد نعمة الله (أف ١: ٦)، والتي تعتبر في أغلبها الأعم فكرة مستقبلية وتمتد من الآن حتى الأزمنة الأبدية. وسوف يلمع مجد هذه النعمة المستقبلية بكرامتها وتقديرها من خلال مرآة الإيمان. فإبراهيم «تقوى بالإيمان معطيًا مجدًا لله وتيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضًا» (رو ٤: ٢٠ و٢١). تتمجد الثقة الكافية في الله عندما نعهد بمستقبلنا إليه. ونحن نبجل مسيح النعمة المستقبلية بالإيمان بالنعمة المستقبلية وبالحياة في حرية المحبة التي يعطيها هذا الإيمان.

يتعاظم مجد نعمة الله المستقبلية عندما نُعَرِّف الإيمان المخلص بأنه الاكتفاء بكل

ما يمثله الله لنا في يسوع. كنا قد خصصنا الفصلين الخامس عشر والسادس عشر لتنمية هذا الإدراك للإيمان. ما نحتاج أن نعمله الآن هو أن نوضح أن هذا الإدراك يمثل المفتاح للسبب في أن الإيمان لا محالة ينتج المحبة. إن الأمر ليس معقدًا: إذا كان القلب مكتفيًا بكل ما يمثله الله لنا في يسوع، فإن قدرة الخطية على إغوائنا بعيدًا عن إرادة المسيح تنكسر، ويفرض جمال طريق المحبة الإلهي نفسه على المشهد.

كيف يطرد الإيمان كل القوى المضادة للمحبة

يطرد الإيمان بالنعمة المستقبلية من القلب كل القوى الشريرة التي تعوق المحبة. على سبيل المثال يقف الشعور بالذنب، والخوف، والطمع في طريق المحبة. فإذا كنا نشعر بالذنب فإننا نميل إلى الغرق في الإحباط المتمركز حول الذات والشفقة على النفس؛ فنكون غير قادرين أن نرى احتياج أي شخص آخر، ناهيك عن الاهتمام به. أو قد نميل إلى الرياء لستر ذنبنا، وبالتالي ندمر كل إخلاص في العلاقات. أو نتحدث عن خطايا الناس الآخرين لنقلل من شأن خطيتنا. وهكذا، في كل الأحوال، يعيق الذنب المحبة.

نفس الأمر ينطبق على الخوف.. فإذا كنا نشعر بالخوف، فإننا لا نميل إلى الاقتراب من الشخص الغريب في الكنيسة الذي قد يحتاج إلى كلمة ترحيب وتشجيع. أو قد نرفض الذهاب إلى خدمات إرسالية بعيدة لأنها قد تتضمن بعض المخاطر، أو ربما ننفق أموالنا في التأمين على الحياة بشكل مفرط، أو ربما نغرق في كل أنواع المخاوف التافهة التي تبقينا مهتمين بأنفسنا وتعمينا عن احتياجات الآخرين. وهكذا يعيق الخوف المحبة.

وإذا كنا طماعين فقد ننفق المال على أمور الرفاهية- وهذا المال كان من الواجب أن يوجه نحو انتشار الإنجيل. نحن لا نقترب من أي أمر فيه مخاطرة لئلا نفقد ممتلكاتنا ونتلاعب بمستقبلنا المادي، ونركز على الأشياء وليس البشر، ونرى في الناس منفعتنا المادية فقط. وهكذا يعيق الطمع المحبة.

إن الإيمان بالنعمة المستقبلية ينتج المحبة من خلال إزاحة الذنب والخوف والطمع من القلب.. فهو يطرد الذنب لأنه يمسك بالرجاء في أن موت المسيح كافٍ لضمان العتق والتبرير الآن وإلى الأبد (عب ١٠: ١٤). وهو يطرد الخوف لأنه يتكل على الوعد القائل: «لا تخف لأني معك... قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين بري» (إش ٤١: ١٠). وهو يطرد الطمع لأنه يثق في أن المسيح يمثل كنزًا أعظم من أي شيء آخر قد يقدمه

العالم (مت ١٣: ٤٤؛ في ٣: ٨؛ عب ١١: ٢٦). في كل الأحوال يتعظم مجد المسيح عندما نكتفي بنعمته المستقبلية أكثر من اكتفائنا بوعود الخطية.

كيف يحث الإيمان على تضحيات المحبة؟

يولِّد الإيمان بالنعمة المستقبلية المحبة، ليس فقط بسبب ما يطرده من القلب، لكن أيضًا بالأشواق القوية التي يضعها فيه. فالإيمان يملك شهوة لا تنقطع لاختبار أعظم قدر من نعمة الله. لذلك فالإيمان يسعى نحو النهر الذي تتدفق منه نعمة الله بأكثر حرية، تحديدًا نهر المحبة. فعندما يختفي كل ذنب وخوف وطمع بقوة الإيمان بالنعمة المستقبلية، ما القوة التي من شأنها أن تحركنا من الغرف المريحة التي نحتمي فيها لكي نحمل على عاتقنا التعب والمعاناة اللذين تتطلبهما المحبة؟

ما الذي سوف يدفعنا للترحيب بالغرباء عندما نشعر بالخجل، أو الذهاب إلى العدو طلبًا للمصالحة عندما نشعر بالغضب، أو دفع العشور بينما لم نحاول فعل في السابق، أو الحديث مع زملائنا عن المسيح، أو دعوة الجيران الجُدد إلى درس الكتاب، أو تخطي الثقافات المتخالفة بالإنجيل، وإنشاء خدمات جديدة للمدمنين، وقضاء أمسية في قيادة سيارة لتوصيل خدام إلى أماكن خدمتهم، أو قضاء النهار في الصلاة لأجل توبة شخص ما؟ لا تظهر أي من هذه السلوكيات المطلقة للمحبة من تلقاء نفسها. إنها تُحفَّز من خلال شهوة جديدة.. شهوة الإيمان لاختبار نعمة الله بصورة كاملة. إن الإيمان يبتغي الاتكال على الله ليراه وهو يعمل المعجزات فينا. لذلك يدفعنا الإيمان نحو المجرى الذي تتدفق منه نعمة الله المستقبلية بأكثر حرية- مجرى المحبة. أظن أن هذا هو ما قصده بولس عندما قال إن علينا أن «نزرع للروح» (غل ٦: ٨). علينا أن نغرس بالإيمان بذور مجهوداتنا في الأرض التي نعرف أن الروح القدس يعمل فيها لينتج ثمرًا.. أرض المحبة.

الإيمان المكتفي بالله يستأصل جذور عدم المحبة

خلاصة القول أن المحبة من ثمار الروح القدس. غير أنها أيضًا «عمل إيمان» (غل ٥: ٦، ٢٢). وهناك علاقة بين الروح القدس والإيمان؛ لأن الله يهب الروح لنا من خلال «خبر الإيمان» (غل ٣: ٥). لكن إذا كان هذا هو كل ما قلناه عن طريقة الإيمان في توليد المحبة، فإن هذا لا يقدِّم التعظيم اللائق بمجد نعمة الله المستقبلية. فمجد النعمة المستقبلية يتعاظم من خلال مرآة الإيمان. لذلك في سبيل إكرام فيض

النعمة المستقبلية اللانهائي، فقد حدد الله أن يكون السبب الواضح للمحبة هو اختبار الإيمان بالنعمة المستقبلية. فالإيمان يبرز عظمة كفاية ما يمثله الله لنا في المسيح.

هذا الإيمان المكتفي بالله يستأصل جذور الذنب والخوف والطمع، يحررنا من قوة هذه الأمور القاتلة للمحبة. كما يملأنا هذا الإيمان بالشوق لاختبار أعظمٍ قدر من نعمة الله. وهكذا فإنه يدفعنا نحو التيار الذي يكون فيه الروح القدس متدفقًا بقوة- وهذا هو تيار المحبة. ليت الله يسكب روحه في داخلنا بأكثر غزارة! ليته يفتح عيوننا لنرى الجمال الرائع الذي لا يقاوم لكل ما يمثله الله لنا في المسيح! وهكذا نحيا بالإيمان بالنعمة المستقبلية، ونحب بنفس الطريقة التي أحبنا الله بها.

«والله قادر أن يزيدكم كل نعمة،
لكي تكونوا ولكم كل اكتفاء كل حين في كل شيء،
تزدادون في كل عمل صالح.»
(٢كو ٩: ٨)

«ولكن بنعمة الله أنا ما أنا، ونعمته المعطاة لم تكن باطلة،
بل أنا تعبت أكثر من جميعهم،
ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي.»
(١كو ١٥: ١٠)

«لأني لا أجسر أن أتكلم عن شيء مما لم يفعله المسيح
بواسطتي لأجل إطاعة الأمم، بالقول والفعل.»
(رو ١٥: ١٨)

الفصل الثالث والعشرون

محبة الخدمة أكثر من الحياة

الخدمة أكثر أهمية من الحياة

بحسب العهد الجديد فإن الخدمة هي ما يفعله جميع المؤمنين. يتولى الرعاة مهمة إعداد القديسين من أجل عمل الخدمة (أف ٤: ١٢)، لكن المؤمنين العاديين يقومون بالخدمة. وتتنوع الخدمة بمقدار تنوع المؤمنين جميعًا. فهي ليست وظيفة بل اتجاه حياة مكرَّس لتعزيز إيمان الناس وقداستهم. بهذا المعنى فإن الحياة الحقيقية هي حياة الخدمة، سواء أكنت موظفًا في بنك أو عاملاً في البناء. والقيام بخدمتك إنما هو أهم من مجرد مواصلة الحياة.

هذه القناعة هي ما تجعل من حياة أكثر الناس تكريسًا ملهمة للجميع. فأغلبهم يتحدث بنفس الأسلوب الذي انتهجه الرسول بولس من نحو خدمته: «ولكنني لست أحتسب لشيء، ولا نفسي ثمينة عندي، حتى أتمم بفرح سعي والخدمة التي أخذتها من الرب يسوع» (أع ٢٠: ٢٤). فعمل الخدمة التي أعطاها الله لنا إنما هو أكثر أهمية من الحياة نفسها.

قد تفكِّر بأن عليك أن تحافظ على حياتك لكيما تتمم خدمتك. على العكس من ذلك، فقد تكون خسارة حياتك هي حجر الزاوية في خدمتك. وقد كانت كذلك قطعًا بالنسبة للرب يسوع وهو في سن الثالثة والثلاثين. فعلينا ألا نرتبك في سبيل الحفاظ على أنفسنا أحياء من أجل إتمام خدمتنا؛ فالله وحده يعلم الوقت المعين لخدمتنا. وقد أصاب «هنري مارتن» عندما قال: "إذا كان لدى (الله) عمل لي لأعمله، فلا يمكن أن أموت قبل إتمامه."[١] بكلمات أخرى، لا يمكن أن أموت قبل أن أنهي عملي. ولذلك، فالخدمة أكثر أهمية من الحياة.

لم يحبوا حياتهم أكثر من الخدمة

كم هي كثيرة تلك النماذج التي يمكن إحصاؤها من التاريخ المجيد لقديسي الله الأمناء! أبحر «وليم كاري» إلى الهند من إنجلترا في عام ١٧٩٣م، وفَقَد ابنه ذا الخمسة أعوام، وأصيبت زوجته بمرض عقلي، وظل يعمل طوال سبع سنوات قبل أن يأتي أول شخص للمسيح، واحترقت ترجمته الثمينة التي قضى فيها أعوامًا طوالاً. ومع ذلك فقد ثابر لمدة أربعين سنة دون راحة، وذلك لأن الخدمة أكثر أهمية من الحياة. كذلك ذهب «أدونيرام چادسون» أول كارز أمريكي في بلاد أجنبية إلى بورما في عام ١٨١٤م. وفَقَد هناك طفلاً رضيعًا كان عمره ستة أشهر، وقضى عامًا ونصف العام في سجن مشدد، وفَقَد زوجته إذ أصابتها حمى، وعانى من انهيارات عصبية، وانتظر خمس سنوات حتى تَجدَّد أول شخص. لكنه ثابر لأن الخدمة أكثر أهمية من الحياة. وفَقَد «روبرت موريسون»، المرسل الإنجيلي الأول إلى الصين، زوجته الشابة وظل يعمل لمدة سبع سنوات قبل أن يتجدد أول شخص. لكنه ثابر إذ إن الخدمة أكثر أهمية من الحياة.[٢]

لا مرآة خلال السنوات العشرين الأخيرة

نشأت «إيڤلين هاريس براند»، والدة «بول براند» جراح اليد العالمي والمتخصص في مرض الجزام، في أسرة إنجليزية ميسورة الحال. تلقت دراستها في معهد لندن للفنون، وكانت ترتدي أحدث صيحات الموضة. لكنها ذهبت مع زوجها ليخدما كمرسلين في سلسلة جبال «كوللي مالاي» الهندية. بعد حوالي عشر سنوات تُوفي زوجها في سن الرابعة والأربعين وعادت إلي بلادها "محطمة يعتصرها الألم والحزن". لكن بعد عام من النقاهة، وضد كل النصائح التي قيلت لها، عادت إلى الهند. لقد انتعشت روحها، وسكبت حياتها في خدمة سكان التلال: "تعتني بالمرضى، وتُعلِّم الزراعة، وتقدِّم دروسًا عن ديدان غينيا، وتربي الأيتام، وتشذب أراضي الغابات، وتعالج الأسنان، وتؤسس المدارس، وتعظ بالإنجيل." وعاشت في كوخ متنقل مساحته عدة أمتار قليلة يمكن فكه ونقله وإعادة تركيبه.

في سن السابعة والستين سقطت وانكسر مفصل فخذها. وكان ابنها «بول» قد وصل لتوه إلى الهند كجراح، وشجعها على التقاعد. فهي كانت تعاني أصلاً من كسر في الذراع، وعدة شروخ في الفقرات، وإصابات متكررة بالملاريا. وعدَّد لها «بول» أقصى ما استطاع التفكير فيه من أسباب لإقناعها بأن السبعة والستين عامًا شهدت استثمارًا جيدًا في الخدمة، وأنه قد آن الأوان لتقاعدها. فماذا كانت إجابتها؟ "بول..

أنت تعرف هذه الجبال.. إذا تركتُ الخدمة مَنْ سوف يساعد أهالي القرى؟ مَنْ سوف يعالج جراحهم، ويعتني بأسنانهم، ويعلِّمهم عن الرب يسوع؟ عندما يأتي شخص ليأخذ مكاني، عندئذٍ فقط سوف أتقاعد. وفي كل الأحوال، لماذا الحفاظ على هذا الجسد العجوز إذا لم يُستخدم حيثما يحتاجني الله؟" كانت هذه إجابتها النهائية؛ واستمرت في العمل.

وتُوفيت «إيڤلين» في سن الخامسة والتسعين. وحسب وصيتها قام أهل القرية بتكفين جسدها في رداء بسيط من القطن، ودفنوها حتى يعود جسدها إلى التراب لتبدأ حياة جديدة "وروحها أيضًا لازالت تعيش في كل كنيسة وعيادة وكثير من المدارس، وفي وجوه آلاف القرويين عبر سلاسل الجبال الخمسة في جنوب الهند." وعلَّق ابنها بالقول: "ورغم التجاعيد التي لم أرَ في مثل كثافتها على أي وجه بشري، إلا أنها كانت امرأة جميلة." لكنه لم يكن جمال وغنى مجتمع لندن الراقي.. فخلال العشرين سنة الأخيرة من حياتها رفضت أن يكون لها مرآة في بيتها! لقد انشغلت بالخدمة وليس بالتجميل. وقد أبدى واحد من مساعديها ملاحظة بأن الجدة «إيڤلين» كانت أكثر حيوية من أي شخص آخر قابله في حياته. "فعندما أضاعت حياتها، وجدتها."[٣] هذا التناقض هو ما يتحقق عندما تكون الخدمة أكثر أهمية من الحياة.

عمل الخدمة وإتمام السعي يتم بالإيمان بالنعمة المستقبلية

إني أشدد على هذا التوجه القوي في الخدمة ببساطة لكي أضاعف من تأثير أهمية النعمة المستقبلية. فلا يتمم أي شخص خدمة روحية دون الاتكال على النعمة المستقبلية. هذه هي شهادة العهد الجديد التي لا يمكن الالتباس بشأنها. وهي تجعل النعمة المستقبلية أمرًا جوهريًا ولا يمكن الاستغناء عنه في عمل الخدمة وإتمام السعي.

في رسالة كورنثوس الثانية ٩: ٨ يقول الرسول بولس: «والله قادر أن يزيدكم كل نعمة، لكي تكونوا ولكم كل اكتفاء كل حين في كل شيء، تزدادون في كل عمل صالح.» القرينة المباشرة لهذا النص تتعلق بسعة العيش من الناحية المادية، لكن المبدأ يتصف بعمومية أكبر من هذه. فالله قادر أن يجعل كل نعمة –كل النعمة المستقبلية التي تحتاجها– تزداد لك حتى ما تزداد (حرفيًا) في كل عمل صالح. النعمة المستقبلية هي الأداة التي يمنحها الله من أجل «كل عمل صالح»، ليس «كل عمل صالح» يمكن تخيله، بل «كل عمل صالح» معين في كل مراحل رحلة خدمتك المتفردة. والقوة لكل عمل من هذه الأعمال تكمن في النعمة المستقبلية.

قدّمت لنا الكنيسة في أنطاكية مثالاً على كيفية الثقة في هذا الوعد. عندما دعا الله بولس وبرنابا للعمل الكرازي، رأت الكنيسة في ذلك دعوة للإيمان بالنعمة المستقبلية.. فصلوا وأرسلوا بولس وبرنابا في الرحلة التبشيرية الأولى، واثقين بأن النعمة المستقبلية تسير أمامهما وتهبهما النجاح. نعلم ذلك لأنه، في أعقاب عودتهما، يصف سفر الأعمال عودتهما مرتبطة بهذا العمل للنعمة: «ومِن هناك سافرا في البحر إلى أنطاكية، حيث كانا قد أُسلما إلى نعمة الله للعمل الذي أكملاه» (أع ١٤: ٢٦).

العلاقة واضحة هنا بين النعمة المستقبلية والخدمة. فهي تقول حرفيًا: «لقد أُسلما إلى نعمة الله من أجل العمل الذي أكملاه.» هكذا وثق المؤمنون في أنطاكية في الوعد الوارد في ٢كورنثوس ٩: ٨. يقول الوعد إن الله سوف يزيد كل نعمة لكم «في كل عمل صالح»، وهكذا فمن خلال الإيمان بالنعمة المستقبلية أسلمت الكنيسة بولس وبرنابا إلى نعمة الله من أجل العمل. لقد كانت النعمة المستقبلية مثل الحارس المسلح، ومستودع الخيرات، وفريق من الأطباء، وقوة روحية من السماء.. لقد أُخذت موقعًا استراتيجيًا للعمل في المستقبل بمجرد مغادرتهما لميناء أنطاكية. وبالإيمان استودعت الكنيسة المُرسلين إلى المدد الإلهي العظيم الذي يُدعى النعمة المستقبلية (راجع أع ١٥: ٤٠).

النعمة هي العامل الأعظم في خدمة الرسول بولس

يؤكد الرسول بولس بكلماته الأهمية المطلقة للنعمة المستقبلية بالنسبة للخدمة فيقول: «ولكن بنعمة الله أنا ما أنا، ونعمته المعطاة لي لم تكن باطلة، بل أنا تعبت أكثر منهم جميعهم. ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي» (١كو ١٥: ١٠). لقد أدرك بولس أنه ربما يُساء فهم الجزء الأول من هذه الآية. فقد يقول قائل: "انظروا، إنه يقول لنا إن الله قد أعطاه النعمة في الماضي، والآن هو ببساطة يتفاعل مع هذه النعمة." فهذه ليست صورة الخدمة المسيحية التي يريد الرسول أن يتركها في أذهاننا. لذا فهو يمضي قائلاً: «ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي.»

لا يقول هذا النص إن الرسول بولس يطيع المسيح انطلاقًا من الشعور الجميل بالامتنان نحو النعمة الماضية. لا شك في أن الرسول قد امتلأ قلبه بالشعور بالامتنان لله لأجل غنى النعمة الماضية. ولاشك أيضًا، كما رأينا في الفصل الثاني، في أن هذا الامتنان قد عزز إيمانه بالنعمة المستقبلية بذكريات الماضي الجميلة. لكن ليس هذا ما يقوله النص. لكن يقول النص إن نعمة الله المستقبلية قد دعمت خدمة بولس في كل لحظاتها. هل يقول النص هذا بالفعل؟ ألا يقول فقط إن نعمة الله (عملت) معه؟ لا،

إنه يقول أكثر من ذلك. علينا أن نعي الكلمات: «ولكن لا أنا».. يريد بولس أن يعظم نعمة الله التي عملت معه لحظة بلحظة بطريقة يتضح من خلالها أنه هو نفسه لم يكن العامل الأساسي في هذا العمل.. «لكن لا أنا».

لكنه في نفس الوقت عامل في هذا العمل: «تعبت أكثر منهم جميعهم.» لقد عمل، لكنه يقول إنها نعمة الله التي كانت معه. لو أننا جمعنا كل أجزاء هذه الآية معًا ستكون النتيجة النهائية: النعمة هي العامل الأول في خدمة بولس. وإذ يُعتبر الرسول عاملاً في هذا العمل أيضًا، فإن الكيفية التي تصبح بها النعمة العامل الأول تكون بأن تصير هي القوة المدعمة لخدمة الرسول.

أستنتج من ذلك لأقول، إذ واجه بولس حمل الخدمة اليومي، فإنه أحنى رأسه واعترف بأنه لولا أن النعمة المستقبلية قد مُنحت له في سبيل إتمام تلك الخدمة اليومية، لما استطاع أن يؤديها. لقد تذكر بولس كلمات الرب يسوع عندما قال: «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا» (يو ١٥: ٥). وهكذا فإنه صلى لأجل النعمة المستقبلية ليومه، ووثق في الوعد بأنها ستأتي بقوة: «فيملأ إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» (في ٤: ١٩)، ثم سلك بكل قوته. وإذ جاء إلى نهاية اليوم، دعا قوته قوة النعمة مُعطيًا المجد لله: «لكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي»، أو بكلمات أخرى: «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» (في ٤: ١٣).

نعمة الإرادة والفعل

هكذا رأى الرسول بولس حركة الخدمة المسيحية كلها وليس خدمته فقط. ولهذا كتب لأهل فيلبي قائلاً: «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة؛ لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وتعملوا من أجل المسرة» (في ٢: ١٢ و١٣). إن الله هو الفاعل الأساسي هنا؛ فهو يريد ويعمل من أجل المسرة. غير أن الإيمان بهذا لا يجعل من المؤمنين أناسًا سلبيين، إنه يجعلهم راجين ونشطين متشجعين. ففي كل يوم هناك عمل لابد أن يتم في خدمتنا الخاصة، ويوصينا الرسول بولس بأن نعمل على تأديته. لكنه يخبرنا عن كيفية إنجازه في قوة النعمة المستقبلية. هذه الكيفية تتلخص في الإيمان بالوعد بأنه في هذا اليوم سوف يعمل الله فيكم لأن تريدوا وتعملوا من أجل مسرته.

ليست ذكرى النعمة الماضية هي التي «تريد وتعمل من أجل المسرة الإلهية»، إنه الله نفسه، الذي في كرمه يأتي في كل لحظة حاملاً المستقبل إلى الحاضر. وليس الشعور بالامتنان تجاه النعمة الماضية هو ما يركز عليه الرسول بولس عندما يشرح

الكيفية التي عمل بها أكثر من جميعهم، وإنما النعمة المتجددة أمام كل تقدم في عمله الكرازي. وهو لا يقول إن النعمة اللازمة للقيام بالخدمة تأتي من الماضي كذكرى، من خلال قناة الشعور الجميل بالامتنان، فهي تأتي من المستقبل كقوة إلهية من خلال قناة الإيمان.(٤)

إن قوة النعمة المستقبلية هي قوة المسيح الحي الحاضر دائمًا ليعمل من أجلنا في كل لحظة قادمة نجتاز فيها. لذا، فعندما يصف بولس تأثير نعمة الله التي كانت معه فهو يقول: «لأني لا أجسر أن أتكلم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتي لأجل إطاعة الأمم، بالقول والفعل» (رو ١٥: ١٨). وهكذا فمادام لا يجرؤ على التحدث عن أي شيء إلا بما فعله المسيح من خلال خدمته، وهو بالفعل قد تحدث عما فعلته النعمة من خلال هذه الخدمة (١كو ١٥: ١٠)، معنى ذلك أن قوة النعمة هي قوة المسيح. ومعنى ذلك أن القوة التي نحتاجها لخدمة الغد إنما هي النعمة المستقبلية للمسيح كليّ القدرة، والذي سيكون دائمًا معنا ومستعدًا وراغبًا في أن يعمل من أجل مسرته.

نعمة متفاضلة كانت عليهم جميعًا.. للشهادة

إذا كانت خدمتنا هي أن نشهد عن المسيح غدًا في ظروف عدائية، فإن النجاح في ذلك لا يعتمد على ذكائنا، وإنما فيض النعمة المستقبلية. من بين كل الناس كان الرسل يبدون أنهم أقل المحتاجين إلى معونة لتقديم الشهادة المقنعة عن المسيح المقام. لقد كانوا معه لمدة ثلاث سنوات، ورأوه وهو يموت، وعاينوه حيًا. لذا في جعبة شهادتهم كانوا يملكون: «براهين كثيرة» (أع ١: ٣). قد تعتقد أن خدمة شهادتهم في تلك الأيام القديمة كانت تعضد نفسها بقوة أمجاد الماضي التي كانت لاتزال حية.

لكن ليس هذا ما يخبرنا سفر الأعمال به. فهو يقول: «وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم» (أع ٤: ٣٣). فقوة الشهادة بإخلاص وفاعلية لم تنبع بالدرجة الأولى من ذكريات النعمة أو مستودعات المعرفة، بل من تدفقات جديدة من "النعمة المتفاضلة". وقد كانت هذه هي الطريقة التي اختبرها الرسل، وسوف نختبرها جميعًا في خدمة شهادتنا.

أيًا كانت الآيات والعجائب التي قد يُظهرها الله لتعميق شهادتنا عن المسيح، فإنها ستكون كما كانت بالنسبة لاستفانوس: «وأما استفانوس فإذ كان مملوًّا إيمانًا وقوة، كان يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب» (أع ٦: ٨). هناك نعمة مستقبلية وقوة فوق طبيعية يمكننا الاعتماد عليها في أوقات الاحتياج في خدمتنا. إنه عمل قوة

متجدد من خلاله «يشهد (الرب) لكلمة نعمته» (راجع أع ١٤: ٣؛ عب ٢: ٤). إن نعمة القوة تشهد لنعمة الحق. وهذا ليس عمل الشعور بالامتنان لما قد مضى، بل هو عمل الإيمان فيما سوف يأتي.

المواهب الروحية هي قنوات للنعمة المستقبلية

عندما نفكر في خدمة المؤمنين العاديين، فإننا لا نفكِّر فقط في خدمة الشهادة للمسيح، بل أيضًا في استخدام المواهب الروحية لبناء الكنيسة. وهنا تكمن الفكرة الجوهرية: لا يمكن لأحد أن يمارس موهبة روحية دون النعمة المستقبلية. يُعرِّف الرسول بطرس الخدمة من خلال المواهب الروحية على كونها نعمة وسيطة من الله للآخرين: «ليكن كل واحد بحسب ما أخذ موهبة، يخدم بها بعضكم بعضًا، كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوعة» (١بط ٤: ١٠).

النعمة المستقبلية "نعمة متنوعة"؛ فهي تأتي في ألوان وأشكال وأحجام متنوعة. وهذا واحد من الأسباب وراء التباين الشديد للمواهب الروحية في الجسد. فمخروط حياتك سوف يعكس واحدًا من ألوان النعمة لن يعكسها أبدًا مخروط حياتي أنا. هناك نعم مستقبلية كثيرة بقدر تعدد احتياجات جسد المسيح- وما يفيض عن ذلك أيضًا. لأن الهدف من المواهب الروحية هو استقبال نعمة الله المستقبلية وتوزيعها على هذه الاحتياجات.

لكن قد يسأل أحدهم: "لماذا تلجأ إلى بطرس للإشارة إلى النعمة المستقبلية؟ ألا يدير أحد الوكلاء أحد محلات الأدوات المنزلية وهو بالفعل في متناول يده؟" السبب الرئيسي من وراء اللجوء لبطرس للإشارة إلى النعمة المستقبلية هو أن الآية التالية تصوِّر كيف يتحقق هذا الأمر، والإشارة إنما هي للدعم المستمر للنعمة المستقبلية. فهو يقول: «وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله، لكي يتمجد الله في كل شيء بيسوع المسيح» (١بط ٤: ١١).

عندما تستخدم موهبتك الروحية لتخدم أحدهم غدًا، فإنك ستفعل ذلك "بالقوة التي يمنحها الله" اليوم. الكلمة هي "يمنحها" وليس "تم منحها". فالله يستمر في منح القوة التي نخدم بها يومًا بعد الآخر، ولحظة تلو الأخرى. معنى هذا أن المواهب الروحية تُمارس من خلال قوة النعمة المستقبلية، وليس مجرد القوة التي نستجمعها من خلال التفكير في النعمة الماضية.

وعندما نتكل على النعمة المستقبلية بهذه الصورة فإن ما يحدث في واقع الأمر هو

أن مواهبنا تصير نعمة للآخرين.. إننا نمرر النعمة من الله للآخرين. يقدِّم الرسول بولس نموذجًا جميلاً لذلك في رسالته إلى أفسس ٤: ٢٩: «لا تخرج كلمة ردية من أفواهكم، بل كل ما كان صالحا للبنيان حسب الحاجة، كي يعطي نعمة للسامعين.» قبل أن ينتهي هذا اليوم، ستكون هنالك فرصة في حياتك يدعوها الرسول بولس: «حسب الحاجة».. فسوف يظهر من سيجد نفعًا في كلماتك. وهذه هي الخدمة التي سوف تكون مدعوًا لها «في تلك اللحظة» (احتياج اللحظة).. «البنيان حسب الحاجة». فإذا وضعت إيمانك في النعمة المستقبلية، وخدمت بالقوة التي يمنحها الله، فسوف تكون قناة تمرر تلك النعمة. سوف «تعطي نعمة للسامعين»، لا يملكونها الآن، لأنها مستقبلية. لكن عندما تأتي -لك ومن خلالك- فسوف يكون الإحساس بالشبع عميقًا، وسوف تعرف عندئذٍ لماذا خُلقت ولماذا دُعيت.

توقيتات النعمة المستقبلية

كل خدمة سوف تتم في المستقبل، سواء بعد لحظة، أو بعد شهر، أو بعد سنة، أو بعد عقد من الزمان. أمامنا وقت طويل لنقلق فيه بسبب عدم كفاءتنا. وعندما يحدث ذلك، علينا أن نصلي. فالصلاة هي صورة الإيمان الذي يربطنا اليوم بالنعمة التي سوف تجعلنا أكفاء لخدمة الغد. التوقيت هو كل شيء. ماذا لو أتت النعمة مبكرًا جدًا أو متأخرًا جدًا؟ تخفي عنا الترجمة التقليدية لعبرانيين ٤: ١٦ وعدًا ثمينًا جدًا في هذا الشأن. نحتاج إلى ترجمة أكثر حرفية لنراه. النص التقليدي يمضي كالتالي: «فلنتقدَّم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عونًا في حينه»، والنص اليوناني حرفيًا يقول: «نجد نعمة لمعونة في وقتها المناسب.»[٥]

الفكرة هي أن الصلاة تُعد الطريقة المناسبة للحصول على النعمة المستقبلية في الوقت المناسب.. فالنعمة تأتي دائمًا من عرش النعمة في الوقت المناسب. وعبارة «عرش النعمة» تعني أن النعمة المستقبلية تأتي من عند ملك الكون الذي يمسك بكل الأزمنة في سلطانه (أع ١: ٨). إن توقيته مثالي، لكنه نادرًا ما يتطابق مع التوقيت الذي نتوقعه: «لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ما عبر، وكهزيع من الليل» (مز ٩٠: ٤). فعلى النطاق الكوني حدد الله أزمنة لسقوط الأمم وقيامها (أع ١٧: ٢٦)، وعلى المستوى الشخصي فإني «في يديه أستودع روحي» (مز ٣١: ٥). فعندما نتعجب من توقيتات النعمة المستقبلية، علينا أن نفكِّر في «عرش النعمة». فلا يمكن لأمر أن يعيق خطة الله لإرسال النعمة عندما يكون هذا أفضل شيء لنا. فالنعمة المستقبلية تأتي دائمًا في الوقت المناسب.

والنعمة المستقبلية هي موضوع التضرع الدائم في صلوات كاتبي المزامير. فهم يصلون طلبًا لها مرة بعد الأخرى لكيما تسدد كل احتياج. وهم يتركون لكل خادم نموذجًا للاتكال اليومي على النعمة المستقبلية عند كل ضرورة. ونحن نجدهم يصرخون من أجل النعمة المستقبلية عندما يحتاجون عونًا: «استمع يارب وارحمني. يارب كن معينًا لي» (مز ٣٠: ١٠). ويصرخون من أجل النعمة المستقبلية عند ضعفهم: «التفت إليّ وارحمني. أعط عبدك قوتك» (مز ٨٦: ١٦). ويصرخون من أجل النعمة المستقبلية عندما يحتاجون للشفاء: «ارحمني يارب لأني ضعيف، اشفني يارب» (مز ٦: ٢). ويصرخون من أجل النعمة المستقبلية عندما يضايقهم الأعداء: «ارحمني يارب، انظر مذلتي من مبغضي» (مز ٩: ١٣). ويصرخون من أجل النعمة المستقبلية عندما يكونون في وحدة: «التفت إليّ وارحمني، لأني وحد ومسكين أنا» (مز ٢٥: ١٦). ويصرخون من أجل النعمة المستقبلية في وقت حزنهم: «ارحمني يارب لأني في ضيق. خسفت من النعم عيني» (مز ٣١: ٩). ويصرخون من أجل النعمة المستقبلية عندما يخطئون: «يارب ارحمني. اشفِ نفسي لأني قد أخطأت إليك» (مز ٤١: ٤). ويصرخون من أجل النعمة المستقبلية عندما يشتاقون لأن يتعظم اسم الله في وسط الأمم: «ليتحنن الله علينا ويباركنا... لكي يُعرَف في الأرض طريقك» (مز ٦٧: ١ و٢).

لاشك في أن الصلاة هي رابطة الإيمان العظيمة بين نفس الصديق ووعد النعمة المستقبلية. فإذ كان الله قد قصد أن تتم الخدمة من خلال الصلاة، فإن المقصود لها أيضًا أن تتم بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

الخدمة هي هبة النعمة، تمامًا كالخلاص

أتذكر وقت انتهائي من دراستي العليا في «ميونيخ» عام ١٩٧٤م.. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن المكان الذي سوف أذهب للخدمة فيه. كنت مستعدًا لبدء أي خدمة يفتحها الرب أمامي. وأرسلت سيرتي الذاتية للعديد من معاهد اللاهوت والإرساليات. واحد من أكثر الرسائل المشجعة التي تلقيتها في تلك الأيام كانت من صديقي وأستاذي السابق «دانيال فولر». فقد علم بأني أصارع لكي أثق في أن الله سوف يدبِّر لي مكانًا للخدمة. واقتبس آية غير مشهورة من ٢كورنثوس ٤: ١: «إذ لنا هذه الخدمة -كما رُحمنا- لا نفشل»، وأشار إلى كلمة «كما» في عبارة «كما رُحمنا». ثم أوضح لي العلاقة بين "الخدمة" و"الرحمة". فقال إن الخدمة توهب مجانًا بقوة وسخاء تمامًا مثل اختبار الرحمة الذي نحصل عليه عند خلاصنا. وكان هذا ما أحتاجه في ذلك الوقت. وهذا ما أحتاجه الآن، لكي أواصل خدمتي. فمكان الخدمة، والاستمرار

في أدائها إنما هما من هبات النعمة، تمامًا مثل التجديد. ولذلك فالخدمة تعني أيضًا الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

واحد من أخطر التهديدات على الاستمرار في الخدمة هو تأثير الاكتئاب الذي يشل حركتنا. لذلك علينا البحث عن وسيلة للانتصار علي هذا الشعور المقيد للاكتئاب. في الفصل التالي سوف نتأمل كيف أن وعود الله يمكنها بنجاح أن تنتصر على التأثيرات المدمرة للاكتئاب.

إن حاجة الحاضر العظمى هي كنيسة حية وفرحة...
فالمؤمنون غير الفرحين إنما هم، على أقل تقدير،
شهادة فقيرة عن الإيمان المسيحي.
«مارتن لويد چونز»

«لماذا أنت منحنية يا نفسي؟ ولماذا تئنين في؟
ارتجي الله لأني بعد أحمده، لأجل خلاص وجهه.»
(مز ٤٢: ٥)

«لأن للحظة غضبه. حياة في رضاه.
عند المساء يبيت البكاء وفي الصباح ترنم.»
(مز ٣٠: ٥)

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الاكتئاب

طبيب الأرواح

في عام ١٩٥٤م ألقى واحد من أبطالي المفضلين، وهو «مارتن لويد چونز»، سلسلة من العظات في كنيسة «ويستمنستر» في لندن، قام بنشرها فيما بعد في كتاب بعنوان «الاكتئاب الروحي». ولايزال تقييمه للكنيسة في منتصف القرن العشرين صحيحًا حتى الآن كما أرى. وقال في كتابه: "لا يخامرني شك في التأكيد مجددًا على أن واحدًا من أسباب ضعف تأثير الكنيسة المسيحية في العالم المعاصر هو أن الكثير من المؤمنين يعانون من حالة من [الاكتئاب الروحي]."[١] "إن حاجة الحاضر العظمى هي كنيسة حية وفرحة... فالمؤمنون غير الفرحين إنما هم، على أقل تقدير، شهادة فقيرة عن الإيمان المسيحي."[٢]

كان «لويد چونز» طبيبًا مشهورًا قبل أن يصبح واعظًا. وهذا يعطي وزنًا خاصًا لملاحظاته حول أسباب مشاعر الاكتئاب التي تجتاح الكثير من المؤمنين. فهو ليس ساذجًا فيما يخص الأسباب المعقدة التي تقف وراء الاكتئاب. يقول «چونز» على سبيل المثال: "هناك بعض الناس يقعون فريسة للاكتئاب بطريقة طبيعية أكثر من غيرهم... فعلى الرغم من كوننا مبررين ومجددين، فإن شخصيتنا الأساسية لا تتغير. وتكون النتيجة أن الشخص الذي يميل للاكتئاب أكثر من غيره قبل التجديد، يظل مطالبًا بمواجهة هذا الأمر بعد التجديد."[٣]

ذرية الاكتئاب

هناك الكثير من النماذج المؤلمة لذلك في تاريخ الكنيسة. واحد من أكثرها تأثيرًا هو قصة «داڤيد برينارد» المرسل الشاب إلى الهنود في نيو إنجلاند في القرن الثامن عشر. يبدو أنه كان هناك نزعة غير طبيعية نحو الضعف والاكتئاب في أسرته. فلم يمت والداه فقط في سن مبكرة، لكن أخاه، نحميا، مات في سن الثانية والثلاثين، ومات شقيقه الآخر في الثالثة والعشرين من عمره، وتوفيت شقيقته يروشا في الرابعة والثلاثين من عمرها، وهو نفسه مات في سن التاسعة والعشرين. في عام ١٨٦٥م قال واحد من أحفاد هذه الأسرة وهو «توماس برينارد»: "في كل أسرة برينارد، وعلى مر مائتي عام، يبدو أن هناك ميلاً نحو الاكتئاب المرضي، يقترب من الوسواس القهري."(٤)

لذا، ففوق معاناته بسبب أبٍ قاسٍ وفقدانه لكلا والديه، فإنه كطفل حساس قد ورث في غالب الأمر ميلاً نحو الاكتئاب. أيًا كان السبب، فقد عانى من أسوأ أنواع الاكتئاب التي كانت تظهر أعراضها وتختفي خلال كل حياته القصيرة. وهو يقول في بداية مذكراته: "أعتقد أنني منذ طفولتي أميل إلى الحزن أكثر من ميلي إلى البهجة."(٥)

غير أنه يقول.. هناك فرق بين الاكتئاب الذي عاناه قبل وبعد تجديده. بعد تجديده بدا أن هناك صخرة من المحبة تدعمه وتمسك به حتى يستطيع في أحلك أوقاته أن يظل واثقًا في حق الله وصلاحه، حتى لو لم يكن قادرًا على الشعور بهما في كثير من الأوقات.(٦)

ثقل الجسد

ولا يتوقف الأمر عند أمر المزاج والطباع الموروثة، وإنما أيضًا الحالة الجسمانية التي تؤدي إلى الشعور بالإحباط. يقول «لويد چونز»: "اكتشفت أن هناك الكثيرين ممَّن يأتون ليتحدثوا معي عن هذه الأمور ويكون من الواضح أن وراءها أسبابًا عضوية في الأساس. وبداخل هذه المجموعة يمكنك أن ترى بصورة عامة التعب والضغط العصبي، والمرض.. أي نوع من المرض. لا يمكن فصل ما هو روحاني عما هو جسداني؛ لأننا جسد وذهن وروح."(٧) عندما صرخ المرنم: «قد فني لحمي وقلبي» (مز ٧٣: ٢٦)، فإنه كان يوضح لنا كيف يشترك القلب والجسد في أسباب الاكتئاب الذي كان يختبره كثيرًا.

يمثل «تشارلز سپرچن» نموذجًا أساسيًا لمؤمن وواعظ عظيم يعود اكتئابه المتكرر في جزء كبير منه إلى مرض النقرس الأليم الذي كان يعاني منه. لا يمكننا بسهولة

أن نتخيل «سبرجن» المتعدد المواهب والخطيب المفوَّه المفعم بالذكاء والنشاط يبكي كطفل رضيع دونما سبب. في عام ١٨٥٨م وفي سن الرابعة والعشرين، حدث ذلك لأول مرة. يقول عن ذلك: "كانت قواي النفسية تنهار إلى حد أني كنت أبكي كطفل لمدة ساعة، غير أنني لم أكن أدري السبب الذي يجعلني أبكي."(٨) ومع مرور السنوات تكررت نوبات الحزن هذه مرة بعد الأخرى. وفي بعض الأوقات بات واضحًا أنه أصبح قريبًا من اليأس: "إن هذا الاكتئاب غير المبرر من الصعب إدراكه، ولا يمكن لقيثارة داود التخفيف منه بأنغامها الحلوة. إن الأمر يشبه مصارعة الهواء بهذا الشعور غير المحدد وغير المبرر بخيبة الأمل وإن كان ملبدًا بالغيوم... هذا الحاجز الحديدي الذي يغلق بطريقة خفية باب الرجاء ويُبقي نفوسنا في سجن مقيت إنما يحتاج ليد سماوية لإزاحته عن مكانه."(٩)

غير أنه صارع كثيرًا. لقد رأى اكتئابه كأكثر سماته بشاعة؛ وقال في ذلك: "إن الاكتئاب ليس فضيلة، فأنا أؤمن أنه رذيلة. وأنا أشعر بخزي شديد عندما أقع في براثنه، غير أنني متيقن أنه لا علاج حقيقي له مثل الإيمان المقدس في الله."(١٠)

قبل أن نُلقي نظرة أكثر قربًا على هذا العلاج، نذكر سببًا معقدًا آخر. هناك مشكلة تتعلق بالمناخ الأسري. على سبيل المثال: إذا كافأ الوالدان طفلاً تجنبًا لبكائه، واستسلما لمناورات مزاجه السيئ، فإن هذا الطفل سوف يترعرع على فكرة أن قليلاً من التجهم سوف يكسبه التعاطف، وبعد ثلاثين سنة سوف يُتقن ذلك بدرجة شديدة.

جذور الاكتئاب

ما هي إذًا جذور الاكتئاب؟ قد يتفق «لويد چونز» على أنه القول بأن سبب الاكتئاب الوحيد هو عدم الإيمان، فإن في هذا تسطيحًا للمسألة. لكن قد يكون من الصائب القول، كما يفعل «لويد چونز» بأن: "السبب الأكبر لكل اكتئاب روحي هو عدم الإيمان."(١١) على سبيل المثال من أين أتى هذا الأسلوب في التربية القائم على التقطيب والتجهم؟ هل أتى من اعتقاد قوي بأن كلمة الله هي أفضل كتاب عن التربية؟ ولماذا يقوم الكثير من الناس بالأنشطة الليلية التي تضمن لهم الشعور بالتعب الذي يؤدي بدوره إلى الاكتئاب والتوتر الشديد وهشاشة معنوياتهم؟ هل هذا يعود إلى ثقة قوية بمشورة الله للحصول على راحة جيدة (مز ١٢٧: ٢)، ويقين أكيد في قدرته على العمل لأجل الذين ينتظرونه (إش ٦٤: ٤؛ مز ٣٧: ٥)؟

وهل يمكن أن تكون الأبحاث حول مخ الإنسان لاتزال في بدايتها حتى أننا لا

نعرف سوى القليل عن كيفية تأثير المواد الكيميائية فيه على حالتنا النفسية، ولا نعرف شيئًا تقريبًا عن الأساليب التي من خلالها قد تساعد حالتنا النفسية والروحية على إنتاج إفرازات كيميائية تساعد على عملية الشفاء؟ هل يمكن لأحد أن ينكر أن الاكتفاء بكل ما يمثله لنا الله في المسيح ليس له تأثير جسدي على إنتاج الجسم لمضادات اكتئاب طبيعية؟ لماذا لا نفترض أن التعلق الإيماني الشديد في النعمة المستقبلية يحفز الآليات الجسدية التي تعمل على تحقيق الصحة النفسية؟ إن قناعتي الخاصة هي أننا عندما نصل إلى السماء سوف ندرك الكثير من الأمور المدهشة عن العلاقة بين الإيمان السليم والعقل السليم.

وهكذا يمكن القول إن جذور الاكتئاب ليست بسيطة، بل معقدة. لذا فتركيزي في هذا الفصل سيكون محددًا. وبدون إنكار تعقيدات انفعالاتنا وأبعادها الوراثية والجسدية والأسرية، إن ما أريد إبرازه هو أن عدم الإيمان بالنعمة المستقبلية هو أصل الاستسلام للاكتئاب. أو لتوضيح الأمر بصورة أخرى.. عدم الإيمان هو سبب عدم مقاومة الاكتئاب باستخدام أسلحة الله. عدم الإيمان يدع الاكتئاب يأخذ مجراه دونما مقاومة روحية.

قال «لويد جونز» إننا إذا تجددنا مع ميل نحو الاكتئاب فإننا سنظل "محتاجين لمقاومة ذلك بعد التجديد". إننا نتحدث في هذا الفصل عن هذه المقاومة، وليس الاكتئاب والسوداوية الذي يتطلب هذه المقاومة. دعوني أوضح هذا الأمر من خلال سفر المزامير، ثم من نوعية الاكتئاب الذي كان على الرب يسوع أن يتعامل معه.

عندما خار قلب المرنم

في مزمور ٧٣: ٢٦ يقول المرنم: «قد فني لحمي وقلبي».. وهذا يعني حرفيًا ببساطة "لحمي وقلبي يخوران." فأنا مكتئب! أنا محبط! لكنه فجأة يوجه قذيفة نحو اكتئابه: «صخرة قلبي ونصيبي الله إلى الأبد.» إن المرنم لا يستسلم، لكن يواجه عدم الإيمان بهجوم مضاد.

في حقيقة الأمر كأن المرنم يقول: "في ذاتي أشعر بأني ضعيف جدًا، ولا قوة لي، وغير قادر على التعايش. جسدي منهك جدًا وقلبي ميت تقريبًا. لكن أيًا كان سبب هذا الاكتئاب، فإنني لن أستسلم. سوف أثق في الله، وليس في نفسي. فهو صخرتي ونصيبي."

يمتلئ الكتاب المقدس بأمثلة لقديسين صارعوا مع نفسٍ خائرة. يقول مزمور ١٩:

٧: «ناموس الرب كامل يرد النفس». هذا إقرار واضح بأن نفس الصديق تحتاج في بعض الأحيان إلى أن تُرد (تقام). وإذا كانت تحتاج لذلك، فهي في معنى من المعاني تكون ميتة. يقول داود نفس الشيء في مزمور ٢٣: ٢ و٣: «إلى مياه الراحة يوردني، يرد نفسي.» إن نفس الإنسان الذي كان «بحسب قلب الله» (١صم ١٣: ١٤) كانت تحتاج لأن تسترد حياتها؛ فهي كانت ميتة عطشًا، وعلى وشك السقوط من الإنهاك، لكن الله قادها إلى المياه وأعاد لها الحياة مجددًا.

لقد وضع الله هذه الشهادات في الكتاب المقدس لكي نتمكن من استخدامها لمواجهة عدم الإيمان الذي يؤدي إلى الاكتئاب. فأيا كانت أسباب الاكتئاب، فالشيطان يصيغ هذه الأسباب بكذبة. تقول الكذبة: "ها قد وقعت.. ولن تصبح سعيدًا أبدًا بعد الآن. لن تسترد قوتك بتاتًا. لن تسترد نشاطك وتصميمك منذ هذه اللحظة. لن يكون لحياتك هدف. ولن يأتي صباح بعد هذا الليل. لا فرح بعد البكاء.. فلا شيء سوى الظلام المتراكم والذي تشتد ظلمته لحظة بعد الأخرى. إن هذا ليس نفقًا، لكنه كهف لن تخرج منه أبدًا."

هذا هو اللون الذي يصبغ به الشيطان اكتئابنا. وقد نسج الله كلمته بخيوط من الحق مناقضة تمامًا لتلك الكذبة.. «ناموس الرب كامل يرد النفس» (مز ١٩: ٧)، ويقودنا الله بالفعل إلى مياه الراحة (مز ٢٣: ٣)، ويعرِّفنا الله طريق الحياة (مز ١٦: ١١)، والفرح يأتي مع تباشير الصباح (مز ٣٠: ٥). وهكذا يوضح لنا المرنم حقيقة أن عدم الإيمان هو أصل الاستسلام للاكتئاب، أما الإيمان بالنعمة المستقبلية فإنه يأخذ وعود الله ويرمي بها الاكتئاب: «صخرة قلبي ونصيبي الله إلى الدهر» (مز ٧٣: ٢٦).

تعلُّم الوعظ لأنفسنا

علينا أن نتعلَّم مواجهة الاكتئاب. والصراع هو صراع الإيمان بالنعمة المستقبلية، والمواجهة تكون بأن نعظ أنفسنا عن الله ووعوده المستقبلية. وهذا ما يفعله المرنم في مزمور ٤٢: «صارت دموعي خبزًا نهارًا وليلاً إذ قيل لي كل يوم: أين إلهك؟... لماذا أنت منحنية يا نفسي ولماذا تئنين فيّ؟ ارتجي الله، لأني بعد أحمده، لأجل خلاص وجهه» (مز ٤٢: ٣، ٥). يعظ المرنم نفسه المضطربة، ويوبخ نفسه ويجادلها. وحجته في ذلك هي النعمة المستقبلية: «ترجي الله»، أي الثقة في ما يمكن لله أن يفعله لك في المستقبل. فيوم الابتهاج آتٍ. وسيكون حضور الله هو كل ما تحتاجه من معونة؛ فلقد وعد بأن يكون معنا إلى الأبد (راجع مز ٢٣: ٤، ٦).

وقد أدرك «لويد چونز» أن هذا الوعظ لأنفسنا عن نعمة الله المستقبلية يمثل أهمية قصوى في تجاوز الاكتئاب الروحي:

> أقول إننا يجب أن نتحدث إلى نفوسنا بدلاً من السماح لنفوسنا بالتحدث إلينا! هل تدرك ما أعنيه بذلك؟ إني أعتقد أن المشكلة الرئيسية وراء هذا الاكتئاب الروحي برمته، من ناحية ما، هي أننا نسمح لأنفسنا بأن تتحدث إلينا بدلاً من أن نتحدث نحن إليها. هل يبدو كلامي هذا غامضًا؟ هل أدركت أن معظم عدم سعادتك في الحياة يعود إلى حقيقة أنك تستمع لنفسك بدلاً من التحدث إليها؟ خذ على سبيل المثال هذه الأفكار التي ترد على ذهنك في اللحظة التي تستيقظ فيها من نومك صباحًا. إنك لم تقصد التفكير فيها، لكنها تبدأ في التحدث إليك، وتذكِّرك بمشاكل الأمس... إلخ. إن معالجة (المرنم) لهذا الأمر كان كالتالي: بدلاً من أن يسمح لنفسه بالتحدث إليه، فإنه بدأ في التحدث إلى نفسه: «لماذا أنتِ منحنية يا نفسي؟» لقد كانت نفسه تضغطه وتسحقه؛ لذا فهو يقف ليسأل: "يا نفسي استمعي لي للحظة، سوف أتحدث إليك.. لماذا أنتِ منحنية؟ ما الذي أزعجك هكذا؟"... ثم عليك أن تستمر في تذكير نفسك بالله: مَنْ هو.. وما فعله.. وما الذي ألزم نفسه بفعله. وإذ تفعل ذلك اختم حديثك بصيحة الانتصار التي تتحدى نفسك والآخرين والشيطان والعالم كله وردد مع المرنم: لأني بعد أحمده لأجل خلاص وجهه.[١٢]

إن المعركة ضد الاكتئاب هي معركة إيمان بمواعيد الله؛ وهذا الإيمان بنعمة الله المستقبلية يأتي بالإصغاء إلى الكلمة. لذا فالوعظ لأنفسنا يأتي دوره في قلب المعركة. لكني أشدد مجددًا على أن القضية في هذا الفصل ليست مجرد كيفية تجنب الاكتئاب وإنما كيفية مواجهته عندما يحل بنا. إذا ذهبنا إلى نموذج الرب يسوع فإننا سوف نرى أنه حتى ابن الله القدوس واجه هذا العدو وصارعه.

عندما تقابل الرب يسوع مع عدو الاكتئاب

في الليلة التي تعرض فيها الرب يسوع للخيانة خاض صراعًا في مواجهة بعض المعارك الروحية. إن ما حدث في تلك الليلة، عشية فدائنا الأبدي، إنما كان حربًا روحية شرسة. فقد اجتمع الشيطان وأقوى جنوده جميعًا لمصارعة ابن الله. وأيًا كان

ما قصده الرسول بولس في رسالته إلى أفسس ٦: ١٦ بقوله «سهام الشرير الملتهبة»، يمكنك أن تتيقن أنها كانت تتطاير نحو قلب الرب يسوع في جثسيماني في تلك الليلة، ويمكننا أن نتعرف على لمحة من هذه المعركة في متى ٢٦: ٣٦- ٣٨:

> «حينئذٍ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جثسيماني، فقال للتلاميذ: اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك. ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي، وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم: نفسي حزينة جدًا حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي.»

ما الذي يحدث هنا؟ ما السبب وراء اكتئاب يسوع؟ يقول يوحنا ١٢: ٢٧ «الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول: أيها الآب نجني من هذه الساعة؟ ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة.» بكلمات أخرى، كانت تجربة الاضطراب والاكتئاب لكي يُحبط ويفشل في القيام بإرساليته. كانت السهام الملتهبة الموجهة نحوه عبارة عن أفكار على شاكلة: "الأمر لا يستحق، وسوف يفشل"، أو ربما كانت مخاوف مرعبة. وكان تأثير هذه الهجمات على الرب يسوع اضطرابًا انفعاليًا كبيرًا. إن ما أراد الشيطان إحداثه في يسوع هو روح الاكتئاب التي من شأنها أن تُغرق يسوع في لجة اليأس؛ فلا يتمكن من إتمام المهمة التي أولاها الآب له.

الآن فكِّر للحظة في ذلك.. لقد كان الرب يسوع إنسانًا بلا خطية (عب ٤: ١٥؛ ٢كو ٥: ٢١). معنى ذلك أن الاضطراب النفسي الذي كان يجتازه في تلك الليلة كان رد فعل مناسبًا ومتوافقًا مع نوعية التجربة غير الطبيعية التي كان يختبرها. لقد كانت الفكرة الشيطانية بأن تجربة الجلجثة ستكون بلا هدف مخيفة جدًا إلى درجة أنها جعلت نفس المسيح ترتجف. لقد كانت تلك هي الموجة الأولى من عاصفة الاكتئاب. لكن لم يكن ذلك خطية، أو لم تصبح بعد خطية.

في نفس الوقت هناك أمر مدهش. يقول الرسول يوحنا إن يسوع قد اضطرب (يو ١٢: ٢٧؛ ١٣: ٢١). لقد هاجمت موجة الاكتئاب الأولى هدوء نفسه. لكن في نفس الإنجيل نقرأ أيضًا أنه على التلاميذ ألا يضطربوا. ففي يوحنا ١٤: ١ يقول الرب يسوع: «لا تضطرب قلوبكم (نفس العبارة ترد في ١٢: ٢٧: ١٣: ٢١). أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي»، وفي يوحنا ١٤: ٢٧ يقول يسوع: «سلامًا أترك لكم... سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب.»

في كلتا الحالتين يتعامل الرب يسوع مع خطر الاكتئاب. كان التلاميذ قد بدأوا في الشعور بالقلق وخيبة الأمل لأن قائدهم وصديقهم سيبتعد عنهم. وأصبحت الأمور

أكثر قتامة بدلاً من أن تكون أكثر بريقًا. وفي كلتا الحالتين قال لا تضطربوا ولا تكتئبوا بهذا الشكل.

والآن هل يمثل هذا تناقضًا؟ عندما نشر الشيطان أمام يسوع وتلاميذه فكرة انعدام الرجاء في المستقبل، هل كان من الصائب أن يشعر يسوع بالاكتئاب، بينما لم يكن يصح أن يشعروا التلاميذ بذلك؟

لا تضطرب قلوبكم

لا أرى وجود تناقض هنا. فالأمر يمضي كالتالي: كان الرب يسوع يحذر تلاميذه من الاستسلام للاكتئاب دون مقاومة سامحين له بأن يستشري داخلهم. لذلك فهو يقول: ردوا الهجوم.. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي (يو ١٤: ١). لم تكن تلك الموجات الأولى من الاكتئاب تمثل خطية. الخطية تكمن في عدم تشغيل صافرة الإنذار، والاحتماء من قصف القنابل، واستخدام الأسلحة المضادة للطائرات. فلو أن الشيطان ألقى بقنبلة مستهدفًا سلامك، وأنت غير مستعد للحرب، فسوف يتساءل الناس إلى أي جانب تقف.

وقد كان الأمر مماثلاً مع الرب يسوع. فلم تكن موجات الاكتئاب الأولى التي شعر بها بسبب هجوم التجربة تمثل خطية. لكن لا أحد مثل يسوع يعلم مدى السرعة التي بها يمكنها أن تتحول إلى خطية إذا لم تتم مواجهتها على الفور. لا يمكنك قراءة متى ٢٦: ٣٦- ٣٩ لتخرج بانطباع أن الاكتئاب ليس أمرًا بهذا السوء؛ إذ عانى يسوع منه في جثسيماني دون أن يرتكب بلا خطية. على العكس من ذلك، فالانطباع الذي تخرج به هو كيف جاهد يسوع بمنتهى الجدية مع عدم الإيمان الذي يؤدي إلى الاكتئاب.. فكم بالحري يكون لزامًا علينا أن نفعل ذلك!

كيف جاهد يسوع في ساعة الظلمة

كانت هناك العديد من الوسائل التي بها صارع يسوع الاكتئاب. أولاً، اختار بعض أصدقائه المقربين ليكونوا معه: «أخذ معه بطرس وابني زبدي» (مت ٢٦: ٣٧). ثانيًا، انفتح نفسيًا عليهم، فقال لهم: «نفسي حزينة جدًا حتى الموت» (ع ٣٨). ثالثًا، طلب منهم أن يتشفعوا من أجله ويشتركوا معه في هذه المعركة: «امكثوا ههنا واسهروا معي» (ع ٣٩). رابعًا، سكب قلبه أمام الآب في الصلاة: «يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر

عني هذه الكأس» (ع ٣٩). خامسًا، استند على حكمة الله المطلقة: «ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» (ع ٣٩). سادسًا، ثبت عينيه على المستقبل المجيد الذي كان ينتظره على الجانب الآخر من الصليب: «لأجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب، مستهينًا بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (عب ١٢: ٢).

عندما يعترض حياتك أمر يبدو أنه يهدد مستقبلك، تذكر هذا: الموجات الأولى للهجوم لا تمثل خطية. الخطر الحقيقي هو الاستسلام لها في يأس دونما جهاد روحي. هذا الاستسلام يرجع في أصله إلى عدم الإيمان- أي الفشل في الجهاد لأجل الإيمان بالنعمة المستقبلية.. والفشل في الابتهاج بكل ما وعد الله أن يكون لنا في المسيح.

إن يسوع يوضح لنا طريقًا آخر، ليس خاليًا من الألم لكنه إيجابي، فاتبعه في هذا الطريق. ابحث عن أصدقائك الروحيين الذين تثق فيهم، افتح لهم قلبك، واسألهم أن يسهروا معك مصلين. اسكب نفسك أمام الآب، واتكل على حكمة الله المطلقة، وثبت عينيك على السرور الموضوع أمامك في وعود الله الثمينة والرائعة.

لا تجلس في الظلام

عظ نفسك بأنه حتى بولس الرسول العظيم كان «مكتئبًا في كل شيء لكن غير متضايق، متحيرًا، لكن غير يائس» (٢كو ٤: ٨)، وأن داود قد اكتشف في الظلمة أن «للحظة غضبه (الله). حياة في رضاه. عند المساء يبيت البكاء، وفي الصباح ترنم» (مز ٣٠: ٥). عظ نفسك بما تعلمه داود في معركته مع اليأس.. لقد تعلم أنه حتى لو أنه قال يائسًا: «إنما الظلمة تغشاني، فالليل يضيء حولي»، غير أنه يوجد حق عظيم: «الظلمة أيضًا لا تظلم لديك، والليل مثل النهار يضيء. كالظلمة هكذا النور» (مز ١٣٩: ١١ و١٢).

إن الدرس الأخير لجثسيماني والجلجثة وسفر المزامير هو أن كل كهوف الاكتئاب المظلمة إنما هي أنفاق تقود إلى فيض من الأفراح لهؤلاء الذين لا يجلسون في الظلام محاولين إطفاء شمعة الإيمان بالنعمة المستقبلية.

الجزء الثامن

الجهاد ضد عدم الإيمان بالنعمة المستقبلية

«فإني أنا الآن أُسكب سكيبًا، ووقت انحلالي قد حضر.
قد جاهدتُ الجهاد الحَسن، أكملتُ السعي، حفظتُ الإيمان،
وأخيرًا قد وُضع لي إكليل البر.»
(٢تي ٤: ٦- ٨)

لقد اجتاحني الغم، حتى أني لم أعد أعرف كيف أعيش،
وتمنيت الموت كثيرًا. وغاصت روحي في مياه عميقة، وكادت اللجج أن تُغرقني..
لقد كنت مغمومًا لدرجة أن روحي كانت تشعر برعبٍ شديدٍ.
«داڤيد برينارد»

«جاهِد جهاد الإيمان الحسن.»
(١تي ٦: ١٢)

الفصل الخامس والعشرون

الصراع سهل
كسهولة إفلات حبة البندق من اليد

"بروقة" سنوية عن الموت

بالنسبة لي، تشبه نهاية كل عام نهاية حياتي. وتشبه الساعات الأخيرة من كل ليلة رأس سنة دقات الدقائق الأخيرة في زمن وجودي على الأرض. وتشبه أيام السنة الـ ٣٦٥ التي تقود إلى نهاية العام نموذجًا مصغرًا لرحلة العمر.. إنها "بروقة" للشيء الحقيقي. فأنا أتخيل أنني أتقابل مع المسيح في صبيحة أول أيام السنة وأتساءل: "هل سينظر إلى تلك السنة الماضية ليقول: نعمًا أيها العبد الصالح والأمين؟"

إنه لامتياز عظيم أن تحظى بتجربة عملية لوفاتك في كل عام. فإذا وصلت إلى نهاية البروقة لتكتشف أنك لم تعش السنة الماضية كما ينبغي، تكون لك الفرصة لتعاود الكَرَّة ببداية جديدة تمامًا في الصباح التالي. إن الأمر الرائع بشأن البروقات هو أنها توضح لك أين تكمن مواطن ضعفك، وهي تتيح لك وقتًا لتحسِّن أداءك قبل ليلة الافتتاح.

غير أنه لكي تحكم على عام فائت، أو عمر معنى، فأنت بحاجة إلى أداة قياس كتابية جيدة. الأداة التي لجأت إليها والتي تمثل ميزة هذا الكتاب، هي تلك التي استخدمها بولس في أواخر حياته. في غالب الأمر كانت رسالة تيموثاوس الثانية آخر الرسائل التي كتبها الرسول بولس، وهي تحمل في طياتها نكهة النهايات. ومع اقتراب الختام يُقدِّم الرسول لتلميذه تيموثاوس تشجيعًا قويًا: «احتمل المشقات... تمم خدمتك»

(٢تي ٤: ٥). ثم، ولكي يشجع تيموثاوس أكثر، يتحدث عن احتماله الشخصي حتى النهاية وكيف قيَّم حياته: «وقت انحلالي قد حضر. قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيرًا قد وُضع لي إكليل البر» (٢تي ٤: ٦- ٨).

إن معيار النجاح الذي استخدمه الرسول لتقييم حياته هو عما إذا كان قد "حفظ الإيمان" أم لا. وينطبق هذا المعيار علينا.. هل سنكون قادرين أن نقول في نهاية حياتنا: «حفظت الإيمان»؟ وهذا لا يعني فقط أنني التزمت بمجموعة من المعتقدات. لم يكن هذا ما كان بولس يقصده، لكنه كان يعني أكثر من ذلك.. هل عشنا بالإيمان بالنعمة المستقبلية؟ ليس فقط للحظة أو لعام أو لعقد من الزمان، بل في كل الطريق حتى النهاية؟

يستخدم بولس عبارتين أخرتين ليصف حفظ الإيمان: «جاهدت الجهاد الحسن»، و«أكملت السعي»، بمعنى أكملت السباق. هذه تشبيهات يستخدمها الرسول ليوضح المقصود بحفظ الإيمان. في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٦: ١٢ يقول: «جاهد جهاد الإيمان الحسن»، وهكذا نرى أنه يرى أن "الجهاد الحسن" و"حفظ الإيمان" إنما هما أمرٌ واحدٌ. إنه "جهاد حفظ الإيمان الحَسن".

هاتان الصورتان -المبارزة والسباق- يعلماننا ما الذي تتضمنه حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية. الأمر الأول الذي يمكننا قوله هو أن حفظ الإيمان طوال الحياة إنما هو أمر شاق؛ إذ قد يتضمن نوعًا من الضغط والإجهاد وعدم الراحة. فالملاكمون يتلقون ضربات في وجوههم، والعداؤون يضغطون على أنفسهم بقسوة فوق التحمل. ويتدرب كل منهم كثيرًا ولساعات عديدة بلا كلل ولا ملل. وهكذا فمن الواضح أن حفظ الإيمان يحتوي على نوع مماثل من المجهود الشاق.

الصراعُ سهلٌ كسهولة إفلات حبة البندق من اليد

يعبِّر الرب يسوع عن هذا الأمر كما يلي: «واسعُ الباب ورحبُ الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه! ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه» (مت ٧: ١٣- ١٤). الباب الضيق والطريق الكرب يوحيان بأن طريق الحياة ليس سهلاً. لذلك قال يسوع: «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق» (لو ١٣: ٢٤). كما تعني كلمة «اجتهدوا» في اليونانية "agonizomai"، وتعني "صارعوا" أو "ناضلوا من أجل الفوز مثل العدّاء".

يتحدث كلُ من الرسول بولس والرب يسوع عن حفظ الإيمان كصراع شديد مثل

الجري في مسابقة ماراثون وخوض مباراة في الملاكمة. كيف يتفق هذا مع التشبيهات الأخرى عن الحياة المسيحية، مثل تلك الواردة في بشارة متى إذ يقول الرب يسوع:

«تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيري هين وحملي خفيف.» (مت ١١: ٢٨- ٣٠)

هنا تبدو حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية كحمل خفيف ونير هين. هل يمكن أن تكون صعبة وسهلة في آنٍ واحدٍ؟

نعم. الإيمان بالنعمة المستقبلية سهلٌ بطبيعته. أي شيء أسهل من الثقة بأن الله يعمل من أجلك (إش ٦٤: ٤)، ويعتني بك (١بط ٥: ٧)، ويقدِّم لك كل ما تحتاجه (في ٤: ١٩؛ عب ١٣: ٦)، ويقويك أمام كل تحدياتك (إش ٤١: ١٠)؟ بمعنى من المعاني يُعد الإيمان متناقضًا مع الإجهاد. إنه التخلي عن السعي وراء الحصول على رضا الله أو لإظهار استحقاقك. إنه الاتكال على وعود الله الفياضة التي تتبعنا بالخير والرحمة كل أيامنا. الإيمان سهل بطبيعته.

لكن سهولة الإيمان هذه تستلزم أن تكون قلوبنا متضعة بما يكفي لأن تتخلى عن كل اعتماد على الذات، وتوجه شخصي، واعتداد بالنفس. إنها تتطلب قلبًا روحانيًا بما فيه الكفاية لأن يتذوق جمال الله وكفايته، ويبتهج بهما. إنها تفترض أن العالم والشيطان قد فَقَدا قوتهما على إغرائنا للبُعد عن الاكتفاء بالله. إذا لم تكن هذه الافتراضات حقيقية لن يكون الإيمان بالنعمة المستقبلية سهلاً كما نعتقد، بل ستكون حياةً مملوءة بالصراع.

الأمر يشبه القرد الذي انحشرت يده داخل الوعاء. سيكون من السهل عليه أن يسحب يده من فوهة الوعاء إلا إذا كانت يده ممسكة بحبة من البندق. وإذا أحب القرد البندق أكثر من التحرر من الإناء، سيكون من الصعب عليه إخراج يده، بل سيكون الأمر مستحيلاً (كما قال الرب يسوع في مرقس ١٠: ٢٧ عن الشاب الذي كانت يده ممسكة بثروته). لكن أي شيء أسهل من إفلات حبة البندق.. إن الصراع الذي يتحدث عنه الرسول بولس والرب يسوع هو صراعٌ من أجل أن نحب حرية الإيمان أكثر من الخطية.

إذًا فأول ما نستطيع قوله عن حياة انقضت في حفظ الإيمان هو أنها تشبه السباق والمبارزة؛ لأنها تتضمن قتالاً قاسيًا ويقظةً دائمة.

الإيمان بالنعمة المستقبلية ينهي السباق

الأمر الثاني الذي يمكننا قوله هو أننا يجب أن نحتمل حتى منتهى الإيمان. فإكليل البر يُمنح للقديس الذي "يكمل السعي". بمقدورك أن تعدو لمسافة خمسة أو عشرة أو خمسة عشر ميلاً في سباق الماراثون، لكنك إذا لم تكمل المسافة الكاملة، وهي ٢٦ ميلاً و٣٨٥ ياردة، فإنك لن تحصل على الإكليل.

ونتعلّم في أكثر من موضع في العهد الجديد عن أهمية مواصلة الإيمان حتى النهاية. واحدة من أكثر المواضع وضوحًا هو رسالة كولوسي: «ليحضركم (الله) قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه، إن ثبتم على الإيمان، متأسسين وراسخين وغير منتقلين عن رجاء الإنجيل» (كو ١: ٢٢ و٢٣). ينبغي أن نجاهد الجهاد و«نحفظ الإيمان» حتى النهاية. يقول الرسول بولس إن الإنجيل يخلصكم «إن كنتم تذكرون أي كلام بشرتكم به، إلا إذا كنتم قد آمنتم عبثًا» (١كو ١٥: ٢).

قال الرب يسوع: «الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مت ٢٤: ١٣): فالسباق يجب أن يُتمم حتى النهاية. في سفر الرؤيا يقول الرب يسوع مجددًا للكنيسة المتألمة: «لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به... كن أمينًا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة.» (رؤ ٢: ١٠). ابلغ خط النهاية، وسوف تنال الإكليل.

دعوة للمثابرة

يؤكد كاتب الرسالة إلى العبرانيين رسالة المثابرة هذه أكثر من أي شخص آخر. فهو مَنْ قال: «لأننا قد صرنا شركاء المسيح إن تمسكنا ببداءة الثقة ثابتة إلى النهاية» (عب ٣: ١٤)، و«لكننا نشتهي أن كل واحد منكم يُظهر هذا الاجتهاد عينه يقين الرجاء إلى النهاية» (عب ٦: ١١)، و«لا تطرحوا ثقتكم التي لها مجازاة عظيمة لأنكم تحتاجون إلى الصبر حتى إذا صنعتم مشيئة الله تنالون الموعد» (عب ١٠: ٣٥ و٣٦). إن حفظ الإيمان يمثل معركة تستوعب الحياة بأكملها. وهي تتطلب يقظة دائمة: «إن كنا نصبر فسنملك أيضًا معه» (٢تي ٢: ١٢).

خطورة عدم معرفة طبيعة المعركة

في بعض الأحيان يكون من الصعب علينا أن نقبل بأن عمرًا من اليقظة والجهاد والسباق يتفق مع الفرح والسلام اللذين يقول العهد الجديد أننا يمكن أن نتمتع بهما

هنا والآن. إني أعرف أشخاصًا تركوا المسيحية لأنهم شعروا وكأنهم دائمًا يسبحون ضد التيار. لقد شعروا وكأن كل يوم يمثل معركةً جديدةً. وإجابتي عليهم تعتمد على ما أراه يدور في دواخلهم.

ربما لم يكونوا مولودين من الله حقًا، وربما لا يعمل الروح القدس فيهم. وبالتالي فإنهم بالطبع يَسْبَحون بقوتهم الذاتية محاولين أن يظهروا كمؤمنين، بينما لا يملكون قلبًا جديدًا أو قوة داخلية. في هذه الحالة فإنهم يحتاجون أن يوقفوا هذه التمثيلية ويسمحوا لقلوبهم أن تنكسر وتتطهر من الاتكال على الذات. يحتاجون أن يطلبوا وجه الرب، وينظروا إليه ليحصلوا على الجمال الجديد والقوة المتجددة اللذين يمنحهما لكل مَنْ يبتهج بشخصه ويتكل على نعمته المستقبلية. باختصار، هم يحتاجون لأن يجدوا في شخص الله الكنز المشبع لحياتهم، ويتحولوا عن اللهاث الفارغ وراء أمور الجسد غير المشبعة.

لكن هناك تفسير آخر محتمل وراء ضجر الناس من المعركة والتفكير في ترك الإيمان. قد يكون التعليم الذي تلقوه بشأن جوهر الحياة المسيحية فقيرًا، وقد يعتقدون أن الأمور تتعقد رغم أنهم يسيرون في الطريق الصحيح. وربما يعتقدون أنهم يخسرون، بينما هم في الواقع يكسبون. وقد لا يعرفون المستويات الكتابية المختلفة لفهم ما يفعله الله بالحقيقة في حياتهم.

يحكي اللاهوتي «چيه. آي. بيكر» قصة حدثت في بداية حياته مع المسيح كشاب، وكيف أنه في البداية لم يتعلَّم جيدًا عن الصراع مع الخطية في الحياة المسيحية. وقد سمعته يحكي قصة الأزمة التي اجتازها بعد تجديده. لقد كان وهو في سنوات دراسته يواجه خطر الإحباط في ظل وجود تعليم ينادي بالكمال ولا ينظر للانغماس في الخطية بجدية. وقد ساهم اكتشافه لتعاليم «چون أوين» المتوازنة عن الصراع مع الخطية في إعادته إلى الحقيقة، بل وفي حقيقة الأمر إلى إنقاذ حياته. يتذكر «بيكر» ذلك قائلاً: "يكفي القول بأنه لولا «چون أوين» لفقدت عقلي، أو لربما غرقتُ في حالة من الأوهام الخيالية."(١)

الجهاد هو جهادٌ من أجل الفرح

في سبيل الإبقاء على الجهاد والماراثون نصب العين دائمًا نحتاج أن نتذكر عدة أمور. أولاً نحتاج أن نتذكر أن الأمر لا يتعارض مع الفرح؛ فهو جهاد من أجل أن نُبقي على الفرح في حياتنا. فالسؤال ليس: كيف يمكن للجهاد أن يتواءم مع الفرح؟

بل السؤال بالأحرى هو: بما أن الفرح ثمين إلى هذا الحد، فما هي استراتيجيات الجهاد التي من شأنها أن تحفظه وتحميه في وسط كل محن الحياة؟

يجب على المؤمن أن يصرخ مع داود في قوله: «رد لي بهجة خلاصك، وبروح منتدبة اعضدني» (مز ٥١: ٢١). ينبغي دائمًا أن نقول مع مزمور ٢٣ «يرد نفسي» (ع ٣). فإذا لم يكن هناك جهاد من أجل الفرح، لن يكون هناك احتياج لرد نفوسنا وفرحنا.

لقد رأينا في الفصلين الخامس عشر والسادس عشر أنه في قلب الإيمان المخلِّص يكمن الابتهاج بالله والاكتفاء بكل ما يمثله لنا في المسيح. معنى هذا أن «جهاد الإيمان الحسن» (١تي ٦: ١٢) في جوهره إنما هو جهادٌ من أجل الابتهاج. إنه جهادٌ في سبيل المحافظة على الاكتفاء بالله في مواجهة جميع غوايات هذا العالم وكل خداعات إبليس. إن جهاد الإيمان بالنعمة المستقبلية إنما هو جهاد في سبيل الابتهاج. هذه المعرفة سوف تساعدنا على فهم ما يحدث معنا عندما تحل التجارب. في حين أن تضاؤل هذه البهجة إنما هو بداية الحرب.

العظماء جاهدوا أكثر من الكل

أمر آخر يجب أن نبقيه في أذهاننا هو أن أكثر المؤمنين عظمة جاهدوا جميعًا هذا الجهاد معنا، ولايزال البعض يجاهدونه من أجلنا. خاض «داڤيد بريناد» المرسل الشاب إلى الهنود الأمريكيين منذ ٢٥٠ عامًا جهادًا مؤلمًا وشجاعًا في مواجهة فقدان الفرح. ولاتزال مذكراته تشجع الناس حتى اليوم:

> الأحد ١٦ ديسمبر ١٧٤٤: "لقد غمرني الاكتئاب حتى أنني لم أعد أعرف كيف أعيش. وتمنيت الموت كثيرًا، فقد كانت روحي غارقة في مياه عميقة، وكادت اللجج أن تغرقني.. لقد كنت مغمومًا لدرجة أن روحي كانت تشعر برعبٍ شديدٍ."[٢]

لكنه لم يتوقف عن الجهاد. ومرة بعد الأخرى تجدد فرحه في حياته القصيرة ذات التسعة والعشرين عامًا.

> ١٧ أبريل: ١٧٤٧: "لقد اشتقت أن يملأ الله كل لحظاتي الباقية في حياتي. ورغم ضعف جسدي، وإنهاكي بسبب الوعظ، والأحاديث الخاصة مع الناس، إلا أنني رغبت أن أقضي طوال الليل لأعمل شيئًا لله. المجد لمَنْ يقدم هذه التعزيات من الآن وإلى الأبد، آمين."[٣]

٢١ فبراير ١٧٤٦: "لقد تعزت روحي وانتعشت، ولم أستطع إلا أن أبارك الله الذي قواني لأكون أمينًا بالأمس. كم هو جميل أن أُنْفَق وأُنهك من أجل الله."(٤)

عاملون معكم لأجل فرحكم

رأى بولس الرسول خدمته برمتها على أنها دعوة لمساعدة المؤمنين في الجهاد من أجل فرح الإيمان. في رسالته إلى فيلبي ١: ٢٥ كان يفكر فيما إذا كان سوف يعيش أو يموت، ثم يقول في النهاية: «أعلم أني أمكث وأبقى مع جميعكم لأجل تقدمكم وفرحكم في الإيمان.» ويكتب إلى الكورنثيين قائلاً: «ليس أننا نسود على إيمانكم، بل نحن موازرون لسروركم» (٢كو ١: ٢٤). إن خدمته وقتها والآن –من خلال رسائله– كانت ولازالت سندًا لنا في معركتنا من أجل الفرح.

الانتصار أكيد

أمرٌ أخير ينبغي تذكره حول جهاد الإيمان الحسن في النعمة المستقبلية، ألا وهو أن الانتصار أكيد، وأن تأكُّدنا لا تلغيه الوصايا التي تحثنا على المثابرة. إن سر تأكدنا ليس في إلغاء الوصايا الكتابية عن المثابرة، لكن بالأحرى تعظيم النعمة كقوة مستقبلية للإيمان، وكذلك كغفران ماضٍ للخطية. إن تأكدنا لا يرتكز على النظر إلى قرار لحظي اتخذناه لقبول المسيح، لكن في النظر إلى الأمام إلى يقين نعمة الله الحافظة والمبني على كفارة موت ابنه الكاملة الكفاية.

لا يزال الرب يسوع يصلي من أجلنا اليوم (رو ٨: ٣٤) بالطريقة التي صلى بها لأجل بطرس على الأرض: «سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة! ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت ثبِّت إخوتك» (لو ٢٢: ٣١ و٣٢). ورغم أن بطرس سقط سقوطًا مخزيًا، فإن صلاة الرب يسوع حفظته من الهلاك المحقق. لقد عاد باكيًا بكاءً مرًا، واستعاد الفرح والجرأة في يوم الخمسين. إذًا فإن يسوع يتشفع لنا اليوم حتى لا يخيب إيماننا بالنعمة المستقبلية.

لقد وعد يسوع بأن قطيعه سوف يُحْفَظ ولن يهلك أبدًا: «خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي» (يو ١٠: ٢٧ و٢٨). والسبب في ذلك أن الله سيعمل على حفظ إيمان

القطيع: «الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحًا يكمل إلى يوم يسوع المسيح» (في ١: ٦). فنحن غير متروكين لأنفسنا لنجاهد جهاد الإيمان: «الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة» (في٢ : ١٣).

لديكم تأكيد من كلمة الله أنكم إذا كنتم أبناءً لله، فإنه سوف: «يكملكم في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته، عاملاً ما يُرضي أمامه بيسوع المسيح» (عب ١٣: ٢١). إن مثابرتنا بإيمان وفرح مصدرها يعود في النهاية وفي الأساس إلى يد الله. نعم علينا أن نجاهد، غير أن هذا الجهاد هو «عمل الله فينا»، وأنه سيعمل بالتأكيد، لأن «الذين بررهم، فهؤلاء مجدهم أيضًا» (رو ٨: ٣٠). فهو لن يفقد أيًا من أولئك الذين دعاهم إلى الإيمان مبررًا إياهم: «(الله) سيثبتكم أيضًا إلى النهاية بلا لوم في يوم ربنا يسوع المسيح. أمين هو الله الذي به دعيتم» (١كو ١: ٨ و٩). إن مستقبلنا مضمون بقدر أمانة الله: «أمين هو الذي يدعوكم الذي سيفعل أيضًا» (١تس ٥: ٢٤).

بهذا اليقين، يمكننا أن ننتقل الآن في الفصل التالي إلى زاوية تركيز أكبر على عدونا في هذا الجهاد، الشيطان. يَصدُق «مارتن لوثر» حين يقول: "إن دينونته أكيدة." وأن "كلمة واحدة صغيرة تسقطه." لكن المعركة ليست تمثيلية. إننا لا نلعب ألعاب المعارك. فالأسلحة تحتوي على ذخيرة، والمخاطر جمة. ورجاؤنا الوحيد هو أن نعيش ونقاتل، ليس بقوتنا الشخصية، لكن بالإيمان بالنعمة المستقبلية وفي سبيله.

«سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة!
ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك.»
(لو ٢٢: ٣١ و٣٢)

«إذ لم أحتمل أيضًا، أرسلت لكي أعرف إيمانكم،
لعل المجرِّب يكون قد جربكم،
فيصير تعبنا باطلاً.»
(١تس ٣: ٥)

«لأن إبليس خصمكم كأسد زائر،
يجول ملتمسًا مَنْ يبتلعه هو.
فقاوموه راسخين في الإيمان.»
(١بط ٥: ٨ و٩)

الفصل السادس والعشرون

الخطية أسوأ من الشيطان

عدوان عظيمان لأرواحنا

إن أعظم عدوين لأرواحنا هما الخطية والشيطان. والخطية هي أسوأهما؛ لأن الطريق الوحيد الذي يستطيع الشيطان من خلاله أن يدمرنا هو الإيقاع بنا في الخطية. قد يطلق له الله العنان بمقدار لكي يزكينا، كما حدث مع أيوب، أو ربما حتى لكي يقتلنا، كما حدث مع القديسين في سميرنا (رؤ ٢: ١٠)، لكن لا يمكن للشيطان أن يديننا أو يسرق منا الحياة الأبدية. إن طريقته الوحيدة لجلب أقصى ضرر علينا هي إغواؤنا لنسقط في الخطية.

وهذا بالضبط ما يهدف إليه. أمّا كل خدائعه الأخرى مثل المرض، وفقدان متعلقاتنا الشخصية، والأصوات الغامضة، والرؤى الكاذبة، تخويفاته المتعددة جميعًا لا يمكن أن تلحق بنا ضررًا جسيمًا، إلا إذا كانت تقودنا إلى الخطية. لذا فشغل الشيطان الشاغل هو أن يبرر ويقوّي، يدعم ويعظّم ميلنا نحو الخطية. نرى هذا في أفسس ٢: ١ و٢. حيث يقول بولس: «وأنتم إذ كنتم أمواتًا بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً... حسب رئيس سلطان الهواء..» فالخطية تتوافق مع قوة الشيطان في العالم. فهو عندما يُحْدِث الشر الأخلاقي، فإنه يفعل ذلك من خلال الخطية. وعندما نخطئ فإننا نتحرك في دائرته، ونكون في توافق معه. لأننا عندما نخطئ فإننا «نعطي إبليس مكانًا» (أف ٤: ٢٧).

الأمر الوحيد الذي يديننا في يوم الدينونة هو الخطية غير المغفورة -لا المرض أو الشدائد أو الاضطهادات أو التهديدات أو المخاوف. والشيطان يدرك ذلك، لذلك فإن تركيزه الأكبر لا ينصب على كيفية إخافة المؤمنين من خلال ظواهر مرعبة (رغم توفر

كثير من هذه الظواهر)، ولكن على كيفية إفساد المؤمنين من خلال البدع الباطلة والأفكار الشريرة.

ما يعرفه الشيطان عن منبع الخطية

لكن الشيطان يعرف أمرًا آخر أيضًا -أكثر مما يعرفه كثير من المؤمنين- وهو أن كل الخطايا تنبع من الفشل في الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية (راجع رومية ١٤: ٢٣). معنى هذا أن هدف الشيطان الأول هو تدمير الإيمان. فالإيمان بالنعمة المستقبلية هو منبع كل بر أصيل، هو نبع كل محبة وكل حياة تمجد المسيح. وغيابه هو أصل كل خطية، والشيطان يعرف ذلك. ولذلك فهو يحشد كل جهوده بطريقة أو بأخرى لمنع أو تدمير الإيمان بالنعمة المستقبلية.

غربال الشيطان المُسنن

يمكن رؤية ذلك في الطريقة التي صلى بها الرب يسوع من أجل سمعان بطرس قبل تجربته الصعبة. قال له يسوع: «سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة! ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت ثبِّت إخوتك» (لو ٢٢: ٣١ و٣٢). لقد كان هدف الشيطان هو أن يغربل سمعان بطرس. ما معنى ذلك؟ يقدم لنا يسوع الإجابة بقوله: «طلبت... لكي لا يفنى إيمانك.» من هنا نفهم أن الشيطان أراد أن يطرد الإيمان من داخل بطرس. فالشيطان يملك غربالاً مُسنَّنًا الغرض منه تحطيم الإيمان، ثم غربلته ليخرج من داخل المؤمنين. هذا هو غرضه الرئيسي.

ويُلمح بولس إلى نفس الأمر في رسالته الأولى إلى تسالونيكي ٣: ٥. لقد كان منشغلاً بأمر الكنيسة الجديدة التي كان قد وضع أساسها في مدينة تسالونيكي؛ فأرسل تيموثاوس لكي يطمئن عليها. وعاد تيموثاوس بتقرير جيد، فكتب الرسول هذه الرسالة ليشرح عمق اهتمامه بهم: «من أجل هذا إذ لم أحتمل أيضًا، أرسلت لكي أعرف إيمانكم، لعل المجرِّب يكون قد جربكم، فيصير تعبنا باطلاً.» لقد كان انشغال الرسول بولس الأسمى هو لعل الشيطان يكون قد هاجم إيمانهم ودمر العمل الذي كان قد بدأه معهم.

على نفس المنوال، عندما يكتب الرسول بطرس إلى كنائس آسيا الصغرى، فإنه

يحذرهم من أن الشيطان يجول دائمًا ملتمسًا «مَنْ يبتلعه هو»، ثم يضيف قائلاً: «قاوموه راسخين في الإيمان» (١بط ٥: ٩). هذا القول يتضمن أن الشيطان يريد أن يقتنصنا في وقت لا يكون فيه إيماننا راسخًا، أي عندما يكون ضعيفًا قابلاً للانكسار. ومن المنطقي أن الأمر الذي يريد الشيطان القضاء عليه هو الأداة التي بها نقاوم مساعيه. وهذا ما يقوله الرسول بطرس: «قاوموه راسخين في الإيمان»، ولهذا أيضًا يقول بولس إن «ترس الإيمان» هو الأداة التي بها نطفئ سهام الشرير الملتهبة (أف ٦: ١٦). وبالتالي يكون الطريق للتصدي للشيطان هو أن نقوّي الشيء الذي يسعى الشيطان بكل قوته للقضاء عليه.

بدون الإيمان بالنعمة المستقبلية لن نفلت من الخطية

كل الفضائل الحقيقية تنبع من الإيمان بالنعمة المستقبلية، بينما تنبع كل الخطايا من نقص هذه النوعية من الإيمان. وهذا أحد الأسباب وراء كتابة هذا الكتاب. فقد خصصت مساحة كبيرة لإثبات أن الإيمان يعمل من خلال المحبة، وأن الإيمان بالنعمة المستقبلية هو منبع كل طاعة وقداسة ومحبة حقيقية. إلا أنني لم أتحدث كثيرًا عن الوجه الآخر لهذه الحقيقة– وهو أن الفشل في امتلاك الإيمان بالنعمة المستقبلية، أي الفشل في الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح، إنما هو أصل كل خطية. والشيطان يعرف هذا الأمر، وهو ما يحدد كل استراتيجياته الهادفة إلى إسقاط الناس في الخطية.

لذا من الهام للغاية أن نرى هذا الأمر بنفس الوضوح، لكي يساعدنا على تحديد خطتنا الدفاعية. إن كل الحالة الخاطئة لقلوبنا إنما تعود إلى عدم إيماننا بنعمة الله المستقبلية المتفاضلة. كل خطايانا تنبع من الفشل في الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. ويمثل الخجل الذي ليس في محله، والقلق، والاكتئاب، والطمع، والشهوة، والمرارة، وعدم الصبر، والكبرياء ثمار عدم الإيمان بالوعود الإلهية. دعوني أوضح هذا الأمر من خلال نص معروف ينسب كل خطية إلى سبب غير متوقع.. ألا وهو محبة المال.

القلب الذي يحب المال

قال الرسول بولس في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٦: ١٠: «لأن محبة المال أصل لكل الشرور!» ماذا كان يقصد بذلك؟ بالتأكيد لا يقصد أن المال يكون دائمًا في ذهنك

عندما تخطئ. فالكثير من الخطايا تحدث حين لا نفكِّر في المال. وتفسيري هو التالي: أن الرسول قصد بذلك أن كل الشرور في العالم تنبع من نوعية معينة من القلوب، وأقصد بها تلك النوعية التي تحب المال.

والآن ما معنى أن يحب المرء المال؟ لا يعني ذلك محبة العملات النقدية. فلكي نعرف معنى محبة المال، علينا أن نسأل: ما هو المال؟ إن إجابتي هي كالتالي: المال ببساطة إنما هو رمز يشير إلى كل الإمكانيات البشرية. فالمال يشير إلى كل ما يمكنك أن تحصل عليه من البشر، لا من الله. فالله يتعامل بعملة النعمة وليس بالعملة النقدية: «أيها العطاش جميعًا هلموا إلى المياه، والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا» (إش ٥٥: ١). أما المال هو عملة الإمكانات البشرية.

إذًا فالقلب الذي يحب المال إنما هو قلب يعلِّق آماله ويربط سعادته ويضع ثقته فيما يمكن للإمكانيات البشرية أن تقدِّمه. إذًا فمحبة المال فعليًا هي نفسها الإيمان بالمال.. أو الثقة والرجاء والاتكال على أن المال سوف يسدد احتياجاتك ويجعلك سعيدًا. ومن هنا تكون محبة المال هي البديل للإيمان بالنعمة المستقبلية. إنها الإيمان بالإمكانيات البشرية المستقبلية. وهكذا فإن محبة المال، أو الثقة به، هو المعني الخفي لعدم الإيمان بالوعود الإلهية. قال الرب يسوع في متى ٦: ٢٤: «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين... لا تقدرون أن تخدموا الله والمال.» فلا يمكن الوثوق بالله وبالمال في آن واحد. لأن الإيمان بأحدهما يمثل عدم إيمان بالآخر. والقلب الذي يحب المال ويتكل عليه في سبيل سعادته، لا يتكل على نعمة الله المستقبلية لكفايته.

كل ما ليس من الإيمان فهو خطية

لذا عندما يقول الرسول بولس إن محبة المال أصل لكل الشرور، فإن هذا يتضمن أن عدم الإيمان بالوعود الإلهية إنما هو منبع كل توجه خاطئ يسكن قلوبنا. يقول الرسول بأكثر وضوح في رومية ١٤: ٢٣: «كل ما ليس من الإيمان فهو خطية»؛ فغياب الإيمان لا يؤدي إلى شيء سوى التوجهات والسلوكيات الخاطئة. قد يبدو هذا الأمر مبالغًا فيه. لكنه من وجهة نظر بولس لا يعبِّر بوضوح عن مركزية الله. فما لا يأتي من الاكتفاء بالله ومن خلال قيادته ولمجده فهو ليس من الله، بل خطية. ومهما بدا الأمر إنسانيًا أو محترمًا أو قيمًا أمام البشر، فإنه يكون ناقصًا في شيء أساسي: محبة مجد الله.

وهناك الكثير من الإشارات في الكتاب المقدس إلى أن وضع ثقتنا في أي أمر

آخر سوى الله يسبب الخطية. على سبيل المثال يبدو أن هناك علاقة قائمة بين الثقة بالمال والانجذاب نحو الخطية في دفاع أيوب عن استقامته: «إن كنت قد جعلت الذهب عَمدتي، أو قلتُ للإبريز: أنت متكلي... وغَوي قلبي سرًا، ولثم يدي فمي، فهذا أيضًا إثم يعرض للقضاة، لأني أكون قد جحدت الله من فوق» (أي ٣١: ٢٤، ٢٧ و٢٨). فالثقة في الذهب والاتكال على الإبريز يقودان إلى إنكار الله والوقوع في الخطية. كذلك عندما يقول الحكيم في سفر الأمثال: «مَنْ يتكل على غناه يسقط» (أم ١١: ٢٨)، فإنه في غالب الأمر يقصد أنه سوف يتعرض للهلاك بسبب حياة الخطية التي يعيشها.

يحذِّر النبي إشعياء أولئك الذين يثقون في القوة البشرية العسكرية، ويقول إن هذه الثقة الكاذبة سوف تقود إلى الشر والخطية، وفي النهاية إلى الدمار: «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة، ويستندون على الخيل ويتوكلون على المركبات... ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل ولا يطلبون الرب» (إش ٣١: ١). ثم يصف دينونة الله ردًا على اتكالهم على الإمكانيات البشرية ورفضهم للنعمة المستقبلية. ويفاجئنا بقوله إن الدينونة تقع على الشر والإثم- اللذين هما ثمار للإيمان بالثروات البشرية: «يقدوم [الله] على بيت فاعلي الشر وعلى معونة فاعلي الإثم» (إش ٣١: ٢). الفكرة هنا هي أن عدم الإيمان بالنعمة المستقبلية قد أثمر «فاعلي الشر» و«فاعلي الإثم» (راجع هوشع ١٠: ١٣ و١٤).

الثقة في عطية الصلاح وليس المعطي

واحد من أسوأ نماذج الرجاء الباطل يحدث عندما يثق الناس فيما قد يفعله الله لهم بدلاً من الثقة في الله نفسه. على سبيل المثال يقول الله: «إذا قلت للبار: حياة تحيا. فاتكل هو على بره وأثِم، فبرُّه كله لا يُذكر» (حز ٣٣: ١٣). من الممكن أن تتكل على صلاحك الشخصي بطريقة تؤدي بك إلى الإثم. فأي ثقة، سوى الثقة بالله، تودي إلى الخطية: «فاتكلتِ على جمالكِ، وزنيتِ على اسمكِ» (حز ١٦: ١٥). لقد جعل الله شعب إسرائيل جميلاً، لكنه عندما اكتفى بجماله بدلاً من الاكتفاء بصانع هذا الجمال، كانت النتيجة هي الزنى.

قوة الشيطان هي قوة الخداع

الفكرة التي أود إبرازها هي تلك التي يعرفها الشيطان ويستخدمها. هذه الفكرة

تتلخص في أنه عندما يفشل الإيمان بالله تأتي الخطية. وبالنسبة للشيطان يعني هذا أن جوهر عمله هو تخريب هذا الإيمان. وهذا يتوافق مع شخصيته وطباعه. لقد قال الرب يسوع: «متى تكلم (الشيطان) بالكذب فإنه يتكلم مما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب» (يو ٨: ٤٤). والكذب وسيلته الأساسية في تخريب الإيمان. فالإيمان يثبت أو يسقط على أساس الحق بأن المستقبل مع الله أكثر إشباعًا من ذلك المستقبل الذي تعد به الخطية. عندما يُقبل هذا الحق، ويكون الله فوق الكل تنكسر قوة الخطية. إن قوة الخطية هي قوة الخديعة. قوة الخطية تكمن في وعودها بمستقبل كاذب. وفي التجربة تأتي الخطية إلينا قائلة: "إن المستقبل مع الله في طريقه الضيق صعبٌ وكربٌ، أمّا الطريق التي أعدكم بها فهي جميلة ومشبعة." تكمن قوة الخطية في قوة هذه الكذبة.

إن استراتيجية الشيطان الأساسية هي استخدام آلاف الأساليب الخادعة ليجعل كذبته تبدو جذابة ومقنعة. لقد بدأ كل بؤسنا كبشر من أول نجاح لإبليس في الأرض. لم يكن ذلك بواسطة إرهاب أو مضايقة أو السيطرة على آدم وحواء، لكن من خلال خداعهم. وكانت الخدعة هي بالضبط أن الله لا يمكن الاعتماد عليه في تسديد احتياجاتهما. وقالت الحية أمرين فقط.. الأمر الأول عبارة عن سؤال يوحي بأن الله بخيل: «أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟» أمّا الأمر الثاني فكان عبارة عن نصف الحقيقة المميت: «لن تموتا» (تك ٣: ١، ٤).

في دراسته الثاقبة لأسفار موسى الخمسة يلخِّص «چون سيلهامر» المشهد كالتالي:

> «لقد تكلمت الحية مرتين، لكن كان هذا كافيًا لقلب ميزان الثقة والطاعة بين الرجل والمرأة وخالقهما. إن جوهر هذه القصة هو مسألة معرفة "الخير". لقد أوحى الشيطان من خلال أسئلته بأن الله يمنع هذه المعرفة عن الرجل والمرأة (٣: ٥)، بينما اتجاه القصة العام في أول أصحاحين كان يشير إلى أن الله كان يحفظ هذه المعرفة للرجل والمرأة (راجع على سبيل المثال ١: ٤، ١٠، ١٢، ١٨، ٢١، ٢٥، ٣١؛ ٢: ١٨). بكلمات أخرى، كانت عبارات الحية تمثل تحديًا مباشرًا للموضوع الرئيسي في الأصحاحين الأولين، وهو أن الله سوف يقدم الخير للبشر إذا وثقوا فيه وأطاعوه.[1]

لقد بدأ الشيطان بالتشكيك في صلاح الله، وأصبح ذلك استراتيجيته الأساسية منذ ذلك الحين. إن هدفه هو أن يفسد ثقتنا في الله بأن يجعلنا نعتقد أن وعود الخطية أكثر إشباعًا من الوعود الإلهية.

وعد في مقابل وعد

إن الأفعال الوحيدة التي يهتم الشيطان بأمرها فعلاً هي أفعال مستقبلية. فخطايا الماضي قد ولّت، ولا يستطيع شيئًا حيالها. يمكنه فقط أن يعمقها بالتأثير على استجاباتنا المستقبلية تجاهها، أو بأن يضيف إليها بالمزيد من الخطايا. كل الخطايا التي يمكن اقترافها هي خطايا مستقبلية. فإذا كان الشيطان سوف يحاول إيقاعنا في خطايا بالفكر أو بالفعل، فإنه سوف يستخدم الوعود لإتمام ذلك. هذا ما فعله مع آدم وحواء، وهذا ما يفعله معنا. فهو يمتلك وعودًا بديلة للوعود الإلهية. إنه يخرب الإيمان بالنعمة المستقبلية بوعود تمنينا بالسعادة في حالة ابتعادنا عن الله.

ولكي يفعل ذلك، ينبغي عليه أن يعمي أذهان غير المؤمنين ويشوش قناعات المؤمنين الروحية: «إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله» (٢كو ٤: ٤). إن رجاء الشيطان الوحيد في النجاح هو أن يخفي حق وجمال المسيح عن ذهن الإنسان. لكن مجد المسيح هو الذي يدفع القلب للتمسك به من خلال وعود النعمة المستقبلية. لذا يبذل الشيطان كل ما في وسعه ليخفي هذا المجد الأخاذ حتى لا يكتفي المرء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح.

ما يعنيه هذا للحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية ليس فقط كونه معركة تستوعب الحياة بأكملها، وإنما أيضًا يتضمن معركة خاصة ضد الخطية (التي هي الوسيلة الوحيدة التي يمتلكها الشيطان)، ومعركة في سبيل الإيمان (الذي يبغي الشيطان تدميره أكثر من أي أمر آخر).

في عصرنا الحالي، وربما في كل العصور السابقة، كانت الشهوة واحدة من أكثر إغواءات الشيطان ضراوة. فهناك تداخل عميق بين أفكارنا ورغباتنا الخاصة من جهة، وإغراءات القوة الشيطانية من جهة أخرى (أف ٢: ٢ و٣). في الفصل التالي سوف نركز على القوة الفائقة للإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة قوة الإغراءات الجنسية التي تبدو كاسحة ظاهريًا.

يكسر شوكة الخطية، ويعتق الأسير.
«تشارلز وسلي»

«إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون.»
(رو ٨: ١٣)

«وقد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة،
لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية،
هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة.»
(٢بط ١: ٤)

الفصل السابع والعشرون

تطبيقات القوة المطهرة

الإيمان بالنعمة المستقبلية في مواجهة الشهوة

هل ستقوم بقطع قدمك؟

في ٢٠ يوليو ١٩٩٣ كان «دونالد وايمان» يقوم بتطيهر قطعة أرض بالقرب من «بونكستوني» بولاية بنسلفانيا كجزء من عمله في إحدى شركات التعدين. في أثناء ذلك تدحرجت شجرة على كاحله مما أدى إلى إصابته بكسر مضاعف، وانغرست قدمه تحت الشجرة. وأخذ «وايمان» يصرخ لمدة ساعة طلبًا للعون دون جدوى. وأدرك عندئذٍ أن الحل لإنقاذ حياته هو أن يقوم بقطع ساقه المحشورة تحت الشجرة. فقام باستخدام رباط حذائه لوقف النزيف، وأحكم ربطه حول ساقه باستخدام مفك. ثم أخرج المطواة الخاصة به وقام بقطع الجلد ثم العضلة ثم العظام من تحت الركبة وحرر نفسه من الشجرة. وزحف لمسافة ما يقرب من ثلاثين مترًا حتى وصل إلى "البولدوزر"، وقاده لمسافة ربع ميل حتى وصل إلى سيارته ليقودها مستخدمًا قدمه السليمة ويده حتى وصل إلى منزل مزارع على بعد ميل ونصف بينما كانت ساقه تنزف بغزارة. وقام المزارع «چون هوبر» بمساعدته للوصول إلى مستشفى وتم إنقاذ حياته.(١)

لقد عرف الرب يسوع أن البشر يحبون الحياة؛ فقام بمخاطبة هذه الرغبة فيهم ليوضح أهمية الطهارة. فتمامًا كما قطع «دونالد وايمان» ساقه لينقذ حياته، أوصى

الرب يسوع بأن نقلع عيوننا لكيما نهرب من تأثير الشهوة المميت: «كل مَنْ ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم» (مت ٥: ٢٨ و٢٩). بالطبع، إذا قلعت عينك اليمنى كما يقول الرب يسوع، فإنك تظل قادرًا على مشاهدة المجلة الإباحية بعينك اليسرى. لذا فمن الواضح أن يسوع كان يقصد أمرًا أكثر عمقًا من مجرد تشويه الجسد بشكل حرفي.

تأمل خطورة الشهوة

منذ سنوات قليلة تحدثت إلى جمع من الشباب في المرحلة الثانوية عن كيفية محاربة الشهوة. وكانت إحدى أفكاري تحت عنوان "تأمل المخاطر الأبدية للشهوة"، واقتبستُ كلمات الرب يسوع عن أنه من الأفضل الذهاب إلى السماء بعين واحدة عن الذهاب إلي الجحيم بعينين، وقلت للطلبة إن مصيرهم الأبدي يرتبط بقوة بما يفعلونه بعيونهم وبما يتخيلونه من أفكار.

حاولت أن أقاوم الفكرة السائدة عن أن أخلاقيات الحياة الجنسية الخاصة بالفرد، بما فيها ما يدور في ذهنه، لا تمثل أهمية أخلاقية كبيرة. فالطلبة المفكرون (وكذلك الكبار) يعتقدون دائمًا أن ما يفعلونه بأجسادهم وأذهانهم على المستوى الشخصي ليس له أهمية كبيرة. فإذا كان الأمر يمثل خطية، فإنها ليست سوى خطية صغيرة جدًا. أليس من الأجدى التعامل مع المسائل الكبيرة مثل السلام العالمي، والاستراتيجيات الدولية للبيئة، والتصالح العرقي، والعدالة الاجتماعية، ومشروعات التأمين الصحي، والقضاء على العنف؟ أمّا أمر الشهوة فليس بالأمر الخطير، فإذا كنت تناصر قضية العدالة الاجتماعية وفي نفس الوقت تشاهد مجلات إباحية فإن الأمر لا يعني شيئًا، طالما كنت في طريقك إلى محادثات السلام في جينيف.

لقد ركزت على أن الرب يسوع ينظر إلى الأمور بطريقة مختلفة تمامًا. فتلك القضايا العالمية هامة بلاشك، لكن السبب وراء أهميتها هي أنها تمس حياة الناس، وليس مجرد إحصائيات سكانية، بل الناس الحقيقيين. ولكن أكثر الأمور أهمية بالنسبة للناس، على خلاف الحيوانات والأشجار، أن يعيشوا إلى الأبد في السماء ممجدين الله، أو في الجحيم رافضين له. فالبشر ليسوا مهمين لأنهم يتنفسون، لكن لأنهم يملكون القدرة على تمجيد الله بقلوبهم وعقولهم وأجسادهم حتى بعد أن يتوقفوا عن التنفس بفترة طويلة.. إلى الأبد.

لذا، فإن ما يقوله الرب يسوع هو أن نتائج الشهوة ستكون أسوأ من تلك التي تتسبب فيها الحروب أو الكوارث البيئية. إن أقصى تهديد للحرب هو أنها يمكن أن تقتل الجسد، لكن الرب يسوع يقول: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر. بل أريكم ممن تخافون: خافوا من الذي بعدما يقتل له سلطان أن يلقي في جهنم. نعم أقول لكم: من هذا خافوا» (لو ١٢: ٤ و٥). بكلمات أخرى دينونة الله الأخيرة إنما هي مخيفة أكثر من أي فناء أرضي.

الشهوة والضمان الأبدي

بعد محاضرتي في مسرح المدرسة الثانوية جاءني أحد الطلبة متسائلاً: "هل تقصد أن تقول إن المرء يمكن أن يفقد خلاصه؟" بكلمات أخرى، إذا كان يسوع قد استخدم التهديد بالجحيم ليحذر من خطورة الشهوة، فهل يعني ذلك أن المؤمن يمكن أن يهلك؟

كانت تلك هي نفس الاستجابة التي جاءتني منذ سنوات قليلة عندما واجهت رجلاً بحالة الزنى التي كان يعيش فيها. حاولت أن أفهم موقفه، وتناقشت معه بهدف العودة إلى زوجته. ثم قلتُ له: "أتعرف.. يقول الرب يسوع إنك إذا لم تحارب هذه الخطية بنفس جدية الاستعداد لأن تقلع عينك، فإنك سوف تذهب إلى الجحيم لتعاني هناك إلى الأبد." وإذ كان مسيحيًا ملتزمًا فقد نظر لي باستنكار كما لو أنه لم يسمع مثل هذا الأمر من قبل طوال حياته، ثم قال لي: "هل تقصد أن تقول إن المرء يمكن أن يفقد خلاصه؟"

وهكذا أدركت مرة بعد الأخرى من خلال الخبرة العملية أن هناك الكثير من المسيحيين الملتزمين الذين يمتلكون وجهة نظر عن الخلاص تفصلهم عن الحياة الواقعية، وتُبطل التهديدات الكتابية، وتضع الشخص الخاطئ الذي يدَّعي الإيمان بعيدًا عن أن تطوله التحذيرات الكتابية. أعتقد أن مثل هذه الرؤية للحياة المسيحية تريح الآلاف ممن يسلكون الطريق الواسع الذي يؤدي إلى الهلاك (مت ٧: ١٣). لقد قال الرب يسوع إنك إذا لم تحارب الشهوة فلن تذهب إلى السماء. ليس لأن القديسين دائمًا ينجحون في ذلك، بل القضية هي أن نعقد العزم على الجهاد، وليس أننا سننجح دون أن نخطئ في شيء.

الأخطار أكبر من تدمير العالم بآلاف القنابل، أو أن يتسع ثقب الأوزون، أو أن يستشرى وباء الإيدز بين الدول.. فكل هذه الكوارث يمكنها فقط أن تقتل الجسد.

لكننا إذا لم نحارب الشهوة فإننا نفقد أرواحنا. يوصي الرسول بطرس قائلاً: «أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس» (١بط ٢: ١١). مخاطر هذه الحرب أكبر بكثير من أي تهديد يمثله قيام حرب عالمية ثالثة. يذكر الرسول بولس قائمة تضم: «الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الردية، الطمع»، ثم يستطرد قائلاً: «الأمور التي من أجلها يأتي غضب الله» (كو ٣: ٦). وغضب الله مخيف- بما لا يقاس من غضب كل الأمم مجتمعة. في رسالة غلاطية ٥: ١٩ يذكر الرسول بولس الزنا والعهارة والنجاسة ثم يضيف قائلاً: «إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله» (غل ٥: ٢١).

الإيمان المبرِّر يحارب الشهوة

ما هي إذًا الإجابة على هذا الطالب وذلك الرجل الذي كان يعيش في الزنا؟ لقد أعطيت الإجابة قبلاً في ثنايا هذا الكتاب: عندما قلت إننا تبررنا بالنعمة فقط من خلال الإيمان وحده (رو ٣: ٢٨؛ ٤: ٥؛ ٥: ١؛ أف ٢: ٨)، وجميع أولئك الذين تبرروا بهذه الطريقة سوف يتمجدون (رو ٨: ٣٠)- بمعنى أن الشخص الذي تبرر لا يمكن أن يهلك أبدًا. ومع هذا فإن مَنْ يسلِّمون أنفسهم إلى النجاسة سوف يهلكون (غل ٥: ٢١)، وأولئك الذين يتخلون عن جهادهم ضد الشهوة سوف يهلكون (متى ٥: ٣٠)، وأولئك الذين لا يتبعون القداسة لن يروا الرب (عب ١٢: ١٤)، وأولئك الذين يخضعون حياتهم للرغبات الشريرة سيأتي عليهم غضب الله (كو ٣: ٦).

والسبب في عدم تناقض هاتين المجموعتين من النصوص الكتابية هو أن الإيمان الذي يبرر إنما هو إيمان يقدِّس أيضًا. واختبار ما إذا كان إيمانًا مبررًا أم لا يتحدد بما إذا كان إيمانًا مُقدِّسًا أيضًا. وقد عبر اللاهوتي الإنجيلي المشيخي «روبرت إل. دابني» في القرن التاسع عشر عن هذا الأمر بقوله: "هل من خلال وسيلة الإيمان نقبل المسيح برًا لنا بدون استحقاق لأي عمل فينا؟ حسنًا.. لكن نفس هذا الإيمان، إذا كان حيًا بشكل كافٍ لقبول المسيح، فإنه حيٌ كذلك لـ "يعمل بالمحبة" و"يطهر قلوبنا". هذه إذًا هي فضيلة الإنجيل المجاني، كخدمة تقديس.. أن ذات الإيمان الذي يقبل العطية يصبح حتمًا مبدأ إلهيًا قويًا لحياة الطاعة."[٢]

إن الإيمان يخلِّص من الجحيم، والإيمان الذي يخلِّص من الجحيم يخلِّص من الشهوة أيضًا. أقول مجددًا إنني لا أعني بذلك أن إيماننا يخلق كمالاً مطلقًا في هذه الحياة، إنما أعني بذلك أنه يخلق جهادًا مثابرًا. إن برهان الإيمان المبرر يكمن في

محاربته للشهوة. لم يقل الرب يسوع إن الشهوة سوف تخمد تمامًا، لكنه قال إن الدليل على ارتباطنا بالسماء هو أننا نفضل قلع عيوننا بدلاً من الانغماس في الشهوة.

إن الهدف الأساسي لهذا الكتاب هو توضيح أن الجهاد ضد الخطية إنما هو جهاد ضد عدم الإيمان.. أو بمعنى آخر أن الجهاد من أجل الطهارة إنما هو جهاد من أجل الإيمان بالنعمة المستقبلية. والخطأ الكبير الذي أحاول تفنيده هو ذاك الذي يقول: "إن الإيمان بالله شيء، والجهاد من أجل القداسة شيء آخر. فأنت تحصل على التبرير بالإيمان ثم تحصل على التقديس من خلال الأعمال. أنت تبدأ الحياة المسيحية بقوة الروح وتستمر فيها بجهود الجسد. معركة الطاعة أمر اختياري؛ لأن الإيمان فقط هو اللازم للحصول على الخلاص النهائي." الإيمان وحده لازم للتبرير، لكن النقاء الذي يؤكد حقيقة الإيمان لازم أيضًا من أجل الخلاص النهائي (راجع الفصول من ١٨- ٢٠).

الإيمان بالنعمة المستقبلية يكسر شوكة الخطية

إن معركة الطاعة لا غنى عنها لخلاصنا النهائي؛ لأن معركة الطاعة هي معركة الإيمان. فالجهاد ضد الشهوة لا غنى عنه مطلقًا من أجل خلاصنا النهائي، لأن هذا الجهاد هو الجهاد ضد عدم الإيمان. أتمنى أن ترى في هذا إنجيلاً أعظم من الإنجيل الآخر. إنه إنجيل نصرة الله على الخطية وليس إنجيل التسامح مع الخطية. إنه إنجيل رومية ٦: ١٤: «فإن الخطية لن تسودكم بعد، لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة». إنها النعمة القادرة! النعمة التي تسود! إنها نوعية النعمة التي تمثل قوة الله المستقبلية للانتصار على تجارب الشهوة.

يكسر شوكة الخطية،
ويعتق الأسير،
يطهر إثمي ويعفو؛
إذ يجري الدم الغزير.

لقد كانت ترنيمة "ياليت لي ألف لسان لأرنم"، التي كتبها «تشارلز ويسلي» صائبة: فدم المسيح قد صار لنا ليس فقط للعفو عن الخطية، بل أيضًا للانتصار عليها. هذه هي النعمة التي نحيا في ظلها.. النعمة المنتصرة على الخطية، وليست النعمة التي تلغي جزاءها. الانتصار على خطية الشهوة إنما هو عمل النعمة، النعمة الماضية التي تغفر إثم الشهوة من خلال الصليب، والنعمة المستقبلية التي تنتصر على قوة الشهوة

من خلال الروح القدس. وهذا ما يجعل الجهاد الذي نجاهده إنما هو جهاد الإيمان. إننا نجاهد لكي نكتفي بكل ما يمثله الله لنا في المسيح حتى تفقد إغواءات الخطية سطوتها علينا.

كيف تُميت الشهوة؟

واحدة من الطرق التي يتحدث بها الرسول بولس عن هذا الجهاد هي قوله: «إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨: ١٣). يقترب هذا القول من تعليم ربنا يسوع عن أننا إذا امتلكنا الاستعداد لقلع عيوننا بدلاً من الانجرار وراء الشهوة فإننا سوف ندخل الحياة (مت ١٨: ٩). ويتفق الرسول بولس على أن الحياة الأبدية تكون على المحك في المعركة ضد الخطية: «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون، ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨: ١٣). فالجهاد ضدالشهوة إنما هو معركة حياة أو موت.

فكيف لنا إذًا أن نطيع كلمات رومية ٨: ١٣ بأن نميت أعمال الجسد، ونميت الشهوة؟ لقد أجبنا على هذا الأمر: "بالإيمان بالنعمة المستقبلية"، لكن ماذا يتضمن هذا الأمر عمليًا؟

هب أني مجرَّب بالشهوة، وتراود ذهني صورة جنسية ما، وتدفعني للانجذاب وراءها. الطريقة التي بها تتسلط هذه التجربة عليّ هي أن تقنعني بأنني سأكون أسعد حالاً لو أنني تبعتها. إن قوة أي تجربة تكمن في وعدها بأنها ستجعلني أكثر سعادة. لا يوجد شخص يخطئ بدافع الواجب، عندما يكون ما يبغيه فعلاً هو أن يفعل الصواب.

إذًا ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ البعض قد يقولون: "تذكَّر وصية الله بالقداسة (١بط ١: ١٦)، ودرِّب إرادتك على الطاعة لأنه هو الله." لكن هناك أمرًا هامًا يغيب عن هذه النصيحة، وأقصد به الإيمان بالنعمة المستقبلية. الكثير من الناس يسعون وراء الارتقاء الأخلاقي لا يستطيعون أن يقولوا: «فما أحياه الآن... إنما أحياه بالإيمان» (غل ٢: ٢٠). إنهم يسعون إلى طهارة الحب غير مدركين أن هذه الطهارة إنما هي ثمرة الإيمان بالنعمة المستقبلية: «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ٦).

فكيف يمكنك إذًا محاربة الشهوة بالإيمان بالنعمة المستقبلية؟ عندما تأتي تجربة الشهوة، تقول رومية ٨: ١٣ أنك إذا أَمَتها بالروح، فإنك سوف تحيا. أُميتها بالروح..

ما معنى ذلك؟ من بين كل الأسلحة التي يقدِّمها لنا الله لمحاربة الشيطان، هناك قطعة واحدة مخصصة للقتل: السيف. يدعوها الرسول: «سيف الروح» (أف ٦: ١٧)، لذا عندما يقول الرسول بولس: أمِت الخطية بالروح، فإنني أرى أنه يعني أن أتكل على الروح، وخاصة على سيف الروح.

ما هو سيف الروح؟ إنه كلمة الله (أف ٦: ١٧). بالكلمة يأتي الإيمان: «الإيمان بالخبر والخبر بكلمة الله» (رو ١٠: ١٧). كلمة الله تخترق أكاذيب الشيطان، وتكشف لي أين توجد السعادة الحقيقية الدائمة. وهكذا تساعدني الكلمة على التوقف عن الثقة في الخطية كمصدر سعادتي. ومن ناحية أخرى تشجعني على الثقة بالوعود الإلهية.

عندما يكون للإيمان اليد العليا في قلبي أصبر مكتفيًا بالمسيح وبوعوده. هذا ما قصده الرب يسوع عندما قال: «مَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبدًا» (يو ٦: ٣٥). فعندما يُروى عطشي واشتياقي للفرح بحضور المسيح ووعوده فإن قوة الخطية تنكسر.

إن جهاد الإيمان ضد الشهوة هو جهاد الاكتفاء بالله: «بالإيمان موسى... (رفض) أن يكون له تمتع وقتي بالخطية... ولأنه كان ينظر إلى المجازاة» (عب ١١: ٢٤- ٢٦). فالإيمان هو عدم الرضا بالتمتع الوقتي للخطية. إنه نهم للفرح، وكلمة الله تقول: «أمامك شبع سرور، في يمينك نِعمٌ إلى الأبد» (مز ١٦: ١١). لذا فالإيمان لا يمكن أن ينحرف إلى شهوة، ويتخلى بسهولة عن سعيه وراء أعظم فرح.

إن دور كلمة الله هو تغذية شهية الإيمان بالله. وإذ تقوم بذلك فإنها تفطم قلبي عن التذوق الخادع للشهوة. في البداية تبدأ الشهوة في خداعي بأنني سأفقد شبعًا عظيمًا إذا اتبعت طريق الطهارة، لكن عندئذٍ أمسك بسيف الروح وأبدأ الجهاد.. وأقرأ أنه من الأفضل أن أقلع عيني بدلاً من الوقوع في الشهوة. وأقرأ أني إذا تفكرت في أمور طاهرة وجلية، فإن سلام الله سيكون معي (في ٤: ٨). وأقرأ أن تركيز الذهن على أمور الجسد يجلب موتًا، أمّا التركيز على الأمور الروحية يجلب حياةً وسلامًا (رو ٨: ٦). وأقرأ أن الشهوة تشن حربًا على روحي (١بط : ١١)، وأن الملذات الدنيوية تخنق حياة الروح (لو ٨: ١٤). لكن فوق الكل، أقرأ أن الله لا يمنع خيرًا عن السالكين بالكمال (مز ٨٤: ١١)، وأن أنقياء القلب يعاينون الله (متى ٥: ٨).

وإذ أصلي حتى يشبع إيماني بحياة الله وسلامه، فإن سيف الروح يزيل طبقة السكر التي تخفي تحتها سُم الشهوة فأراها على حقيقتها. وبنعمة الله تنطفئ قوة بريقها. وأستخدم سيف الروح بقوة في مواجهة الشهوة من خلال إيماني بالوعد الإلهي أكثر من إيماني بوعد الشهوة. فإيماني لا ينظر فقط إلى الوراء، إلى موت

الرب يسوع، لكنه أيضًا ينظر إلى الأمام راجيًا وعوده. فالإيمان ليس يقينًا بما قد فعله في السابق، لكنه أيضًا اكتفاء بما سوف يفعله.

هذا الاكتفاء السامي بالنعمة المستقبلية هو الذي يكسر قوة الشهوة. فعندما نشعر بخطر ضياع الحياة الأبدية منا، فإننا نجاهد جهاد الإيمان. إن عدونا الأساسي هو الكذبة القائلة بأن الخطية سوف تجعل مستقبلنا أكثر سعادة. وسلاحنا الأساسي هو الحق القائل بأن الله سوف يجعل مستقبلنا أكثر سعادة. والإيمان هو النصرة التي تهزم هذه الكذبة لأن الإيمان يشبع بالله.

محاربة النار بالنار

لقد دأبت على إخبار الشباب بأن عليهم محاربة النار بالنار. فنيران الملذات الشهوانية يجب محاربتها بنيران الملذات الإلهية. فإذا حاولنا محاربة نار الشهوة بقائمة من الممنوعات والتهديدات فقط -حتى لو كانت تحذيرات الرب يسوع المخيفة- فسوف يكون الفشل حليفنا. لكن علينا أن نواجهها بالوعد الرائع بالسعادة الأسمى. علينا أن نحرق فتيلة لذة الشهوة الخافتة في قلب نيران الشبع المقدس. عندما "نقطع عهدًا لعيوننا" كما فعل أيوب (أي ٣١: ١)، فإن هدفنا لا يكون مجرد تجنب أمر شهواني، لكن أيضًا للحصول على أمر رائع.

يصف الرسول بطرس هذه العملية المحررة القوية في رسالته الثانية إذ يقول:

> «كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى، بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وُهب لنا المواعيد العظمى والثمينة، لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة.» (٢بط ١: ٣- ٤)

كيف لنا أن نهرب من الفساد الذي بالشهوة؟ الإجابة هي أن الله قد وهبنا إعلانًا عن "مجده وفضيلته" تم التعبير عنه من خلال مواعيده العظمى والثمينة. وقد أُعطيت لنا من أجل هذا الهدف ذاته: لكي نصير بهما شركاء الطبيعة الإلهية ونتحرر من فساد الشهوة. والسر هو قوة الوعود. فعندما نُفتن بقيمتها وروعتها فإن النتيجة تكون التحرر من الشهوات التي هي في واقع الأمر لا تتمتع بأية قيمة أو روعة. يدعو الرسول بولس هذه الشهوات المقيدة: «شهوات الغرور» (أف ٤: ٢٢). ويقول إن «هوى الشهوة» الذي في الأمم ينبع من حقيقة كونهم لا «يعرفون الله» (١تس ٤: ٥). كذلك يدعو الرسول بطرس تلك الشهوات: «شهواتكم السابقة في جهالتكم»- أي

الجهل بمجد الله ووعوده العظمى والثمينة (١بط ١: ١٤). ما يقصده الرسولان بولس وبطرس هو أن تلك الشهوات تستمد سطوتها من الكذب علينا لكي تخدعنا. فهي تتغذى على جهلنا بالمواعيد الإلهية.. إنها تَدعّي بأنها تقدم متعًا ثمينة وخبرات رائعة. فما هو الشيء الذي يمكنه أن يحررنا منها؟ إنه الحق القوي، الموحي والآسر. إنه حق الوعود الإلهية العظمى والثمينة الذي يفضح كذب الشهوة في نور مجد الله الغامر.

الأنقياء يعاينون الله

في خريف عام ١٩٨٢ نشرت مجلة «القيادة» (Leadership) مقالاً غير مذيل بتوقيع كتبه راعٍ ليعترف بوقوعه لعدة سنوات أسيرًا لأقصى أنواع الميديا الإباحية. وقد حكى قصة جعلته يتحرر في نهاية الأمر. وهو تأكيد قوي لما أحاول قوله. لقد قرأ هذا الراعي كتاب «فرانسوا مورياك» الأديب الكاثوليكي الفرنسي بعنوان: «ما أؤمن به». في هذا الكتاب يعترف «موريك» بأن سطوة الشعور بالذنب لم تحرره من الشهوة. وانتهى إلى أن هناك سببًا واحدًا قويًا يدفع المرء للبحث عن الطهارة، وهو ذاك الذي قدمه الرب يسوع في تطويباته: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت ٥: ٨). إن الوعد العظيم والثمين بأن الأنقياء سوف يعاينون الله هو الذي يقوينا للهروب من الشهوة. كتب الراعي الذي أسرته الشهوة يقول:

> لقد صدمتني الفكرة كجرس يدق في صالة مظلمة وهادئة. فحتى تلك اللحظة لم تستطع أية فكرة مخيفة وسلبية عن الشهوة أن تمنعني عنها... لكن ها هي وصفة لما كنت أفتقده وبينما كنت أخفي الشهوة في قلبي: لقد كنت أحد من علاقتي الحميمة مع الله. إن الحب الذي يقدمه إنما هو من السمو والتأثير إلى درجة أنه يتطلب أن يتطهر كياننا ويتنقى حتى يمكنه استيعابه. هل يمكنه في حقيقة الأمر أن يضع فيّ جوعًا وعطشًا مختلفين عن هذين اللذين لم أستطع أبدًا إشباعهما؟ هل يمكن للمياه الحية أن تطفئ سعير الشهوة؟ كانت تلك هي مقامرة الإيمان.[٣]

لم تكن تلك مقامرة؛ فإنك لا يمكن أن تخسر عندما تتحول إلى الله. لقد اكتشف الراعي هذا في حياته الشخصية، وكان الدرس الذي تعلمه صحيحًا تمامًا: إن الطريقة التي بها نحارب الشهوة تكون بأن نغذي الإيمان بالوعد العظيم والثمين بأن النقي القلب سوف يعاين إله المجد الكلي الكفاية وجهًا لوجه.

إن التحدي الذي يواجهنا في حربنا ضد الشهوة ليس مجرد أن نفعل ما يقوله الله لأنه الله، لكن أيضًا أن نشتهي ما يقوله الله لأنه مجيد. ليس التحدي أن نتبع البر فقط، لكن أيضًا أن نفضل البر. التحدي هو أن نستيقظ في الصباح لنتأمل مصلين في الكلمة إلى أن نختبر «كل سرور وسلام» و«المواعيد العظمى والثمينة» (رو ١٥: ١٣؛ ٢بط ١: ٤). وإذ يُشبعنا الإيمان بالنعمة المستقبلية بالسرور الموضوع أمامنا، لن تكون الوصية الكتابية بنقاء القلب حملاً ثقيلاً علينا (١يو ٥: ٣)، وسوف تنكسر قوة الشهوة. وسوف تبدو وعودها الخادعة واهنة وسطحية جدًا عن أن تستمر في إغوائنا.

الجزء التاسع

أبدية النعمة المستقبلية

«قد وهب لكم لأجل المسيح... أن تتألموا.»
(في ١: ٢٩)

«لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا.
ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى.
لأن التي تُرى وقتية، وأمّا التي لا تُرى فأبدية.»
(٢كو ٤: ١٧ و١٨)

كان الرعب ينتشر في كل مكان بين الكنائس،
وكان عدد الذين يتنكرون لإيمانهم بسبب التهديدات ضخمًا.
لكن بقي مع ذلك البعض ممَنْ واجهوا الاستشهاد رافضين الخضوع للتهديد،
وإذ انتشر الاضطهاد وقوي زادت حماسة المؤمنين
وقدرتهم على الاحتمال أكثر فأكثر.
«ألبرخت ڤوجل»

الفصل الثامن والعشرون

النعمة المستقبلية للألم

سوف نتألم

يأتي تركيزي على قضية الألم في هذا الفصل، ليس فقط لأني أشعر بأن الأيام شريرة وأن طريق البر مكلف، لكن أيضًا بسبب الوعد الكتابي بأن شعب الله سوف يجوز في الألم. على سبيل المثال يقول مزمور ٣٤: ١٩: «كثيرة هي بلايا الصديق، ومن جميعها ينجيه الرب»، وفي سفر الأعمال ١٤: ٢٢ يخبر الرسول بولس كنائسه الوليدة: «أنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الرب»، وقال الرب يسوع لتلاميذه: «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم» (يو ١٥: ٢٠). كما يقول الرسول بطرس: «أيها الأحباء، لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة، لأجل امتحانكم، كأنه أصابكم أمر غريب» (١بط ٤: ١٢). فالألم ليس مستغربًا، بل ينبغي توقعه: «جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون» (٢تي ٤: ١٢). بل الأكثر عجبًا هو أن الألم يُدعى نعمة: «لأنه قد وُهب (echaristhe.. أي هبة كريمة) لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضًا أن تتألموا لأجله.» (في ١: ٢٩).

في واقع الأمر إن أسلوب الحياة الذي ينبع من العيش بالإيمان بالنعمة المستقبلية سوف يتضمن بلا شك المزيد من الألم، وليس أقل. فعندما تدرك أن مستقبلك بين يدي إله كلي القدرة والمعرفة والحكمة الذي يعد بأن تعمل جميع الأشياء لخيرك، فإنك تكون حرًا في اتخاذ أية مخاطرة تتطلبها المحبة- مهما كان الثمن. إن الحق الكتابي يقول إنه كلما زادت جديتنا في أن نكون ملحًا للأرض ونورًا للعالم، وكلما زاد التزامنا بأن نصل إلى الهالكين في هذا العالم ومقاومة أعمال الظلمة وكسر قيود الخطية والشيطان، زاد تعرضنا للألم.

هذا الألم يهدد دائمًا بتحطيم إيماننا بالنعمة المستقبلية. لكن إذا كنا ثابتين في

الكلمة، وإذا كان حق الله متأصلاً بعمق في أرواحنا، فإننا لن نتزعزع. بل على العكس من ذلك فإننا سوف نرى في الألم ليس نتيجة للحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية، بل بالحري هبة أخرى من هبات النعمة المستقبلية.

الشهداء وُضعوا لهذا

«داڤيد باريت»، أستاذ الإرساليات الذي قام بتحرير موسوعة أوكسفورد المسيحية العالمية، ينشر كل عام آخر الأخبار عن حالة الحركة المسيحية حول العالم.[١] من ضمن إحصائياته الكثيرة تلك الخاصة بتقدير عدد الشهداء المسيحيين سنويًا. على سبيل المثال، في عام ١٩٨٠ قدَّر «داڤيد» أن حوالي ٢٧٠ ألف مسيحي تعرضوا للقتل بسبب إيمانهم. وبعد التطورات الهامة التي شهدها الاتحاد السوڤيتي السابق في نهاية الثمانينيات، انخفض العدد كثيرًا. وفي عام ١٩٩٥ كان العدد المقدَّر حوالي ١٥٧ ألف. لكن تقديراته المستقبلية تشير إلى أن العدد سوف يظل في مئات الآلاف.

مع نهاية القرن الأول المسيحي حظي الرسول يوحنا برؤيا من السماء، وشاهد تحت المذبح نفوس الذين استشهدوا.. كانوا يصرخون ويتساءلون إلى متى ينتظر الله حتى يقوم غالبًا لينصفهم. وكانت الإجابة الإلهية في سفر الرؤيا ٦: ١١ مذهلة: «فأُعطوا كل واحد ثيابًا بيضًا، وقيل لهم أن يستريحوا زمانًا يسيرًا أيضًا حتى يكمل العبيد رفقاؤهم، وإخوتهم أيضًا، العتيدون أن يُقتلوا مثلهم.» بمعنى آخر أن هناك عددًا من الشهداء محدد من قِبَل الرب، هذا العدد ينبغي أن يكمل قبل المنتهى: «استريحوا، يقول الرب، حتى يكمل عدد الذين ينبغي أن يموتوا مثلكم.»

ولمدة حوالي ثلاثمائة عام نمت المسيحية في تربة مخصبة بدماء الشهداء. فحتى عصر الإمبراطور «تراچان» كان الاضطهاد مسموحًا به لكنه لم يكن قانونيًا. ومن عصر «تراچان» حتى «ديسيوس» (حوالي عام ٢٥٠ ميلادية) كان الاضطهاد قانونيًا، لكنه كان في معظمه محليًا. ومن عصر «ديسيوس»، الذي كان يكره المسيحيين ويخشى من تأثيرهم على إصلاحاته، وحتى مرسوم التسامح الأول في عام ٣١١ ميلادية، لم يكن الاضطهاد قانونيًا فقط لكنه أصبح منتشرًا على نطاق واسع وعامًا. وصف أحد الكتاب الحالة في تلك المرحلة الثالثة:

> كان الرعب ينتشر في كل مكان بين الكنائس، وكان عدد الذين يتنكرون لإيمانهم بسبب التهديدات ضخمًا. لكن بقي مع ذلك البعض ممن واجهوا الاستشهاد رافضين الخضوع للتهديد، وإذ انتشر الاضطهاد وقوي زادت حماسة المؤمنين وقدرتهم على الاحتمال أكثر فأكثر.[٢]

وهكذا، فلمدة ثلاثمائة عام، لكي يكون المرء مؤمنًا فهذا معناه مخاطرة جسيمة تمس الحياة والممتلكات والأسرة. كان الأمر اختبارًا لما تحبه أكثر. وفي قمة هذا الاختبار تأتي الشهادة. وفوق الشهادة كان هناك إله عظيم يقول أن هناك عددًا محددًا من الشهداء. لقد كان لهم دور خاص ليلعبوه في غرس وتقوية الكنيسة. وكان لهم دور خاص ليلعبوه في سد فم الشيطان الذي كان لا يتوقف عن القول بأن الشعب يعبد الله لأن الأمور تسير على ما يرام (أي ١: ٩- ١١).

لم يكن الاستشهاد أمرًا عرضيًا، ولم يكن أمرًا مباغتًا لله، ولم يكن أمرًا غير متوقع. ولا شك أن الاستشهاد لا يمثل هزيمة استراتيجية لقضية المسيح. قد يبدو الأمر وكأنه هزيمة، لكنه جزء من خطة سماوية لا يمكن لتخطيط بشري أن ينسجها أو يرسمها. وسوف تنتصر هذه الخطة لأولئك الذين سوف يصبرون إلى المنتهى بالإيمان بالنعمة المستقبلية.

أزمات متغيرة وألم ثابت

في الوقت الذي تقرأ فيه هذا الكتاب ستكون الأزمات العالمية قد تغيرت، لكن من غير المحتمل أبدًا أن تكون قد انتهت. قد تكون المعاناة في الصومال، حيث يتم عمدًا عزل عشرات الآلاف من المسيحيين وتجويعهم حتى الموت بواسطة الفصائل المتمردة. وقد تكون في رواندا، حيث أصبحت الكنائس ساحات إعدام. وقد تكون المعاناة في التوترات المتفجرة بين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا. وقد تكون المعاناة في ملايين المسيحيين الذين يتعرضون للتضييق والإقصاء في الصين، أو قد تكون الأعمال العدوانية في بيرو أو في ميانمار.

في ديسمبر ١٩٩٤م أوردت إحدى الصحف التعليق التالي:

> في بعض الأجزاء في العالم لا يزال المسيحيون يُصلبون بالمعنى الحرفي للكلمة. فقد أعلنت وكالات الأنباء عن صلب خمسة مسيحيين في السودان منذ شهر يوليو، واحد منهم هو قسيس من الكنيسة الأسقفية. وتقول التفاصيل إن المنفذين استخدموا مسامير طول الواحد منها ست بوصات. وفي مدينة «وَدْمَدَني» بالسودان تم الحكم بالصلب على اثنين من الكاثوليك المتحولين حديثًا إلى المسيحية. ويشير الأسقف الأنجليكاني «دانيال زيندو» إلى أن أرامل وأبناء المحكوم عليهم يباعون كعبيد في شمال السودان وليبيا في مقابل ١٥ دولار للفرد.[٣]

ونشرت دورية أخرى ما يلي في فبراير ١٩٩٥:

> حكمت محكمة باكستانية على شخص مسيحي يبلغ ١٤ عامًا وآخر يبلغ

٤٤ عامًا بالكفر، وقررت إعدامهما شنقًا رغم إنكارهما للتهمة الموجهة إليهما. وفي أبريل الماضي تم إعدام شخص ثالث رميًا بالرصاص خارج إحدى المحاكم في لاهور.. وقد صرحت رئيسة الوزراء «بنظير بوتو» للمراسلين بأنها سوف تقوم بمحاولة لتعديل القانون.(٤)

وقدمت دورية أخرى تقريرًا في فبراير ١٩٩٥م عن اضطهاد المسيحيين في إيران:

بعد مرور عام من مقتل أسقف كنيسة جماعة الرباني «هايك هوفسبيان مهر»، تقول المصادر إن الكنيسة البروتستانتية لاتزال تعيش في حالة من الخوف. فبحسب المسيحيين الذين فروا مؤخرًا من البلاد بسبب دواعي أمنية، فإن غالبية الكنائس تتخذ احتياطات أمنية مشددة أثناء الخدمات التعبدية... وكان الأسقف «هايك»، الناشط في مجال حقوق الإنسان قد اختفى في ١٩ يناير ١٩٩٤، بعد أيام من إطلاق سراح «مهدي ديباج» الراعي في إحدى كنائس الطائفة الخمسينية، والذي كان قد تم سجنه لمدة تسع سنوات بسبب إتهامه بالارتداد بعد تحوله إلى المسيحية نتيجة لحملة الأسقف «هايك» الكرازية الدولية. وقد عرضت الشرطة صورًا لجثة «هايك» المليئة بالطعنات بعد أحد عشر يومًا من مقتله.

وفي يوليو اختفى «ديباج» وقائد إنجيلي آخر يُدعى «تاتيوس مايكيلان»، وتم اكتشاف مقتلهما فيما بعد. وكان مايكليان الراعي الأرمني الإنجيلي المشيخي قد أصبح رئيسًا لمجلس الخدام البروتستانت في إيران بعد مقتل هايك.(٥)

تتغير الأزمات، لكن تبقى المعاناة مستمرة في مجرى ثابت من الألم. سوف تتقادم تلك التقارير في الوقت الذي تقرأ فيه الكتاب. لكن يمكنك التيقن من أنه، في مكان ما من هذا العالم، في نفس اللحظة التي تقرأ فيها، يعاني المسيحيون من أجل إيمانهم. ونعمل حسنًا إن كنا نستعد للانضمام إليهم.

تكلفة التلمذة سوف تزداد

في الولايات المتحدة يتزايد العداء ضد الكنيسة الإنجيلية من قِبَل المجتمع العلماني بصورة عامة، وخاصة من قبل العديد من دوائر النخبة المثقفة وقادة الإعلام. فالرؤية الكتابية للإيمان والبر غير مرحب بها في العديد من قطاعات مجتمعنا. وقد تم تحريف

التعديل الأول لخدمة المعارضين العلمانيين لكي يصبح سندًا للتضييق على المسيحيين. إن اسم يسوع أضحى محتقرًا علانية، ويسخر منه المشاهير بطريقة لو أنها حدثت في عصور ماضية لأصبحوا ملومين ومكروهين من عامة الناس، أمّا اليوم فقد أصبح الأمر مقبولاً ولا غضاضة فيه.

معنى هذا أن تكلفة الإيمان قد تزداد في السنوات القادمة. وسوف تكون حياة البعض -كما كان الحال قبلاً وسيظل دائمًا- ثمنًا لإتمام الإرسالية العظمى. منذ ألف وثمانمائة عام مضت قال العلامة ترتليان: "نحن (المسيحيين) نتضاعف حيثما سحقتمونا؛ فدماء المسيحيين هي بذار الإيمان." (الدفاع ٥٠). وبعد ذلك بنحو مائتي عام قال القديس چيروم: "لقد تأسست كنيسة المسيح من خلال سفك دمها، وليس دم آخر؛ ومن خلال احتمالها العنف، وليس بالرد عليه. لقد ساعدها الاضطهاد على النمو، وكان الاستشهاد تاجها." (رسالة ٨٢)

هل هناك "بلاد مغلقة"، أم قلوب خائفة؟

فيما يختص بانتشار الإنجيل اليوم، نتحدث كثيرًا عن "البلدان المغلقة" حتى قاربنا على فقدان رؤية الله من نحو العمل الكرازي- كما لو كان الله قد قصد بأن يكون العمل الكرازي آمنًا في كل الأحوال. فليست هناك بلدان مغلقة أمام أولئك الذين يدركون أن الاضطهاد والسجن والموت هي النتائج المتوقعة من نشر الإنجيل. وقد قال الرب يسوع علانية إن تلك هي النتائج المتوقعة: «حينئذٍ يسلمونكم إلى ضيقة ويقتلونكم، وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي» (مت ٢٤: ٩). وحتى يأتي الوقت الذي نستعيد فيه الرؤية الإلهية للألم وانتشار الإنجيل، لن نفرح بانتصارات النعمة المستقبلية التي يذخرها للكنيسة والعالم.

لقد كان العمل الكرازي والدفاع عن العدالة الاجتماعية دومًا مكلفًا، وسوف يبقى هكذا دائمًا. في قرية «ميانجو» النيجيرية هناك بيت ضيافة وكنيسة صغيرة تدعى كنيسة «كيرك». وخلف الكنيسة يقع مدفن صغير يضم ٦٥ قبرًا، ثلاثة وثلاثين من هذه القبور تضم رفات لأبناء مرسلين. بعض شواهد هذه القبور منحوت عليها عبارات مثل: "إيثيل أرمولد: ١ سبتمبر ١٩٢٨- ٢ سبتمبر ١٩٢٨"، "باربرا سوانسون: ١٩٤٦- ١٩٥٢"، "إيلين لويز وايتمويار: ٦ مايو ١٩٥٢- ٣ يوليو ١٩٥٥". وبالنسبة للعديد من العائلات كان هذا هو ثمن حمل بشارة الإنجيل إلى نيچيريا. ولقد حكى «تشارلز وايت» قصة زيارته لذلك المدفن الصغير، وختم قصته بعبارة في منتهى القوة

إذ قال: "إن الطريقة الوحيدة التي بها نفهم المقابر الموجودة في «ميانجو» هي أن نتذكر أن الله قد دفن ابنه أيضًا في حقل العمل الكرازي."[٦]

وإذ أقامه الله من بين الأموات، فقد دعا الكنيسة لتتبعه إلى داخل نفس الحقل الخطير المسمى «العالم أجمع» (مر ١٦: ١٥). لكن هل نحن مستعدون لأن نتبعه؟ في «إرميلو» بهولندا، حكى الأخ أندرو أنه كان يجلس في «بودابست» بدولة المجر مع اثني عشر من رعاة تلك المدينة يعلمهم من الكتاب المقدس. ودخل عليهم صديق قديم كان راعيًا من رومانيا وقد أطلق سراحه مؤخرًا من السجن. قال الأخ أندرو إنه توقف عن التعليم مدركًا أن الوقت قد حان ليسمع.

وبعد صمت طويل قال الراعي الروماني: "أندرو، هل هناك أي رعاة سجناء في هولندا؟" فأجابه: "لا"، فسأل الراعي: "ولِمَ؟" ففكر الأخ أندرو للحظة وقال: "أعتقد لأننا لا نستغل الفرص التي يقدِّمها الله لنا." عندئذٍ أتى أصعب سؤال: "أندرو، فماذا تفعلون بتيموثاوس الثانية ٣: ١٢؟" ففتح الأخ أندرو كتابه المقدس على هذا النص وقرأه بصوت عالٍ: «جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون»، ثم أغلق الكتاب ببطء، وقال: "يا أخي، سامحني أرجوك. نحن لا نفعل شيئًا بهذه الآية."[٧]

أخشى أننا قد طوعنا مفهوم التقوى إلى مجرد أخلاقيات الطبقة المتوسطة أو مجرد حفظ للشريعة، إلى الدرجة التي أصبحت فيها ٢تيموثاوس ٣: ١٢ ليس لها معنى ملموس بالنسبة لنا. أعتقد أن الكثيرين منا غير مستعدين للتألم من أجل الإنجيل. فنحن لا نتمسك بالحقيقة الرائعة التي تقول إن الله له مقاصد للنعمة المستقبلية يريد أن يقدمها لشعبه من خلال الألم. يمكننا أن نتحدث عن مقاصد الألم؛ لأن هدف الله الواضح هو أننا قد نتألم في بعض الأحيان من أجل البر ومن أجل الإنجيل. على سبيل المثال: «فإذًا الذين يتألمون بحسب مشيئة الله، فليستودعوا أنفسهم، كما لخالق أمين، في عمل الخير» (١بط ٤: ١٩؛ راجع كذلك ٣: ١٧؛ عب ١٢: ٤- ١١).

فلكي نعيش بالإيمان بالنعمة المستقبلية، علينا أن نرى أن آلام شعب الله هي وسيلة الحصول على النعمة في حياتهم.

الألم يشكل إيمانًا غير متزعزع

رغم غرابة هذا الأمر، إلا أن واحدًا من الأهداف الرئيسية للألم هو أن يصير إيماننا غير متزعزع. فالإيمان بالنعمة المستقبلية يشبه النسيجِ العضلي: إذا قمت بإطالته إلى الحد الأقصى، يصبح أكثر قوة وليس أكثر ضعفًا. وهذا ما يقصده

الرسول يعقوب بقوله: «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة، عالمين أن امتحان إيمانكم ينشئ صبرًا» (يع ١: ٢ و٣). فعندما يصير إيمانك مهددًا وتحت الاختبار ومشدودًا إلى أقصى حد، تكون النتيجة قدرة أعظم على الاحتمال.

يحب الله الإيمان بالنعمة المستقبلية جدًا حتى أنه سوف يختبره إلى أقصى حد لكي يُبقيه نقيًا وقويًا. لقد فعل ذلك على سبيل المثال مع بولس بحسب ٢كورنثوس ١: ٨ و٩: «فإننا لا نريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة ضيقتنا التي أصابتنا في أسيا، أننا تثقلنا جدًا فوق الطاقة، حتى أيسنا من الحياة أيضًا، لكن كان لنا في أنفسنا حكم الموت، لكي لا نكون متكلين على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات.» تشير كلمة «لكي» إلى وجود هدف من وراء هذه المعاناة العظيمة: لقد كانت المعاناة «لكي» لا يتكل بولس على ذاته أو إمكانياته، ولكن على الله- وبالأخص على نعمته المستقبلية في إقامة الأموات.

إن الله يُثمن إيماننا القلبي الكامل بالنعمة المستقبلية حتى أنه، برحمة منه، يزيل كل أمر آخر في العالم يمكن أن نعتمد عليه، حتى الحياة نفسها. وهدفه من وراء ذلك هو أن نزداد عمقًا وقوة في ثقتنا بأنه هو الذي يمثل لنا كل احتياجنا. إنه يريدنا أن نكون مستعدين لأن نقول مع المرنم: «مَنْ لي في السماء؟ ومعك لا أريد شيئًا في الأرض. قد فني لحمي وقلبي. صخرة قلبي ونصيبي الله إلى الدهر.» (مز ٧٣: ٢٥ و٢٦).

لا يتجاوب الجميع مع الألم بنفس الطريقة. فإيمان البعض يتحطم بدلاً من أن يُبنى. وقد علم الرب يسوع ذلك، ووصفه في مرقس ٤: ١٦ و١٧. ففي مَثَل الزارع قال إن بعضًا ممن يسمعون الكلمة يقبلونها بفرح، لكن الألم يُسقطهم بعد ذلك: «الذين حينما يسمعون الكلمة يقبلونها للوقت بفرح، ولكن ليس لهم أصل في ذواتهم. فبعد ذلك إذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة، فللوقت يعثرون.» وهكذا نرى أن الاضطهاد لا يجعل الإيمان أكثر قوة دائمًا؛ ففي بعض الأحيان يتحطم الإيمان. وهكذا تتحقق كلمات يسوع المحيرة: «وأمّا مَنْ ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه.» (مر ٤: ٢٥).

هذه دعوة لنا لكي نحتمل الألم بإيمان راسخ بالنعمة المستقبلية، لكيما ينمو إيماننا قويًا ولا يكون بلا ثمر (١كو ١٥: ٢٠). «لأن مَنْ له سيُعطى» (مر ٤: ٢٥). وعندما نعرف قصد الله من وراء الألم فهذا يُعد وسيلة أساسية للنمو من خلال التجربة الأليمة. فإذا أعتقدت أن ألمك لا هدف من ورائه، أو أن الله غير مسيطر على الأمور، أو أنه متقلب أو قاسٍ، فإن ألمك سوف يبعدك عن الله، بدلاً من إبعادك عن كل شيء ليقودك إلى الله- كما هو مفترض. لذا فمن اللازم جدًا أن يتضمن الإيمان بالنعمة المستقبلية إيمانًا بنعمة الألم المستقبلية.

تتضح نعمة الألم هذه في رومية ٥: ٢- ٤. في هذا النص يقول الرسول بولس إننا

كمؤمنين «نفتخر على رجاء مجد الله».. بمعنى أن إيماننا يبتهج بالنعمة المستقبلية لرؤية الله. لكن يضيف الرسول على الفور قائلاً: «وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضًا في الضيقات، عالمين أن الضيق ينشئ صبرًا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء.»

ثلاثة تأثيرات للضيقة

هناك ثلاثة تأثيرات للضيقة مذكورة في العددين الثالث والرابع. أولاً: الضيقات تنشئ صبرًا، أو احتمالاً صبورًا. فلأولئك الذين لهم روح المسيح، والذين يفتحون عيوننا دائمًا على النعمة، تأثير الضيقة عليهم هو الصبر والمثابرة. فقبل أن يأتي الضيق على حياتنا، وخاصة ذلك الذي يكون من أجل المسيح وبره، فإننا لا نختبر مدى وعمق إيماننا. وقبل أن تتأزم الظروف فإننا لن نتذوق أو نعرف مدى قوة مسيحيتنا.

وهذا يقودنا إلى التأثير الثاني للضيقة: «والصبر (ينشئ) تزكية». المعنى الحرفي لكلمة «تزكية» (باليونانية: dokimen): «اجتياز اختبار القبول". لذا يمكننا القول بأنها تعني "اكتمال الشروط"، أو "الاعتراف بصحة الشيء".. فعندما تأتي الضيقات، إذا ثابرت بإيمان بالنعمة المستقبلية، فإنك تخرج من هذا الاختبار بإحساس أعمق بأن إيمانك حقيقي؛ فالأمر أصبح مؤكدًا بالبراهين، وأنت لست مرائيًا. فشجرة الثقة انحنت غير أنها لم تنكسر. إن ولاءك وإخلاصك قد أُمتحنا ونجحا في الامتحان؛ والآن أصبحت تمتلك «تزكية». إن ذهب إيمانك وُضع في النار وتنقى ولم يتلاش مع قوة النيران. لقد عبَّر «چورچ كيث» عن هذه الفكرة في قصيدته "ما أثبت الأساس":

عندما يعبر طريقك في أتون التجارب،
فإن كفاية نعمتي تصير لك زادًا.
فلا تؤذيك نارٌ إذ أمرتها أن..
تلتهم زغلك، وتنقي ذهب إيمانك.

هذا هو التأثير الثاني للضيقة بحسب رومية ٥: ٣ و٤. فالمثابرة في الإيمان بالنعمة المستقبلية تؤدي إلى التزكية. أمّا التأثير الثالث فيأتي من ذلك الإحساس بالاختبار والقبول والتنقية. ففي عدد ٤ تأتي الكلمات: «والتزكية (تنشئ) رجاءً»، وهذا يعود بنا إلى ما بدأنا به في عدد ٢: «ونفتخر على رجاء مجد الله». فالحياة المسيحية تبدأ بالرجاء بالوعود الإلهية في الإنجيل، وتنتقل في ألم من خلال الرجاء نحو المزيد من الرجاء- أي المزيد من الإيمان بالنعمة المستقبلية.

والسبب في أن هذا "القبول" سينشئ المزيد من الرجاء هو أن رجاءنا ينمو عندما نختبر حقيقة أصالتنا من خلال التجربة. نحن نتعلم من خلال الألم أن الله أمين، وأن إيماننا حقيقي. وأكثر مَنْ يثبتون على رجائهم هم هؤلاء الذين اجتازوا أعمق التجارب. وأكثر مَنْ يبدون جادين ومصممين ومشتاقين إلى رجاء المجد هم أولئك الذين سُلبت منهم مباهج هذه الحياة من خلال الضيقات. هؤلاء هم أكثر الناس حرية. فمحبتهم لا يمكن ترهيبها من خلال التهديدات أو الكوارث.

المعاناة تعظِّم من قيمة المسيح

هدف إلهي آخر من الألم هو أنه يُعظِّم من قيمة المسيح وقدرته. هذه هي النعمة؛ لأن أسمى فرح للمؤمنين هو أن يروا المسيح مُعظَّمًا في حياتهم. عندما قال الرب يسوع للرسول بولس إن «شوكة جسده» لن يزيلها، فقد دعم إيمان بولس بذكره السبب ذلك؛ فقد قال الرب: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمل» (٢كو ١٢: ٩). قد قضى الله أن يكون الرسول بولس معتلاً حتى ما تُستعلن قوة المسيح فيه. فإذا كنا نشعر بالاكتفاء الذاتي، فإننا نحن مَنْ ننال المجد بدلاً من المسيح. لهذا السبب يختار المسيح المتواضعات «لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه» (١كو ١: ٢٩). وفي بعض الأحيان قد يجعل الأقوياء ضعفاء لكي تُستعلن القدرة الإلهية. ونحن نعلم أن بولس قد اختبر هذا الأمر على سبيل النعمة لأنه ابتهج به: «ولكن لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفية، ليكون فضل القوة لله لا منا» (٢كو ٤: ٧). وهكذا يفرح الإيمان بالنعمة المستقبلية، عندما يرى "نعمة الله المتفاضلة" في ضيقاتنا.

المعاناة تساعدنا على رؤية أننا لا نحتاج سوى الله

هناك مقاصد إلهية أخرى من وراء معاناتنا وآلامنا.[٨] غير أنها ترتبط بصورة أوثق بالفصلين التاليين، لذا فمن الأفضل مناقشتها فيهما. من خلال المعاناة يُعد الله لنا ثقل مجد أبديًا فيما وراء الموت، وهو يحقق مقاصده التي لا تخيب، ليجمع مختاريه من أمم العالم ويعلن ملكوته النهائي. والنقطة الحاسمة هنا هي: أن المعاناة التي تبدو وكأنها تهدد النعمة المستقبلية إنما هي في حقيقة الأمر نعمة فوق نعمة. وعندما ندرك هذا الأمر، وكيف يحدث، فإنه يساعدنا على الإيمان بأنه عندما يضيع كل شيء من حولنا، يبقى الربُ رجاء نفوسنا وسندها.

«لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح.»
(في ١: ٢١)

«فنثق ونُسرُّ بالأولى
أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب.»
(٢كو ٥: ٨)

«فإذ قد تتشارك الأولاد في اللحم والدم
اشترك هو أيضًا كذلك فيهما،
لكي يُبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت،
أي إبليس، ويعتق أولئك الذين –خوفًا من الموت–
كانوا جميعًا كل حياتهم تحت العبودية.»
(عب ٢: ١٤، ١٥)

الفصل التاسع والعشرون

النعمة المستقبلية للموت

لو أنك تستطيع أن تقوم بقفزة إيمانية إلى داخل منظومة نظرية التطور، فسوف تعتقد أن ما يحدث لك عندما تموت لا يختلف شيئًا عما يحدث لشجرة عندما تموت، فالأمر ينتهي عند هذا الحد.. ستتلاشى من الوجود، ولن تشعر بشيء، ولن تدرك شيئًا، ولن تعي شيئًا. وسيكون رأيك في هذا الكتاب أنه لا يملك أساسًا حقيقيًا من حقائق التاريخ الموضوعية، لكنه لا يمثل سوى بعض الأفكار الشخصية لبعض المؤمنين. قد يكون للكتاب قدر من التأثير التغيير للحياة بالنسبة لنا، بنفس الطريقة التي يؤثر بها بابا نويل على سلوك طفل، لكن هذا المعنى ليس له أساس حقيقي خارج تخيلاتنا. فهو ليس له أي صلة بما يحدث بالفعل بعد الموت.

لكن إذا وجدت مكتوبًا على لوح قلبك الحقيقة القائلة بوجود خالق، وأنك مخلوق لتكون لك علاقة معه، وأن ما يميزك عن الحيتان والدرافيل والشمبانزي ليست التطورات البيولوچية والكيمائية، بل إنك مخلوق على صورة الله، فإنك في غالب الأمر سوف تظل مستيقظًا في الليل تفكِّر في أمر الأبدية، لأنه (الله)، كما يقول الجامعة: «جعل الأبدية في قلبهم» (جا ٣: ١١). وإذا كنت، مثل الملايين من البشر، قد التقيت بيسوع المسيح على صفحات الكتاب المقدس كشخصٍ حقيقي وتاريخي وحي، واقتنعت بأنه يستحق أن توليه ثقتك، فلا يجب عليك إذًا أن تقلق من جهة ما سيحدث عندما تموت. لقد أخبرنا الرب يسوع بأمور عديدة ليشجعنا ويحررنا من خواء أفكار نظرية التطور وعبودية الخوف من الموت.

التحرر من عبودية الخوف من الموت

إن هدف هذا الكتاب هو أن يحرر قُراءه من المخاوف والرغبات التي تستعبد النفس وتمنع الطاعة الكاملة للرب يسوع. الهدف هو أن نصير أحرارًا من عبودية الخطية إلى الدرجة التي فيها يرى الناس أعمالنا الحسنة ويمجدون أبانا الذي في السموات (مت ٥: ١٦). إن حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية هي رحلة تحرر، بما في ذلك التحرر من عبودية الخوف من الموت. السبب الذي من أجله أتحدث عن عبودية الخوف من الموت هو أن الكتاب المقدس قد تحدث عنها في عبرانيين ٢: ١٤ و١٥ إذ يقول: «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضًا كذلك فيهما، لكي يُبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين –خوفًا من الموت– كانوا جميعًا كل حياتهم تحت العبودية.»

اضطرابات الإنكار الواهم

هل سألت نفسك قبلاً كم من إدمان وعطب في الشخصيات واضطراب في أسلوب الحياة يمكن أن يحدث جراء الخوف المكبوت من الموت؟ القليل جدًا من البشر يعيشون حياتهم اليومية وهم واعون للخوف من الموت في أذهانهم. غير أن هذا النص يقول إن المسيح أتى ليموت من أجل أولئك الذين «خوفًا من الموت. كانوا جميعًا كل حياتهم تحت العبودية.» يوجد أمر عميق هنا.. الفكرة هنا هي ليس أن البشر مستعبدون لخوف دائم ومعروف من الموت، بل أنهم مستعبدون لآلاف الوسائل لتجنب هذا الخوف. فهم مستعبدون لـ «إنكار الموت»[1]: «فلنأكل ونشرب لأننا غدًا نموت» (١كو ١٥: ٣٢)، هذا ليس افتخارًا بالحرية الحقيقية، لكنه شكل آخر للإنكار المخدِّر. فالموت يلهينا عن كونه العدو الأكبر. ونحن نصير عبيدًا له من خلال هروب الإنكار الواهم، إلى أن نواجه العدو، وننتصر بالإيمان بالنعمة المستقبلية. هذا ما يدور حوله هذا الفصل.

كيف يخلصنا المسيح من الخوف من الموت ويحررنا لنعيش هذا النوع من التخلي الذي يستطيع أن يفتح يده عن كل أمر حتى عن هذه الحياة الزائلة أيضًا؟ دعونا نبدأ بنفس هذا النص لنتأمل في عباراته، الواحدة تلو الأخرى:

«فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم...»

كلمة «أولاد» مأخوذة من العدد السابق، وتشير إلى النسل الروحي للمسيح المسيَّا (راجع إش ٨: ١٨؛ ٥٣: ١٠). أولئك أيضًا هم «أبناء الله». بمعنى آخر أن الله عندما

أرسل المسيح، كان يضع نصب عينيه خلاص «أولاده». بالفعل «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يو ٣: ١٦). لكن الحقيقة أيضًا هي، أنه عندما أرسل ابنه، فإنه كان «يجمع أبناء الله المتفرقين» (يو ١١: ٥٢). إن خطة الله كانت أن يُقدِّم المسيح للعالم، وأن يُفعِّل خلاص «أولاده» (راجع ١تي ٤: ١٠).

«...اشترك هو أيضًا كذلك فيهما...»

إن ابن الله، الذي هو كائن قبل تجسده كأقنوم الكلمة الأزلية (يو ١: ١؛ كو ٢: ٩)، قد لبس الجسد والدم واتخذ لاهوته جسدًا إنسانيًا. لقد أصبح إنسانًا كاملاً، وظل إلهًا كاملاً. إنه سر عظيم على كل الوجوه، لكنه جوهر إيماننا الكتابي.

«... لكي بالموت...»

السبب في أن المسيح صار بشرًا هو أن يموت. فهو كإله قبل التجسد، لم يكن ممكنًا له أن يموت من أجل الخطاة. أمّا وقد اتحد باللحم والدم، فقد استطاع ذلك. لقد كان هدفه أن يموت. ولذا كان عليه أن يولد بشرًا.. لقد وُلد ليموت.

«...يُبيد ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس...»

إن المسيح بموته نزع أنياب الشيطان. كيف؟ بأن ستر كل خطيتنا (عب ١٠: ١٢). بمعنى أن الشيطان ليس له أسباب شرعية لكي يشتكينا أمام الله: «مَنْ سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرر» (رو ٨: ٣٣). على أي أساس يبرر؟ بواسطة دم الرب يسوع (عب ٩: ١٤؛ رو ٥: ٩). إن أعنف أسلحة الشيطان ضدنا هي خطيتنا الشخصية. فإذا أخذها موت المسيح بعيدًا، فإن الشيطان يفقد سلاحه الرئيسي من بين يديه. وبهذا المعنى فهو «جعله بلا قوة». فهو لا يستطيع أن يدمر أولئك الذين مات المسيح لأجلهم. إنه لا يستطيع أن يكسب قضية عقوبة الموت، لأن القاضي قد برأ ساحتنا بفضل موت ابنه!

«...ويعتق أولئك الذين –خوفًا من الموت– كانوا جميعًا كل حياتهم تحت العبودية.»

إذًا فنحن أحرار من الخوف من الموت. لقد بررنا الله، وليس أمامنا سوى النعمة المستقبلية. فالشيطان لا يستطيع أن يلغي هذا الحكم مرة أخرى. ويريد الله من أماننا في النهاية أن يكون له تأثير حالي على حياتنا. إنه يسعى أن تكون النهاية سعيدة بأن ينهي العبودية والمخاوف الحاضرة. فإذا لم يكن علينا أن نخاف من عدونا الأخير

الأعتى، فإنه لن يكون علينا أن نخاف من أي شيء آخر. يمكننا أن نكون أحرارًا.. حرارًا لنفرح.. أحرارًا من أجل الآخرين.

هل السقوط الحر هو نوع من حرية؟

تخيل اثنين يقفزان من طائرة بالمظلات. إنهما يسقطان سقوطًا حرًا، وسرعتهما واحدة، وكل منهما يبدو حرًا. كلاهما غير مربوطين بحبل، ولا تمسكهما أية أربطة لحمايتهما من السقوط. إنهما أحرار كالطيور- أو يبدو الأمر هكذا. لكن هناك فرقًا جوهريًا هنا: واحد منهما فقط يرتدي مظلة. هل يغيِّر هذا من الإحساس بالحرية التي يتمتعان بها؟ نعم. فكلاهما يسقطان سقوطًا حرًا بفعل الجاذبية، لكن واحدًا منهما فقط لديه الحرية ألا يسقط. أمّا الآخر فهو عبد للجاذبية التي سوف تقضي عليه في نهاية الأمر. فإذا كان يستطيع بطريقة ما أن ينكر عدم امتلاكه لمظلة، قد يتمكن من أن يحظى بخبرة رائعة. أمّا إذا أدرك نهايته المحتومة، فسوف يُستعبد للخوف طوال لحظات سقوطه ليتبخر كل فرح ينبع من هذه الحرية المزعومة. وهنا يكون عليه إمّا أن ينكر الحقيقة (مما يعني الاستعباد للوهم)، أو الوقوع في براثن الخوف (مما يعني الاستعباد للرعب)، أو يتم إنقاذه بواسطة آخر يرتدي مظلة. وهكذا الأمر في هذا العالم.. فبعيدًا عن المسيح نحن عرضة للعبودية في حياتنا تحت سطوة الخوف من الموت.

إنه لمما يدعو إلى الدهشة عدم اهتمام الناس بحقيقة الموت. هناك أمور قليلة تتميز باليقينية والشمولية مثل الموت. واحتمالات الفرح أو البؤس بعد مماتك تفوق بمليارات المرات مثيلتها في السنوات القليلة التي تقضيها على هذه الأرض قبل أن تموت. ومع ذلك فإن البشر ينفقون أغلب جهودهم على تأمين هذه الحياة الدنيا، ولا يفعلون شيئًا يُذكر من أجل الحياة الآتية. يشبه الكتاب المقدس هذه الحياة بالبخار الذي يظهر في صباح شتوي بارد ثم لا يلبث أن يختفي (يع ٤: ١٤)، وهذا لا يستغرق أكثر من ثانيتين. لكنه يصف فترة ما بعد الموت بالقول: «أبد الآبدين» (رؤ ١٤: ١١). ليس حقبة واحدة أو اثنتين قد تمتد إلى آلاف السنين، وإنما إلى أبد الآبدين. فما يحدث لك بعد الموت إنما يحظى بأهمية أبدية.

هذا التساؤل عما يحدث عندما نموت له تأثير منبه ومحفز لأذهاننا. فهو يجبرنا على أن نتساءل عما إذا كان إيماننا حقيقيًا وثابتًا، ويتفق مع الكتاب المقدس أم لا. ويدفعنا لأن نتعامل مع احتمالية أن يكون إيماننا موضوعيًا وخارجًا عن ذواتنا ليكون في الله، أو أن يكون اختبارًا ذاتيًا من الانفعالات والأفكار لا يتعدى نفوسنا ويعمل كمثبط

شعوري ليقلل من صدمات الحياة ويوفر لنا شبكة من الأصدقاء. إن مواجهة الأبدية تملك تأثيرًا رائعًا يجعلنا نفيق من الأوهام الدينية. وهي تساعدنا على أن نُبقي الله مركزًا لحياتنا بأن نعرف ما إذا كنا نحب هذا العالم أكثر من الله ذاته. هل تزيدنا فكرة الموت حزنًا على فقدان الأحباء أكثر مما تملأنا بالبهجة لربح المسيح؟ إن التفكير في الموت يساعدنا على أن نكتشف ما إذا كنا نعتز بالله أكثر من أي شيء آخر أم لا.

شجاعة الحياة والموت بالإيمان بالنعمة المستقبلية

لكن عندما تمتلك عليك النعمة المستقبلية للموت في المسيح، فإنها تحررك من الموت وتملأك بالشجاعة لأن تعيش ملء حياة المحبة الباذلة. فالإنسان الذي يمكنه حقًا أن يقول مع الرسول بولس: «الموت هو ربح» سيكون باستطاعته أيضًا أن يقول أكثر من أي شخص آخر: «لي الحياة هي المسيح» (في ١: ٢١). لكن إذا كنا غير قادرين على أن نقول: «الموت هو ربح»– "الموت هو نعمة مستقبلية" ففي غالب الأمر سيكون لسان حالنا بطريقة أو بأخرى: «لنأكل ونشرب ونمرح». مما يعني أننا سوف نُستعبد للذاتنا الأرضية، وهذا كل ما سوف نتطلع إليه. وهكذا سوف نشعر بالإلحاح على أن ننكر حقيقة الموت وأن نعظم من نوعية الملذات التي يمكننا الحصول عليها الآن بدون الله. لذلك، فالتأكد مما يحدث لنا عندما نموت كمؤمنين أمر لا غنى عنه في سبيل حياة مضحية ملؤها الفرح والمحبة، وكذلك حتى لا نفقد شجاعتنا أمام الألم والصحة الجسمانية المتناقصة في هذه الحياة.

كان «كارل لوندكويست» مديرًا لكلية بيت إيل اللاهوتية في «سان بول» بولاية مينيسوتا لمدة ٢٨ عامًا، وتقاعد في عام ١٩٨٢. وقد عملتُ تحت قيادته خلال ست سنوات من هذه الفترة ثم خدمنا معًا في لجنة الصلاة قرب نهاية حياته. وقد كان قائدًا مؤمنًا دؤوبًا وتقيًا. في عام ١٩٨٨ أخبره الأطباء بإصابته بنوع نادر من السرطان يصيب الخلايا الليمفاوية في كل الجلد. وكان عمره آنذاك ٧٢ عامًا، وكانت صحته تبدو جيدة. لكن في ٢٧ فبراير ١٩٩١ انتقل إلى المجد بعد تدهور كبير في خلايا جلده. وكتب «لوندكويست» خطابًا إلى أصدقائه عن اليوم الذي علم فيه بخبر إصابته بالسرطان يقول فيه:

> في ذلك اليوم داخل غرفة المستشفى، التقطتُ كتابي المقدس بعد أن غادر الطبيب. وفتحتُه على آيات الفرح في رسالة فيلبي آملاً أن تقفز أمامي واحدة منها. لكن ما قفز أمامي من الصفحة كان شهادة الرسول

> بولس في الأصحاح الأول: «حسب انتظاري ورجائي أني لا أخزى في شيء، بل بكل مجاهرة كما في كل حين، كذلك الآن، يتعظم المسيح في جسدي سواء كان بحياة أم بموت. لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح». واكتشفتُ أن الآية التي عشت بها في صحتي أستطيع أن أحيا في ظلها في وقت مرضي. الحياة هي المسيح والموت هو ربح. لكن سواء بالحياة أو بالموت، فالأمر على ما يرام في الحالتين... لذا فأنا ببساطة أثق أن الطبيب الأعظم، بطريقته الخاصة، سوف يحقق فيَّ إرادته والتي أعلم أنها وحدها صالحة ومرضية وكاملة. بحياة أم بموت.. هللويا.

تلك الثقة في الإرادة الصالحة للطبيب الأعظم هي ما أقصدها بالإيمان بالنعمة المستقبلية. لقد عاش «كارل لوندكويست» بها في سنوات الألم الثلاثة التالية، وقد حررته لكي يؤدي خدمة متميزة في الوقت الذي كان فيه إنسانه الخارجي يفنى.

كيف واجه الرسول بولس أمر انحلاله

جاهد الرسول بولس كثيرًا وأكثر من أي شخص آخر مع إغواء الخوف تجاه انحلال جسده. فقد شجع قلبه بالحق الإلهي عن النعمة المستقبلية للموت، بل وكتبه حتى يمكننا أن نتبعه. في ٢كورنثوس ٤: ١٦– ٥: ١٠ أوضح الرسول للكورنثيين السبب في عدم فقدانه لهدوء نفسه وسلامه الداخلي بالرغم من كل الضيقات (٤: ٨– ١٢)، وخاصة بشأن معرفته بحقيقة موته: «لذلك لا نفشل، بل وإن كان إنساننا الخارجي يفنى، فالداخل يتجدد يومًا فيومًا» (٤: ١٦).

لم تعد حاسة البصر كما كانت (ولم تكن هناك نظارات)، ولم تعد حاسة السمع كما كانت (ولم تكن هناك سماعات)، ولم تعد سرعة شفائه من الضربات التي يتلقاها عالية كما كانت (ولم تكن هناك مضادات حيوية)، ولم تعد قوته على السير من مدينة إلى أخرى يمكنها أن تسعفه كما كانت قبلاً. وأصبح بولس يلاحظ التجاعيد تملأ وجهه وعنقه، وضعفت ذاكرته، وأصبحت مفاصله تؤلمه في جلوسه وقيامه. وعلم أنه سيموت مثل كل إنسان آخر، وأقر بأن هذا يُعد تهديدًا لإيمانه وفرحه وشجاعته. لكنه لم يفقد شجاعته، لماذا؟

الجزء الأول من إجابته نجده في عدد ١٦: «لذلك لا نفشل، بل إن كان إنساننا الخارجي يفنى، فإن الداخل يتجدد يومًا فيومًا.» لم يفقد بولس شجاعته لأن إنسانه

الداخلي كان يتجدد. كيف؟ لقد أتى تجديد قلبه من أمر غريب جدًا: لقد أتى من نظره إلى ما لا يمكنه أن يبصره. ففي عدد ١٨ نقرأ: «ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى. لأن التي ترى وقتية، وأمّا التي لا تُرى فأبدية.» هذه هي طريقة الرسول بولس لكي لا يفقد تماسكه وشجاعته: أن ينظر إلى الأمور التي لا يمكنك رؤيتها. فماذا رأى؟

بعد أعداد قليلة في ٢كورنثوس ٥: ٧ نجده يقول: «لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان.» ليس معنى ذلك أنه يقفز في الظلام دونما دليل على ما ينتظره. لكن المعنى هو أن أثمن الحقائق وأهمها في العالم تفوق حواسنا الجسدية. فنحن «ننظر» هذه الأمور غير المنظورة من خلال الإنجيل. فنحن بنعمة الله نرى ما يدعوه بولس: «إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله» (٢كو ٤: ٤). نحن نشدد قلوبنا ونجدد شجاعتنا بأن نركز نظرنا على الحقيقية غير المرئية التي نراها في شهادة أولئك الذين عاينوا المسيح وجهًا لوجه.

ثقل مجد أبدي

لكن ما هي الحقيقة غير المرئية التي نظر إليها الرسول ليدعم إيمانه بالنعمة المستقبلية؟ تُقدِّم لنا كلمات ٢كورنثوس ٤: ١٧ ملخصًا رائعًا لهذه الحقيقة. يقول فيها الرسول بولس إن هذه الحقيقة تدعمه وتسنده في أحواله المتردية: «لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا.» معنى هذا أن انحلال جسده لم يكن بلا معنى. إن الألم والضغط والضيق والمعاناة، كل ذلك لم يحدث له اعتباطًا. فهو لم يكن يتهاوى في حفرة مظلمة من الألم الذي لا طائل من ورائه. على العكس من ذلك، لقد كانت معاناته «تنشئ له ثقل مجد أبديًا لا مثيل له.»

لقد كان الأمر غير المرئي الذي نظره الرسول بولس لكي يجدد إنسانه الداخلي هو ثقل المجد الأبدي الذي كان يُعد له، ليس فقط بعد فناء جسده، بل من خلاله وبواسطته. هناك علاقة سببية بين الانحلال الحالي لجسد الرسول بولس واستعلان مجده المستقبلي. فهو عندما يتألم، فإنه يثبت عينيه، ليس على عمق جروحه، بل على ثقل المجد الذي ينشأ بسبب هذه الجروح. وفي موضع آخر يقول: «فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا» (رو ٨: ١٨).

لكن ما الذي يراه عندما ينظر إلى المجد غير المنظور؟ الإجابة واردة في الأعداد الأولى من ٢كورنثوس ٥. سوف أورد الأعداد ١- ٥ هنا مع شرحها بين الأقواس:

«لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضي [إنه يتحدث عن جسده الذي يفسد] فلنا في السموات بناءٌ من الله [مبنى في مقابل خيمة- أي أمر أكثر ثباتًا ودوامًا، والمعنى بالتحديد جسد القيامة الجديد]، بيتٌ غير مصنوع بيدٍ، أبدي. فإننا في هذه أيضًا [أي في جسدنا الحالي] نئن مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مسكننا الذي من السماء [أي جسد القيامة: إنه يخلط التشبيهات هنا، إذ ينتقل جيئة وذهابًا بين الملبس والمسكن]. وإن كنا لابسين لا نوجد عراةً [بكلمات أخرى، هو لا يفضل أن يخلع جسده الحالي مثل ثوب ليصبح روحًا بلا جسد- هذا هو المقصود بالعري هنا] فإننا نحن الذين في الخيمة نئن مثقلين، إذ لسنا نريد أن نخلعها [لا نريد أن نكون أرواحًا بلا جسد، على عكس الفكر اليوناني الذي كان يتوق إلى ذلك بشدة] بل أن نلبس فوقها [أي فوق ثيابنا الحالية- فهو يبغي أن يريد مجيء المسيح الثاني، وبالتالي لا يكون عليه أن يموت ويكون بلا جسد، بل بالحري أن يُبتلع جسده الحالي في حياة القيامة المجيدة التي لجسده الجديد]، لكي يُبتلع المائت من الحياة. ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله، الذي أعطانا أيضًا عربون الروح.»

سوف نستفيض فيما يخص جسد القيامة في الفصل التالي. لكن النقطة الفاصلة هنا هي: إذا كان للرسول بولس حرية الاختيار، كان سيميل إلى أن يختبر مجيء المسيح الثاني عن أن يجتاز خبرة الموت. والسبب الذي يسوقه لذلك هو أن اختبار العُري -أي أن يُسلب منه جسده بسبب الموت- ليس أمرًا جيدًا بالمقارنة بأن يُبتلع جسده في الحياة، في لحظة في طرفة عين عند مجيء المسيح الثاني (١كو ١٥: ٥٢).

معنى هذا أن رجاء المؤمنين النهائي الأعظم ليس أن يموتوا ويتحرروا من أجسادهم، بل أن يُقاموا بأجساد جديدة ممجدة مثل جسد المسيح القائم من الأموات (في ٣: ٢١)؛ أو، وهذا هو أفضل البدائل، أن يكونوا أحياء في وقت المجيء الثاني حتى لا يكون عليهم أن يفقدوا أجسادهم الحالية ليصيروا عراةً حتى يوم القيامة.

ماذا بشأن اللحظة التالية للموت؟

لكن ما معنى هذا بالنسبة لرجائنا في اللحظات التالية للموت؟ هل يقلل الرسول بولس من شأنها؟ كلا. لكنه يعيد الأمور مرة أخرى إلى نصابها في الأعداد من ٦- ٨:

«فإذًا نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد، فنحن متغربون عن الرب. لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان. فنثق ونُسرُّ بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب.»

تذكر أن في العدد ٤ قال الرسول بولس أنه لا يُفضل أن «نوجد عراة». إن هذا ليس خياره الأول «أن يكون متغربًا عن الجسد». وهو يقول هذا لأنه يقارن بين الموت والمجيء الثاني المجيد، وليس لأنه يقارن الموت بالحياة الأرضية. إن خياره الأول هو أن يلبس جسد القيامة الجديد فورًا عند المجيء الثاني، بدون تدخل للموت في المشهد. لكن إذا لم يكن ذلك ممكنًا.. أي إذا كان الخيار بين المزيد من الحياة هنا والموت، فهو يفضل أن يأخذه الله، حتى لو كان ذلك يعني عُريًا، بمعنى أن يكون روحًا بلا جسد: «فنثق ونُسرُّ بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب.»

والسبب وراء هذا الاستعداد لأن يتخلى عن جسده ليس لأن الجسد في حد ذاته شر- فكم يشتاق إلى اختبار جسد القيامة المتغير؛ لكن لأن "الاستيطان عند الرب" إنما له جاذبية لا تقاوم لدى الرسول بولس (ع ٨).

وهكذا فإن الرسول بولس يجدد إنسانه الداخلي بالنظر إلى الأمور التي لا تُرى. إنه ينظر إلى ثلاثة احتمالات ويفضلهم في ترتيب تنازلي. أولاً، يفضل أن يأتي المسيح ويُلبس جسده المائت عدم موت حتى لا يكون عليه أن يموت ويصبح روحًا غير كاملة بلا جسد. لكن إذا لم تكن هذه إرادة الله، فإن بولس يفضل أن يكون متغربًا عن الجسد على أن يعيش هنا، إذ أن محبته للمسيح تفوق محبته لأي أمر آخر، والتغرب عن الجسد يعني بالنسبة له الاستيطان عند الرب. إن الموت سوف يحمل حميمية أعمق وتواجدًا أعظم في البيت الأبدي مع الرب أكثر من أي أمر آخر نعرفه في هذه الحياة. أخيرًا إذا لم تكن إرادة الله أن يأتي المجيء الثاني أو يحل الموت، فإن بولس سوف يستكمل مسيرته بالإيمان بالنعمة المستقبلية، وليس بالعيان.

وفي ظل ذلك الإيمان سوف يتحلى بشجاعة كبيرة، وعلى الرغم من أن جسده يفنى، فإن إنسانه الداخلي يتجدد يومًا بعد يوم من خلال الإيمان بالنعمة المستقبلية غير المنظورة التي يدعوها: «ثقل المجد» (٢كو ٤: ١٧). وهنا علينا أن نختبر أنفسنا. هل نشارك الرسول بولس أولوياته وقيمه في الحياة؟ هل نتوق أساسًا لمجيء المسيح الثاني ومجد الابتلاع في الحياة مع المسيح؟ أو، هل نشتاق إلى أن نصل إلى البيت الأبدي مع المسيح حتى لو كان ثمن ذلك أن نتخلى عن أجسادنا؟ أو، هل نلتزم بالحياة في الإيمان بالنعمة المستقبلية حتى يأتي هو إلينا أو يدعونا إليه؟

هل الدينونة الأخيرة من أعمال النعمة المستقبلية؟

نحتاج أن نتناول أمرًا آخر في هذا الفصل. قد يقول قائل: "إن إيماني بالنعمة المستقبلية يتقوى عندما أسمع هذه الأمور عن الموت، غير أن الخوف ينتابني عندما أفكر في الدينونة بعد الموت." هذا الأمر مذكور أيضًا في نفس الأصحاح من الكتاب المقدس. لذا دعونا نتأمل للحظة في أمر الدينونة التي يواجهها المؤمنون بعد الموت. هل تعد هي أيضًا «نعمة مستقبلية»؟

تأتي العبارة المفتاحية بعد عددين: «لأنه لابد أننا جميعًا نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرًا كان أم شرًا» (٢كو ٥: ١٠). دعونا نتوقف أمام أربع ملاحظات بسيطة وواضحة حول الدينونة قبل أن نحاول الإجابة على السؤال حول السبب الذي لأجله سوف يواجه المؤمنون الدينونة إذا كان المسيح قد دين من أجلنا (رو ٥: ٨، ٩)، وإذا كان لا دينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع (رو ٨: ١).

أولاً: سوف يقف جميع المؤمنين أمام المسيح الديّان: «لابد أننا جميعًا نظهر أمام كرسي المسيح». ليس فقط غير المؤمنين، لكن «نحن». وليس بعضًا منا، لكن «نحن جميعًا».

ثانيًا: ديَّاننا سوف يكون المسيح. وهي دينونة الله أيضًا (رو ١٤: ١٠- ١٢): «لأننا جميعًا سوف نقف أمام كرسي الله.» لكن الله «أعطاه [المسيح] سلطانًا أن يدين أيضًا» (يو ٥: ٢٧). إذًا فالله الابن والله الآب واحد في دينونتهما، لكن الابن هو الذي يقف في المواجهة كديان لنا ليتعامل معنا.

ثالثًا: دينونتنا سوف تكون بعد موتنا. وهذا مُتضمن في النص، لكن عبرانيين ٩: ٢٧ تعلن ذلك بوضوح: «وُضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة.» ليس علينا أن نكون محددين أكثر من ذلك؛ لأن هذا ما أعلنته إقرارات الإيمان في الكنيسة عبر التاريخ.[٢] نحتاج فقط أن نقول إننا قبل أن ندخل إلى حالة المجد الأبدي بجسد القيامة في الأرض الجديدة، سوف نقف أمام المسيح الديان.

رابعًا: عندما نقف أمام المسيح سوف ندان بحسب أعمالنا في هذه الحياة: «لأنه لابد أننا جميعًا نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بجسب ما صنع خيرًا كان أم شرًا» (٢كو ٥: ١٠). وهذا ليس تعليمًا متفردًا في العهد الجديد. فقد قال الرب يسوع في متى ١٦: ٢٧: «فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذٍ يجازي كل واحد حسب عمله.» وفي الأصحاح الأخير من الكتاب

المقدس يقول الرب يسوع: «ها أنا آتي سريعًا وأجرتي معي لأجازي كل واحد كما يكون عمله» (رؤ ٢٢: ١٢).

والآن أكثر الأسئلة صعوبة هو: ما أهمية الدينونة؟ لماذا تُعد «الأعمال بحسب الجسد» هي الأدلة في هذه المحكمة الإلهية؟ هل الهدف من الدينونة إعلان الهالكين والمخلصين، بحسب أعمال الجسد؟ أم أن الهدف من ورائها هو إعلان مقدار مجازاتنا في الدهر الآتي بحسب الأعمال التي عملناها في الجسد؟

إن إجابة العهد الجديد، إذا وُفقت في تفسيرها، هي: كلاهما. فأعمالنا سوف تعلن مَنْ هم الداخلون إلى الدهر الآتي، وأعمالنا سوف تحدد كذلك مقدار مجازاتنا في العالم الجديد. سوف أحاول بعد لحظات توضيح السبب في اقتناعي بهذه الإجابة، لكن دعوني أذكر أكبر معضلة يواجهها المؤمنون في مثل هذه الإجابة. يرى الكثيرون في هذه الإجابة تعارضًا مع الخلاص بالنعمة بواسطة الإيمان. أفسس ٢: ٨ و٩ تقول: «لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد.» فالخلاص لا يكون بالأعمال.. بمعنى أن الأعمال لا تجعلنا مستحقين للخلاص. فهي لا تجعل الله مدينًا لنا وينبغي عليه أن يدفع هذا الدَّين. إن هذا يتعارض مع النعمة: «لأن أجرة الخطية هي موت. وأمّا هبة الله فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا» (رو ٦: ٢٣). فالنعمة تهب الخلاص كنعمة مجانية نقبلها بالإيمان، ولا نستحقها بالأعمال.

فكيف إذًا يمكنني القول بأن دينونة المؤمنين لن تكون فقط إعلانًا عامًا عن مكافآت مختلفة في ملكوت الله، بحسب أعمالنا، لكنها ستكون أيضًا الإعلان العام لخلاصنا ودخولنا الملكوت- بحسب أعمالنا؟

الإجابة هي أن أعمالنا سوف تكون الدليل المقدَّم إلى ساحة المحكمة الإلهية لتأكيد أن إيماننا كان حقيقيًا، وستكون أعمالنا في نفس الوقت دليلاً يُقدَّم لتوضيح القياسات المختلفة لطاعة إيماننا. بكلمات أخرى، الخلاص إنما هو بالنعمة بواسطة الإيمان، والمجازاة إنما هي بالنعمة بواسطة الإيمان، لكن الدليل على الإيمان غير المرئي في ساحة قضاء المسيح سيكون الحياة المتغيرة. إن أعمالنا ليست أساسًا لخلاصنا، لكنها دليل عليها. إنها ليست الأساس، لكنها البرهان. إن كل خلاصنا سيكون بالنعمة بالإيمان- وسوف يُستعلن بواسطة «الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية».

والآن دعوني أوضح لكم من الكتاب المقدس سبب قناعتي السابقة.

يعلِّمنا كلٌ من الرب يسوع والرسول بولس بأن المؤمنين سوف ينالون مكافآت

مختلفة بحسب الدرجة التي يعبِّر بها إيمانهم عن نفسه من خلال أعمال خدمة ومحبة وبر. على سبيل المثال في ١كورنثوس ٣: ٨ يقول الرسول بولس: «والغارس والساقي هما واحد ولكن كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه.» وفي أفسس ٦: ٨ يقول: «عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب.» هذه الأعمال ليست «أعمال الناموس» بالمعنى السيئ للأعمال التي يؤتي بها لنوال استحقاق مجازاتنا. إنها، كما يبين هذا الكتاب في كل صفحاته، «أعمال الإيمان» (١تس ١: ٣؛ ٢تس ١: ١١).. إنها تنتج من خلال الإيمان بالنعمة المستقبلية. ولذا فالمكافآت إنما تنبع من نعمة الله العاملة في حياة المؤمن وليس من سعي الإنسان.

يعلِّمنا مَثَل الوزنات (أو مَثَل الأمناء) في لوقا ١٩: ١٢- ٢٧ نفس الشيء. يشير الرب يسوع إلى ذهابه إلى السماء وعودته، ويقارن ذلك برجل شريف ذهب إلى كورة بعيدة وأعطى عشرة من عبيده وزنة لكل واحد موصيًا إياهم أن يتاجروا بها حتى تزدهر أعماله في فترة غيابه. وعند عودته كان واحد من عبيده قد تاجر بوزناته فربح من ورائها عشر وزنات مثلها. فقال الرجل الشريف أن مكافأته له ستكون السلطان على عشر مدن. وربح عبد آخر خمس وزنات على وزناته فقال الرجل الشريف أن مكافأته ستكون السلطان على خمس مدن. بينما احتفظ واحد منهم بوزنته ولم يفعل بها شيئًا؛ فقال له الرجل الشريف: «من فمك أدينك»، وأخذ وزنته منه.

هذا المثل يعلِّمنا نفس ما علَّمه الرسول بولس.. وهو أن هناك درجات متفاوتة من المكافآت والمجازاة للأمانة في حياتنا. لكنه يذهب إلى أبعد من ذلك فيعلِّمنا أن هناك خسارة، ليس فقط للمكافأة، بل للسماء ذاتها، لأولئك الذين يدَّعون الأمانة غير أنهم لا يفعلون شيئًا يبين أنهم يتمتعون بعطية الله ويحبون المعطي. وهذه هي الفكرة حول العبد الثالث الذي لم يفعل شيئًا حيال وزنته. إنه لم يفقد فقط مكافأته، بل حياته أيضًا. يقول الرب يسوع في متى ٢٥: ٣٠: «والعبد البطّال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.»

وهذا يقودنا إلى الهدف الثاني من الدينونة. كان الهدف الأول هو أن الدينونة تقدِّم إعلانًا عامًا للدرجات المتفاوتة من المجازاة التي يحصل عليها المؤمنون مقابل حياتهم بالإيمان بالنعمة المستقبلية. أمّا الهدف الثاني للدينونة فهو الإعلان الواضح عن أصالة إيمان شعب الله من خلال برهان أعمالهم. إن الخلاص يُكتسب بالإيمان. والخلاص تظهره الأعمال. لذا عندما يقول الرسول بولس في ٢كورنثوس ٥: ١٠ إن كل واحد «ينال... بحسب ما صنع، خيرًا كان أم شرًا» فإنه لا يقصد فقط أن مجازاتنا سوف تتفق مع أعمالنا، بل أيضًا أن خلاصنا سوف يتفق مع أعمالنا.

لماذا أفكر بهذه الطريقة؟

هناك العديد من النصوص التي تشير إلى نفس هذا الاتجاه. على سبيل المثال يشير الرسول بولس إلى «استعلان دينونة الله»، ثم يقول: «[الله] سيجازي كل واحد حسب أعماله: أمّا الذين بصبرٍ في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء، [فسوف يجازيهم] بالحياة الأبدية، وأمّا الذين... لا يطاوعون الحق [فمجازاتهم] سخطٌ وغضبٌ».. بكلمات أخرى، الدينونة تكون بحسب ما عمله الشخص. لكن هنا تتضح المسألة: الحياة الأبدية في مقابل السخط والغضب (رو ٢: ٥– ٨).

في أكثر من مرة يسرد الرسول بولس قائمة بأنواع مختلفة من الأعمال فيقول: «إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله» (غل ٥: ٢١؛ ١كو ٩: ٦، ١٠). بكلمات أخرى، عندما تُعرض هذه الأعمال في يوم الدينونة على كونها أسلوب حياة الإنسان، فإنها سوف تكون البرهان على أن إيمانه ميت، وبالتالي لن ينال الخلاص. وهذا ما يقوله الرسول يعقوب: «الإيمان بدون أعمال ميت» (يع ٢: ٢٦). وهذا ما سوف يتضح في يوم الدينونة.

لقد عبَّر الرب يسوع عن الأمر هكذا، وقد لجأ إلى استخدام نفس الكلمات عن الأعمال الجيدة والشريرة التي نجدها في ٢كورنثوس ٥: ١٠. فهو يقول في يوحنا ٥: ٢٨ و٢٩ «فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» بكلمات أخرى، الأسلوب الذي ينتهجه المرء في حياته سيكون دليلاً إمّا على جواز مروره من الدينونة إلى الحياة أو منها إلى الهلاك.

وهو يقول ذلك على الرغم من أنه قبل ذلك بخمس آيات يقول: «الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية».. فالسمع والإيمان يعنيان نوال الحياة الأبدية.. إنه بالنعمة من خلال الإيمان. لكن عندما يكون ذلك الإيمان حقيقيًا– وليس ميتًا– فسوف تتغيَّر الحياة (وهذا ما كُتب هذا الكتاب لشرحه وإبرازه)، حتى أن الرب يسوع استطاع أن يقول، دونما تناقض، إن أعمال هذه الحياة ستكون المعيار العام للدينونة في يوم القيامة. وذلك لأن أعمالنا هي الدليل على حقيقة إيماننا، والإيمان بالمسيح هو الذي يخلِّص.

ربما يمكن لقصة أن توضح كيف يكون دور الأعمال في الدينونة الأخيرة. دعونا نتذكر كيف أتت زانيتان بطفل إلى الملك سليمان، وادعت كلٌّ منهما أنه طفلها (١مل ٣: ١٦– ٢٧)، وطلبتا من الملك سليمان أن يقضي بينهما. وفي حكمته الفائقة أمر أن يُؤتى له بسيفٍ، وحكم بأن يُشطر الطفل إلى نصفين فيُعطى نصف للأولى والنصف

الآخر للثانية. فصرخت الأم الحقيقية قائلة: «استمع يا سيدي. أعطوها الولد الحي ولا تميتوه.» فقال سليمان: «أعطوها الولد الحي... فإنها أمه.»

ماذا كان يقصد سليمان؟ لقد كان يبحث عن سلوك أو فعل يعبِّر عن استحقاق الطفل، أو قد يخلق علاقة لم تكن قائمة أصلاً. كان يبحث عن سلوك يجسد ما كان حقيقيًا بالفعل، أي فعل يجسدٍ كون الطفل ابنًا حقيقيًا لهذه المرأة بالميلاد. وهذا هو الأسلوب الذي ينظر به الله إلى أعمالنا في يوم الدينونة.. فهو لا يبحث عن أعمال تشتري غفرانه وتبريره لنا في ساحة قضائه، إنه يبحث عن أعمال تثبت أننا بالفعل نستمتع بثمار تبريره. إنه يبحث عن البراهين العملية على عيشنا بالإيمان بالنعمة المستقبلية. لقد كان ثمن خلاصنا، الذي هو دم الرب يسوع، كافيًا مرة وإلى الأبد ليغطي كل خطايانا. ونحن لا نضيف استحقاقًا لبره المحسوب لنا من قبل الله من أجل تبريرنا. غير أن الوسيلة التي نحصل بها على هذه الهبة هي الإيمان.. أي الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. وهذه النوعية من الإيمان تحررنا من عبودية الخوف من الموت طوال العمر، وتعمل بالمحبة.

لذلك أختتم بأن موت المؤمنين –بكل ما يحمله من ألم وحزن– قد يُنظر إليه على كونه نعمة مستقبلية. فنحن لن نكون فقط «مستوطنين لدى الرب» الذي هو أفضل بما لا يُقاس من أي أمر آخر على الأرض، بل أيضًا أن الدينونة، في وقتها المعين، سوف تملأنا بالعجب والامتنان والفرح. يعبر إقرار الإيمان البلچيكي [الصادر في عام ١٥٦١] عن هذا الأمر كالتالي:

> إن التفكير في هذه الدينونة إنما هو مرعب ومخيف للأشرار والخطاة، لكنه مرغوب ومريح للأبرار والمختارين؛ لأنه عندئذ سوف يتم خلاصهم الكامل، وسوف يحصلون على ثمار جهادهم وضيقهم الذي كابدوه. سوف تعلن براءتهم أمام الجميع... وسوف يُتوَّج الأمناء بالمجد والكرامة، وسوف يذكر ابن الله أسماءهم أمام الله الآب وملائكته المختارين، وسوف تُمسح كل الدموع من عيونهم، وقضيتهم التي يتم اضطهادها الآن ستعلن على كونها قضية ابن الله. وكمكافأة لهم سوف يمنحهم الله مجدًا لم يتخيل إنسان في قلبه أن يعاينه.
>
> لذلك فنحن ننتظر ذلك اليوم العظيم باشتياق كبير، آملين أن نختبر ملء فرح المواعيد الإلهية في المسيح يسوع ربنا.. آمين.[٣]

«الذي (المسيح) سيُغيِّر شكل جسد تواضعنا
ليكون على صورة جسد مجده،
بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.»
(في ٣: ٢١)

«ثُم رأيتُ سماءً جديدةً وأرضًا جديدةً،
لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا...
وسمعتُ صوتًا عظيمًا من السماء قائلاً:
هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم،
وهم يكونون له شعبًا، والله نفسه يكون معهم إلهًا لهم.
وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم،
والموت لا يكون في ما بعد،
ولا يكون حزنٌ ولا صراخٌ ولا وجعٌ في ما بعد،
لأن الأمور الأولى قد مضت.»
(رؤ ٢١: ١– ٤)

«فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي،
والعجل والشبل والمسمَّن معًا، وصبيٌ صغير يسوقها.
والبقرة والدُّبَّة ترعيان. تربض أولادهما معًا،
والأسد كالبقر يأكل تبنًا. ويلعب الرضيع على سرب الصِّل،
ويَمدُّ الفطيم يده على جُحر الأفعوان.
لا يَسوؤن ولا يُفسدون في كل جبل قدسي،
لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر.»
(إش ١١: ٦– ٩)

الفصل الثلاثون

ميلاد جديد للخليقة

لماذا أفكر فيما سوف يحدث بعد الموت

إن الإيمان الذي ينمو في تربة المواعيد الإلهية ينزع الخوف ويملأنا بالرجاء والثقة. وعندما يذهب الخوف ويفيض الرجاء بالله، فإننا نحيا بطريقة مختلفة. فحياتنا تُظهر أن الغنى الذي لنا في الله إنما هو أثمن من ملذات الخطية الوقتية. وعندما نتكل على الله الذي يقيم الأموات (٢كو ١: ٩)، ونفتخر على رجاء مجد الله (رو ٥: ٢)، فإننا لا نستسلم لملذات الحاضر الآثمة اللحظية، ولا ننخدع بالمقولات عن أن الذي يمتلك دُمى للهو أكثر يكون رابحًا. ولا نكرس أفضل جهودنا لكي نكنز كنوزًا على الأرض. ولا تكون أقصى أحلامنا هي الإنجازات والعلاقات المثيرة التي تفنى. ولا نغتاظ بسبب ما تفشل هذه الحياة في تقديمه لنا سواء كان زواجًا، غنىً، صحةً، أو شهرة.

عوضًا عن ذلك، فإننا نتمتع بحقيقة أن مالك وضابط هذا الكون يحبنا، وأنه قد اختارنا للتمتع بمجده، وأنه يعمل دون أن يخطئ في شيء لأجل إحضارنا إلى ملكوته الأبدي. لذا فنحن نعيش لكي نسدد احتياجات الآخرين؛ لأن الله يقوم بتسديد احتياجاتنا (إش ٦٤: ٤؛ ٤١: ١٠؛ ٢أخ ١٦: ٩؛ مز ٢٣: ٦). ونحب أعداءنا، ونحسن ونبارك مَنْ يلعنوننا، ونصلي لأولئك الذين يسيئون إلينا، لأننا غير مستعبدين للملذات العابرة التافهة التي تنتج عن مجازاة الشر بالشر، عالمين أن أجرنا عظيمٌ في السماوات (لو ٦: ٣٥؛ مت ٥: ٤٥؛ ١بط ٣: ٩).

كل هذا ينبع من الرجاء المتنامي بالنعمة المستقبلية؛ فعندما تعرف الحق بشأن ما سيحدث لك بعد أن تموت، وتؤمن به، وتكتفي بكل ما يمثله الله لك في الدهور الآتية،

فإن هذا الحق يحررك بلا شك. يحررك من ملذات الخطية الزائلة والقاتلة.. يحررك لكي تضحي في إرساليتك وخدمتك فيمجِّد الناسُ أبانا الذي في السموات. هذا التحرر، وتلك المحبة، وذلك المجد، هم الهدف من وراء هذا الكتاب.

ومن أجل هذا الهدف، ها نحن نلقي نظرة أخيرة (وإن كانت نظرة من خلال زجاج داكن) على ما أعدَّه الله لأولئك الذين يحبونه.. «ما لم ترَ عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على بالِ إنسان»، لكنه قد أُعلن الآن، جزئيًا، بواسطة الروح، في كتابات الرسل (١كو ٢: ٩- ١٣). أولاً نلقي نظرة على قيامة أجسادنا ثم على الأرض الجديدة التي سوف نعيش فيها مع المسيح إلى الأبد.

لحظة استنارة في "ميونيخ"

من المدهش كيف أن الله، من وقت إلى آخر، يخترق قلوبنا بغنى وقوة الحق الكتابي. أتذكر لحظةً مرت منذ خمسة وعشرين عامًا عندما كنت طالبًا جامعيًا في ميونيخ بألمانيا. وكنوع من الاستراحة الروحية في وسط دراساتي كنت أقرأ السيرة الذاتية لأستاذ العهد الجديد «چوليوس شنايوند»، وكان عنوان الكتاب: "كاريزما اللاهوتي" بقلم «هانز يواقيم كاروس». وفي صفحة ٣٥ كان «كراوس» يحكي قصة الأسابيع الأخيرة من حياة «شنايوند» الذي كان يصارع مع مرض بالكُلى. كان «شنايوند» قد فرغ لتوه من تقديم درس كتاب عادي، وبينما كان يرتدي معطفه ليغادر إلى بيته، تأوه قائلاً باليونانية: "soma tapeinoseos, soma tapeinoseos" بمعنى "جسد تواضعنا"!

بالنسبة لي كانت تلك واحدة من لحظات الاستنارة الروحية النادرة.. لقد عرفت من أين أتت تلك العبارة. لقد أتت في فيلبي ٣: ٢١ حيث يقول الرسول بولس إننا ننتظر بشوق مخلصًا من السماء الذي «سيُغيِّر شكل جسد تواضعنا (soma tapeinoseos)، ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.»

إن حقيقة أن «چوليوس شنايوند» قد عاش في مثل هذا الوعي الحميم بهذا الرجاء، إلى درجة أنه في آلامه الأخيرة صرخ بنفس كلمات العهد الجديد اليونانية.. هذه الحقيقة أيقظت فيَّ، لأول مرة في حياتي، قيمة وقوة هذا الوعد المدهش بالنعمة المستقبلية. لقد شاهدتُ آلام جسد «شنايوند» المائت تعبِّر عن نفسها في كلمات وعد النعمة المستقبلية المنتصر. وبدا هذا الانتصار حقيقة بالنسبة لي أكثر من أي وقت مضى.

إن أجسادنا هنا على هذه الأرض إنما هي "أجساد متضعة"؛ فهي هَشة ومعرضة للمرض والانحلال والموت. لكن، كم نحن نحبها! كما قال الرسول بولس: «إنه لم يبغض أحد جسده قط، بل يقوته ويربيه، كما الرب أيضًا للكنيسة» (أف ٥: ٢٩). وهي لا شك ذات قيمة عظيمة؛ فهي هيكل الروح القدس (١كو ٦: ١٩)، وهي خليقة الله لمجد الله (١كو ٦: ٢٠). وهي ذبائح حية ومقدسة ومرضية عند الله في الخدمة الروحية (رو ١٢: ١). إنها جزء من هُويتنا ووجودنا كأشخاص. ولذلك، فإن الوعد بقيامة هذه الأجساد من بين الأموات إنما هو وعدٌ ثمينٌ. وهذه الحقيقة بأن المسيح ملتزمٌ بهذا العمل العظيم في النعمة المستقبلية من خلال عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء، قد تملَّكت وجداني في ذلك المساء بشكل ليس له نظير منذ سنين طويلة.

إذا كان الله هو إلهك، فلابد أن تقوم

قال الرب يسوع: «وأمّا من جهة قيامة الأموات، أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب؟ ليس الله إله أموات بل إله أحياء» (مت ٢٢: ٣١ و٣٢). الفكرة هنا هي أنه إذا كان الله إلهك، فلابد أن تقوم. لأن الله ليس إله الأموات! فعندما يقول: "أنا إلهك" فإنه يعني: "سوف أكون دومًا إلهك. وحياتك معي وفيَّ لن تكون شيئًا يتناقص، لا يمكن أن تكون كذلك. أنا الله! سوف تكون حياتك خبرةً متجددةً ومزدهرةً، ولأنني الله، فأنا لا أُنْقِص ما هو لي بل أجعله أفضل وأفضل دومًا."

هل يرث الملكوت "دم ولحم"؟

ماذا كان يقصد الرسول بولس عندما يقول في رسالته الأولى إلى كورنثوس: «إن لحمًا ودمًا لا يقدران أن يرثا ملكوت الله» (١كو ١٥: ٥٠)؟ هل تنكر هذه العبارة القيامة بالجسد؟ كلا. إن عبارة «لحمًا ودمًا» تعني ببساطة الطبيعة البشرية كما نعرفها- كطبيعة مائتة، وملطخة بالخطية والفساد. مثل هذا الكيان الهش والزائل الذي يُسمى الجسد كما نعرفه لا يناسب طبيعة الحياة الأبدية الخالدة وعديمة الفساد، ولكن هذا لا يعني أنه لن يوجد هناك أجساد.

إن معنى ذلك أن أجسادنا سوف تكون أكثر عظمة. سوف تكون أجسادنا لكنها ستكون مختلفة وأكثر بهاءً. لأن الرسول بولس يستكمل حديثه قائلاً: «... ولكننا كلنا نتغيَّر، في لحظة في طرفة عين، عند البوق الأخير. فإنه سيبوق، فيُقام الأموات

عديمي فساد ونحن نتغيَّر.» (١كو ١٥: ٥١ و٥٢). وعندما يقول: «يُقام الأموات» فهو يقصد أننا، الأموات، سوف نُقام. فإذا كان الله قد قصد أن يبدأ الأمر جديدًا دون استمرارية بين الجسد الذي أمتلكه الآن والجسد الذي سيكون لي عندئذٍ، فلماذا كان قول الرسول بولس: «يُقام الأموات»؟ لماذا لم يقل: "لن يُقام الأموات (بما أنهم قد تحللوا وتشتت جزيئاتهم في النباتات والحيوانات في رقعة من آلاف الأميال)، وسوف يبدأ الله الأمر بداية جديدة تمامًا"؟ لم يقل الرسول ذلك لأنه غير حقيقي.

لقد قال الرسول أمرين: إن الأموات سوف يُقامون (وهذا يشير إلى الاستمرارية)، وإن الأموات سوف يتغيرون (سوف يصيرون غير قابلين للفناء والموت). سوف يصبح الجسد القديم جديدًا، غير أنه سوف يظل جسدك.. سيكون هناك استمرارية. إن الله قادر أن يفعل ما لا نستطيع تخيله، والقيامة لا توصف بمصطلحات تعبِّر عن خليقة جديدة تمامًا بل بمصطلحات تشير إلى تغيير الخليقة القديمة: «كلنا نتغيَّر، في لحظة في طرفة عين.»

يقارن الرسول بولس القيامة بما يحدث للبذرة عندما تُدفن في التربة: «والذي تزرعه، لستَ تزرع الجسم الذي سوف يصير، بل حَبَّة مجردة، ربما من حنطة أو أحد البواقي. ولكن الله يعطيها جسمًا كما أراد. ولكل واحد من البذور جسمه» (١كو ١٥: ٣٧ و٣٨). الفكرة هنا هي وجود صلة واستمرارية بين الحَبة والنبتة النامية. فإذا زرعت حبة حنطة، فإنك لا تحصل على شعير. لكن على الجانب الآخر، هناك اختلاف.. فالنبتة أكثر جمالاً من الحبة.

ثم يُطبِّق الرسول هذه الصورة على الجسد المقام: «هكذا أيضًا قيامة الأموات: يُزرع في فساد ويُقام في عدم فساد. يُزرع في هوان ويُقام في مجد. يُزرع في ضعف ويُقام في قوة. يُزرع جسمًا حيوانيًا ويُقام جسمًا روحانيًا» (١كو ١٥: ٤٢- ٤٤). أكاد أسمع أحدًا يقول: "لماذا يا أخي؟ ما الفائدة من كل ذلك؟ إن كل ما يهم هو الحقيقة الروحية عن المحبة والفرح والسلام والبر والصلاح والحق. لماذا كل هذا الاهتمام بأذرع وأقدام وأيادٍ وشعور وعيون وآذان وألسنة؟ إن جميعها تبدو أرضية جدًا."

لم يخلق الله المادة ليلقي بها بعيدًا

سوف تقودنا إجابة الرسول بولس في النهاية إلى حقيقة الأرض الجديدة، وقصد الله بأن يملأ الكون بإعلان مادي لمجده؛ فالله لم يخلق الكون المادي دونما جدوى. لقد كان له مقصد من وراء ذلك.. وهو أن يكون إضافة للوسائل التي بها يُظهر

مجده ويبرزه: «السموات تُحدِّث بمجد الله والفَلك يخبر بعمل يديه» (مز ١٩: ١). إن أجسادنا تقع في نفس هذه القائمة من الأمور المادية التي خلقها الله من أجل هذا الهدف، ولن يتراجع عن خطته بأن يمجد ذاته من خلال الكائنات البشرية والأجساد الإنسانية. لذا يقول الرسول بولس في نفس الرسالة: «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟ لأنكم قد اشتريتم بثمن فمجدوا الله في أجسادكم» (١كو ٦: ١٩ و٢٠).

لماذا يتحمل الله مشقة ليلوث يديه مثلاً بأجسادنا المتحللة الملوثة بالخطية، لكيما يعيد تكوينها كأجساد مقامة ويلبسها عدم الموت؟ الإجابة هي: لأن ابنه دفع الموت ثمنًا لكيما يتحقق قصد أبيه من جهة الكون المادي، بمعنى أن يتمجد في هذا الكون المادي، بما في ذلك أجسادنا، إلى أبد الآبدين. لهذا يقول: «قد أُشتريتم بثمن (موت الابن) فمجدوا الله في أجسادكم.» إن الله لن يهمل أو يقلل من شأن عمل ابنه. سوف يكرم الله عمل ابنه بأن يقيم أجسادنا من الموت، وسوف نستخدم نحن أجسادنا لكي نمجده إلى الأبد. لهذا تمتلك جسدًا الآن، ولهذا سوف يُقام هذا الجسد ليكون على صورة جسد المسيح المجد.

كلمة من راعيَّ المفضل

كتب «چوناثان إدواردز» الراعي واللاهوتي العظيم منذ ٢٥٠ عامًا مقالةً عميقةً حول "قصد الله من خلق العالم". وتُعد هذه المقالة واحدة من أعمال لاهوتية قليلة كان لها تأثير عميق على فكري. وكانت إجابته على السؤال حول قصد الله من خلق العالم كالتالي: "الرغبة في أن يكون هناك إشعاعٌ مجيدٌ ومتزايد لغنى صلاحه الأبدي اللامتناهي، والرغبة في الإعلان عن ذاته وملء شخصه، هذا ما دفع الله إلى خلق العالم.. إن ما أدى بالله إلى خلق العالم.. هو رغبة الملء الإلهي في الفيض والإعلان عن ذاتها."[١] وهذا ما يقوله الله فعلاً في سفر إشعياء عندما يشير إلى «كل مَنْ دُعي باسمي ولمجدي خلقته وجبلته وصنعته» (إش ٤٣: ٧). لقد صنع الله الكون وكل ما فيه كإشعاع أو إعلان لغنى مجده.

ليس لدينا ما يجعلنا نعتقد أن الله قد بدَّل رأيه بشأن هذا الأمر. وليس لدينا ما يجعلنا نفكِّر بأن الله يفضل الآن لو لم يكن هناك كون مخلوق. فالمسيحية ليست ديانة أفلاطونية تنظر إلى الأشياء المادية على كونها ظلالاً للحقيقة سوف تتلاشى في أقرب فرصة ممكنة. ورجاء الإيمان المسيحي يكمن لا في مجرد خلود النفس، بل

أيضًا في قيامة الجسد وتجديد الخليقة.[٢] وتمامًا كما أن أجسادنا سوف تُقام في عدم فساد لمجد الله، فالأرض نفسها سوف تُخلق من جديد لتلائم سكنى الأجساد المقامة والممجدة.

هل ستمضي السموات الأولى والأرض الأولى؟

ترد واحدة من أروع الرؤى عن النعمة المستقبلية في سفر الرؤيا ٢١: ١- ٤. يقول فيها يوحنا الرائي إنه ستكون هناك أرضٌ جديدة، وأن هذه السموات سوف تنزل وسوف يسكن الله إلى الأبد مع الناس على الأرض الجديدة.

> «ثم رأيتُ سماءً جديدةً وأرضًا جديدةً، لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا، والبحر لا يوجد في ما بعد. وأنا يوحنا رأيتُ المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلةً من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعتُ صوتًا عظيمًا من السماء قائلاً: هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعبًا، والله نفسه يكون معهم إلهًا لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزنٌ ولا صراخٌ ولا وجعٌ في ما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت.»

هذه صورة جميلة لما سوف يحدث: أرض جديدة يعيش فيها شعب الله دون موت أو ألم أو دموع. وأروع شيء هو أن الله لن يكون بعيدًا، بل سوف يخيِّم في وسطنا، ويسكن معنا إلى الأبد.

غير أن سؤالاً حاسمًا يطرح نفسه هنا. عندما يقول يوحنا في عدد ١: «السماء الأولى والأرض الأولى مضتا»، فهل يقصد بذلك أن الأرض التي نعيش عليها والسماء التي تظللنا سوف ينتهيان تمامًا، وأن الله سوف يبدأ بداية أخرى جديدة بخليقة جديدة تمامًا؟ إنه سؤال يشبه ذاك الذي طرحناه سابقًا عن أجسادنا المقامة: هل سيقيمها الله أم سوف يبدأ مرة أخرى بخليقة جديدة تمامًا بأجساد مختلفة؟ حاولتُ توضيح أنه ستكون هناك استمرارية بين أجسادنا الآتية وأجسادنا في القيامة. وهذا أيضًا ما يحتاج إلى توضيح بشأن الأرض الجديدة.

محترقة دون أن تبيد

ماذا كان يوحنا يقصد بقوله: «السماء الأولى والأرض الأولى مضتا»؟ الرسول بطرس، في رسالته الثانية، يذكر أمرًا مماثلاً لكن بأسلوب أكثر وضوحًا؛ فهو يَصف كيف ستمضي الأرض والسماء الحاليتان:

> «ولكن سيأتي كلص في الليل، يوم الرب، الذي فيه تزول السماوات بضجيج، وتنحل العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها. فبما أن هذه كلها تنحل، أي أناس يجب أن تكونوا أنتم في سيرة مقدسة وتقوى؟ منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب، الذي به تنحل السموات ملتهبة، والعناصر محترقة تذوب. ولكننا بحسب وعده ننتظر سماوات جديدة، وأرضًا جديدة، يسكن فيها البر.» (٢بط ٣: ١٠- ١٣)

إن رؤية الرسول بطرس لرجائنا العظيم في الأبدية هي: «سماوات جديدة وأرض جديدة يسكن فيها البر»، تمامًا مثل رؤية يوحنا في سفر الرؤيا أصحاح ٢١. وهو يتحدث أيضًا عن زوال السموات (ع ١٠)، بل يذهب إلى أبعد من ذلك قائلاً ثلاث مرات إنه سيكون هناك تدمير للعالم الحاضر: «تنحل العناصر محترقة» (ع ١٠)، «هذه كلها تنحل» (ع ١١)، «تنحل السموات ملتهبة، العناصر محترقة تذوب» (ع ١٢). السؤال إذًا هو: هل يعني ذلك أن الأرض التي نحيا عليها، والسماء التي نعيش تحتها، سوف يمضيان كلية؟ وهل سوف يبدأ الله مجددًا بخليقة جديدة تمامًا؟

أولاً أود القول بأنه عندما تعلن كلمة الله في رؤيا ٢١: ١؛ ٢بطرس ٣: ١٠ أن الأرض والسماء الحاليتين سوف تمضيان، فليس معنى ذلك أنهما سوف تختفيان من الوجود، لكن قد يكون المعنى أنه سوف يطرأ عليهما تغيير يؤدي إلى زوال حالتهما الحاضرة. فنحن قد نقول: "تمضي اليرقة وتظهر الفراشة".. فهناك زوال حقيقي لحالة ما، وهناك أيضًا استمرارية حقيقية، واتصال حقيقي.

وعندما يقول الرسول بطرس إن هذه السماوات والأرض سوف تُدمران، فإن المعنى لا يكن بالضرورة أنهما سوف تزولان نهائيًا. فنحن قد نقول: "دمَّر الفيضان عدة مزارع"، لكننا لا نقصد بذلك أنها قد زالت من الوجود. وقد نقول إنه في ١٨ مايو ١٩٨٠م دُمر محيط جبل هيلينا في واشنطن بسبب انفجار بلغت قوته ما يعادل ٥٠٠ مرة أكثر من قنبلة هيروشيما النووية، لكن أي شخص يذهب إلى هناك اليوم ويشاهد عمليات التنمية الجديدة سوف يدرك أن كلمة "دُمر" لم تكن تعني زوالاً نهائيًا.

وهكذا فقد يكون ما عناه الرسول بطرس هو أنه عند نهاية هذا الدهر ستجري أحداث كارثية ستؤدي إلى نهاية لهذا العالم كما نعرفه.. دون فنائه التام من الوجود، وإنما ستمحو كل ما هو شرير، وتنقيه بنارٍ، وتهيئه لدهر من المجد والبر والسلام ليس له نهاية.

نعم، قد يعني الأمر كذلك.. لكن هل المعنى كذلك حقًا؟

رجاء بولس العظيم من أجل العالم المادي ومن أجلنا

يقدِّم الرسول بولس توكيدًا قويًا لهذا التفسير في رسالته إلى رومية. وهناك على الأقل أربعة أسباب ترد في هذه الآيات تدعو للاعتقاد بأن الخليقة التي نعرفها والأرض التي نحيا عليها لن يتعرضا إلى الفناء التام، بل سوف يتجددان ليصيرا بيتنا الأبدي.

أول كل شيء، يقول الرسول بولس في رومية ٨: ١٩ و٢٠: «لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله. إذ أُخضعت الخليقة للبُطل- ليس طوعًا، بل من أجل الذي أخضعها- على الرجاء.» إنه يصوِّر الخليقة -سماوات وأرضًا- على كونها تعيش في انتظار وشغف شديدين. أمرٌ ما سوف يحدث يجعل الخليقة كما لو كانت تقف على أطراف أصابعها. ويقول إن السبب وراء هذا الانتظار الشغوف هو "البُطل" بعينه الذي تجد الخليقة نفسها فيه، من تحلل وكوارث ومرض وألم. فكيف تؤدي كل هذه الأمور إلى تولُّد الرجاء والانتظار في الخليقة؟ السبب هو أن "الخضوع للبُطل" إنما هو لعنة مؤقتة وضعها الله على الخليقة على أمل إزالتها يومًا ما. وهذا ما يقصده بولس بقوله إن الخليقة قد أُخضعت للبُطل «على الرجاء». لم يكن الشيطان هو من فعل ذلك؛ فالشيطان لا يعمل شيئًا على رجاء في فداء العالم. لكن الله فعل ذلك؛ فلعنة الله على الخليقة في سفر التكوين ٣ لم تكن كلمته الأخيرة؛ لقد فعل ذلك «على الرجاء». لذا فالخليقة ليست معينة للفناء، ولكن للتجديد. لقد أخضعها الرب على رجاء.

السبب الثاني الذي يسوقه الرسول بولس حتى لا نتوقع فناء الخليقة يرد في عدد ٢١ (مضمون الرجاء): «لأن الخليقة نفسها أيضًا ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله.» إذًا ليست الخليقة معينة للفناء، لكن للعتق. فهي ستتحرر من «عبودية الفساد»- أي البُطل الذي أخضعها الله عليه هو على رجاء. هذه أوضح عبارة على أن الأرض والسموات لن يختفيا أو يُدمرا بمعنى الفناء التام من الوجود.

فالرسول بولس يقول بوضوح إنهما سوف يُعتقان من الفساد. سوف يُدَمَّر البُطل. سوف ينحل رباط الفساد بنيران دينونة الله المطهرة والمحررة. لكن سوف تبقى الأرض ولن يكون هناك فسادٌ فيما بعد. لن يكون هناك بُطلٌ فيما بعد، لا خطية أو ألم أو موت أو صراخ فيما بعد.

الحُجة الثالثة التي يقدِّمها الرسول ضد فناء الخليقة الحاضرة نجده في رومية ٨: ٢٢: «فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معًا إلى الآن.» بكلمات أخرى جَيَشان الخليقة يشبه آلام المخاض في المراحل الأخيرة من الحمل. شيء على وشك الخروج من الخليقة، لن يحل محل الخليقة. لن تفنى الخليقة ثم يُعاد خلقها بدون استمرارية لما هو قائم. إن الأرض سوف تلد أرضًا جديدةً، كأم تتمخض (من خلال النار والزلازل والبراكين والأوبئة والمجاعات).

لقد لجأ الرب يسوع إلى استخدام نفس الصورة عن آلام المخاض عندما قال: «لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن. ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع» (مت ٢٤: ٧ و٨). فالأرض مثل الأم التي على وشك أن تلد أرضًا جديدةً يسكن فيها البر ويملك فيها الله في وسط شعبه.

في النهاية يقدم الرسول بولس حُجةً أخيرة ضد فناء الأرض: «وليس هكذا فقط، بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضًا نئن في أنفسنا، متوقعين التبني فداء أجسادنا» (رو ٨: ٢٣). والسبب في أهمية ذلك هو أنه يربط فداء أجسادنا، الذي هو قيامة وتجديد أجسادنا بعد حياة طويلة من الأنين، بتجديد الخليقة. فأجسادنا جزءٌ من هذه الخليقة الحاضرة. وما يحدث لأجسادنا يسير بالتوازي مع ما يحدث للخليقة. وما يحدث لأجسادنا ليس فناءً بل تجديدًا: "متوقعين.. فداء أجسادنا". إن أجسادنا سوف تُفدى وتتجدد ولن تتعرض للفناء. وهكذا سيكون الأمر مع السماوات والأرض.

الميلاد الثاني للخليقة

دعا يسوع هذا العمل العظيم عن التجديد الكوني: «في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده» (مت ١٩: ٢٨). سوف "تتجدد" الخليقة أو "تولد من جديد". في أعمال الرسل ٣: ٢١ يدعوها بطرس: «أزمنة رد كل شيء، التي تكلَّم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر.»

سيكون الله الكل في الكل

فماذا قال الأنبياء عن الأرض الجديدة؟ يقدِّم لنا إشعياء النبي مثالاً على ذلك:

«فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمَّن معًا، وصبيٌ صغير يسوقها. والبقرة والدُّبة ترعيان. تربض أولادهما معًا، الأسد كالبقر يأكل تبنًا. ويلعب الرضيع على سرب الصِّل، ويَمدُّ الفطيم يده على جُحر الأفعوان. لا يَسوؤون ولا يُفسدون في كل جبل قدسي، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر.» (إش ١١: ٦– ٩؛ وراجع كذلك عد ١٤: ٢١؛ إش ٦٥: ٢٥؛ مي ٤: ٣؛ حب ٢: ١٤).

وهكذا فالتاريخ كما نعرفه سيأتي إلى نهاية مركزها الله. ومجد الله سيكون أكثر إشراقًا من ضوء القمر والشمس معًا (رؤ ٢١: ٢٣). وعلى الأرض سيكون هناك بحر عظيم من المعرفة يعكس مجد الله. وتمامًا كما أن رفض تلك المعرفة قد جلبت اللعنة على الخليقة، فإن تجديد تلك المعرفة سوف تأتي بالبركة إليها، والحيوانات نفسها سوف تُعتق من اللعنة لتعكس الجمال الإلهي.

وهكذا يتم قصد الله من الخليقة، وهو إعلان مجده لفرح شعبه من خلال الاستعلان اللانهائي للنعمة المستقبلية الأبدية. يُحلِّق «چوناثان إدواردز» عاليًا عندما يفكِّر في هذا الأمر فيقول:

في معرفة الخليقة لله وتقديرها ومحبتها وإكرامها له وابتهاجها به يستعلن مجد الله ويظهر بجلاء، ونقبل ملئه ونمجده. وهنا نجد الإرسال والانعكاس. فاللمعان ينعكس على الخليقة ومنها. وإشعاعات المجد تأتي من الله، وتنعكس إليه مرة أخرى. وهكذا يكون الكل من الله وفي الله ولله، ويصير الله الأمر ووسطه ونهايته.[٣]

بعض الرؤى عن النعمة المستقبلية تستلزم أكثر من مجرد النثر. منذ عدة سنوات ألهمتني رؤية قيامة أرض المجد الجديدة مع المسيح القصيدة التالية. والآن لا أجد أفضل من أن أختم بها:

مجرورن إلى الأبد

على امتداد ما يمكن للبصر أن يرى
لم يكن هناك لونٌ أخضر.. بل كانت كل الأشجار سوداء،

كرماد جمرة مُطفأة،
وكانت كل الأرض رمادية كرماد البركان.
كان الصوت الوحيد هو صوتُ رياحٍ جافة كأرواح الأشباح
تلهث وراء جمهور من الأحياء،
تريد أن تسكنهم كما في أيام خَلتْ.
قبل أن يحوِّل لهيب النار مرعبة
الأرض كومة حطبٍ ملتهبة
لإظهار الغضب الإلهي المقدس.

اليوم الرهيب

وجاء اليوم الإلهي المخيف،
حيث أضحى القمر دمًا.
ولم تعد الشمس تعطي ضوءًا في السماء،
بل هوت في بحيرة من النار، لا من الماء.
والبحار والمحيطات لم تعد فيما بعد.
وحلَّت مكانها صحراءُ تقابلت مع السماء المحترقة.
والصمتُ هزم الصرخات البعيدة.

ووقف الرب صامتًا في الهواء.
وكانت ذراعاه القديرتان مبللتين ومكشوفتين،
كانتا معلقتين، متعبتين..
حتى جف دم البشر
من على نصل السيف الذي أمسكته يمينه.
كان ينظر إلى أرجاء الأرض التي كساها السواد..
التي خلقها، والتي عليها مات.
كانت شفتاه مغلقتين، وفي عمق قلبه كان سر الأزل
يُستعلن ويفيض في دموع.
تتساقط على السيف المخصب بالدماء.

ثم جاء الرب

ومسح كل دمعة من العيون.

وتحوَّل لينظر عروسه التي ظلت مشتاقةً لهذه اللحظة منذ آلاف السنين.
فأشرق وجهه كالشمس، وذهب منه كل أثر للغضب.
ولسعادتها سمعت السيد يقول:
"هلمي أيتها الخيرات من كل الأرض..
تعالي ودعي الأرض تبتهج فرحًا."

وبينما هو يتكلم، جاء عرش الله

من السماء إلى الأرض.
وتلألأ كبلورة تعكس شتى الألوان؛
فتلاشى الليل مرةً وإلى الأبد.
ومن العرش خرج نهرٌ متدفقٌ يضحك.
وبينما كان يجري ماؤه، تكونت بحيرة فاضت على كل مكان.
فنما العشبُ على ضفافه وترعرع.. كمَنْ يقوم من الأموات.

وفي لحظة، في طرفة عين..
نزل القديسون من السماء.

وإذ بي أجثو بجانب النهر؛ لأشرب من ماء الحياة.
نظرتُ سريعًا إلى الحشائش الذهبية،
فرأيت كلبي الأسود يجري منطلقًا ليقفز فوق الجدول المنساب.
وعرفت عندئذٍ أني على مشارف فرحٍ أبديٍّ.
وكلما تلفتُّ حولي رأيتُ هذه البهجة.
العجوز يجري على الحشائش على رجليه..
والأعمى يُبصر عصفورًا فوق الغصن،
الأخرس يرفع صوته عاليًا ويرنم.
ومريض السكر يأكل كما يشاء.
ومريض القلب يصعد التلَ.
والأشل يمشي، والأصم يسمع.
وصاحب سرطان العظام قد شفي.
والمفاصل الملتهبة قد برئت.

وكل الآلام قد توقفت، وكل الأحزان قد مُسحت.
وكل بقية خطية بلا عودة قد خرجت.
وكل ما بقي هو الفرح.
دهور أبدية لكيما بالذهن والقلب
ندرك ونحب الإله السرمدي الذي جعل من الأبدية
نهرَ نعمة غامرة.

يا إله العظمة والقدرة.
أعطنا عيونًا مرفوعة للأبدية.
لنرى الفرح الآتي،
وليحررنا مستقبل الأيام معك.
واحفظنا في الرجاء
حتى أننا من خلال النعمة التي تجدد الأرض،
سنظل مبررين إلى الأبد.

الجزء العاشر

الاشتياق إلى الله والحياة بالإيمان

إن الله يتمجد فينا أكثر من أي شيء آخر،
عندما يكون اكتفاؤنا به أكثر من أي شيء آخر.

إن الله لا يتمجد فقط بأن يستعلن مجده،
لكن بأن يبتهج الناس بهذا المجد.
فعندما يبتهج بمجده أولئك الذين يرون مجده،
فإن الله يتمجد أكثر مما لو عاينوا مجده فقط دون أن يبتهجوا به.
لأن مجده حينذاك سيدخل إلى أعماق النفس..
من خلال العقل والقلب معًا.
لقد خلق الله العالم بحيث يعبِّر عن مجده
وتستوعبه الخليقة،
ومن ثم تقبله بالعقل والقلب.
إن مَنْ يشهد بعقله فقط عن مجد الله،
لا يمجد الله بقدر ما يمجده ذاك الذي
يشبع بمجد الله ويتمتع به.
«جوناثان إدواردز»

إن الاعتزاز بالشيء هو جوهر الإشادة به.

الفصل الحادي والثلاثون

ما أدين به إلى "چوناثان إدواردز"

إن الله يتمجد فينا أكثر من أي شيء آخر،
عندما يكون اكتفاؤنا فيه أكثر من أي شيء آخر.

كان الهدف الرئيسي من وراء هذا الكتاب تشجيع حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية لمجد الله. وقد أوضحت أن الإيمان الذي يبرر يُقَدِّس أيضًا؛ لأن طبيعة[١] الإيمان هي أن يكون مكتفيًا بكل ما يمثله الله لنا في المسيح.[٢] وآمل أن يكون واضحًا أني أنتمي لنفس فكر «چوناثان إدواردز» الذي كتب قائلاً: "إن خلاصة الحياة الأبدية التي اشتراها المسيح هي القداسة، إنها سعادة مُقدَّسة. وفي الإيمان يوجد ولعٌ بالسعادة التي يضمنها المسيح ويقدمها لنا."[٣] هذا الولع بالسعادة التي يقدمها المسيح هي ما أقصده بالاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. لقد شددت على فكرة التوجه المستقبلي للإيمان، وذلك لأن المستقبل هو الزمن الذي فيه يعد الله بأن يُشبع قلوب أولئك الذين ينتظرونه. إن النعمة الماضية لها قيمة لا نهائية، وخاصة ما يتعلق بموت الرب يسوع وقيامته، أيضًا لما تضمنه لنا في المستقبل: الشركة مع الله التي تشبعنا وتمجده إلى الأبد. وعدم امتلاك الإيمان بالنعمة المستقبلية، الذي ضمنته لنا النعمة الماضية، يعني أن نجعل صليب المسيح بدون فائدة.[٤]

لذا فالعيش في حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية تمجد الله من أجل كل نعمته سواء الماضية أو المستقبلية. إن النعمة الماضية تُكرَم بالاتكال دون خوف على المستقبل الذي قُصد للماضي أن يضمنه. وإكرام النعمة المستقبلية أن تنكسر شوكة الخطية من خلال السعادة الفائقة[٥] التي تنبع من اكتفائنا بكل ما يعدنا به الله من الآن وإلى الأبد.

ووراء هذا الرأي تكمن قناعة عميقة بأن الله يتمجد فينا أكثر من أي شيء آخر، عندما يزداد اكتفاؤنا به أكثر من أي شيء آخر.

هذا ما دعوته "المذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله"

هذه القناعة تُعد أقرب تلخيص للفكر اللاهوتي الخاص بي. وقد دعوت ذلك في موضع آخر: المذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله (Christian Hedonism).[٦] وإذ نقترب من النهاية قد نتأمل فيما إذا كانت رسالة هذا الكتاب تتفق مع هذه الرؤية السابقة لله والحياة. فلنتأمل في بعض المضامين التي ذُكرت. إذا كانت طبيعة الإيمان هي الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في المسيح، إذًا فالأمر الكتابي العام بالإيمان إنما هو دعوة حاسمة وشاملة لوضع سعادتنا الشخصية في الله. والقول بأنك غير مبالٍ بسعادتك الشخصية يساوي القول بأنك غير مبالٍ بطبيعة الإيمان. وهذا يُعتبر خطية. إن دعوة هذا الكتاب هي أن نتوقف عن هذه الخطية ونبحث بكل قوتنا عن كل اكتفاء ممكن في شخص الله. لذلك فحياة الإيمان بالنعمة المستقبلية تمثل حياة تلذذ بالله، أي الدعوة لوضع سعادتنا في كل ما يمثله الله لنا في المسيح- حتى لو كلفنا ذلك حياتنا؛ لأن محبة الله أفضل من الحياة (مز ٦٣: ٣).

أكثر من ذلك، لقد أوضحت أن سر الخطية إنما يكمن في مقاومة عدم الإيمان، والإبقاء على شعلة الإيمان بوعود الله متوهجة.[٧] إن قوة الخطية هي الوعد الكاذب بأنها سوف تجلب من السعادة أكثر مما تجلبه القداسة. لا أحد يخطئ كنوع من أداء الواجب. لذلك فإن ما يكسر سطوة الخطية هو الإيمان في الوعد الصادق بأن ملذات الخطية ستنتهي، وتحمل في طياتها سُمًا، لكن في يمين الله نِعمٌ إلى الأبد (مز ١٦: ١١). هذا الأسلوب من محاربة الخطية عن طريق الرجاء في الاكتفاء الأعلى يُسمى في الرسالة إلى العبرانيين الحياة «بالإيمان»: «بالإيمان موسى... فضَّل بالأحرى أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية... لأنه كان ينظر إلى المجازاة.» لذلك فنداء هذا الكتاب لمحاربة الخطية إنما هو نداء للسعي وراء بهجة أسمى لا يمكن للخطية أن تقدمها. إنه نداء حياة التلذذ بالله.

وفوق كل شيء فإن هذا الكتاب يرتكز على قناعة بأن حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية سوف تُظهر مجد الله أكثر من أي أسلوب آخر للحياة. وفي قلب هذا الكتاب يوجد الاعتقاد بأن الطاعة الكاملة والحرة ليسوع المسيح تتحقق فقط من خلال قناة الإيمان بالنعمة المستقبلية. وأن هذه القناة هي قبول وتصديق والفرح بكل ما

يَعد به الله أن يكون لنا في المسيح. لذا قد يتساءل أحدهم عما إذا كان يمكن لكتاب يشجع على البحث عن سعادة الإنسان بهذا الشكل المحموم –حتى لو كانت سعادة في شخص الله– أن يكون كتابًا يبحث عن مجد الله. ألا تخلق الحياة بالإيمان بالنعمة المستقبلية، أي التلذذ بالله، إلهًا من المتعة؟ إجابتي هي: لا. هدفي في كل حياتي وكتاباتي هي أن أجعل الله إلهًا حقيقيًا. والحق الكتابي الذي أسعى وراءه هو أن الله يتمجد فينا أكثر من أي شيء آخر، عندما يزداد اكتفاؤنا فيه أكثر من أي شيء آخر. إن اتساع وعمق سعينا وراء الفرح الذي في الله يمثل مقياس قيمته في حياتنا.

ما أدين به إلى "جوناثان إدواردز"

الأمانة تقتضيني أن أنبه القارئ إلى أن ما يلي قد يكون ثقيلاً عليه. فنحن لم نعتد على قراءة أشياء كُتبت منذ قرنين من الزمان، ومن خلفية فكرية غريبة عن عالمنا المعاصر. لكن، كما قلتُ قبلاً، إن "الكنس" سهل لكنك لن تجني منه سوى بعض الأوراق، أمّا "الحَفر" فمرهق لكنك قد تجد من ورائه لآلئ. وهذا ما وجدته لدى راعي ولاهوتي عظيم عاش في القرن الثامن عشر.

لا يخفي على أحد، من خلال ما كتبته في العديد من المواضع، أنني أدين بشدة لـ «جوناثان إدواردز» في تطور إدراكي لله وللحياة. قال «چي. آي. باكر» عن كتابي: «الاشتياق إلى الله»، تأملات في المذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله: "إن جوناثان إدواردز يجول بطيفه في أغلب الصفحات التي يكتبها پايبر، لاشك أنه سيسعد بتلميذه." لقد كان ذلك تعليقًا كريمًا منه. وآمل أن ينطبق ذلك على هذا الكتاب أيضًا. فأنا أكتب بينما عينا «إدواردز» تراقب ما أكتبه.

لذا ففي هذا الفصل الأخير أردتُ أن أبيِّن أن حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية وحياة التلذذ بالله يمثلان تواصلاً أمينًا لفكر «جوناثان إدواردز». إنني لا أدعي أن «إدواردز» كان سيختار أسلوبي في توضيح الحق الكتابي للكنيسة المعاصرة. وكذلك لا أدعي بأن هذا الأسلوب هو الأسلوب الوحيد أو حتى الأسلوب الأفضل، لكني أستطيع أن أدعي بأنه أسلوب يتفق مع الكتاب المقدس، وأنه موجود في الميراث الفكري لـ «جوناثان إدواردز»، وأنه إذ ما أُحسن فهمه وتطبيقه، فإنه يقود إلى حياة مركزها الله وملؤها الفرح والمحبة الباذلة.

هناك على الأقل ملمحان من ملامح فكر «إدواردز» يبدوان في البداية متناقضين مع المذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله. الأول هو معالجته لـ "محبة الذات". فهو يوضح

ن فروعها لا تنمو عاليًا، وأن جذورها لا تمضي عميقًا في الأرض. فكيف يتوافق نقده هنا لمحبة الذات مع تأكيدنا على أن الإيمان هو الاكتفاء بكل ما يمثله لنا الله في المسيح؟ إن حياة التلذذ بالله تبدو وكأنها محبة للذات، أليس كذلك؟ أما الملمح الثاني في فكر «إدواردز»، والذي يبدو معاكسًا لحياة التلذذ بالله فهو استخدامه لعبارة "لا مبالٍ". فهو يؤكد أن المحبة الحقيقية الصادقة لله يجب أن تكون لا مبالية، وهذا لا يتماشى مع لغة مذهب اللذة، أم أن الأمر غير ذلك؟

موقع محبة الذات في فكر "جوناثان إدواردز"

كانت "محبة الذات" موضوعًا شائعًا في أيام «إدواردز»، وكانت له علاقة حب وكراهية في نفس الوقت مع مصطلح "محبة الذات"؛ لأنه كان يمكن تأويله من نواحٍ كثيرة إلى الحق ومن نواحٍ كثيرة إلى الباطل أيضًا. وقد كتب مرة يقول: "آه.. كم أن العالم مظلم وملبد بالغيوم ومشتت وممزق بسبب تلك الأعداء المخيفة للجنس البشري التي ندعوها: الكلمات."[٨]

استخدامه الانتقاصي لمحبة الذات

أدرك «إدواردز» أن بعض علماء الأخلاق في عصره كانوا يستخدمون مصطلح "محبة الذات" ليشيروا ببساطة إلى محبة الإنسان لسعادته الخاصة، ولم يكن ذلك استخدامًا انتقاصيًا للمصطلح،[٩] لكنه كان يفضل أن يستخدم المصطلح في معناه الأضيق والأكثر سلبية. فهو يقول في كتابه "طبيعة الفضيلة الحقيقية" (The Nature of True Virtue): "إن مصطلح محبة الذات كما يُستخدم في الحديث العادي يشير عامةً إلى اهتمام المرء بذاته، أو محبته لنفسه فيما يتعلق بخيره الشخصي."[١٠] بكلمات أخرى، كانت عبارة محبة الذات تُستخدم في معناها السلبي الأضيق.. لقد كانت مرادفة للأنانية. فما يجعل الشخص الأناني سعيدًا ليس خير الآخرين بل زيادة سعادته الشخصية دون اهتمام بالآخرين. هذا هو المعنى الغالب لمحبة الذات كما تعامل معه «إدواردز».

وفي عام ١٧٣٨م ألقى «إدواردز» سلسلة من العظات حول كورنثوس الأولى ١٣، وقد تم نشرها فيما بعد تحت عنوان: "المحبة وثمارها". كانت واحدة من عظاته مرتكزة على العبارة الواردة في العدد ٥: "المحبة... لا تطلب ما لنفسها"، وكان عنوان العظة: «روح المحبة تناقض روح الأنانية»، وفيها يصف سقوط الإنسان في الخطية كالتالي:

> إن الدمار الذي أحدثه السقوط على نفس الإنسان يشتمل أساسًا على فقدانه لأركان طبيعته النبيلة المعطاءة، والسقوط بالكامل تحت سطوة وسيطرة محبة الذات... فالخطية كثقلٍ كبيرٍ قلَّصت مساحة نفسه حتى لا تسع إلا البُعد الأناني الأضيق، وأصبح الله بعيدًا عن الصورة، وأصبح الإنسان يُقصي إخوته من البشر، وانسحب الإنسان إلى داخل نفسه وأصبح محكومًا كلية بالقيم الضيقة والمشاعر الأنانية. لقد أصبحت محبة الذات السيد المطلق على النفس، واتخذت أركان كينونته الروحية السامية أجنحةً وطارت بعيدًا.[١١]

إذًا فمحبة الذات بهذا المعنى هي ذاتها رذيلة الأنانية. فالأشخاص الذين تسيطر عليهم محبة الذات "يضعون سعادتهم في الأشياء الصالحة التي تختص بهم وتقتصر عليهم فقط دون الآخرين، وهذه هي الأنانية. هذا هو المعنى الواضح والمباشر لمحبة الذات والذي يدينه الكتاب المقدس."[١٢] وهكذا فإن محبة الذات تمثل صفة التصقت بالإنسان بعد السقوط، والشر الكامن فيها ليس الرغبة في السعادة، لكن في نظرتها للسعادة على أنها محدودة ولا ترتبط إلا بالمصالح الخاصة.

لقد علم «إدواردز» جيدًا أنه حتى الإحسان للآخرين قد يكون متجذرًا في محبة ضيقة للذات. فأغلب الإحسان ينشأ ببساطة في داخل مجموعات طبيعية متقاربة تربط الآخرين بنا.. مجموعات مثل الأسرة والمجتمع والشعب. وقد دعا «إدواردز» هذا الإحسان على أساس محبة الذات: "محبة الذات المركَّبة"، ولم يعتبرها فضيلة حقيقية.

غير أن «إدواردز» قد أثار التساؤل: متى يمكن لاتساع تأثير الإحسان للآخرين النابع من محبة الذات أن يكون كافيًا لاعتباره فضيلة؟ في عام ١٧٥٥م، أي بعد ١٧ عامًا من تقديمه لعظات حول كورنثوس الأولى ١٣، قدَّم «إدواردز» إجابة في منتهى الحسم على ذلك. لقد قال إن ذلك يحدث عندما يحوي هذا الإحسان الخير لكل الكون. أو ببساطة أكثر، عندما يحتوي هذا الإحسان على الله. لأنه بخلاف ذلك تحتوي محبة الذات على "جزء صغير للغاية من الوجود الكوني"، لأنها لا تحوي الله:

> إذا كان هناك وجود لقضية [كمحبة الذات] تقود الشخص إلى الإحسان نحو البشرية بأسرها، أو حتى إلى كل الخليقة المادية في كل الكون، ومقتصرة فقط على وحدة القلب نحو الوجود العام ومحبة الله.. أي لم تنبع من طابع الذهن الذي يولي إجلالاً كبيرًا لنفسه، ولا يخضع لمثل هذه المحبة الإلهية؛ فإن هذا لا يمكن أن يكون فضيلة حقيقية.[١٣]

قال «نورمان فيرينج» عن هذه العبارة: "قد نعجب بجسارة هذه العبارة... غير أنها قابلة كذلك للنقد الواضح."[١٤] ثم يمضي في نقده لـ «إدواردز» في أسلوب يبدو متجاهلاً هدف وإنجاز «إدواردز» في كتابه «طبيعة الفضيلة الحقيقية». إن ما يهدف «إدواردز» لإيضاحه هو أن شخص الله ضروري وجوهري، ولا يمكن الاستغناء عنه في تعريف الفضيلة الحقيقية. هذا التعريف يتضمن أن يُوضع الله في بؤرة كل الاتجاهات الأخلاقية، وأن يُخضع كل القوى العلمانية لمنطق التفكير الأخلاقي في عصره. لم يكن «إدواردز» قادرًا على تصور أن يمثل أي سلوك فضيلةً حقيقيةً دون أن يكون مُعبِّرًا عن تقدير حقيقي لله. لذا يبدو لي أن «إدواردز» كان وثيق الصلة بعصرنا، وأنه يمثل نموذجًا لفكرٍ مركزه الله.

لذلك فإن ما كان «إدواردز» يسعى إليه من خلال تركيزه على المعنى السلبي الضيق لمحبة الذات هو أن يوضح في نهاية الأمر أن كل محبة إنما هي ضيقة وعادية ما لم تضع الله في مركزه السامي اللائق به. وتنبع عدم فاعلية محبة الذات من أن فروعها لا تصل إلى الله. قد تحتضن فروعها قضايا عظمى، وتقدم تضحيات غالية؛ لكن إذا لم تحقق المحبة لله، فإنها تكون محدودة وضيقة. بكلمات أخرى كان الهدف من وراء نقاش إدواردز لمحبة الذات، مثل كل أمر آخر كتب بشأنه، هو الدفاع عن مركزية الله. وهذا بالتحديد هو هدف «حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية» كما أوضحته في هذا الكتاب، وهدف اللذة المسيحية كما بينته في كتابي: «الاشتياق إلى الله» و«المسرات الإلهية».

المعالجة الإيجابية لمحبة الذات عند "إدواردز"

إننا حتى الآن لم نوضح أن نظرة «إدواردز» لمحبة الذات يمكنها أن تشمل دعوة حياة التلذذ بالله، للسعي إلى البهجة في شخص الله كعنصر أساسي في كل فضيلة حقيقية، والاكتفاء بالله كمكوِّن أساسي في كل إيمان حقيقي. لذا ننتقل الآن إلى جانب آخر اتخذه «إدواردز» في تناوله لمحبة الذات، وهو جانب يبدو إيجابيًا للوهلة الأولى، لكن عدم جدواه تتضح فيما بعد؛ لأن جذوره لا تتأصل بعمق. وما يهمني هنا هو أن ما يفعله «إدواردز» هو أنه ينزع من اللذة كل ما يُخفي مركزية الله الساطعة فيها. ما يتبقى في هذه العملية هو ما أُطلقتُ عليه "المذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله" (Christian Hedonism).

في كتابه «المحبة وثمارها» يقول «إدواردز»:

ليس متناقضًا مع المسيحية أن يحب الإنسان نفسه، أو بمعنى آخر، أن

يرغب في سعادته الشخصية. فلو أن المسيحية أرادت [illegible] على محبة الإنسان لذاته وسعادته الشخصية، لكانت [illegible] إلى القضاء على روح الإنسانية ذاتها.. فمحبة الإنسان لسعادته هامة لطبيعته بقدر أهميتها لمَلَكة الإرادة عنده، ومن المستحيل القضاء على هذه المحبة إلا إذا أردنا القضاء على وجود الإنسان ذاته.[١٥]

كان إدواردز يقر ببديهية ذلك بقدر إقراره ببديهية وجود الإرادة الإنسانية ذاتها. غير أن اختباري أن ذلك الأمر يصدم الناس في عصرنا هذا كما لو أنها ديانة جديدة- مما يوضح كيف أننا ابتعدنا عن رؤية «چوناثان إدواردز» الكتابية.

أعتقد أنه قد يكون من قبيل المبالغة بعض الشيء القول بأن «إدواردز» قد سلَّم بالكامل ببديهية هذا الأمر لأنه عزم على تأكيد ذلك بشكل أو بآخر؛ فهو يقول على سبيل المثال:

> أن نحب ذواتنا هو أمر لا يخالف الشريعة في شيء، ويتضح أيضًا من حقيقة أن شريعة الله تجعل من محبة الذات قاعدةً ومعيارًا يحدد مقدار محبتنا للآخرين. ولهذا يوصينا المسيح في بشارة متى ١٩: ١٩: «تحب قريبك كنفسك»، مما يفترض بالتأكيد أن علينا أن نحب أنفسنا... ونفس الأمر يتضح من حقيقة أن الكتاب المقدس من أوله إلى آخره يمتلئ بالمحفزات التي وضعت بهدف تشجيع مبدأ محبة الذات. هذه المحفزات تتكون من كل مواعيد كلمة الله وتحذيراتها ومشوراتها للبحث عن خيرنا الشخصي والتحذير من السقوط في هاوية البؤس.[١٦]

لكن كيف يرتبط كل هذا بتقديرنا الفائق نحو الله، الذي يشير «إدواردز» إلى ضرورته المطلقة في أية فضيلة حقيقية؟ لأنه بالنسبة للكثير من المؤمنين أصحاب الفكر يبدو السعي وراء السعادة يرتكز حول الذات وليس الله. لكن في حقيقة الأمر يستطيع «إدواردز» أن يساعدنا على رؤية أن محاولة تجاهل هذا السعي تؤدي إلى مركزية أسوأ حول الذات. وهو يزيل الكثير من الضبابية عندما يطرح السؤال التالي: "هل يحق للإنسان أن يحب الله أكثر من نفسه؟" ويجيب عليه كالتالي:

> إن محبة الذات في أقوى معانيها ومحبة الله ليسا أمرين يمكن مقارنتهما الواحد بالآخر؛ لأنهما ليسا متناقضين أو متمايزين، وإنما تتداخل إحداهما في طبيعة الأخرى... إن محبة الذات ليست إلا قدرة

على الاستمتاع أو الابتهاج بأي شيء. ولذا من المؤكد أنه لا يصح أن نقول إن محبتنا لله أسمى من قدرتنا على الابتهاج بأي شيء.[١٧]

لا يمكن أبدًا التقليل من شأن محبة الذات في مقابل محبة الله عندما يتم التعامل مع محبة الذات على كونها محبتنا للسعادة. بل بالحري المحبة لله هي الشكل الذي تتخذه محبة الذات عندما يبدو واضحًا أن الله هو نبع فرحنا الكلي الكفاية. يمسك «نورمان فيرينج» بالمعنى هنا بمهارة عندما يلخص موقف «إدواردز» كالتالي: "إن المحبة اللامبالية لله مستحيلة؛ لأن الرغبة في السعادة جوهرية لكل إرادة أو محبة، والله هو الغاية الأساسية من وراء كل بحث عن السعادة. وبالتالي من المنطقي ألا يقدر المرء أن يتغافل عن مصدر أو أساس كل سعادة."[١٨]

هل "اللامبالاة" تعني فعلاً اللامبالاة؟

هذا أمر هام جدًا؛ لأن «إدواردز» يستخدم كلمة "لا مبالاة" عند حديثه عن المحبة لله.[١٩] وهذه واحدة من ملامح فكر «إدواردز» التي ذكرتها سابقًا على أنها تبدو مناقضة لفكرة المذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله، لكن في واقع الأمر إنها ليست كذلك. بل بالحري نفس الغموض الوارد في مصطلح "لا مبالاة" ينطبق على مصطلح "محبة الذات". فعندما يتحدث «إدواردز» عن محبة لله فإنه يقصد محبة غير مرتكزة على رغبة في عطايا الله بل على رغبة في الله ذاته. وهذا الأمر هامٌ جدًا في فهم علاقة «إدواردز» بالمذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله، وحياة الإيمان بالنعمة المستقبلية.

إن كلمة "اللامبالاة" كما يستخدمها «إدواردز» ليست كلمة مضادة للتلذذ، إنما هي ببساطة وسيلة (ذاعت في القرن الثامن عشر) للتأكيد على وجوب بحثنا عن الفرح في الله ذاته، وليس في الصحة والغنى والرفاهية التي يقدِّمها لنا. إنها كلمة تعمل على حفظ مكانة الله المركزية في الفرح، وليس مناهضة السعي وراء هذا الفرح.

يمكنك أن تدرك تمامًا أنك في رحاب حياة التلذذ بالله عندما ترى وصف «إدواردز» للعبارة المتناقضة ظاهريًا: "السعادة غير المبالية!" هذا الأمر يوضح إلى أي مدى يجب أن نحرص على ألا نقفز إلى استنتاجات عندما نجد مصطلحات لا تشير إلى اللذة في كتابات «إدواردز» وآخرين من المفكرين القدامى. الأفكار الجوهرية التالية ترد في أحد أعمال «إدواردز» بعنوان «العاطفة الدينية»:

كما هو الحال مع محبة القديسين، هكذا الحال مع فرحهم وابتهاجهم

> الروحي: فالأساس الأول لهذا الأمر ليس اهتمامًا أو ميلاً إلى الحصول على مكاسب مادية من الله، بل أنه يشتمل أساسًا على التلذذ الحلو لأذهانهم الذي يختبرونه عند رؤيتهم وتأملهم في الجمال الإلهي المقدس لهذه الأشياء، كما هي في ذاتها. ولا شك أن هذا هو الاختلاف الرئيسي بين فرح المرائي وفرح القديس الحقيقي؛ فالأول يبتهج بذاته التي هي الأساس الأول لبهجته، أمّا الثاني فيبتهج بالله، لأن القديسين الحقيقيين يجعلون أذهانهم في المقام الأول تبتهج وتُسر بالأفكار الجميلة عن طبيعة الأمور الإلهية المجيدة والرائعة.
>
> وهذا هو نبع كل ابتهاجهم، خلاصة وجوهر سرورهم. لكن أشواق المرائين تعتمد على ترتيب آخر؛ فهم أولاً يبتهجون... بأنهم قد حصلوا على كل البركات من الله، ثم على هذا الأساس يبدو بطريقة ما أنه قد صار محبوبًا لديهم.[٢٠]

الاقتباس السابق يضع حدًا نهائيًا للفكرة أن كلمة "اللامبالاة" لدى «إدواردز» تعني ألا نطلب أعمق وأسمى ملذاتنا في الله. بل على العكس من ذلك؛ فالله هو "جوهر سرورنا"، والتأمل فيه يبعث على "التمتع الحلو". وينبغي أن نسعى إلى الاكتفاء بالله ذاته، وليس ببركاته التي ما هي إلا روافد تأتي من النبع الأصلي. إنه اقتباس يؤكد على ضرورة السعي إلى التلذذ بالله والدعوة لحياة الإيمان بالنعمة المستقبلية.

هل علينا أن نكون مستعدين للعنة من أجل مجد الله؟

ربما يكون أفضل دليل على أن محبتنا الفائقة لله لا يمكن أبدًا أن تنفصل عن السعي وراء الاكتفاء بالله هو إجابة «إدواردز» على السؤال عما إذا كان يجب علينا أن نكون مستعدين لأن نصير ملعونين من أجل مجد الله:

> من المستحيل لأي شخص أن يكون مستعدًا بالكامل لأن يكون بائسًا من أجل الله؛ لأن ذلك يفترض أن تكون المحبة لله أعلى من محبة الذات في معناها الأعم والأشمل، والذي يدخل في نطاق طبيعة محبة الله. فإذا كان إنسان مستعدًا لأن يكون بائسًا بالكامل من أجل الله... فإنه لابد أن يكون مستعدًا لأن يُحرم (ليس فقط من امتيازاته الطبيعية، بل أيضًا) مما يعتبر بطريقة غير مباشرة ملكًا له، مثل صلاح الله،

وهذا الافتراض لا يتسق مع ذاته؛ لأن الاستعداد للحرمان من ذلك الخير الأخير يناقض مبدأ محبة الله ذاته؛ والذي يفترض أن هذا الاستعداد ينبع منه. إن المحبة لله إذا سمت فوق أي مبدأ آخر سوف تجعل المرء غير مستعد إطلاقًا لأن يُحرم من ذلك الجزء من سعادته في رؤية الله مباركًا وممجدًا، وكلما زادت محبته لله زاد عدم استعداده لهذا. لذا فإن هذا الافتراض بأن الإنسان يمكن أن يكون مستعدًا بالكامل لأن يكون بائسًا جراء محبته لله إنما هو افتراض لا يتسق مع ذاته. فكلما أحب الإنسان الله، زاد عدم استعداده لأن يُحرم من هذه السعادة (لمجد الله).[٢١]

إن عبارات مثل "الابتهاج بأن يكون الله ممجدًا" إنما هي عبارات معقدة. فمن جهة تتحدث عن أن الله يتبارك عندما يتمجد. وقد يبدو شوقنا لهذا الأمر غيريًا نحو الله، فهو يتبارك من خلال ما يحدث لنا. لكن من جهة أخرى تتحدث العبارة عن: ابتهاجنا بأن يكون الله ممجدًا. وهكذا يبدو جليًا أننا نحن المنتفعين هنا. ففي واقع الأمر كما لاحظت وقلت قبلاً فإن الله يتمجد أكثر من أي شيء آخر فينا عندما نكون مكتفين به أكثر من أي شيء آخر. هذان الهدفان العظيمان ليسا متناقضين: سعادتي ومجد الله. فكلما ابتهجت بأن يتمجد الله، اتضحت أكثر قيمة المجد.[٢٢] والسعي وراء التخلي عن أحدهما يعني إبطال الآخر.

لذا فليس هناك في فكر «إدواردز» ما يُسمى بالتخلي النهائي عن البحث عن السعادة؛ فاللامبالاة تتأكد فقط للحفاظ على مركزية الله كموضوع اكتفائنا. ومحبة الذات تُرفض فقط عندما تكون محبة ضيقة لسعادة لا تضع الله في بؤرة اهتمامها. وبكلمات «نورمان فيرينج»: "إن نوعية محبة الذات التي تُهزم عن طريق الاتحاد بالله هي الأنانية بالتحديد، وليست محبة الذات التي تسعى وراء إيجاد السعادة."[٢٣]

حتى محبة الذات الجيدة هي أمر طبيعي

دعونا ندخل إلى العمق أكثر مع «إدواردز». هل هناك سبب إذًا للحديث عن عيبٍ في محبة الذات إذا ما استخدمت بهذا المعنى الواسع.. أي محبتنا للسعادة التي تسمو حتى تعانق الله؟ نعم، هناك سبب. ويظهر السبب عندما نسأل: "لماذا يضع بعض الناس سعادتهم في الله، بينما لا يفعل آخرون ذلك؟" كانت إجابة «إدواردز» على ذلك هي: معجزة التجديد. والسبب وراء إجابته هذه هو نفس السبب الكامن

وراء كل ما كان يفعله: أن يضع الله. ليس فقط غاية الفضيلة الحقيقية والإيمان الحقيقي، بل أيضًا أساسًا لهما، فهو الأساس والغاية.

لقد كانت معركته ضد التوجهات العلمانية التي رآها تطل برأسها من النظريات الأخلاقية التي شاعت في عصره، وهي نظريات أرجعت كل الفضائل إلى القوى التي يمتلكها الإنسان بطبيعته. رأى «إدواردز» في ذلك تقديرًا ساذجًا للفساد الإنساني وتعديًا على مركزية الله في حياة النفس الأخلاقية. فكيف يمكن للناس إذًا أن يجعلوا في الله سعادتهم الحقيقية؟ (والسؤال بشكل آخر: كيف خُلق الإنسان المتلذذ بالله؟ أو كيف يمكن للمرء أن يصل إلى حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية؟) لاحظ «إدواردز» أن المحبة لله التي تنبع فقط من محبة الذات "لا يمكن أن تكون محبة مفعمة بالنعمة والروحانية... لأن محبة الذات أمر طبيعي تمامًا، وهو يملأ قلوب الشياطين كما الملائكة؛ ولذلك لا يمكن أن ينتج منه شيء روحاني أو معجزي."[٢٤]

وهكذا يمضي في التأكيد على أن أولئك الذين يقولون إن كل محبة لله تنشأ أساسًا من محبة الذات..

> ينبغي عليهم التفكر مليًا، وأن يتساءلوا عن كيفية بلوغ الإنسان إلى رهن سعادته بأن يكون الله ممجدًا وأن يبتهج بصفات الله الكاملة... كيف يمكن لهذه الأمور أن تكون محببة لنفسه حتى أنه يعتبر غاية سعادته هو أن يتمجد الله؟ فإذا ما أحب إنسان الله، وتوحَّد قلبه به فنظر إليه على كونه خيره الأسمى... ستكون نتيجة وثمر ذلك أنه حتى محبة الذات، أو محبة سعادته، سوف تدفعه لأن يشتاق إلى تمجيد الله والابتهاج به.. معنى ذلك أن هذه الممارسة لمحبة الذات لن تكون سابقة لمحبته لله وأن محبته لله تكون ثمرة لها. أمر آخر غير محبة الذات قد يكون سببًا في ذلك، وأقصد به تغييرًا يطرأ على آرائه الذهنية، وتلذذًا قلبيًا يدرك به الجمال والمجد والخير الأسمى في طبيعة الله كما هي.[٢٥]

إذًا «إدواردز» يقول إن محبة الذات وحدها لا يمكن الاعتماد عليها في وجود المحبة الروحية لله؛ لأن قبل سعي النفس وراء السعادة في الله، عليها أن تدرك عظمة الله وتتلذذ بها.. وهذا ما يحدث في التجديد.

> المحبة الإلهية... يمكن تعريفها على أنها استعذاب النفس لسيادة الله

وسمو طبيعته، والميل القلبي لله على كونه الخير الأسمى. فالأمر الأول في المحبة الإلهية والذي منه تنبع كل الأمور المتعلقة به هو البهجة بسمو الطبيعة الإلهية، والتي لا تمتلك النفس الإنسانية منها شيئًا... وما أن تستعذب النفس سمو الطبيعة الإلهية، فإنها دون شك وبصورة تلقائية سوف تميل إلى الله في كل شيء.. سوف تميل لتكون معه وتبتهج به.. سوف تمتلئ بالعرفان من نحوه وتسعد بسعادته.. سوف تميل إلى تمجيده والسعي إلى إتمام إرادته في كل الأمور. لذا فالتأثير الأول لقوة الله في قلب الإنسان بالتجديد هو إعطاء القلب ذوقًا أو شعورًا إلهيًا حتى ما تتلذذ بطعم وحلاوة سمو الطبيعة الإلهية، وهذا بالطبع التأثير المباشر للقوة الإلهية، وهذا كل ما يحتاج أن يعمله روح الله لكيما يخلق كل الميول الصالحة في النفس البشرية.[٢٦]

إن ما يقوله ببساطة هو الآتي: هناك قدرة على تذوق الشيء ينبغي أن تسبق رغبتنا في تذوق حلاوته. بمعنى أن التجديد ينبغي أن يسبق سعي المحبة وراء السعادة التي في الله. لذا يتحدث «إدواردز» عن لزوم إخضاع قوة محبة الذات الطبيعية لهذا التذوق فوق الطبيعي لله:

إن التغيير الذي يطرأ على الإنسان عندما يتجدد ويتقدس ليس أن محبته للسعادة تتناقص، لكن فقط أنها تنضبط في ممارستها وتأثيرها واتجاهاتها وأهدافها. فعندما ينقذ الله نفسًا من حالتها البائسة وينقلها إلى حالة السعادة من خلال التجديد، فإنه يمنحها السعادة التي لم تمتلكها قبلاً (وأقصد بها السعادة في شخص الله)، لكنه في نفس الوقت لا ينزع منها توقعها للسعادة.[٢٧]

وهكذا فالمشكلة مع أمر محبتنا للسعادة ليست أبدًا عظم حجمها، لكن المشكلة الأساسية تكمن في أنها تتدفق في القنوات الخاطئة نحو الأهداف الخاطئة؛[٢٨] لأن طبيعتنا فاسدة وفي احتياج شديد لتجديد الروح القدس.[٢٩] وحتى لا نفكِّر أننا في حديثنا عن المحبة لله قد تنحينا بعيدًا عن حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية، يجب أن نتذكر أن في مناقشة سابقة[٣٠] رأينا أنه بالنسبة لـ «إدواردز»: "المحبة هي الأمر الأساسي في الإيمان المخلِّص، وفي حياته وقوته التي منها تنتج كل التأثيرات العظيمة."[٣١]

كيف نحيا إذًا؟

في النهاية يقودنا هذا إلى المسؤوليات التي تتدفق من خلال تعاليم «إدواردز» وعلاقتها بحياة الإيمان بالنعمة المستقبلية والتلذذ بالله. فما أن يحدث التغيير في قلوبنا من خلال عمل التجديد المعجزي، فإن السعي إلى الاستمتاع بمجد الله يظهر بوضوح أكثر فأكثر على أنه الواجب المسيحي الذي يشبعه كل الإشباع. واللامبالاة تجاه هذا السعي، كما لو كان أمرًا سيئًا، هي في الواقع شر عظيم جدًا.

يُسبى القلب أكثر فأكثر بحقيقة أن الله قد خلق العالم لمجده، وأن هذا المجد ينعكس بصورة أساسية وواضحة في ابتهاجات القديسين. استمعوا لـ «إدواردز» وهو يوضح لنا أعمق جذور حياة التلذذ بالله الكامنة في طبيعة الله ذاته؛ ولاحظ كيف يتوحد شوق الله في أن يتمجد وشوقنا للاكتفاء في خبرة واحدة.

> إن الله ممجد في ذاته من خلال الأسلوبين التاليين: (١) باستعلان ذاته من خلال فكره الكامل، أو في ابنه الذي هو بهاء مجده. (٢) بابتهاجه وفرحه بذاته بتدفق المحبة والبهجة الموجهة لذاته أو في روحه القدوس. وهكذا يمجد الله ذاته من نحو خلائقه أيضًا بطريقتين: (١) باستعلانه... لأذهانهم. (٢) بتواصله مع قلوبهم وفي فرحهم وابتهاجهم بإعلاناته عن ذاته... فالله يتمجد، ليس فقط باستعلان مجده، بل أيضًا بالابتهاج في شخصه (أي الابتهاج بهذا المجد). وعندما يفرح به مَنْ يعاينونه فإن الله يتمجد أكثر جدًا مما لو عاينوه فقط. فمجده حينئذٍ يكون مستوعبًا بالكيان كله: ذهنًا وقلبًا. فالله صنع العالم بحيث يُعلن مجده له فتستقبله الخليقة ذهنًا وقلبًا. إن ذاك الذي يشهد بفكره فقط عن مجد الله لا يمجد الله بنفس قدر تمجيده له إذا ما أدركه بعقله وابتهج به بقلبه.[٣٢]

بكلمات أخرى إن غاية الإنسان العليا هو أن يمجد الله من خلال التلذذ به إلى الأبد– وهذا هو جوهر حياة التلذذ بالله وحياة الإيمان بالنعمة المستقبلية. ليس هناك صراعٌ بين رغبة الله في أن يتمجد ورغبة الإنسان في أن يكتفي؛ فالله يتمجد فينا أكثر كلما ازداد اكتفاؤنا به. ويعبِّر «إدواردز» عن ذلك بقوله:

> إذ يُقدِّر الله، تقديرًا لا نهائيًا، مجده الشخصي المتمثل في معرفة ذاته ومحبتها والفرح بها، فإنه لذلك يُقدِّر استعلان هذه الأمور للخليقة

حتى ما تشترك فيها. ولأنه يُقدِّر ذاته فهو يفرح بأن تكون ذاته موضعًا لإدراك الخليقة ومحبتها وفرحها. وهكذا فإن احترام الله لخير الخليقة وتقديره لذاته لا يتناقضان بل يتحدان معًا، فما تسعى إليه الخليقة من سعادة إنما هي سعادة في الاتحاد بذاته.(٣٣)

تعظيم الاكتفاء الروحي يعلن عظمة الله

نخلص من ذلك إلى أنه من المستحيل لأي شخص أن يسعى إلى السعادة بالإفراط في الحماس والغيرة والقوة.(٣٤) إن هذا السعي ليس خطية. فالخطية هي السعي وراء السعادة في أشياء زائلة (٢: ١٢)، أو السعي وراءها في الاتجاه الصحيح لكن بأشواق باردة (رؤ ٣: ١٦). ومن جهة أخرى فالفضيلة هي أن نفعل ما نفعل بكل قوتنا.(٣٥) في سعينا الحثيث وراء التلذذ بكل ما يمثله الله لنا في المسيح. لذلك فغرس التذوق الروحي إنما هي مسؤولية عظيمة مُلقاة على عاتق كل القديسين: "على البشر أن ينغمسوا في هذا التذوق الروحي في سبيل الحصول على الشبع الروحي بكل قوتهم."(٣٦)

لقد كان هدف هذا الكتاب هو التأصيل الكتابي العميق لرؤية الله والحياة وفق ما يُسمى "حياة الإيمان بالنعمة المستقبلية." وقد زادت متعتي من خلال تأصيل ذلك بالرجوع إلى واحد من أعظم اللاهوتيين في تاريخ الكنيسة. ولا يهمني كثيرًا أن يُسمي الناس هذه الرؤية بمصطلح "المذهب المسيحي لحياة التلذذ بالله" أو بمصطلح آخر؛ فهذا مصطلح سوف يختفي مثل البخار، لكن صلاتي هي أن الحق الموجود فيه يتدفق وينتصر. قد يعبِّر واحد من الخدام عن هذا الأمر في جيل آخر بأسلوب مختلف، وربما بأسلوب أفضل. لكنني مدعو لأعبِّر عن ذلك بطريقتي. وشوقي هو أن أؤكد على سيادة الله في كل أوجه الحياة. واكتشافي هو أن الله سيدٌ ليس فقط حيث يخدمه الناس من خلال شعورهم بالمسؤولية، بل وحيث يتذوقه الناس بابتهاج. إن دعوة المرنم: «تلذذ بالرب» ليست وصية هامشية، إنها دعوة ثورية للبحث عن شبعك الكامل في كل ما يعد الله بأن يكونه لك في المسيح. إنها دعوة للحياة في ظل الحرية المبهجة والمحبة المضحية اللتين تنبعان من الإيمان بالنعمة المستقبلية.. عندئذٍ يتحقق هدف الله الذي اختارنا في المسيح لكي نعيش «لمدح مجده».

الحواشي

المقدمة رقم (١)

(1) Alister McGrath, *Spirituality in An Age of Change: Rediscovering the Spirit of the Reformers* (Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1994), P.9.

(٢) المرجع السابق صفحة ٩، ١٢.

(٣) المرجع السابق صفحة ١٢.

(4) Thomas Chalmers, "The Expulsive Power of a New Affection," in *The Protestant Pulpit*, ed. by Andrew Watterson Blackwood, (Grand Rapids: Baker Book House, 1947), p. 50.

(5) J. C. Ryle, *Holiness: Its Nature, Hindrances, Difficulties, and Roots* (Grand Rapids: Baker Book House, 1979, orig., 1883), p. 382.

(6) Andrew Murray, *Abide in Me* (New York: Grosset and Dunlap, n. d.), pp. vi-vii.

(7) Ed. by William Goold, *The Works of John Owen*, Vol. 10, (Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1965, orig. 1850-53), p. 149.

المقدمة رقم (٢)

(١) السبب في أنني لا أستخدم لفظة "وحيد" في هذه العبارة هو أنها لا تفي بالمعنى إذا كانت تشير إلى نفس فكرة أن التبرير يكون بالإيمان وحده. فالتبرير بالإيمان وحده بمعنى أنه ليست هنالك أية أعمال أخرى تقوم بها الروح أو الجسد يمكنها أن تكون قناة لغفران الله. وأيا كانت الإعدادات التي يقوم بها الروح القدس تمهيدًا لأن يصل القلب إلى الإيمان، وأيًا كان ما يصاحب لحظة الإيمان من قراءة في الكتاب المقدس أو صلاة أو استماع لعظات أو بكاء، أو ما يتبعها، فإنها ليست أمورًا توحد الروح مع نعمة الله المبررة. بالإضافة إلى ذلك، فالتبرير حدث يتم في نقطة من الزمن، وليس أمرًا ممتدًا كما التقديس. وليس ذلك فقط، فالتبرير ليس أمرًا يتم على درجات متعاقبة، لكنه حدث يتم مرة وإلى الأبد به يُحسب البر لنا لأجل خاطر المسيح. فهو لا يصل إلينا على مراحل كما في أمر التقديس. إلا أنه، عندما يأتي الأمر إلى التقديس، فبينما يمثل الإيمان دومًا العنصر الأساسي في دعم قوة النعمة المغيرة، فإن هناك أعمالاً أخرى يأتي بها الروح يوصي بها الكتاب المقدس كوسيلة لاختبار قوة النعمة المقدسة المتدفقة، مع أنني أميل للقول بأن كل «وسائل النعمة» هذه تتم ممارستها بالإيمان (ek pisteōs) وليس بالأعمال (ex ergōn)، كما تخبرنا رومية ٩: ٣٢. وهكذا فالإيمان هو وسيط البشر الحاسم الذي يربطهم بنعمة الله المقدسة.

(2) Quoted from Philip Schaff, ed., *The Creeds of Christendom*, Vol. 3, (Grand Rapids: Baker Book House, 1977, orig. 1877), pp. 10-11, 24-25.

(٣) المرجع السابق صفحة ٢١٨، ترجمتي الخاصة من الأصل الألماني.

(٤) المرجع السابق صفحة ٤٩٤.

(٥) المرجع السابق صفحة ٦٢٦.

(6) Seeamore extended list of witnesses in Robert L. Dabney, "The Moral Effects of a Free Justification," in *Discussions: Evangelical and Theological*, Vol. 1, (London: The Banner of Truth Trust, 1967, orig. 1890), pp. 73-106.

(7) James Buchanan, *The Doctrine of Justification* (Edinburgh: The Banner of Truth Trust,

1961, orig. 1867), p. 357.

(٨) تذكر أنه في هذا الكتاب، تعتبر عبارة «الإيمان المبرر» تلخيصًا لعبارة: "الإيمان الذي من خلاله وحده تقوم النعمة بالتبرير."

(9) Jonathan Edwards, "Concerning the Perseverance of the Saints," in The *Works of Jonathan Edwards*, Vol. 2, (Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1976, orig. 1834), p.596.

(10) John Calvin, *Sermons on Ephesians* (Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1973, orig., 1562), p. 290.

(11) Ernest Reisinger, *Lord and Christ* (Phillipsburg, NJ: P&R Publishing Co., 1994), p. 45.

الفصل الأول

(١) انظر الفصول الثاني عشر، والسادس عشر، والعشرين.

(٢) انظر الفصلين الرابع عشر والخامس عشر لمتابعة المناقشة المفصلة عن علاقة الإيمان بالنعمة المستقبلية بمخافة الله والرجاء به والاحتماء فيه وانتظاره والحفاظ على عهده.

(٣) أسرد القصة بأكملها في الفصل الثالث.

(٤) لا يتعارض ذلك مع تحذيرات الرسول يعقوب (يع ٥: ١٢) والرب يسوع (مت ٥: ٣٣- ٣٧) حيث التحذير بعدم القسم. الأقسام في هذه الأعداد تُعد محاولات لتدعيم صدق كلامك باستدعاء حقيقة أخرى لا يمكنك التحكم فيها لتشهد على صدقك، أما النذر ببساطة فهو وعد بالحفاظ على تنفيذ كلمتك.

الفصل الثاني

(1) Evelyn Miranda-Feliciano, *Filipino Values and Our Christian Faith*, (Manila: OMF Lit. 1990), p. 70.

(٢) المرجع السابق صفحة ٧٠.

(٣) المرجع السابق صفحة ٧٢.

(4) Blanchard, Michael Kelly, "Be Ye Glad," Copyright 1980 Paragon Music Corporation (ASCAP) ARR. UBP Of Benson Music Group, Inc. (365 Great Circle Road, Nashville, TN). Diadem Sky/ Gotz Music (Admin By Diadem Music, Inc. Nashville, TN).

(5) Andrew Murray, *Abide in Christ* (New York: Grosset and Dunlap, n. d.), pp. 17-18.

(٦) المرجع السابق صفحة ٣٤.

الفصل الثالث

(١) أدين بالفضل في فكرة الفصول الخاصة بـ "تطبيقات النعمة المطهرة" لدانيال فولر. ففي كتابه القوي: «وحدة الكتاب المقدس»- *Unity of the Bible*, Grand Rapids: Zondervan Publishing House,] 1992] يوجد قسم بعنوان: "محاربة عشرة توجهات لعدم الإيمان". وكان مفهوم الحياة المسيحية في هذا الفصل موجعًا لي في معالجتي الخاصة بكيفية الصراع مع الخطايا الناتجة عن افتقاد الإيمان بالنعمة المستقبلية.

الفصل الرابع

(١) رو ١: ٧؛ ١٦: ٢٠؛ ١كو ١: ٣؛ ١٦: ٢٣؛ ٢كو ١: ٢؛ ١٣: ١٤؛ غل ١: ٣؛ ٦: ١٨؛ أف ١: ٢؛ ٦: ٢٤؛

في ١: ٢؛ ٤: ٢٣؛ كو ١: ٢: ٤: ١٨؛ ١تس ١: ١: ٥: ٢٨؛ ٢تس ١: ٢: ٣: ١٨؛ ١تي ١: ٢: ٦: ٢١؛ ٢تي ١: ٢؛ ٤: ٢٢؛ تي ١: ٤: ٣: ١٥؛ فل ٣، ٢٥.

(٢) بعيدًا عن تحية النعمة، يعبر الرسول بولس عن اشتياقه بأن يكون «إله السلام» مع قارئيه (رو ١٥: ٣٣؛ ٢كو ١٣: ١١؛ في ٤: ٩؛ ٢تس ٣: ١٦). أف ٦: ٢٣ تحية تحمل بركة السلام بعيدًا عن بركة النعمة. لكن يبقى جديرًا بالملاحظة أن جميع تحيات النعمة في نهاية الرسائل لا تحوي ذكرًا للسلام كما هو الحال في بدايتها.

(٣) جميع ملاحظاتي ترتكن إلى النص اليوناني الأصلي لرسائل بولس. لكن يمكنك التأكد من صحة هذه الاستنتاجات من خلال اللجوء إلى ترجمة كتابية جيدة. في النص الأصلي لا يوجد فعل الكينونة (النعمة "تكون" معكم). فالعبارة ببساطة هي "النعمة لكم" و"النعمة معكم".

الفصل الخامس

(١) هذه كلها تمايزات شائعة، لكني أخذتها بطريقة مباشرة تقريبًا من: J. L. Dagg, *Manual of Theology and Church Order, Part One* (Harrisonburg, VA: Gano Books, Sprinkle Publications, 1982, orig. 1857), p. 76.

(2) John Sailhamer, *The Pentateuch as Narrative* (Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1992), p. 101.

(٣) المرجع السابق صفحة ١٠٣.

(٤) نماذج من النعمة الموجهة إلى البائسين: مت ٩: ٢٧؛ ١٥: ٢٢؛ مر ٥: ١٩؛ لو ١٠: ٣٧؛ ١٦: ٢٤. ونماذج من النعمة الموجهة إلى الخطية والحاجة للغفران: رو ٥: ٢٠؛ ٦: ١؛ ١١: ٦؛ أف ٢: ٨؛ تي ٣: ٧.

(٥) من أجل تغطية شاملة لموضوع النعمة المشروطة وغير المستحقة انظر الفصول ١٨- ٢٠.

(6) John Calvin, *Institutes of the Christian Religion*, Vol. 1, (Philadelphia: The Westminister Press, 1960), p. 306.

(7) For a detailed support of this interpretation see John Piper, *The Justification of God: An Exegetical and Theological Study of Romans 9:1-23* 2nd ed. (Grand Rapids: Baker Book House, 1993), pp. 75-89.

(٨) المرجع السابق صفحة ٨٨-٨٩.

(٩) في ترجمة أخرى: "لأن أجرة من يعمل لا تُعد هبة بل استحقاقًا".

الفصل السادس

(1) Ralph Georgy. "If God Is Dead, Then the Late 20th Century Buried Him," Minneapolis *Star Tribune*, September 12, 1994.

(2) Quoted from Stephen Charnock, in *A Puritan Golden Treasure* (Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1977), p. 223.

(3) G. K. Chesterton, *Orthodoxy* (Garden City. NY: Image Books, Doubleday and Company, 1959, orig. 1924), p. 31.

(4) A quote from *Mere Christianity* cited in *A Mind Awake: An Anthology of C. S. Lewis*, Clyde Kilby, ed., (New York: Harcourt, Brace and World, Inc., 1968), p. 115.

(5) C. S. Lewis, *Letters of C. S. Lewis*, ed., W. H. Lewis, (New York: Harcourt, Brace and World. Inc., 1966), p. 256.

(6) John Piper, *Desiring God: Meditations of Christian Hedonist* (Portland: Multnomah Press, 1986), p. 222.

(٧) فيما يخص معنى اللذة المسيحية، انظر الفصل الأخير من الكتاب.

الفصل الثامن

(1) John Flavel, *The Works of John Flavel* (Edinburgh: Banner of Truth Trust, reprint, 1988) p. 418.

الفصل التاسع

(1) For a fuller discussion of this truth see John Piper, *The Pleasures of God* (Portland: Multnomah Press, 1991), Chapter Five, especially pp. 138- 142.

(٢) تعرف على برهان آخر على هذا الأمر في الفصل الخامس، حيث يشرح الرسول بولس حرية النعمة بأن وضح أنها تقيم الأموات روحيًا (أف ٢: ٥).

(٣) انظر رو ١١: ١ و٢؛ تك ١٨: ١٧– ١٩؛ هو ١٣: ٤، ٥؛ مز ١: ٦؛ مت ٧: ٢٣؛ ١كو ٨: ٣؛ غل ٤: ٨، ٩؛ ٢تي ٢: ١٦– ١٩. كذلك انظر Piper, *the Pleasures of God*, pp. 139- 141.

الفصل العاشر

(١) أعرف أن هذا التعريف لم يكن شائعًا في لغة علم النفس. كان التعريف الشائع في دوائر العلاج النفسي هو التالي: "بينما يُعد الإحساس بالذنب لدى المرء شعورًا مؤلمًا بالأسف والمسؤولية تجاه أفعاله الشخصية، فإن الخزي يعد شعورًا مؤلمًا في داخل المرء من نحو ذاته" [مقتبس من: *Facing Shame* by M. Fossum and M. Mason, in John Bradshaw, *Healing the shame that Binds you,* (Deerfield Beach, Florida: Health Communications, Inc., 1988), p.17.] وأنا لا أتفق مع هذا التعريف، أولاً لأنه ليس التعريف الذي يستخدمه الكتاب المقدس. لذا فاستخدامه يزيد من صعوبة فهم الكلمة وتطبيقها. وثانيًا أنا لا أستخدمه لأنه يتلازم مع تقدير زائد عن الحد للوضع البشري مما يقلل من شأن العقيدة الكتابية عن الخطية الأصلية. (Bradshaw,p. 65)، ويجعل الأخلاقيات المطلقة نسبية (Bradshaw, p. 199)، ويرفض الشروط الكتابية للمحبة (Bradshaw, p. 120)، ويحبس الله في إطار من الموافقة الدائمة غير المشروطة التي لا تقول أبدًا كلمة: يجب أو ينبغي.

(٢) في بعض الأحيان نتحدث عن كل خطايانا، الماضية والحاضرة والمستقبلة، على كونها قد غُفرت جميعًا في الماضي بما أنها قد «أدينت» في موت الرب يسوع (رو ٨: ٣) وتمت تغطيتها بدم المسيح (عب ٩: ١٤؛ ١٠: ١٢) وغفرت بدمه (أف ١: ٧). وفي أحيان أخرى نتحدث عن الله الذي يغفر لنا دومًا عندما نعترف بخطايانا (١يو ١: ٩) ونسأل منه المغفرة (مت ٦: ١٢) على أساس الكفارة الكاملة التي صنعها لنا في المسيح.

الفصل الحادي عشر

(١) للاطلاع على الجهد الذي بذلته لشرح سيادة الله في ضوء الخطية والبؤس راجع: Piper, *The Pleasures of God*, Chapter Two, "God's Pleasure in All That He Does," (Portland: Multnomah Press, 1991), pp. 47- 78.

(٢) كما رأينا للتو، فإن سفر التثنية يذكر "المحبة" كرابطة مفقودة في قلب الشعب. وسوف نرى في الفصلين السادس عشر والثامن عشر كيف أن المحبة لله والثقة فيه حقيقتان متشابكتان ومتداخلتان. وسوف نقوم بتعريف قلب الإيمان على كونه الاكتفاء بكل ما يمثله الله لنا في يسوع. لكن معنى هذا أن المحبة لله تكمن في قلب الإيمان بما أن المحبة تعني الابتهاج بكينونة الله.

(٣) يكتنف الغموض بعض الترجمات؛ لأن الأصل اليوناني صعب. قد تعني العبارة أن غير المؤمنين لم

يكونوا متحدين مع أناس مثل موسى وكالب ويشوع في إيمانهم. أو قد يكون المعنى أن كلمة الله لم تتحد بهم بالإيمان. وفي كلتا الحالتين هنالك نقطة واضحة: السبب في أن كلمة الله لم تنتج طاعة هو أن الإيمان كان غائبًا عن أولئك الذين سمعوا. ومن الواضح كذلك أن المطلب الإلهي كان أن تتقابل الكلمة مع الإيمان.

(٤) تك ١٥: ٦، راجع الفصل الرابع عشر- الحاشية رقم ٤.

(٥) انظر الفصل الرابع عشر، هامش رقم ٤.

(٦) بحسب السياق لا تعني كلمات إشعياء ٦٤: ٦ أن كل أعمال البر التي يقوم بها شعب الله مرفوضة من جانبه. يشير إشعياء هنا إلى أناس تتصف أعمال برهم في حقيقة الأمر بالمراءاة؛ لذا فهي لم تعد أعمالاً بارة. لكن في العبارة السابقة مباشرة يخاطب إشعياء الله قائلاً: "تُلاقي الفرح الصانع البر".

(٧) "لكون الأعمال الصالحة نتائج وبراهين على الإيمان وبالتالي فهي العلامات على التبرير، فإنها لا يمكن أن تمثل أي جزء من الأساس الذي يبنى عليه الإيمان أو الذي يستقر عليه التبرير." Buchanan, *The Doctrine of Justification*, p. 358.

الفصل الثاني عشر

(١) وردت كلمة "entole" اليونانية التي تُترجم إلى "وصية" ٦٧ مرة في العهد الجديد.

(2) Jonathan Edwards, "Concerning Faith: in *The Works of Jonathan Edwards*, 2 (Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1974), p. 586.

في صفحة ٥٨٨ من هذا الكتاب يوضح إدواردز الأمر بقوله: "إن المحبة تنتمي إلى جوهر الإيمان المخلص" بسبب الطريقة التي يقتبس بها الرسول بولس إشعياء ٦٤: ٤ في ١كورنثوس ٢: ٩ حيث تحل المحبة لله مكان انتظار الله، والذي كان التعبير المستخدم في العهد القديم للإشارة إلى "الإيمان بالله" أو "الثقة بالله".

(٣) انظر الفصلين الخامس عشر والسادس عشر.

(4) Ernest Reisinger, *Lord and Christ: The Implications of Lordship for Faith and Life* (Philipsburg, NJ: P&R Publishing, 1994), p. 45.

(5) Charles Spurgeon, *Twelve Sermons on Prayer* (Grand Rapids: Baker Book House, 1971), p. 115.

(6) Charles Spurgeon, *An All Round Ministry* (Edinburgh: Banner of Truth Trust, 1969, orig. 1900) p. 343.

(7) C. E. B. Cranfield, *The Epistle to the Romans*, Vol. 1, (Edinburgh: T. & T. Clark Limited, 1975), p. 384.

الفصل الثالث عشر

(1) Karl Olsson , *Passion* (New York: Harper and Row Publishers, 1963) , pp. 116- 117 .

(2) Richard Wurmbrand, *One Hundred Prison Meditations* (Middlebury, IN: Living Sacrifice Books, 1982) pp. 6-7.

(3) In fact I have a book in mind – Steven Halliday's, *No Night Too Dark: How God Turns Defeat into Glorious Triumph* (Sisters, OR: Multnomah Books, Quest Publishers, Inc.,1993).

(4) See Roger Nicole, "B. B. Warfield and the Calvinist Revival," in John D. Woodbridge, ed., *Great Leaders of the Christian Church* (Chicago: Moody Press, 1988),p. 344 .

(5) B. B. Warfield, *Faith and Life* (Edinburgh; The Banner of Truth Trust, 1974, orig. 1914), p.204.

(6) H. C. G. Moule, *Charles Simeon* (London: The InterVarsity Fellowship, 1948, orig.1892), p. 39.

(٧) المرجع السابق صفحة ١٧٢.

الفصل الرابع عشر

(١) انظر الفصل الرابع، الحاشية رقم ١.

(٢) منذ مئات السنين تحدث «جيمس بوكانان» عن العلاقة بين الإيمان والنعمة على كونها "قناة". قد يكون لذلك تلميحات قد تضلل البعض اليوم. لكنها ليست كلمة جديدة في هذا المضمار. كان «بوكانان» يتحدث بشأن التبرير وبر المسيح المحسوب للإنسان فيقول: "الإيمان في ذاته ليس هو التبرير الذي نتبرر به، لكنه فقط القناة التي من خلالها نحصل على بر آخر." (James Buchanan, *The Doctrine of Justification*, p. 375).

(٣) أعتقد أن «هنري ألفورد» كان محقًا عندما قال: "كيف يوصف الخطر بصورة عامة؟ [كل عمل شرير]: والمفهوم هنا أن الوقوع في مثل هذا الخطر قد يستبعده من الاستمرار في سعيه نحو ملكوت المسيح السماوي. إذًا فقد كان ذلك عملاً شريرًا تم إنقاذه من براثنه في هذه المناسبة. أي عمل شرير كان ذلك؟ الوقوع في قبضة المجرب القوية، والاستسلام في ضعفه وخيانة الإنجيل الذي كان مرسلاً للشهادة به. فالأسد إذًا هو الشيطان". (Henry Alford, *The Greek New Testament*, Vol. 3, (Chicago: Moody Press, 1958, p. 405)

(٤) في رأيي أفضل مناقشة موجزة لمعنى عبارة: "لذلك أيضًا حسب له [إيمانه] برًا" موجودة في تفسير «جون موراي» لرسالة رومية حيث يورد تسعة أدلة على أن هذه العبارة لا تعني أن الإيمان ذاته هو أساس اعتبارنا أبرارًا في نظر الله. فالإيمان المحسوب لنا في نظر إله قدوس هو "بر الله" (رو ١٠: ٣) الذي هو "بالإيمان" (رو ١٠: ٦). فنحن نؤمن لهذا البر بنفس الطريقة التي نعترف بها للخلاص (رو ١٠: ١٠)، رغم أن الاعتراف لا يؤسس الخلاص لكنه يقود إليه، تمامًا كما أن الإيمان لا يؤسس تبريرنا، بل يقودنا إليه. في رومية ٣: ٢٢ يُشرح التبرير على كونه إعلان "بر الله بالإيمان بيسوع المسيح، إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون". مرة أخرى الإيمان هو وسيلة الحصول على بر الله المبرر لنا. يقول ٢كورنثوس ٥: ٢١ "لأنه [الله] جعل [المسيح] الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه". وفي فيلبي ٣: ٩ يقول الرسول بولس: «وأوجد فيه [في المسيح]، وليس لي بري الذي من الناموس، بل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان.» وتقول ١كورنثوس ١: ٣٠ إن المسيح صار برًا لنا. وتتحدث رومية ٥: ١٩ عن أن الله قد أسس برنا على بر طاعة المسيح بشكل يشابه كوننا خطاة من خلال معصية آدم. أضف إلى ذلك أن سياق رومية ٤: ٧، ٨ (الذي يشير إلى مزمور ٣٢) يقترح أن البر الذي تتحدث عنه رومية ٤: ٣ يتضمن التغطية الكاملة لخطايا من يحصل عليه. لا يتماشى ذلك بسهولة مع القول بأن الله يتعامل مع إيماننا ببساطة على كونه برنا. الفكرة الرئيسية في جميع هذه النصوص وكذلك الاعتبارات السياقية لرومية ٤: ٣- ٨ هي أن الإيمان الذي يحسب برًا يعني في غالب الأمر أن الله يعتبر الإيمان الرابطة التي لا يمكن الاستغناء عنها مع هبة البر التي يمنحها، بره الشخصي. على سبيل المثال، قد أقول لابني أن عليه تنظيف غرفته وإلا فإنه لن يذهب إلى مباراة الكرة في مساء اليوم. فلم يخطط وقته جيدًا وغادر إلى المدرسة دون القيام بالمهمة. وأكتشف أنا الأمر فأقوم بتنظيف الغرفة بنفسي. ويعود ابني إلى المنزل ويكتشف ما فعله ويشعر بالأسى فيعتذر عما بدر منه ويبدي استعداده لتلقي العقاب. عندئذ أقول له: "سوف أعتبر اعتذارك

على كونه غرفة نظيفة". ما أعنيه بذلك ليس أن الاعتذار غرفة نظيفة، ولا أنه قام بالفعل بتنظيف غرفته لأنني أنا الذي فعلت ذلك. لقد كان ذلك نعمة خالصة. كل ما أعنيه هو: أن في أسلوب تقديري للأمر، يربطه الإيمان بالبركة المهداة للغرفة النظيفة. فالغرفة النظيفة هي غرفته. وأنا أحسبها كذلك "باعتذاره". بيد أن القول: "أحسب اعتذارك على كونه غرفة نظيفة" يعتبر استخدامًا مقبولاً للغة.
[John Murray, *The Epistle to the Romans*, 1, Appendix A, Grand Rapids: Wm B. Eerdmans Pub. co., 1959, pp. 353- 359.]

(5) James H. Taylor, "You Never Ask for Money?" in: *When God Provides* (Singapore: OMF Books, 1986), p. 6.

(٦) المرجع السابق صفحة ٦.

(٧) المرجع السابق صفحة ٧.

(٨) المرجع السابق صفحة ٥.

(٩) انظر الفصل الرابع.

(١٠) قد يفضل البعض أن يكونوا أكثر تحديدًا ويقولوا أن التبرير هو «سلوك» إلهي بينما التقديس "عمل" إلهي. على سبيل المثال يقول أ. أ. هودج: "التبرير سلوك إلهي يعلن أنه، فيما يخص هذا الشخص، فإن الناموس ليست له مطالبات عقابية. وأنه قد تم إيفاء كل مطالبه في عهد الخلاص... أما التقديس فهو ليس سلوكًا بل عملاً لنعمة الله، لذا فهو يدعم ويُكمِّل ويواصل العمل الذي بدأه قبلاً [في التجديد]". *Evangelical Theology*, Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1976, orig. 1890, pp.) 295-296). وقدم «ليوناردوس ريسينيوس» بتقديم التمييز البروتستانتي التقليدي بين التبرير والتقديس كالتالي: (١) التبرير سلوك قضائي، أما التقديس فهو سلوك حقيقي ملموس؛ (٢) التبرير في جزء كبير منه يحدث خارج الإنسان في كلمة الله وفي المسيح، أما التقديس فيحدث داخل الإنسان؛ (٣) لا يحتوي التبرير أكثر من تغير في الأخلاق والموقف، أما التقديس فيعني خليقة جديدة حقيقية؛ (٤) التبرير يحدث مرة واحدة وإلى الأبد، أما التقديس فيحدث تدريجيًا. (Quoted in Heinrich Heppe, *Reformed Dogmatics*, ed. Ernst Bizer, Grand Rapids: Baker Book House, 1978, orig. (.1861, p. 566

(11) See Piper, *The Pleasures of God*, Chapter Four, pp. 101- 122; and *Desiring God*, Appendix One, pp. 227- 235.

(12) Charles Spurgeon, *An All-Round Minister* (Edinburgh: Banner of Truth Trust, 1960, orig., 1900), p. 233.

الفصل الخامس عشر

(1) Quoted in *Treatise Concerning the Religious Affection, in The Works of Jonathan Edwards*, Vol. 2, (New Haven: Yale University Press, 1959), p. 174.

(٢) المرجع السابق صفحة ١٧١.

(٣) المرجع السابق صفحة ١٧٧.

(٤) المرجع السابق صفحة ١٧٠.

(5) Charles Hodge, *The Way of Life*, ed. Mark Noll, (New York: Paulist Press, 1987), p. 31.

(٦) المرجع السابق صفحة ٤٣.

(٧) المرجع السابق صفحة ١٥٤.

(٨) المرجع السابق صفحة ١٥٦.

(٩) منذ مئة سنة فكر «تشارلز هودج» في هذه الأمور، وتحقق «جوناثان إدواردز» من أعماق الإيمان الحقيقي في صراعه مع الكثير من المظاهر الدينية المصطنعة أثناء أيام النهضة الكبرى في نيو إنجلاند. وكان نص ٢كورنثوس ٤: ٤- ٦ مركزيًا أيضًا في إدراك «إدواردز» للإيمان المخلص. وقال عن هذا النص: "لا شيء يمكن أن يكون أكثر وضوحًا أكثر من إيمان الإنجيل المخلص الذي يتحدث عنه الرسول هنا على كونه ينبع من الذهن الذي استنار ليعاين مجد الله في الأمور التي تبينه." *Dissertation Concerning the Religious Affections, in The Works of Jonathan Edwards,* Vol. 1, (Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1974), p. 290

وقد آمن إدواردز بأن الإيمان المخلص ينبغي أن يكون منطقيًا وروحيًا: "أقصد بالاقتناع العقلي ذلك الاقتناع المؤسس على البرهان الحقيقي، أو على المنطق الجيد". من أين يأتي هذا البرهان؟ "لا يذهب إنجيل الله المبارك بعيدًا ليبرهن على صحته، فهو يملك برهانه الأعلى والأقوى في ذاته". على وجه خاص "يصل الذهن إلى حق الإنجيل في خطوة واحدة، وهذا هو مجده الإلهي... وما لم يصل البشر إلى قناعة عقلية وطيدة واقتناع بحق الإنجيل... من خلال رؤية مجده، فمن المستحيل أن أولئك الأميين وغير الواعين بالتاريخ يمكنهم أن يصلوا إلى أي اقتناع واضح وفعال بالأمر برمته" (ص ٢٩٢).

وهكذا، كما في وجهة نظر هودج: "ليس مطلوبًا فقط أن... يكون الإيمان منطقيًا، لكن أن يكون أيضًا إيمانًا أو اقتناعًا روحانيًا". فليست كل القناعات العقلية تعتبر قناعات مُخلصة أصيلة، "فبعض البشر غير المؤمنين يقتنعون تمامًا برأيهم في المسيحية من خلال الأدلة أو الحجج العقلية التي تساق برهانًا عليها" ويذكر، على سبيل المثال، يهوذا وآخرين ممن سمعوا يسوع (يو ٢: ٢٣- ٢٥) وسيمون الساحر (أع ٨: ١٣، ٢٣). فالإيمان الحقيقي ينبغي أن يكون روحانيًا وعقليًا في آن معًا. "فالاقتناع الروحي بحق الإنجيل، إنما هو اقتناع ينبع من امتلاك إدراك روحي" (ص ٢٩٠). هذا الإدراك الروحي يحتوي على شعور وتذوق للألوهية والسمو والجمال في هذه الأمور. "إن ذاك الذي يميز حلاوة العسل يعرف عنه أكثر بكثير من الذي نظر إليه فقط ولمسه". وهكذا "فالفهم الروحي يكمن أساسًا في هذا التذوق لجمال الأمور الإلهية الأخلاقية" (ص ٢٨٣).

(10) Jonathan Edwards, *The Life of David Brainerd*, ed. Norman Pettit, *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. 7, (New Haven: Yale University Press, 1985, orig. 1749), p. 456.

(١١) المرجع السابق صفحة ٤٥٦.

(١٢) المرجع السابق صفحة ٤١٢.

(١٣) المرجع السابق صفحة ١٥٨.

(١٤) المرجع السابق صفحة ١٥٨.

(١٥) أشير إلى هذا التعريف في كتابي «الاشتياق إلى الله» ص ٥٣؛ ويتضح أكثر في كتابي «المباهج الإلهية» ص ٢٥٤، ٢٩٢. وقد سررت عندما قرأت نفس التعريف في كتاب «چون ماك آثر» الممتاز: "الإيمان يعمل" (Dallas: Word Publishing Co., 1993). يقول: "لاحظ أننا قد وصلنا إلى ذات التعريف الذي يقدمه قاموس أكسفورد لكلمة الإيمان: الإيمان يكتفي بالمسيح" ص ٤٠. انظر كذلك صفحات ٣٠، ٣٩، ٥٢. ويذكر كإثبات لذلك يوحنا ٦: ٣٥، والذي سوف نناقشه في الفصل التالي. وعلى نفس المنوال يسوق «إرنست ريزينجر» الملاحظة بشأن الإيمان المخلص: "بيد أن هنالك أمرًا واحدًا مشتركًا بين جميع من يملكون إيمانًا مخلصًا حقيقيًا"، وأعني به الاكتفاء القلبي بخطة الله الخلاصية بالمسيح [متضمنة بالطبع الشركة مع المسيح نفسه]. عندما يبتهج المرء بأسلوب الله في إرضاء عدله من خلال شخص المسيح وعمله، وعندما تقبل الروح والقلب كلتاهما تلك الخطة، فإن الإيمان يكون عندئذ للخلاص" (*Lord and Christ: The Implications of Lordship for Faith and Life*, Phillipsburg: NJ: P& R Publishhing, 1994, p. 46.)

(١٦) ارجع إلى الدعم المقدم لهذه الفكرة من «جوناثان إدواردز» وتفسيرنا لما جاء في ١يوحنا ٥: ١- ٥ في الفصل الثاني عشر- الحاشية رقم ٢. يناقش إدواردز أن المحبة "هي جزء من جوهر الإيمان المخلّص."

(17) Daniel Fuller, *The Unity of the Bible* (Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1992), p. 272.

الفصل السادس عشر

(1) Merrill Tenney, *John: The Gospel of Belief* (Grand Rapids; William B. Eerdman's Publishing Co.,1948).

(2) C. K. Barrett, *The Gospel According to John* (London: S.P.C.K., 1960), p. 168.

(3) Leon Morris, *The Gospel According to John* (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Pub. Co., 1971), p. 206.

(4) Barrett, *The Gospel According to John*, p. 287.

(5) Morris, *The Gospel According to John*, p. 455.

(٦) في بعض الأحيان يأتي الاعتراض بأن الاجتذاب ليس فعالاً بل فقط موحيًا، إذ يقول الرب يسوع في يوحنا ١٢: ٣٢ «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع». يقول المعترضون إنه إذا اجتذب "الجميع" إذًا فهذا الاجتذاب لا يكون بالحقيقة العامل الأساسي في إقبالهم، إذ أن الكثيرين لا يقبلون. هنالك معضلتان مع هذا الاعتراض. الأولى هي أن "جميع الناس" لا تعبر عن المعنى الحقيقي. فليست هناك كلمة "ناس" في الآية. فالآية تقول ببساطة "أجذب الكلَّ لي". والأقرب هو أن تشير كلمة "الكل/ الجميع" إلى خاصته التي، بحسب يوحنا ١٠: ٣، يدعوها وتتبعه. في يوحنا ١٠: ١٦ يقول الرب يسوع: «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن آتي بتلك أيضًا فتسمع صوتي.» الكلمات "ينبغي أن آتي بتلك" تشبه عبارة "أجذب الجميع" في يوحنا ١٢: ٣٢. أما المعضلة الثانية في القول بأن الاجتذاب في يوحنا ٦: ٤٤ ليس فعالاً هو أن نفس هذا الاجتذاب يذكر مرة أخرى مع نهاية الأصحاح ٦ في إشارة إلى سبب خيانة يهوذا للرب يسوع: «ولكن منكم قوم لا يؤمنون لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون، ومن هو الذي يسلمه. فقال: لهذا قلت لكم إنه لا يقدر أحد أن يأتي إلي إن لم يعط من أبي» (يو ٦: ٦٤، ٦٥) معنى هذا أن السبب الأكبر وراء خيانة يهوذا ليسوع هو أنه لم يُعط من الآب أن يأتي. لقد تركه الله في تمرده كـ "ابن الهلاك" (يو ١٧: ١٢). لذلك من المؤكد أن يوحنا قد قصد بكلمة "الاجتذاب" في يوحنا ٦: ٤٤، ٦٥ أن تفهم على كونها حاسمة في توليد الإيمان.

الفصل السابع عشر

(1) Martin Luther, *Freedom of a Christian, in Three Treatises* (Philadelphia: Fortress Press, 1960), p. 284.

الفصل الثامن عشر

(١) في هذا الكتاب يحمل مصطلح "شرط" تعريف القاموس المبسط: "أمر ضروري لظهور أو حدوث أمر آخر: عنصر مسبق". وهو لا ينطوي على عدم اليقين من إتمام الشرط. ومثل هذا الادعاء سيتم التأكد منه من خلال السياق.

(2) For a justification of this interpretation see Piper, *The Pleasures of God*, pp. 153- 154, note 13.

(3) For a fuller discussion of this text see Piper, *The Pleasures of God*, pp. 130- 131; and

The Justification of God: An Exegetical and Theological Study of Romans 9: 1-23, 2nd edition, (Grand Rapids: Baker Book House, 1993), pp. 47- 74.

(٤) هذا هو معنى كلمة "يدعون" في متى ٢٢: ١٤. «لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون»، لكنه ليس نفس المعنى في كتابات الرسول بولس.

(٥) للحصول على شرح أوفى لدعوة الله غير المشروطة انظر الفصل التاسع.

(6) Quoted in Henry Bettenson, *Documents of the Christian Church* (London: Oxford University Press, 1967), p. 54.

(٧) انظر الفصل الثاني عشر، الحاشية رقم ٢.

الفصل التاسع عشر

(1) A much fuller collection of texts relating to the conditionality of future grace is given in Piper, *The Pleasures of God* pp. 291- 305.

(٢) أقول "تقريبًا" لأنه في أعمق جذور حياتنا تكون النعمة التي تبقينا طالبين لله عملاً إلهيًا غير مشروط تجعلنا نصبر إلى النهاية فنخلص. عندما نقارب على ترك الإيمان فإن الباعث الحاسم الذي يعيد قلوبنا لله هو قوة الله الحافظة والمستمرة. وهذا الأمر مشروط بمعنى أن الله ملتزم بأن يعمله فقط في أولئك الذين تبرروا بالإيمان. لكنه غير مشروط بمعنى أن البحث المستمر عن الله يعتمد أساسًا على قوة الله الحافظة، وليس العكس. لقد ألزم الله نفسه بأن يدعم المختارين بنعمة طلب الله في الصلاة، والتي بدورها تأتي بنعمة إضافية لإيفاء شرط الإيمان، مما يأتي بدوره بنعمة إضافية لإيفاء شرط القداسة وهذا يأتي بنعمة المجد النهائي الإضافية.

(٣) يشرح «هودج» لماذا علينا أن نعترف بالخطية يوميًا فيقول: "قال القديس أغسطينوس منذ أربعة عشر قرنًا خلت، ولازال هذا الحق ساريًا، إن كل خير أقل يحمل عنصرًا أساسيًا من الخطية. والآن، على سبيل المثال، هب أنك أحببت الله وأنه لا شيء في قلبك سوى محبة الله. لا يعني ذلك أنك لا تخطئ. أنت تقول: "أنا أحب الله ولا شيء في قلبي سوى محبته. أليست المحبة أمرًا صالحًا؟" نعم إذا كنت تحب الله من كل قلبك وفكرك وقدرتك وإنسانيتك. لكن إذا اعترى هذه المحبة أية نقيصة- إذا كانت نوعيتها أو كميتها غير كاملة، إذًا فهي تشترك في طبيعة الخطية، لأن أي خير ناقصًا ولو قليلاً وغير مكتمل هو من نفس طبيعة الخطية ذاتها. (*Evangelical Theology*, Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1976, pp. 300, 301).

الفصل العشرون

(١) أقول مثل هذا لأنه بالنسبة لأولئك الذين لم يُدعوا بعد ولازالوا في عدم الإيمان، فإن بعض النعمة المستقبلية غير مشروطة بالطبع، وخاصة ما يتعلق بدعوتهم من الظلمة إلى النور وتجديدهم. انظر الفصل التاسع.

(٢) انظر الفصل الثاني والعشرين لتعرف كيف يحدث الأمر في حياتنا الفعلية.

(3) This summary quote is taken from Nicky Gumbel, *Questions of Life* (Eastbourne, England: Kingsway Publications, 1993), pp. 47- 48.

(٤) بالقول إن الرب يسوع وثق في النعمة المستقبلية فإنني لا ألمح إلى وجود أي نقص في شخصه المبارك أو إلى أنه كان يحتاج للغفران. فهو الإنسان الوحيد الذي تمم كلية مطاليب الله وبالتالي كان قادرًا على أن يأخذ مكاننا كالبديل الذبيحي وممثلنا أمام الله القدوس. بيد أني أجد نفسي مترددًا في القول بأن طاعة المسيح في حياته وموته كانت تحقيقًا لـ "عهد أعمال". فهذا المصطلح بصورة عامة يتضمن أن "الأعمال" تقف في مقابل "النعمة"، وليست إتمامًا للإيمان بالنعمة. لذا فالأعمال تتضمن علاقة مع

الله تشبه الموظف الذي يحصل على أجرة أكثر من كونها صورة ابن يثق في كرم أبيه.

لقد شرحت بإيجاز في الفصل الخامس الطريقة التي أنظر بها إلى نعمة الله على كونها أساسًا لعلاقته مع آدم وحواء قبل السقوط. فأنا أرى المسيح، كآدم الثاني، متممًا لعهد النعمة (وليس الأعمال) هذا بصورة كاملة من خلال ثقته في بركة الله في كل لحظة ومطيعًا لكل وصاياه بالإيمان. لقد كانت علاقته مع الآب علاقة ثقة ثابتة. وكانت طاعته نتيجة لثقته. إن النعمة من نحو المسيح لم تكن مشابهة تمامًا للنعمة الموجهة نحو الخطاة الساقطين. فهو لم يخطئ قط (عب ٤: ١٥). إلا أنه في أيام جسده كان متكلاً على الله تمامًا كما نفعل نحن. ليس ذلك فقط، بل إنه حمل خطيتنا في شخصه (إش ٥٣: ٦). وهكذا فقد مارس الله نوعًا من النعمة في تجاوز لعنته على الخطية في سبيل تمجيد الرب يسوع.

قد يكون لهذا السبب قال الرسول بولس في فيلبي ٢: ٩ أنه لأجل أن المسيح قد أخلى ذاته كعبد حتى موت الصليب "رفعه الله وأعطاه (echarisatõ) اسمًا فوق كل اسم". كلمة "أعطى" يستخدمها الرسول بولس دائمًا (١٢ مرة) ليشير إلى العطية المجانية والغفران الذي يقدمه الله أو المؤمنون. إنها ليست الكلمة التي قد يتوقعها المرء إذا كان الله تربطه مع المسيح علاقة رب العمل بالموظف أو السيد بالأجير. وبشأن هذا النص (في ٢: ٩) يتفق «بيتر أوبريان» مع «بول فاينبرج» في القول بأن موت يسوع على الصليب قدم "بروح أزلي" (عب ٩: ١٤). وهكذا يخلص «فاينبرج» إلى أنه بينما كانت أعمال يسوع خاصة به وبينما كانت أساسًا لعمل الله، فإنها قدمت بروح أزلي وبالتالي فهي لا تمثل عقيدة للاستحقاق أو الأعمال. (Peter T. O'Brien, *The Epistle to the Philippians*, Grand Rapids, William B. Eerdmans Publishing Company, 1991, p. 234)

هذا الأمر لا يلغي عمل المسيح الإبدالي، كما أنه لا يقلل من شأن طاعته كأساس لتبريرنا وإعلان بر الآب. بل على العكس، فهو يقول إن الطاعة التي فشل آدم في ممارستها بالإيمان قد عاشها المسيح بالإيمان بصورة كاملة. وبهذه الصورة يكون المسيح دون شك النموذج الأكمل لنا في كيفية الحياة والمحبة بواسطة الإيمان بالنعمة المستقبلية، حتى لو أن النعمة بالنسبة له كانت امتيازًا أبويًا بدون حاجة لتجاوز نقص الخطية- إلا إذا كان المعنى هو تغاضي الآب عن الابن الذي حمل خطيتنا عليه.

(٥) يعبر «چيمس بوكانان» عن النظرة الإنجيلية الكلاسيكية عن كيفية ارتباط أعمال المحبة بالإيمان المخلص. "إن [الأعمال الصالحة] هي نتيجة الإيمان، وبالتالي فهي البرهان على الإيمان والتبرير كليهما. وكون هذه الأعمال ثمرة للإيمان يتضح من حقيقة أن «كل ما ليس من الإيمان فهو خطية» (رو ١٤: ٢٣) و«بدون إيمان لا يمكن إرضاء الله» (عب ١١: ٦)، و«غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء» (١تي ١: ٥). ومن الواضح كذلك أنها لكونها نتائج فإنها أيضًا البراهين على الإيمان الصادق والحي، لأن المرء قد يقول: لك إيمان ولي أعمال، أرني إيمانك بدون أعمالك وأنا أريك بأعمالي إيماني (يع ٢: ١٨)؛ وجميع الأعمال الصالحة التي تُنسب للمؤمنين في ظل العهد القديم، إنما مردها إلى عملية الإيمان [عب ١١: ٤، ٧، ٨، ١٧، ٢٣، ٣٢]. *The Doctrine of Justification*, (Edinburgh: The Banner of Trust, 1961, oris 1867), p. 357.

(٦) بالطبع في حالة شخص غير مجدد، فإنني لا أعني أن نعمة التجديد التي بالنسبة له تعتبر أمرًا مستقبليًا، تكون مشروطة بالإيمان والمحبة. وقد قمت بشرح ذلك في الفصل الثامن عشر. ما أشير إليه هنا هو كل بركات النعمة المستقبلية الموعود بها أولئك الذين اجتذبوا إلى الإيمان. فالاختبار المستمر لهذه البركات مشروط بالإيمان الذي يحب الآخرين.

الفصل الحادي والعشرون

(١) Jonathan Edwards, "The End of the Wicked Contemplated by the Righteous" *in The Works of Jonathan Edwards*, Vol. 2, (Edinburgh: Banner of Truth Trust, 1974), pp. 207, 208. في هذا الكتاب يستفيض إدواردز في شرح السبب في أن آلام الأشرار لن تسبب حزنًا

للأبرار، بل على العكس، فهو يقول: "من الوجهة السلبية، لن يكون السبب في ذلك أن القديسين في السماء معرضون للوقوع فريسة للأفكار الشريرة، بل على العكس من ذلك، فإن ابتهاجهم سيكون نتيجة لوضع محبوب وممتاز: فهو سيكون نتيجة لقداسة كاملة وتشبه بالمسيح، حمل الله القدوس. فالشيطان يفرح ببؤس البشر الناتج عن القسوة والحسد والانتقام، ولأنه يفرح بالبؤس في حد ذاته من موقعه الشرير.

"لكن انطلاقًا من مبادئ مختلفة تمامًا، ولأسباب مغايرة كلية، ستكون الدينونة العادلة للأشرار فرصة لابتهاج القديسين في المجد. لن يكون السبب هو أنهم يستمتعون برؤية بؤس الآخرين. فدينونة الأشرار والانتقام الإلهي لن يكونا فرصة لفرح القديسين، ليس فقط لأن ذلك يمثل بؤسًا للآخرين أو لأنه من الممتع رؤية بؤس الآخرين في حد ذاته... ولا يجب فهم الأمر على أنهم يستمتعون بالانتقام من هؤلاء الأشرار، لكنهم يبتهجون برؤية عدالة الله تتم، ورؤية محبته لهم تبتدئ في إنزال عدله بأعدائه.

"أما إيجابيًا، فإن آلام المدانين لن تكون سعاة لحزن سكان السماء لأنهم لن يملكون حبًا أو شفقة على المدانين في حالتهم هذه. لن يكون هنالك حافز من روح المحبة نحوهم لأن سكان السموات سوف يدركون عندئذ أنه ليس من المناسب أن يبدوا المحبة نحوهم لأنهم سيدركون إذ ذاك أن الله لا يبدي أية محبة أو شفقة حيالهم."

ويورد «إدواردز» الاعتراض بأنه إذا كان من الخير والصلاح أن نحزن على شر وضياع البشر الآن في هذا الدهر (رو ٩: ١- ٣؛ لو ١٩: ٤١)، فمن المؤكد أنه لن يكون جيدًا الشعور بنفس الأمر في الدهر الآتي. ويقول شارحًا: "إن دورنا الحالي هو أن نحب جميع الناس، رغم شرهم؛ لكن لن يكون من الواجب محبة هؤلاء الأشرار فيما بعد. فنحن مأمورون بأن نحب الأشرار وأعداءنا ومضطهدينا، لكن هذه الوصية لا تشمل القديسين في المجد بشأن المدانين في الجحيم. كما لا يتوافر نفس الشرط لذلك. فالآن علينا أن نحب الجميع بما فيهم الأشرار، فنحن لا نعرف إلا أن الله يحبهم. فأيا كان شر أي إنسان، إلا أننا لا نعرف الآن سوى أنه إنسان يحبه الله منذ الأزل، ولا نعرف سوى أن المسيح قد أحبه وذهب إلى الموت في حبه، وأن اسمه نُقش في قلبه قبل كون العالم وأنه كان يحتويه في قلبه عندما احتمل تلك الآلام المريرة فوق الصليب. نحن لا نعرف سوى أنه شريكنا في المجد إلى الأبد..."

"علينا الآن أن ننشغل بأمر خلاص الأشرار، لأنهم الآن يمثلون موضوع هذا الخلاص... فاليوم لا يزال يوم نعمة لهم ولهم كل وعود الخلاص. ولا يزال المسيح يسعى وراء خلاصهم داعيًا إياهم ومتوددًا لهم، فهو يقف على الباب ويقرع. وهو يستخدم الكثير من الوسائل معهم، فهو يدعوهم قائلاً: اقبلوا، اقبلوا، لماذا تموتون؟ لكن الأمر لن يكون كذلك في العالم الآتي: فهناك لن يعود الأشرار موضوعًا للرحمة. سوف يدرك القديسون أن إرادة الله هي أن يعاني الأشرار البؤس إلى الأبد. عندئذ سوف ينتهي دورهم في السعي وراء خلاصهم أو الاهتمام بكونهم بؤساء. وفي المقابل سوف يغدو دورهم الاحتفاء بإرادة الله ومجده. فإن دورنا ليس التأسف لأن الله قد أنزل عقابه بالشياطين الذين نعرف بالفعل إرادة الله من نحوهم في مصيرهم النهائي" (ص ٢٠٨- ٢١٠)

(2) Edwards, "The End of the Wicked Contemplated by the Righteous," p. 210.

(3) Edward John Carnell, *Christian Commitment* (New York: Macmillan Company, 1957), pp. 94- 95.

(٤) Thomas Watson, *Body of Divinity*, (Grand Rapids: Baker Book House, 1979, orig. 1692), p. 581. تعريف «واطسون» للغفران مفيد جدًا سواء لما يقوله أو لما لا يقوله. فهو يتساءل: "متى نغفر للآخرين؟" فيجيب قائلاً: "عندما نصارع ضد كل أفكار الانتقام، عندما نكون مزمعين ألا نفعل الشر مع أعدائنا بل نبغي لهم الخير ونحزن في مصائبهم ونصلي لهم ونسعى وراء المصالحة معهم ونظهر أنفسنا مستعدين في كل الظروف لأن نكون في عونهم" (ص ٥٨١).

(٥) تجري ترجمة الـ NASB كالتالي: «مسلمًا نفسه لذاك الذي يقضي بعدل» لكن كلمة "نفسه" لا ترد

في النص اليوناني الأصلي. فالعبارة ببساطة تقول: «مسلمًا لذاك الذي يقضي بعدل»

الفصل الثاني والعشرون

(1) Chapter 11, paragraph 2 on "Justification" Quoted from Schaff, *The Creeds of Christendom*, Vol. 3, (Grand Rapids: Baker Book House, 1977), p. 622.

(2) John Calvin, *The Epistle of Paul to the Galatians*, trans. T.H.L. Parker, (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Pub. Co., 1965), p. 96.

(3) Henry Skougal, *The Life of God in the Soul of Man* (Harrisonburg, Va.; Sprinkle Publications,1986, orig. 1677), p. 62.

الفصل الثالث والعشرون

(1) Henry Martyn, *Journal and Letters of Henry Martyn* (New York: Protestant Episcopal Society for the Promotion of Evangelical Knowledge, 1851), p. 460.

(2) I took these little summary vignettes from Clay Sterret, "Hanging Tough," *Faith and Renewal*, Vol. 16, No. 4 January/February, 1992, p. 19.

(3) The fact and quotes of this story of Evelyn Brand are taken from Paul Brand with Philip Yancy, "And God Created Pain," *Christianity Today*, January 10, 1994, pp. 22- 23.

(٤) أشدد مجددًا على أن الشكر رد فعل ثمين ولا غنى عنه لله في قلب الإنسان المؤمن. لكن، على خلاف الكثير من التفكير المنتشر، لا يصف العهد الجديد الشكر على كونه الدافع للخدمة. انظر الفصلين الأول والثاني.

(5) "While the throne of grace is open, and you yourselves not overwhelmed by the danger"- Henry Alford, *The Greek New Testament*, Vol. 4, (Chicago: Moody Press, 1958), p. 90. "At the divinely appointed time"- *Theological Dictionary of the New Testament*, Vol. 3., ed. G. Kittel, trans. G. Bromiley, (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Pub. Co., 1965), p. 462.

الفصل الرابع والعشرون

(1) Martyn Lloyd-Jones, *Spiritual Depression* (Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Pub. Co.,1965). P. 37.

(٢) المرجع السابق صفحة ٦.

(٣) المرجع السابق صفحة ١٠٩.

(4) Edwards, *The Life of David Brainerd*, ed. Norman Pettit, in *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. 7, (New Haven: Yale University Press, 1985), p. 64.

(٥) المرجع السابق صفحة ١٠١.

(٦) المرجع السابق صفحة ٩٣، ١٤١، ١٦٥، ٢٧٨.

(٧) المرجع السابق صفحة ١٨-١٩.

(8) Darrel W. Amundsen, "The Anguish and Agonies of Charles Spurgeon" in *Christian History*, Issue 29 (vol. 10, No. 1), p. 24.

(9) Charles Spurgeon, *Lectures to My Students* (Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1972), p. 163.

(10) Amundsen. "The Anguish and Agonies of Charles Spurgeon," p. 24.

(11) Lloyd-Jones, *Spiritual Depression*, p. 20.

(١٢) المرجع السابق صفحة ٢٠- ٢١.

الفصل الخامس والعشرون

(1) J.I. Packer, *A Quest for Godliness: The Puritan Vision of the Christian Life* (Wheaton: Crossway Books, 1990), p. 12. The story is told more fully in John Owen, *Sin and Temptation*, abridged and edited by James M. Houston, (Portland: Multnomah Press,1983), introduction, pp. xxv- xxix.

(2) Edwards, *The Life of David Brainerd*, ed. Norman Pettit, in *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. 7, (New Haven: Yale University Press, 1985), p. 278.

(٣) المرجع السابق صفحة ٢٤٦.

(٤) المرجع السابق صفحة ٣٦٦.

الفصل السادس والعشرون

(1) John Sailhamer, *The Pentateuch as Narrative* (Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1992), pp. 103-104.

الفصل السابع والعشرون

(1) Reported in the (Minneapolis) *Star Tribune*, July 22, 1993.

(2) This quote comes from Dabney's compelling essay on the necessity of good works (including sexual purity) in the light of free justification by grace through faith, Robert I Dabney, "The Moral Effects of Free Justification," in *Discussions: Evangelical and Theological* (London: The Banner of Truth Trust, 1967, orig. 1890), p. 96.

(3) "The Anatomy of Lust," *Leadership*, (Fall 1982), pp. 43- 44

الفصل الثامن والعشرون

(1) See the January issue each year of *International Bulletin of Missionary Research*.

(2) Albrecht Vogel, "Decius," in *Schaff-Herzog Encyclopedia*, Vol. 1, (New York: The Christian Literature Co. 1882), p. 620.

(3) *First Things*, Issue 48, (December, 1994), p. 82.

(4) *National and International Religion Report*, Vol. 9, No. 5, (Feb. 1995).

(5) *Christianity Today*, Vol. 39., No. 2, (Feb. 20, 1995), p. 58.

(6) Charles White, "Small Sacrifices," *Christianity Today*, Vol. 36, No. 7, (June 22, 1992), p. 33.

(7) Taken from the Foreword to Herbert Schlossberg, *Called to Suffer, Called to Triumph* (Portland: Multnomah Press, 1990), pp. 9-10

(٨) لمزيد من المعالجة لأهداف الألم في الحياة المسيحية وخاصة كيفية ارتباطها بإتمام أهداف الله في الكرازة للعالم انظر كتابي: *Let the Nations Be Glad: The Supremacy of God in Missions*, (Grand Rapids: Baker Book House, 1993), Chapter Three.

الفصل التاسع والعشرون

(1) See Ernest Becker, *The Denial of Death* (New York: Free Press, 1973).

(2) For Example, *The Nicene Creed*; *The Westminster Confession of Faith,* Chapter xxxiii, "Of The Last Judgment;" *The Belgic Confession,* Article xxxvii, "Of The Last Judgment;" and *The Second London Baptist Confession of Faith,* Chapter xxxii, "Of The Last Judgment."

(3) Quoted from Philip Schaff, *The Creeds of Christendom,* Vol. III, (Grand Rapids: Baker Book House, 1997, orig. 1877), pp. 435-436.

الفصل الثلاثون

(1) Jonathan Edwards, *Dissertation concerning the End for Which God Created the World,* in *The Works of Jonathan Edwards,* Vol. 1, (Edinburgh: Banner of Truth Trust, 1976), p. 100.

(2) See Oscar Cullman, "The Immortality of the Soul or Resurrection of the Body," in *Immortality and Resurrection: Death in The Western World-Two Conflicting Currents of Thought*, ed. Krister Stendahl, (New York: The Macmillan Co., 1965), pp. 9-53.

(3) Edwards, *End for Which God Created The World,* p. 120.

الفصل الحادي والثلاثون

(1) See, for example, the overview essay by B. B. Warfield, "Faith," in *Biblical and Theological Studies* (Philadelphia: The Presbyterian and Reformed Publishing Co., 1952), pp. 404- 445; and the extended meditation by Jonathan Edwards, "Concerning Faith," in *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. 2, (Edinburgh: The Banner of Truth Trust, 1976), pp. 578- 596.

(٢) راجع بوجه خاص الفصلين الخامس عشر والسادس عشر.

(3) Jonathan Edwards, "Concerning Faith," in *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. 2, (Edinburgh: Banner of Truth Trust, 1976), p. 583.

(٤) للتعرف على ارتباط الماضي بالنعمة المستقبلية راجع الفصول من السابع إلى التاسع.

(5) For a similar spiritual dynamic, see the great sermon by Thomas Chalmers (1780-1847), "The Expulsive Power of a New Affection" in *The Protestant Pulpit*, ed. Andrew Watterson Blackwood, (Grand Rapids: Baker Book House, 1977), pp. 50- 62.

(6) See Piper, *Desiring God*; Piper, *The Pleasures of God.*

(٧) انظر الفصول التطبيقية: الثالث، والسادس، والعاشر، والثالث عشر، والسابع عشر، والحادي والعشرين، والرابع والعشرين، والسابع والعشرين.

(8) "Miscellanies", #4, in *The Philosophy of Jonathan Edwards from his Private Notebooks*, Harvey G. Townsend, ed., (Westport, Connecticut: Greenwood Press, 1972, orig. 1955), p. 209. See also pp. 139, 244 for other complaints about the inadequacy of language.

(٩) قد تعني "محبة الذات" محبة الشخص لأي أمر يسره. مما يعني فقط أن محبة الذات هي استحسان المرء وتمتعه وابتهاجه بما يحبه ويسره؛ أو قد يكون المعنى أن يحب المرء ما يحبه. فأي أمر يحبه المرء، يسره. فإذا كان ذلك هو كل ما يقصدونه بمحبة الذات، فلا عجب أنهم يفترضون أن كل محبة تنضوي تحت محبة الذات. *The Nature of True Virtue* (Ann Arbor: The University of Michigan

Press, 1960), p.42f See also "*The Mind*," in *Scientific and Philosophical Writings*, Wallace E. Anderson, ed., *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. VI, (New Haven: Yale University Press, 1980), p. 337; *Charity and Its Fruits* (London: The Banner of .Truth Press), 1969, pp. 159f

(10) Edwards, *True Virtue*, p. 45.
(11) Edwards, *Charity and Its Fruits*, pp.157f.

(١٢) المرجع السابق صفحة ١٦٤.

(13) Edwards, *True Virtue*, p. 77.
(14) Norman Fiering, *Jonathan Edwards's Moral Thought in its British Context* (Chapel Hill: University of North Carolina, 1981), p. 196.
(15) Edwards, *Charity and Its Fruits*, pp.159.

(١٦) المرجع السابق صفحة ١٦٠.

(17) *Miscellanies*, # 530, p. 202.
(18) Fiering, *Jonathan Edwards's Moral Thought*, p. 161.
(19) Clyde A. Holbrook, ed., *Original Sin, The Works of Jonathan Edwards*, Vol. III, (New Haven: Yale University Press, 1970), p. 144; Charity and Its Fruits, p. 174.
(20) John E. Smith, ed., Religious Affections, *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. II, (New Haven: Yale University Press, 1959), p.249f.
(21) *Miscellanies*, #530, pp. 204f; see also Fiering, *Jonathan Edwards's Moral Thought*, p.160.
(22) See Jonathan Edwards, *Treatise on Grace*, Paul Helm, ed., (Cambridge: James Clarke and Co., 1971), p.49f.
(23) Fiering, *Jonathan Edwards's Moral Thought*, p. 162.
(24) Smith, *Religious Affections*, p.242.
(25) Ibid., p. 241. See also Edwards, *The Nature of True Virtue*, p. 44.
(26) Edwards, *Treatise on Grace*, p. 48f.
(27) Edwards, *Charity and Its Fruits*, pp. 161f.

(٢٨) المرجع السابق صفحة ١٦٤.

(29) *Miscellanies*, #397, p. 249.

(٣٠) راجع الفصل الثاني عشر: العلاقة بين محبة الله والإيمان بالله كحافزين للطاعة.

(31) Edwards, "Concerning Faith," p. 586.
(32) *Miscellanies*, #448, p. 133; see also #87, p. 128, and #332, p. 130 and #679, p. 138.
(33) Edwards, *End for Which God Created the World*, in *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. I, (Edinburgh: The Banner of Truth, 1974), p. 120.
(34) Edwards, *Charity and Its Fruits*, p.161.
(35) Edwards, "Resolution #6," in *The Works of Jonathan Edwards*, Vol. I, (Edinburgh: The Banner of Truth Trust), p xx. "Resolved: To Live with all my might, while I do live."

(٣٦) أدين بهذا الاقتباس إلى «دون ويستبليد» الذي نسخ عظة «إدواردز» غير المنشورة عن نشيد الأنشاد ٥: ١، وترد فيها هذه العبارة العقيدية: "لا ينبغي أن يضع الأشخاص أي حدود لشهواتهم الروحية."

انزع جذور الخطية

لا أحد يخطئ بدافع الواجب.. نحن نخطئ لأننا نريد أن نخطئ. الخطية تَعد بالسعادة، ونحن نبتلع الطُعم. وبالتالي كيف ننزع جذور الخطية من تربة حياتنا؟ لابد أن تُدفع عقوبة الخطية بدم يسوع البار، ولابد أن تَكسر شوكة الخطية بالاعتماد على وعود المسيح.

إن تأملات "جون بايبر" مبنية على أساس كتابي راسخ. ويكشف في كل فصل من فصول الكتاب -بعدد أيام الشهر- كيف تستطيع أن تكسر شوكة القلق والقنوط والحسد والشهوة والمرارة والضجر والغرور والخزي... وغيرها، من خلال امتلاك الوعود الإلهية.

"إن هدف جون بايبر من الكتابة هو إعادة إحياء الروحانية المسيحية التي تهاوت وتصدعت، التي لا تعرف سوى النعمة الرخيصة والإيمان الرخيص. بايبر يملأ بمهارة وإتقان، من خلال تشبعه بكلمة الله، ومحبته الشديدة لله، وإيمانه الإنجيلي العميق، وإنسانيته الشغوفة المتحمسة، الأبعاد المنسيَة للإيمان والرجاء والرضا والثبات والقداسة وتسبيح الله والاعتزاز به. هذا الكتاب مشبع ومليء بالحكمة.. يجب اقتناؤه وقراءته أكثر من مرة."

– جيه. آي. بيكر

"جون بايبر".. راعي كنيسة بيت لحم المعمدانية في مينابوليس بولاية مينيسوتا، منذ عام ١٩٨٠، وهو مؤلف ولاهوتي واسع الصيت. ولقد بيع من مؤلفاته أكثر من ٢ مليون نسخة. من بين هذه المؤلفات: "الاشتياق إلى الله" (Desiring God)، "آلام يسوع المسيح" (The Passion of Jesus Christ)، "كلمة الله نفذت إلى أعماقي" (Pierced by the Word)، "المتَع الإلهية" (The Pleasures of God)، "الحياة كبخار" (Life as a Vapor). حصل "بايبر" على درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة ميونخ، وعمل بالتدريس في مجال الدراسات الكتابية لمدة ٦ أعوام في كلية "بيثل" (Bethel College) قبل تعيينه كراعي كنيسة. متزوج من "نويل"، ولديهما أربعة أبناء وابنة واحدة.

0500010007

مطبوعات إيجلز

٢٣٠٠٠١٠
دار النشر الأسقفية
٣٨,٠٠